الربيع الأوّل

قراءة سياسيّة واستراتيجيّة في السّيرة النبويّة

وضّاح خنفر

جسور للترجمة والنشر

...   .

الربيع الأول

قراءة سياسية واستراتيجية في السيرة النبوية

وضاح خنفر

جسور للترجمة والنشر

الإهداء

أهدي هذا العمل إلى والدي الذي زرع في نفسي حب السيرة النبوية، وحثني على قراءة مصادرها الأولى مذ كنت طفلاً في المدرسة الابتدائية، رحمه الله رحمة واسعة وتقبله في الصالحين،

وأُهديه إلى أمي التي بفضل الله ثم بدعائها أتممت هذا العمل،

وإلى زوجتي التي ألحَّت عليّ لكتابة هذا الكتاب وأعانتني بالرأي والتشجيع سنوات طوالاً حتى اكتمل،

وإلى أبنائي الذين احتملوا انشغالاتي وغيابي، وكان دعمهم خير سند،

وإلى كل الساعين لربيع جديد.

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد جسور للترجمة والنشر

الربيع الأول: قراءة سياسية واستراتيجية في السيرة النبوية/ وضاح خنفر.
٣٩٨ص.
ببليوغرافية: ص٣٩٥ ـ ٣٩٨.
ISBN 978-614-431-763-1
١. السيرة النبوية. ٢. الإسلام ـ تاريخ.
297

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر جسور»

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لجسور

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٢٠

جسور للترجمة والنشر

لبنان ـ بيروت
josour.pub@gmail.com

المحتويات

المشهد الأخير ٩

مقدمة ١٣

مدخل ١٧

الفصل الأول: مكّة: المكان والمكانة ٣١

الفصل الثاني: العالم من حول مكّة ٤٧

الفصل الثالث: مكّة من الهامش إلى المركز ٨٣

الفصل الرابع: الاستثنائية القرشية ٩٩

الفصل الخامس: مكّة تخاصم المستقبل ١٢١

الفصل السادس: الهجرة نحو المستقبل ١٥٩

الفصل السابع: الاستراتيجية النبوية في المدينة ١٨٥

الفصل الثامن: أزمة قيادة في مكة ١٩٥

الفصل التاسع: الفرقان ٢٠١

الفصل العاشر: عهد أبي سفيان ٢٢١

الفصل الحادي عشر: أُحد: دروس في إدارة الأزمات ٢٢٩

الفصل الثاني عشر: الاستعداد للمواجهة الأخيرة ٢٥٥

الفصل الثالث عشر: الزلزلة ٢٦٧

الفصل الرابع عشر: انقلاب استراتيجي ٢٧٩

الفصل الخامس عشر: انبعاث أمة الإسلام ٢٨٩
الفصل السادس عشر: خيبر: آخر الحصون ٣١٥
الفصل السابع عشر: إيلاف المدينة ٣٢١
الفصل الثامن عشر: مخاطبة العالم الجديد ٣٣٣
الفصل التاسع عشر: الفتح الأكبر ٣٤٩
الفصل العشرون: الخير يسكن المستقبل ٣٧٧
ملحق الخرائط ٣٨٧
المراجع ٣٩٥

المشهد الأخير

الزمان: صبيحة الثالث عشر من رمضان عام ثمانية للهجرة، الموافق للرابع من كانون الأول/ديسمبر لعام ٦٢٩ للميلاد.

المكان: مكة، أمام دار الندوة.

بخطا متثاقلة في صباح بارد يتوافدون، يحتشدون أمام سيد قريش وكنانة، ويُحدِّقون بعيون حائرة في الرجل المتجهّم المنتصب أمامهم.

أبو سفيان متلحِفٌ بُردةً شامية سميكة، وعلى رأسه عمامة حرير سوداء غير منتظمة، لفّها على عجل، متكئٌ على عصاه، منحني الظهر، شديد الإعياء، يُحدقُ في الأرض ساهماً شارد الذهن.

اكتمل الحشد، على رؤوس الناس الطير. زفع أبو سفيان رأسه، نظر بعينٍ قلقة، تنحنح قليلاً، ثم قال بصوت متهدّج:

«يا معشر قريش! هذا محمد في عشرة آلاف عليهم السلاح، جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، لا طاقة لكم به...».

وبينما كانت كلمات أبي سفيان تبحث عن معنى، جَمُدَ الزَمَن، وانحبست الأنفاس، واضطرمت المشاعر، ليس لأنهم لم يعرفوا بأن الجيش المرابط على أبواب مكة هو جيش محمد ﷺ، بل لأنهم كانوا يأملون أن زيارة وفد قريش ليلة أمس لمعسكر المسلمين ستسفر عن حلٍّ ما؛ الآن أدركوا أنهم قد فشلوا في منع سقوط مكة، وليس أمامهم إلا الاستسلام.

لم يقطع الصمت الرهيب سوى هند بنت عُتبَة تصيح:

«يا أهل مكة اقتلوا الحَميْت الدَسِم الأَحمَس[1]، قُبِّح من طليعة قوم!».

يرد أبو سفيان على شتيمة زوجه موجّهاً حديثه للناس، ويرفع صوته بنبرة حاسمة:

«ويلكم لا تغرَّنَّكم هذه من أنفسكم، يا معشر قريش..».

قاطعه من بين الحشد صوتٌ متهكم:

«قَبَّحَكَ الله وافِدَ قَوم!».

واصل أبو سفيان كلامه من دون أن يلتفت إلى المعترض:

«يا معشر قريش، ويحكم! رأيتُ ما لم تَروا؛ رأيتُ الرجال والكُراع[2] والسلاح، فلا طاقة لأحد بهذا. إنه قد جاء بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن!».

يقاطعه صوت حانق: «قَبَّحَكَ الله، وما تُغني عنّا داركَ؟!».

فيتجاهله أبو سفيان ويُكمِل: «وَمَن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن».

ثم انسحب متمتماً يجرُّ إزاره، اخترق الجمع متجهاً إلى داره، من غير أن ينظر في عيون الناس.

تعالى في الجمع خليطٌ غير مفهوم من الكلمات والهمهمات، الناس بين مصدّق ومكذّب، وبين حائر وذاهل. منهم من يتعلل بالأماني، ومنهم من يتفطّر فزعاً. وبين الفريقين آخرون صامتون.

اضطرب الحشد، وماجت المشاعر، وتداخلت الأصوات، ولم يَثِب الناس إلى رشدهم إلا بعد صيحات دوَّت في أرجاء مكة: جيش محمد بذي طوى!

انفضّ الناس بأسرع مما اجتمعوا. دخل أكثرهم دارَه وأغلق بابه. السادة صعدوا في رؤوس الجبال، وآخرون جلسوا عند الكعبة، بينما تجمّع حول

(١) الزقُّ المنتفخ.

(٢) الخيل.

صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو جَمعٌ صغير غاضب يُقسم ألّا يَدخلها محمد عُنوة.

وتمر الساعات، وتتوالى الأحداث.

ويصل المشهد ذروته عندما أشرف النبي ﷺ من باب الكعبة على حشد الناس المجتمعين أمام البيت، الجاثين على الركب.. المنتظرين مصيرهم القادم، وفي رأس كلٍّ منهم سؤال واحد:

ماذا سيفعل بنا؟

ويُنصتون:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده..».

لماذا يصر دوماً على أن يُرجع الأمر كله لربه؟

ولكن ماذا سيفعل بنا محمد؟ هل سيعاملنا بمثل ما عاملناه به؟ هل سيثأر منا؟ هل سيصادر أموالنا كما فعلنا مع أصحابه الذين هاجروا معه، أم أنه سيقيم ملكه على أنقاض مآثرنا وتراثنا؟ هل انتهى أمر قريش التي لم يملكها أحد من قبل إلى أن تصبح تبعاً لملكٍ منتصرٍ يستأثر لنفسه ولقومه بكل أمر مكة، من سقاية الحجيج وسدانة البيت؟ وماذا يمنعه؟

يواصل محمد ﷺ، وهم يستمعون:

«ألا كُلّ مأثرةٍ أو دَمٍ أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

يتنفسون الصعداء..

هذا ليس منطق مَلِك مُتَغلِّب، فماذا يريد محمد إذاً؟ وما جديده الذي سوف يستبدل به قديمنا؟

يواصل:

«يا معشر قريش: إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعاظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]».

الناس من آدم، وآدم من تراب!

الناس، كل الناس، بمن فيهم نحن ممن أخرجناه وعاديناه؟

أم أنه سيستثني أولئك الذين أخرجوه من المسجد الحرام وقاتلوه؟

ثم يأتي السؤال الذي انتظره الحشد المطرق طويلاً:

«يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟».

وما إن ينتهي السؤال حتى ترتفع الرؤوس المُطرِقَة، وتحدِّقُ العيون المُنكَسِرةُ بالفاتح الواقف على باب الكعبة، ممسكاً بعضادتي الباب، وممسكاً معهما بكلِّ أمر قريش، وبمستقبل مكة، ومستقبل العرب. يرفعون أبصار الرجاء والمسكنة، آملين أن يعطف عليهم، فيردد بعضهم بصوت مضطرب: أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم!

ويحبسون أنفاسهم، بينما يتفرّسون في تعابير وجهه رجاء أن يستخلصوا منها مصيرهم قبل أن تنطق به شفتاه. فيشرق وجهه بالرضا، ويُشرق على وجوههم زمن مكة الجديد، وتأتي البشارة:

«أقول ما قال أخي يوسف: لا تَثْريبَ عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء!».

مقدمة

التاريخ حافل بسير شخصيات استثنائية من مختلف الحضارات والأعراق، أعادوا رسم خرائط العالم وبدَّلوا موازين القوة الاستراتيجية، وتشمل القائمة أباطرة وفاتحين وزعماء وثواراً، تجمعهم سمات مشتركة، وتفرقهم غايات وأهداف، لكن التاريخ خلّد ذكرهم، لأنهم قاموا بأعمال أدت إلى تغيير واقع أممهم، وأحياناً الواقع العالمي..

مثل هذه الشخصيات الاستثنائية تحتل عادةً مكانة رمزية مهمة في حياة الأمم التي ينتمون إليها، إذ يتحولون إلى مركز للهوية القومية وللتراث المشترك لأممهم، ويتم استحضار سيرهم في خطابها السياسي والثقافي، وتُقام لهم التماثيل، وتُسمى باسمهم المنشآت، وتدرّس سيرهم في المناهج الوطنية؛ ذلك أن الأمم في حاجة دائمة لتعريف ذاتها، وغالباً ما يكون مثل هؤلاء الرموز وسيلة مهمة لتعريف الذات القومية.

أكتب هذا وأنا أتابع الأزمة التي ثارت بين اليونان ومقدونيا، تصاعدت من جدل حول التاريخ إلى صراع سياسي، وفي مركز هذا الجدل تكمن شخصية الإسكندر المقدوني، الذي يفخر اليونانيون به، ويعتبرونه رمز وجودهم القومي، ويرفضون أن تدّعي دولة أخرى انتسابه إليها.

تقع مقدونيا التي ينتسب الإسكندر إليها في شمال اليونان بحدودها الحالية، أما جمهورية مقدونيا، التي أعلنت استقلالها تحت هذا الاسم بعد انهيار يوغسلافيا، فليست مقدونيا التاريخية، بل بعضاً منها، لذلك اعتبرت اليونان التسمية سرقة للتاريخ وللإرث اليوناني، وفي مقدمته رمز اليونان الأكبر: الإسكندر.

من جانبها ادعت مقدونيا انتساب الإسكندر إليها، وأقامت له نصباً كبيراً

في وسط عاصمتها «سكوبيه»، فثارت ثائرة اليونان، وأقرّ البرلمان قانوناً يمنع الاعتراف بجوازات سفر مقدونيا حتى تُغيّر اسمها، وحالت اليونان دون انضمام مقدونيا للاتحاد الأوروبي ولحلف الناتو، وتصاعدت الأزمة السياسية إلى أن اتفق الجانبان بوساطة دولية على صيغةٍ للحل تقضي باعتماد اسم جديد، هو جمهورية شمال مقدونيا.

الأمم تحتاج إلى رموز تاريخية استثنائية لبلورة مفهومها القومي، وتُستفَز إن حاول آخرون مشاركتها المُلكية التاريخية لهذا الرمز، ومن هنا نجد أن كثيراً من الشخصيات التاريخية تُعرَّف بنسبها القومي: داريوس فارسي، والإسكندر مقدوني، ويوليوس قيصر روماني، وجستنيان بيزنطي، وهكذا.

السِّمة الأخرى في مثل هذه الشخصيات أنها حققت مكانتها في التاريخ من خلال الإنجازات العسكرية. صحيحٌ أن بعضها حقق إنجازات معمارية وتشريعية واقتصادية، لكن ذلك جاء نتاج فتوحات عسكرية منحت القائد الشرعية والأموال اللازمة لتعزيز سلطته ومكانته. معظم تحولات التاريخ الاستراتيجية كانت نتيجة صراع على السلطة والثروة، وهذا ما نلاحظه في سير كثير من الرموز التاريخية الاستثنائية.

داريوس الأول، أو دارا الأول، والملقب بالكبير(١)، أعظم ملوك الإمبراطورية الإخمينية الفارسية، حقق إنجازات معمارية وتنظيمية مهمة، لكن السمة الأهم في فترة حكمه كانت الانتصارات والحروب التي شنها على مصر وأثينا ومقدونيا ووسط آسيا.

أما الإسكندر المقدوني، الملقب بالأكبر(٢)، فقد استطاع أن يؤسس، وهو في الثلاثين من عمره، أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم بعد حياة عسكرية حافلة بالانتصارات على الفُرس وفتوحات في الهند وآسيا الوسطى ومصر.

أما يوليوس قيصر(٣)، فلم يكرّس مكانته في التاريخ الروماني إلا بعد انتصاراته الواسعة في منطقة الغال وتوسيع رقعة الدولة الرومانية في ذلك

(١) تولى الحكم (٥٢١ ق.م ـ ٤٨٦ ق.م).
(٢) تولى الحكم (٣٣٦ ق.م ـ ٣٢٣ ق.م).
(٣) تولى الحكم (٤٩ ق.م ـ ٤٤ ق.م).

الوقت، ما مكنه من إملاء شروطه بالقوة على مجلس شيوخ روما، وفرض نفسه ديكتاتوراً على الجمهورية، ما أدى بعد مقتله إلى انتهاء الحقبة الجمهورية وولادة الإمبراطورية الرومانية.

أمّا الإمبراطور جستنيان الأول[٤]، ويُلقب بجستنيان الكبير، فقد وسّع هو الآخر رقعة الإمبراطورية عبر سلسلة من المواجهات العسكرية، واستعاد السيطرة على روما ومعظم الأراضي التي كانت الإمبراطورية الرومانية الغربية قد خسرتها للجرمانيين؛ كما أنه قمع انتفاضة شعبية في القسطنطينية عام ٥٣٢م راح ضحيتها ٣٠ ألف مواطن، وهو الذي تُنسب إليه أهم إصلاحات قانونية في الدولة البيزنطية.

ما يستوقفنا في استعراض هذه الشخصيات الاستثنائية الأربعة أنها بالفعل غيّرت خرائط العالم استراتيجياً، وعدّلت موازين القوة، وهي في ذلك استخدمت نهجاً مشتركاً، قوامه الفعل العسكري الذي أدى إلى تعزيز السلطة وتعظيم الثروة، مع انتماء قومي أو إمبراطوري محدد.

في البعد الاستراتيجي، حقق النبي محمد عليه الصلاة والسلام انقلاباً استراتيجياً عالمياً سريعاً وجذرياً، لكنه يختلف عن الشخصيات التي ذكرنا بشكل جوهري؛ إذ إن منهجه الاستراتيجي لم ينطلق من مركزية السلطة واحتكار الثروة، كما أنه لم يصدر في فعله ذاك عن منطلق قومي أو طموح إمبراطوري، ومن هذا البعد تكمن فرادة الفعل النبوي استراتيجياً.

في الفصول التالية، سنحاول دراسة المنهجية الاستراتيجية للنبي، من خلال النظر في التصرفات الاستراتيجية له، وصولاً إلى فتح مكة؛ ونقصد بذلك كل فعل أو قول تم في سياق العلاقات مع القوى والقبائل والأفراد المختلفين، ويشمل ذلك الاتصالات والمراسلات والتحالفات والبعثات العسكرية من سرايا وغزوات، والعلاقات بين المدينة والكيانات السياسية العالمية والإقليمية، والمواقف تجاه القبائل المختلفة من تحالفات ومخاصمات؛ ويشمل الخطاب الإعلامي الصادر عن النبي أو أصحابه، سواء أكان مقولات مباشرة للنبي نفسه أم حَمَلة رسائله أم قادة جنده أم مواقف عبّر عنها الناطقون باسم المدينة شعراً، مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

---

(٤) تولى الحكم (٥٢٧م ـ ٥٦٥م).

سنبدأ برسم ملامح استراتيجية لمكة، فننظر فيها موقعاً ومكانةً وسياسةً واقتصاداً، ونطلّ على إيلافها العابر للحدود، وعلى تركيبتها القبلية وصراعاتها الداخلية، ثم نرسم خارطة استراتيجية واقتصادية للعالم من حول مكة، ونستعرض موازين القوة الدولية والإقليمية قُبَيل البعثة النبوية، ثم ننظر في واقع جزيرة العرب مع نهايات القرن السادس الميلادي، وبناها الاجتماعية والدينية.

سنتلمس بعدها بدايات المنهج الاستراتيجي للنبي في السنوات الأولى للبعثة، ثم في محاولاته البحث عن سلطانٍ نصير، وصولاً إلى يثرب، وكيف انتقلت منْ قرية يمزّقها الصراع إلى مدينة تحفل بالنظام والمبادرات، وبرؤية استراتيجية شجاعة، أسست في سنوات قليلة إيلافاً جديداً ينافس إيلاف مكة المتهالك.

وسنستعرض نظرياً ثم عملياً كيف أن النهج الاستراتيجي للنبي كان متميزاً في مواجهاته العسكرية وفي تحالفاته السياسية وفي البنية النفسية المصاحبة للتدافع، وكيف أنه تميز بأولوياتٍ واضحةٍ ونسقٍ كليٍّ ناظمٍ وتقديرٍ دقيقٍ لموازين القوة وقدرةٍ عاليةٍ على الاستشراف.

سوف نرى كيف أن الرسالة التي حملها كانت هي المركز الفعلي لكل حركاته وسكناته، وهذه الرسالة هي التي ولّدت في تفاعلها مع الواقع الاستراتيجي والسياسي منهجاً مختلفاً عن المناهج التي عهدها العالم سابقاً، وكيف أن هذا المنهج الفريد حقق بالفعل نجاحات فائقة في عالم من الصراع والتفكك وغياب الغاية، فجاءت الرسالة لتقدم عالمية إسلامية جديدة، وتُطلق عهداً من تحرير الإنسان، وكسر أغلال الاستبداد والتسلط والاحتكار.

يعيش العالم اليوم تحولات كبرى، تطال مناحي الحياة كافة، وعلى رأسها التحولات السياسية والاستراتيجية. وبينما نتلمس جميعاً ملامح المستقبل الذي نريد، ونفتِّش عن المنهج الذي يَحمِلنا إلى برِّ الأمان، أضع بين أيديكم هذا العمل، فهو نتاج نظرٍ في السيرة النبوية من زاوية سياسية واستراتيجية. وهذه بداية متواضعة، أرجو أن يلتقطها الباحثون والمهتمون فيواصلوا المسير.

أشكر كل الأصدقاء ممن تفضلوا عليَّ بالنظر في مسودة هذا الكتاب، وأثروه بالآراء والتعليقات والتصحيح، لهم جميعاً التحية والعرفان.

أما بعد، فالحمد لله أولاً وآخراً، وهو الهادي إلى صراطٍ مستقيم.

٢٣ رمضان ١٤٤٠ للهجرة،

الموافق ٢٨ أيار/مايو ٢٠١٩م

مدخل

الرسالة والمنهج

التكليف السماوي لمحمد بن عبد الله ﷺ يتسم بالفرادة؛ ذلك أنه التكليف النهائي والأخير في العلاقة المباشرة للوحي مع الناس، عُموم الناس، فهو آخر رسول للعالمين، ليس بعده نبي مرسل، وهو نبي لا لقومه فحسب بل للبشر كافة.

في هذين التكليفين معانٍ كثيرة؛ **أولها** إعلان إلهيٌّ بأن البشرية قد وصلت لحظة نضج فارقة، ستتمكن خلالها من حمل المنهج بصيغته التامة المكتملة، وتمضي به قدماً من دون حاجة لتنزيل سماوي جديد؛ والمعنى **الثاني** أن البشرية مقبلة على عالمية تتجاوز القوم والعشيرة والجنس واللون، وهي بذلك تحتاج خطاباً عالمياً ليس مقتصراً على فئة دون أخرى.

وهكذا فالرسالة المحمدية في ذاتها تحمل أخباراً طيبة للبشرية؛ فهي إعلان عن بدء مرحلة النضج الإنساني الذاتي ومرحلة العالمية. ارتقاء البشرية إلى مرتبة الوعي التراكمي والفهم العالمي يؤهلها لتُخاطَب بدعوةٍ عالميةٍ عابرةٍ لحُجُب المكان والزمان، عابرةٍ للمكان بتصنيفاته القومية واللغوية والعرقية، وعابرةٍ للزمان المؤقت المعبر عن احتياجات وضرورات مرتبطة بعهد بعينه..

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لم يكن هذا البيان الإلهي الموجه لعموم الناس مجرد إعلان عن ابتعاث نبي كأسلافه من الأنبياء، فالأنبياء ممن سبقوا محمداً أُرسل كل منهم إلى قومه خاصة، وكانت رسالته خطاباً مباشراً لواقع أولئك القوم في زمن معين، فإذا

طال عليهم الأمد بعث الله سبحانه نبياً آخر يجدد العهد ويُسقط التحريف والخلل، وهكذا دواليك؛ فلما وصلت البشرية إلى درجة من التواصل والترابط والاعتماد المتبادل على بعضها في الأفكار والمعايش والمصالح، وصار من العسير على العالم أن يبقى منتمياً إلى مركزيات حضارية منغلقة ومتباعدة، يزعم كلٌّ منها امتلاكه للحق المطلق، ويرى الآخرين برابرة وهمجاً، كان لا بد من خطاب عالمي جديد، يمكّن الإنسانية من الانتقال إلى المستقبل بأمن وسلام، ويأتمنها على الدين الكامل، لتتفاعل معه وبه، وتمضي في دربها من دون الحاجة لتدخل سماوي بابتعاث أنبياء جدد.

مع مطلع القرن السابع الميلادي صارت النزاعات عبئاً ثقيلاً على الإنسانية، فأعملت في الحياة تخريباً وإرهاباً واستعباداً. وقتها صار جلياً أنه قد ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. وحتى تستعيد البشرية توازنها وتستأنف تطورها، كان لا بد من فلسفة وجود جديدة، ومن منهج يحدث انقلاباً عالمياً في الفكر والنظم، ثم يستمر صالحاً لهداية البشرية مهما تقدّم بها الزمان. كان لا بد من أن تنبعث دعوةٌ جديدة، عابرة للحدود، تسمو فوق قطبيات عالمية متقوقعة في المكان والزمان. كان لا بد من أن يُستبدل عالم ذلك الزمان فكراً ومنهجاً وروحاً، وأن تتحرر البشرية من القيود ومن الحدود لتنبعث فيها ثورة عالمية جديدة.

ومن هنا جاءت الرسالة الخاتمة نبتاً طبيعياً غير طارئ ولا غريب، لم تكن اختراعاً لا سابق له، بل هي رسالة أَلِفَت البشرية أصولها من قبل، لكنها انحرفت عنها مع مرور الزمان، فهي بعضٌ من التكوين النفسي والذاكرة الموروثة للناس، ولكنها ذاكرة مطمورة تحت ركام الزمان والمصالح والأهواء.

لقد جاءت رسالة الإسلام من غير قطيعة مع التراث الإنساني، بل وارثاً شرعياً للرسالات السماوية السابقة، لأنها كانت رسالات إسلامية هي الأخرى، ولكنها محدودة في الزمان والمكان، فجاءت رسالة محمد بن عبد الله على أنها الأصل المكتمل لتلك الرسالات، وجذرها التام، وأن ما مضى من رسالات وشرائع كان جزءاً منها وليس كلها، لأنه جاء في مراحل معينة من التطور الإنساني. أما الإسلام بطوره المحمدي فهو الدين الكامل بعدما اكتمل الوعي الإنساني وتهيأ لحمل الرسالة كلها. . ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

لقد أكد لنا الله ﷻ أن الأنبياء قبل محمد قد خاطبوا أقوامهم بالإسلام، أي بأصوله الكبرى من إيمان بالله واليوم الآخر، وبشرائع مناسبة لما هم عليه من حاجة ونضج؛ أما محمد ﷺ فقد جاء بالإسلام الكامل في أصوله، التام في شريعته، المناسب للالتحام بالوعي الإنساني، مبتدئاً من لحظة معينة في مكان محدد، والمضي فيه ارتقاءً نحو عالمية عابرة للحدود، منفتحة على المستقبل، لا تحتاج أصولها تعديلاً ولا تصحيحاً ولا إضافة.

الجديد في هذه الدعوة يكمن في أنها تعود بالناس إلى النسب الآدمي الجامع لهم جميعاً، وأن آدم من تراب؛ فهي إنسانية متجاوزة للانتماء المحدود، متعالية فوق ما يدور على الأرض من تحيزات منغلقة أوصلت البشرية إلى صدام ودمار؛ رسالة ترتقي بالحدود الدينية والثقافية والسياسية فوق مبدأ الصراع الحتمي الحاكم لحركة الإمبراطوريات والدول والتجمعات، وتقيم مكانها منظومة عالمية، جوهرها توحيدي، وأساسها أخلاقي.

والجديد أيضاً أنّ الرسالة ممتدة في الزمن إلى نهايته، فقد أخبر الله نبيه أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، لا نبي بعده، وأن رسالته ستكون آخر ما ينزِّل الله على الناس، وأنها لن يطول عليها العهد فتبلى، بل ستبقى حية متجددة صالحة لكل جيل. فالإسلام إذاً وفق هذا المنظور يسكن المستقبل، فكان لا بد من أن يكون نامياً متصلاً بالواقع منفتحاً على المستقبل. هنا جاءت معادلة فريدة من نوعها تزوّد الإسلام بقوة ذاتية دافعة في المسار الإنساني الصاعد في الزمن، هذه المعادلة هي تفاعل دائم بين الأصل الثابت والعقل الإنساني المتطور، بين النص الثابت والمعنى المتحرك، لتنتج فكراً حياً يوائم حركة الحياة في الزمان. فالإسلام من هذا المنظور كائن حي لا يتوقف نموه، ولا يفشل أبداً في تقديم حلٍّ لأية معضلة تواجهها الإنسانية في يوم ما. وإذا ما صادفنا مرحلة نشعر فيها بأن الإسلام في أزمة، فهذا يعني أن معادلة التفاعل بين الأصل والعقل قد اختلت؛ وبما أن الأصل كامل تام، فالعقل المكلف بالرسالة يعيش أزمة وجموداً، لا الرسالة في أصلها.

أسوة للعالمين

القارئ للسيرة النبوية يجد نسقاً متصلاً ومنسجماً في تصرفات النبي بالإمامة، يبرز في وضوحٍ دائمٍ للأولويات، وفهمٍ متجددٍ للتوازنات، وإحاطةٍ

متعمقةٍ بالخصوصيات، واطلاعٍ على الخلفيات التاريخية والذاكرة الموروثة للقبائل والمجتمعات، ثم بصيرةٍ نافذة في رؤية الشقوق الاستراتيجية بين الكتل المختلفة، وقدرة عالية على استخدام كل ذلك لبناء التحالفات وتشكيل الائتلافات.

ومع وعي تام بالواقع السياسي والاستراتيجي القرشي والعربي الممتد في الجزيرة، فإن النبي كان محيطاً بموازين القوى من حوله، سواء أكانت إقليمية مثل ممالك أطراف الجزيرة من غساسنة ومناذرة ويمنيين وأحباش، أم قوى دولية كالفرس والروم.

فلا غرو إذاً أن الاستراتيجية النبوية أحدثت تغييراً عميقاً ومفاجئاً في جزيرة العرب وزلزالاً استراتيجياً عالمياً في قطبية دولية مستقرة منذ ثمانية قرون، وجاء الانقلاب الاستراتيجي الإسلامي في زمن قصير؛ عقدين من الزمان، ليصبح في ذلك الأسرع والأهم في التاريخ الاستراتيجي الدولي.

لقد حفلت كتب السيرة النبوية بروايات متعددةٍ عن غزواته وتحالفاته وأقواله عليه الصلاة والسلام؛ إلا أن ذلك كله يبقى مادة أولية، تحتاج إلى تدقيق وتوثيق، وأن تنتظم في منهجية عامة، تربط الوقائع بعضها ببعض، تقرؤها في سياقها، لتستوي أمامنا نسقاً متماسكاً مكتملاً قوي البنيان، فنخلص من بعدها إلى فهمٍ عميقٍ لأصول الفعل الاستراتيجي النبوي.

ورأيت، وفقاً لذلك، أن أتعامل مع نصوص السيرة النبوية ذات البعد الاستراتيجي وفق مراجع كلية أربعة: **أولها** القرآن الكريم، والقرآن نصّ قطعي في ثبوته، وتناوله للأحداث التي وقعت أثناء البعثة عالية القيمة، دقيقة التعبير. ومن الضروري ربط أحداث السيرة النبوية المروية في وقت معين مع الآيات التي تنزّلت على النبي في المكان والزمان. وقد وافق الخطاب الإلهي مراحل الدعوة النبوية وتطور أحداثها، واستحضار آيات القرآن وفقاً لترتيب النزول ومناسبته مصدر معرفي غزير في فهم السيرة النبوية ومعرفة أحداثها وسياقاتها؛ كما أن النص الإلهي المُنزَّل في ذلك الوقت كان خطاباً للرأيْ العام كذلك، فيه مضامين توجيهية للنبي ولجمهور المسلمين، وفيه رسائل مفتوحة لغيرهم، فإذا استحضرنا هذه الرسائل التي تنزّل بها الوحي في وقت ما، وردود الفعل التي أحدثها البيان القرآني سياسياً واستراتيجياً، فهمنا السياق العام الذي تَنزَّل في أجوائه القرآن، واستشرفنا الأفق الاستراتيجي الموجِّه للفعل النبوي في تلك

المرحلة، وهو ما يعادل في عصرنا الحالي تحليل البيانات والنظر في خطابات الأمن القومي الصادرة عن السلطات العليا في الدول والحكومات بهدف التعرف على أولويات تلك الدول، وعلى رؤيتها لأمنها الاستراتيجي، ومواقفها السياسية، وتوجهاتها في علاقاتها وتحالفاتها، ونستشرف وفق ذلك موازين العلاقات الدولية المستقبلية.

أمّا **المرجع الثاني** فيكمن في التعامل مع وقائع السيرة النبوية الواردة في المراجع الإسلامية، مقارنة بالتاريخ المُدَوَّن في ذات الفترة لدى الأمم الأخرى كالفرس والروم والحبشة (دولة أكسوم) والحميريين وغيرهم؛ ذلك أن كثيراً من الوقائع ذات البعد الاستراتيجي التي تعاملت معها كتب السيرة النبوية قد وردت في كتابات تاريخية لدى هذه الأمم، لا سيما التاريخ الروماني، فقد اعتنى البيزنطيون بتأريخ سير أباطرتهم والحروب التي خاضوها وكثيراً مما وقع في الأقاليم التي خضعت للدولة البيزنطية، وما دار من علاقات مع الإمبراطوريات الأخرى، ويعيننا الاطلاع على هذه النصوص في تقدير المناخ الإقليمي والدولي للفترة المصاحبة للحدث المعين في السيرة، كما أن بعض التواريخ الحميرية مدونة هي الأخرى بخط المسند (نظام كتابة قديم تطور في اليمن جنوب الجزيرة العربية ما بين القرنين التاسع والعاشر قبل الميلاد)، ومثال عليها أربع كتابات عن معارك ذي نواس الحميري وحروبه ضد المسيحيين، اثنتان منها حملتا توقيعه، إضافة إلى روايات بيزنطية وبعثات وسفارات وُثِّقَت أحداثها ومروياتها منذ ذلك الزمن.

أما **المرجع الثالث** فيتمثل في قراءة الأحداث المنفردة في سياقٍ عام، عملاً بمبدأ ما عُرِف عن السياسة، من أن الاعتماد الحصري على المعلومات، وإن صدقت، يَفشل في فهم الحدث ودلالاته، فالمعلومة من دون سياقها لا تُقدِّم معرفة، وأتفق مع من قال إن المعلومات كثيراً ما تكون أكاذيب دقيقة، لأن المعلومة المنقطعة عن الدوافع والمسببات والجذور لا تفيد في فهم الواقع، بل كثيراً ما تشوش وتضلل، لا سيما أنها قد تكون موجّهة؛ فالرواة والمؤرخون بشر لهم أهواؤهم ومصالحهم وانتماءاتهم السياسية والمذهبية وتحيزاتهم الطبيعية، فقد ينقل الراوي أو المؤرخ الواقعة بدقة معلوماتية، لكنه يجعلها موحية بمعنى يميل هو إليه، فيتم توظيفها في سياق بعيد عن دلالات الحدث.

وعليه، فمن أجل فهم تجربة تاريخية واستخلاص العبر منها ينبغي أن نقرأ

ما لدينا من روايات ومعلومات في سياق منهج مركب، نستحضر فيه المقاصد الكلية للفاعلين، إضافة إلى تقييم دقيق لموازين القوى وللتحالفات، يصاحبه تقدير للموقف مبني على مصالح الأطراف المختلفة في وقت وقوع الحدث، واستحضار عناصر القوة والضعف، وكذا الفرص والمخاطر التي رآها الفاعلون في وقت الحادثة التاريخية المعينة.

المنهج الذي نتبنّاه يجعل من الحدث المنفرد جزءاً من كل، فيمنحه ذلك حياة ومعنى، ويعصمه من الاجتزاء أو التوظيف، ونستطيع بذلك أن ننتقل من المعلومة إلى المعرفة، فتتحرر الرواية التاريخية من القوالب اللفظية والدلالات الوصفية والإسقاطات السياسية لتستوي سردية كلية، تنسجم مع الفهم الشامل لروح السيرة ومقاصدها العليا وتنسجم مع سنن الحياة وموازين التدافع.

والمرجع الرابع يتمثل في شمولية النظر إلى الواقع الاستراتيجي، فموازين القوة الاستراتيجية لا تصنعها الجيوش والتحالفات فحسب، بل هي نتاج لعملية مركبة متعددة العناصر، يتداخل السياسي فيها بالاقتصادي والاجتماعي والديني، ويتفاعل الإقليمي فيها مع الدولي؛ ولذلك فإننا في محاولة رسم السياق الذي ولدت فيه الاستراتيجية النبوية وتشكلت، سوف نوسع دائرة النظر إلى الواقع بتشعباته وتعدد مساراته، فقراءتنا للسيرة في هذا الكتاب هي قراءة شاملة لكثير من هذه العناصر، وعليه فإنها قراءة تستوعب وقائع السيرة كما أوردها المؤرخون، وتتعداها إلى بحث في السياقات الاستراتيجية والاقتصادية والدينية التي سادت الإقليم والعالم عبر ثلاثة قرون.

مبادئ المنهج الاستراتيجي النبوي

تنزَّل التكليف السماوي على النبي الكريم في مكانٍ وزمان محددين، في مكة عام ٦١٠م، ومع أول التنزيل رسم التوجيه القرآني للنبي مجال التكليف في أنه رسول للبشر كافة وحتى قيام الساعة، ووصف غاية الرسالة أنها ليست إلا رحمة للعالمين. ولما كان هذان البعدان منغرسين في الطبيعة الأولية للتكليف، فإن الرسول سيبقى محافظاً عليهما، منطلقاً منهما، مستصحباً لهما في كل أقواله وأفعاله، وإلا فلن يكون قد قام بالتكليف على وجهه الأكمل.

التحدي الأكبر لهذا التكليف سيكون في المواءمة بين الفعل اليومي المتفاعل مع الوقائع والأحداث، وهو فعل تحدده ضرورات الزمان والمكان،

وبين الأفق الممتد في المستقبل اللامحدود؛ فالنبي وهو يتفاعل مع الواقع يعلم أنه يشرّع للمستقبل، فهو أولاً وأخيراً رسول رب العالمين، هذه هي وظيفته وغايته، وكل فعل يقوم به إنما يصدر عن هذا الأصل، والمواءمة بين التصرف القريب والأثر البعيد يصبح تشريعاً وسنة، وهذا لعمرك عبء لا يقوى عليه إلا من كان ذا حكمة بالغة وتبصُّر في العواقب بعيد.

وعندما نحاول استخراج أصول الفعل الاستراتيجي في السيرة، فإننا دوماً نستصحب مجال التكليف وغايته، لما لهما من تأثير مستمر على عقل النبي ونفسه، ومن ثَمَّ على تصرفاته وأفعاله.

المبدأ الأول الذي نراه حاضراً في المسار العام للسيرة هو أن المنهج النبوي الاستراتيجي كان إصلاحياً أخلاقياً، يتفاعل مع الخير الموروث ويزيح حُجب الشر المُفتَعل، يتمم مكارم الأخلاق ويأمر بالعرف، فهو منهج ليس فيه قطيعة مع تراث الخير، بل هو وارث له متمسك به، سواء أكان خيراً جاء به الرسل والأنبياء من قبله، أم خيراً جاء به الناس في أي زمن كان وعلى أية ملة كانوا، والسيرة حافلة بهذا المعنى، وسنستعرض بعضها في هذا الكتاب. والحديث الإيجابي للنبي عن حلف الفضول الذي انعقد في دار عبد الله بن جدعان في الجاهلية خير شاهد على ذلك، فالحلف تم بين مشركين ولكن لغاية نبيلة، رأى فيه النبي خيراً لو دُعِي له في الإسلام لأجاب.

المبدأ الثاني هو أن المنهج النبوي في الفعل الاستراتيجي لم يكن استئصالياً، ولا نجد فيه ما نجد عادة في سير القادة الذين خلّد التاريخ ذكرهم، ممن غيروا خرائط العالم عبر تحقيق النصر على العدو بأي ثمن.

لقد غير النبي العالم بالفعل، ولكن مع فارق جوهري، إنه كان يغير العالم من أجل رسالة ودعوة، لا من أجل هيمنة وسلطة؛ فقد حافظ على مبدأ التغيير الرسالي من دون دوافع انتقام ولا نوازع سلطة ولا احتكار ثروة. وطوال تعامله مع قريش ومع بقية قبائل العرب أراد لهم أن يكونوا شركاء في حمل الرسالة غير مهزومين ولا منكسرين. كان يهدف من استراتيجيته إلى أن يرفع شأنهم، ويحفظ كرامتهم، ويحررهم من أغلال الفكر والاعتقاد، فلم يكن يتمنى زوالهم ولا يرجو انقضاء وجودهم، وهو ما يؤكده قوله المتكرر في مناسبات عديدة: (اللَّهُمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)؛ وهذا المبدأ الرفيق المتأني كان حاضراً في كل استراتيجياته وخططه عليه الصلاة والسلام.

في الحديث المتفق عليه عن أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ أنها سألت النبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «**لقد لقيتُ من قومِك، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عَبدِ ياليلَ بنِ عبدِ كُلالٍ فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ ﵇، فناداني فقال: إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملَكَ الجبال لتأمُرَه بما شئتَ فيهم. قال: فناداني ملَك الجبال، وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملَك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئتَ؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يُخرِجَ الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً**»[1].

عندما انحاز النبي في تلك اللحظة العصيبة إلى هذا الرجاء، أن يكون جيل الأبناء مسلماً موحداً، فقد انحاز بالضرورة إلى **مبدأ ثالث** مهم، هو مبدأ التفاعل الطويل والتدافع المتدرج بدل الحسم الفوري؛ فعلى الرغم من الواقع المرير القاتم المسدود الآفاق في مكة، إلا أنه آثر الاستمرار في درب طويل شائك، ورفض مبدأ الحلول السريعة.

انحياز النبي للتفاعل الممتد يقتضي بالطبع استراتيجية تغيير ذكية بعيدة المدى، تضمن في نهايتها أن يُخرج الله من أبناء المشركين جيلاً جديداً يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً.

المبدأ الرابع للرؤية الاستراتيجية التي اتبعها النبي ﷺ في رحلته الطويلة التي استمرت ٢٣ عاماً: التفاؤل العميق، والتطلع الدائم نحو رحابة المستقبل بدل الانغماس في ضيق اللحظة الراهنة، والغرق في تفاصيلها، وهو ما زود النبي ﷺ بالصبر الاستراتيجي، وما يحتاجه ذلك من أناة وبُعد نظر.

عندما كان يدعو الله أن يُخرج من أصلاب المشركين من يعبد الله، فهو بذلك يتطلع إلى الجيل الجديد، جيل الشباب من أبناء زعماء قريش المستكبرين، ويقتضي استهداف الجيل الشاب استشرافاً دائماً للمستقبل وتخطيطاً

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم آمين، (١/ ٧٩٧)، رقم الحديث: ٣٢٣١؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، (٣/ ١٤٢٠)، رقم الحديث ١٧٩٥ واللفظ له.

لاحتياجاته وتحدياته، وتذكيراً مستمراً به، والخروج المتكرر من الانغماس النفسي في اللحظة الراهنة. فالإسلام في خطاب النبي يسكن المستقبل، وستعتنقه الأجيال القادمة، فلا بد أن يُلبي شوق هذه الأجيال في التطلع للجديد، والانفكاك من التقليد الأعمى للآباء. وهو منهج يخاطب أجيالاً أرهقتها الرتابة والسكون، باحثة عن فرصة تفتح أمامها الآفاق، أجيالاً ذات مرونة عالية وعقل منفتح على التعلم والمغامرة.

سنرى كيف أن النبي في كل مفصل استراتيجي كان ينحاز لهذا المنهج نصاً وروحاً ومن دون تردد، حتى ولو كلفه ذلك غالياً؛ فقد انحاز في معركة أُحد لرأي الشباب مع أنه شخصياً كان يرغب في الإقامة بالمدينة، وهو ما وافقه عليه الشيوخ من كبار الصحابة، وكان لقراره هذا تبعات أمنية مباشرة عندما تذرع زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بهذه الحادثة فانسحب بثلث الجيش قُبَيل المعركة، قائلاً إنه - أي النبي - «عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له».

المبدأ الخامس أن استراتيجيته عليه الصلاة والسلام كانت تقوم على المبادرة والإقدام دون التقوقع في المربع الذي يحدده خصومه. كان يفاجئ الجميع ويخطو الخطوة التالية، فتُربك خطوتُه المشهد وتضع أعداءه في حالة رد فعل، وأمثلة ذلك كثيرة؛ فلما تيقن النبي أن الملأ من سادة قريش قد جَمَدوا واستكبروا وانحازوا نهائياً نحو تكذيب الدعوة، عندها بدأ يفكر خارج المربع القرشي، فاتجه نظره صوب المدينة الثانية الأبرز في الحجاز بعد مكة، فكانت زيارته للطائف استكشافاً لآفاقٍ جديدة، وعندما انغلق مسار التفاوض مع زعماء ثقيف، لم يتراجع ولم ينهزم، بل استعاد المبادرة بدخولٍ عزيز إلى مكة تحت جوار المطعم بن عدي ليستأنف البحث عن حلفاء جدد، فيتواصل مع زعماء القبائل في الحج وصولاً إلى العقبة الأولى ثم الثانية فالهجرة.

وما إن يحط رحله في المدينة حتى يبادر إلى رصّ الصف الإسلاميّ من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ثم الصف المدني من خلال الصحيفة. وما إن استقر به المقام في عاصمته الجديدة حتى بادر إلى اعتراض قوافل قريش مثيراً الفزع في نفوس المشركين من انهيار طرق التجارة التي تربطهم بالعالم. وعندما احتاج الأمر إلى تنقية الجبهة المدنية، لم يتردد في المبادرة بإجلاء بني النضير وبني قينقاع. وعندما أصيب جيشه بانتكاسة في معركة أحد، بادر إلى الخروج في إثر المشركين قبل أن يتوقف نزف جروحه.

وعندما أرادت قريش استئصال المسلمين في الخندق وحشدت أكبر جيش في ذلك الزمان، فاجأها بالخندق فأربك خطط المشركين العسكرية. أما قبائل البادية من الأعراب، فقد أربكها بغاراتٍ مفاجئة، ولم يترك مجالاً لها كي تبادره بهجوم. ولما استنزفت قريش خياراتها العسكرية بعد فشلها الذريع في الخندق، كانت مبادرته الكبرى في الحديبية، عندها استطاع أن يقلب قواعد اللعبة السياسية، وأن يفاجئ قريشاً بما لم تتوقعه، ويُلجئها للصلح المؤسس لاعتراف تامٍّ بكيان الدولة المسلمة. ثم بادر بعدها إلى التواصل مع القوى الخارجية من خلال سفرائه إلى ملوك العالم القديم، ومن خلال رسائله العسكرية إن لزم الأمر، مثلما كانت مؤتة.

المبدأ السادس هو أنه لم يكن يسمح لجبهته الداخلية بالتشظّي والانقسام؛ فقد كان على الدوام حريصاً على تماسك الصف وتوثيق التحالفات وبناء الائتلافات، ليس ذلك بين المؤمنين من أصحابه فحسب، بل ومع مجتمع المدينة وشركاء الوطن من غير المسلمين كذلك. إنه المبدأ الذي لخّصه بعبارة واحدة عندما اقترح عُمر قتل زعيم المنافقين فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ: «فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِيمٌ هُنَاكَ، إذِ اقْتَتَلَ عَلَى الْمَاءِ جَهْجَاهُ بْنُ سَعِيدٍ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ أَجِيراً لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، وَسِنَانُ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حَبَّانَ، قَالَ: ازْدَحَمَا عَلَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلا، فَقَالَ سِنَانٌ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، وَقَالَ الْجَهْجَاهُ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ وَنَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَلَمَّا سَمِعَهَا، قَالَ: قَدْ ثَاوَرُونَا فِي بِلادِنَا، وَاللهِ مَا عِزُّنَا وَجَلابِيبُ قُرَيْشٍ هَذِهِ، إلا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى مَنْ عِنْدَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَ: هَذَا مَا صَنَعْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، أَحْلَلْتُمُوهُمْ بِلادَكُمْ، وَقَاسَمْتُمُوهُمْ أَمْوَالَكُمْ، أَمَا وَاللهِ لَوْ كَفَفْتُمْ عَنْهُمْ، لَتَحَوَّلُوا عَنْكُمْ مِنْ بِلادِكُمْ إلى غَيْرِهِمْ؛ فَسَمِعَهَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، فَذَهَبَ بِهَا إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ غُلَيِّمٌ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ: خُذْ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ، فَلْيَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ ﷺ: «**فَكَيْفَ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ يَا عُمَرُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ، لا، وَلَكِنْ نَادِ يَا عُمَرُ فِي الرَّحِيلِ**»»(٢).

---

(٢) أبو بكر البيهقي، **كتاب دلائل النبوة** (بيروت؛ القاهرة: طبعة مشتركة بين دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ١٩٩٨)، ج ٤، ص٥٢.

وفي واقعة أخرى عن جابر بن عبد الله قال: «لما قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن بين الناس بالجعرانة قام رجل من بني تميم فقال: اعدل يا محمد! فقال النبي ﷺ: «**ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل**»، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: «**معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمداً يقتل أصحابه**»»(٣).

المبدأ السابع أنه كان حريصاً على عدم مواجهة الأعداء مجتمعين، فكان يعمل على تشتيت تحالفاتهم، وضرب وحدتهم، حتى إن اقتضى ذلك عقد صفقات مع بعضهم ولو مؤقتاً، كما فعل في الخندق عندما تباحث مع عُيينة بن حصن والحارث بن عوف، وهما زعيما غطفان، فعرض عليهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا ومن معهما، معللاً ذلك لسعد بن عبادة وسعد بن معاذ، سَيِّدَيْ الأوس والخزرج، بقوله: «إني رَأَيْتُ الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ شَوْكَتَهُمْ»(٤).

لقد كان ﷺ حريصاً على ألا يقاتل عدوين في معركة واحدة، فإذا فرغ من أحدهما واجه الآخر؛ فكان اعتراضه لقوافل قريش في السنة الأولى للهجرة بعد تحالفه مع اليهود ضمن صحيفة المدينة، وحارب قريشاً في بدر بعدما تصالح مع قبائل الساحل مثل ضمرة وجهينة وغفار، ولم يتخلص من بني قريظة إلا بعد انتهاء أمر الأحزاب وانحسار الخطر القرشي، ثم بعث سراياه ضد قبائل نجد ليبعدها عن المدينة فيأمن شرها بينما يتوجه إلى الحديبية، ثم جاء فتح خيبر بعدما حيّد قريشاً على إثر هدنة الحديبية، وهكذا.

المبدأ الثامن أن استراتيجيته كانت مرنة ومتعددة الأوجه، استخدم فيها القوة الصلبة والقوة الناعمة، كلّاً منها في موضعه، وعندما يحين أوانها. لقد اقتضت مصلحة المسلمين أن يعلنوا عن نفوذهم الأمني في المدينة بعد الهجرة مباشرة، فكانت الأولوية للتلويح بالقوة الصلبة المتمثّلة في السرايا والغزوات، فشاغل قريشاً واعترض قوافلها من دون قتال عاماً كاملاً. ثم كانت التحالفات مع قبائل الساحل مثل جهينة وضمرة وغفار لتشديد العبء الاقتصادي على قريش وإرباك تجارتها العابرة للصحراء. ثم عندما اقتضى الحال مواجهة

---

(٣) رواه أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، رقم الحديث: ١٤٥٢٦. وأصله في البخاري ومسلم.

(٤) البيهقي، **دلائل النبوة**.

عسكرية مباشرة قاد الرسولُ المسلمين إلى بدر، ثم دافع عن المدينة في أُحد. ولما استنزفت قريش خياراتها في الخندق تغيرت الاستراتيجية النبوية من الدفاع إلى الهجوم، مقترنة بالقوة الناعمة، فكانت الحديبية نموذجاً مختلفاً عمّا عهدته قريش وبنت عليه استراتيجيتها، إذ كانت نقطة تحول مهمة رسم ملامحها النبي ووضع قريشاً من خلالها في مأزق لم تستطع أن تخرج منه إلا بالتوقيع على اعتراف رسمي بالوجود الإسلامي.

كل ذلك في ست سنوات، ومع كل هذا الجهد الحربي والدبلوماسي كانت القوة الناعمة تواكب هذا الجهد وترافقه؛ فشعراء النبي، مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، يعملون ناطقين رسميين باسم المدينة، فيتفاعلون مع الأحداث، وينقلون للرأي العام في الجزيرة أفكاراً ومواقف وتوجهات؛ وبينما كان النبي يواجه سادة قريش والمتنفذين فيها، كان يوجه خطاباً رفيقاً لأهل مكة من المستضعفين، مثل ما وقع من موافقته على إطلاق تجارة القمح بين اليمامة ومكة بعد استجداء قريش للنبي في حادثة ثمامة بن أثال، ومثل البعد الأخلاقي الرفيع في تعامل المسلمين مع أسرى بدر، وتحريم التمثيل بقتلى المشركين حتى ولو كان وفق مبدأ التعامل بالمثل.

وسوف نرى كيف أن خُلقه القويم وتصرفه الحكيم كانا عاملين مهمين في وقوف «الأحابيش» ـ وهم الطبقة المهمشة في مكة ـ مع المسلمين في طلبهم دخول مكة للعمرة عام الحديبية، وفي ازدياد إعجاب عامة الناس بعدل النبي واحترامه لمبدأ المساواة في واقع قبلي يرفع شأن السادة بينما يمتهن الضعفاء.

لقد فُتِحت مكة أخلاقياً قبل أن تُفتَح عسكرياً، ولذلك لم يقاتل أهلها في عام الفتح، بل أشرعت أبوابها للنبي من دون خوف ولا فزع، ولا تحسُّب لنوازع الانتقام.

المبدأ التاسع أن قراءته الاستراتيجية للأحداث كانت منهجية موضوعية، تتضمَّن التزاماً دائماً بالأولويات، وقراءة دقيقة لموازين القوى، وتدبراً في المآلات، فكان يقدِّر لكل أمر قدره، ويُنزله منزلته، من دون انفعال ولا اندفاع.

يضع اللين في موضعه حتى تحسبه لا يعرف الصرامة، ويحسم في موقع الحسم حتى تحسب أنه لا يلين، وهو يصدر في ذلك كله عن قراءة دقيقة للمرحلة وظروفها ووزنها الاستراتيجي.

فبعد أن تحقق له أن بني قينقاع قد بيّتوا الغدر، حسم في أمرهم وقرر إجلاءهم عن المدينة، وهكذا فعل مع بني النضير؛ ولما رأى أن بني قريظة قد شاركوا بالفعل في مؤامرة اقتلاع الإسلام من المدينة، قرر استئصالهم؛ لكنه في أمر عبد الله بن أبي بن سلول لم يكن حاسماً، ولَم يقتله أو يأسره أو ينفِه، بل استخدم معه الرفق واللين. وكل ذلك عن وعيٍ عميقٍ بقدر وطبيعة الضرر الذي يمكن لكل طرف أن يوقعه بالمسلمين؛ فالقبائل اليهودية الثلاث كانت ذات خطر وجودي، وباشرت العمل على إيقاع الضرر بالمسلمين عسكرياً، فكان الحزم في أمرهم ضرورة؛ أما ابن سلول فكان يحرّش بين الناس، وينشر الإشاعات، ويؤلِّب على المسلمين، وكان له أنصار وأتباع، ومكانة رفيعة في الخزرج، لكن خطره لم يكن وجودياً، ذلك أنه كثير الكلام قليل الفعل، فقد وعد بني قينقاع وبني النضير أن ينصرهم، لكنه خذلهم ولم يفعل، وكان قادراً أن يسيطر على المدينة في أُحد بينما كان جيش المسلمين قد تفرق، لكنه لم يفعل؛ لقد كان ظاهرةً صوتية، وقدَّر النبي أن التعامل معه يكون باحتواء خطره واستمالة أتباعه وتفادي استثارتهم حميّة له.

وكذلك كان شأنه مع القبائل، فخزاعة حليف قديم للنبي يوادعها ويتواصل معها، لكن عندما حاول بطن من خزاعة الخروج على هذا الحلف، وهم بنو المصطلق، حاربهم وانتصر عليهم، ثم تزوج منهم وتصالح معهم. أما قبيلة ضمرة الواقعة على طريق قوافل قريش، فقاد لها أول غزواته، حتى إذا خضعوا من دون قتال أبرم معهم صلحاً. وكذلك فعل مع جُهينة، استمال قادتها وأدخلهم في النطاق الأمني للمدينة فصاروا أعواناً للمسلمين ضد قريش وقوافلها، وبذلك استطاع تحقيق هدف استراتيجي رئيسي وهو عرقلة قوافل قريش ومحاصرتها اقتصادياً.

أما غطفان فكان لها تقدير مختلف، فهي مجموعة قبائل بدوية، ضاربة في الصحراء، تحترف الإغارة والغزو، لذلك راوح في التعامل معها بين الشدة واللين، يستميلها بعروض الغنيمة ويصرفها بوعيد السيف، وكل ذلك في وقته ووفقاً لتقدير استراتيجي دقيق.

وقريش التي كانت الخصم المركزي للمسلمين، تدرّج في التعامل معها من الاستهداف الاقتصادي إلى الصدام العسكري ثم الهدنة؛ كل ذلك في موضعه وعندما حان أوانه.

الفصل الأول

مكة: المكان والمكانة

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]

الجغرافيا صنع الله في الأرض، أما التاريخ فهو فعل الإنسان في الزمان والمكان.

مكة في جغرافيتها صنعٌ إلهي. فقد اصطفى الله ذلك الوادي ليكون محضناً للبيت العتيق، ثم أرشد إليه إبراهيم عليه السلام، ليزرع الوجود الإنساني والكيان الاجتماعي الأول حول البيت. فالله سبحانه اختار المكان والمكانة، ولولا هذا الاصطفاء الإلهي لما نزلها بشر ولا ازدهرت فيها حياة، حتى إن إبراهيم ذاته وصف المكان ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وادٍ مجدب غائر في جوف الصحارى، متوارٍ بين الجبال الجرداء!

واليوم عندما ندرس هذا الاختيار دراسة استراتيجية وتاريخية عميقة، ندرك أنه بحق اختيار العزيز الحكيم، فما كان للرسالة الخاتمة إلا أن تولد في مكة، في ذلك الزمان وذلك المكان، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

نبدأ الحديث عن مكة مع مطلع القرن الخامس الميلادي؛ القرن الذي شهد ولادة الكيان السياسي والاجتماعي المعروف لدينا باسم قريش، ومعظم الروايات التي ينقلها الإخباريون عن مكة قبل مطلع القرن الخامس الميلادي مرتبطة بخيالات وأقاصيص وعواطف لا يُعَوّل عليها. وعلى الرغم من أن المصادر وكتب التاريخ تتفاوت أيضاً في ذكر التفاصيل الخاصة بأحداث القرن الخامس الميلادي في مكة، إلا أن بوسعنا أن نضع أيدينا على النقاط الأساسية المهمة التي أدت إلى ولادة قريش كبنية اجتماعية سياسية على يد الشخصية الأبرز في تاريخها، وهو قُصي بن كلاب.

قصي بن كلاب والاستثنائية القرشية

لا خلاف يُذكر بين المؤرخين على أن مكة التي بُعِث فيها النبي هي الكيان السياسي والاجتماعي الذي بناه جدُّه الرابع قُصيّ بن كلاب بن مرَّة بن فهر، ومع أنه من العسير الجزم بتاريخ مولده ووفاته، فمن المرجح أن ولادته كانت مطلع القرن الخامس الميلادي، وأنه عاش قريباً من ثمانين عاماً.

يصفه ابن عباس بأنه «شريف أهل مكة لا يُنازَع فيها»[١]. وهذا الشرف الرفيع إنما تحقَّق لقصي بسبب إنجازاتٍ كثيرة، لولاها لما كانت قريش التي نعرفها.

الإنجاز الأبرز لقصيّ هو أنه المؤسس الفعليّ لسيطرة قريش على مكّة وأخذها من يد قبيلة خزاعة؛ إذ ينقل الإخباريون أنّ والده كان قرشياً بينما كانت زوجته ابنة سيد خزاعة، حُلَيل الخزاعي، فلما توفِّي حُلَيل رأى قصي أنّه وقومه أحقُّ بأمر البيت والحرم، وهكذا ندب المجموعات القبلية المنتمية إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، التي عُرفت بقريش، وخاض بهم مواجهة مسلحة مع خزاعة انتهت بالتحكيم على عادة العرب وقتها، وعلى إثر ذلك حُكِمَ لقريش بالولاية على الحرم، بينما حُكم على خزاعة بدفع ديات القتلى الذين سقطوا في المواجهة بين الطرفين.

في تلك اللحظة من تاريخ مكة ظهر القرشيون على مسرح التاريخ العربي على أنهم سدنة الكعبة وجيران الحرم، ومن ذلك اليوم سيصبح لقريش شأنٌ عظيمٌ بين العرب، ويعودُ الفضلُ في ذلك لحنكةِ قصيّ ودهائه، فمن خلال تتبُّع الخطوات التي قام بها بعد السيطرة على مكة ندرك أنه كان ذا رؤيةٍ ثاقبة؛ فقد أدرك أنّ البيت الحرام هو المركز الأساس للوجود العربي في الجزيرة، ليس كنقطة إجماعٍ دينيٍّ فحسب، بل كمصدر جذب اقتصاديّ ونفوذٍ سياسيٍّ كذلك. ومن يتمكَّن من إدارة البيت فسيكون ذا منزلة ومكانة لا يطالها أحد غيره.

نفهم من النصوص التاريخية أن «قصيّاً» كان مدركاً للمنزلة الاستثنائية للكعبة، وأراد أن يضفي على قريش نفسها ذات الصفة، أي أن يجعلها استثناء بين القبائل؛ فبعد التحكيم مباشرة في الصراع بين قريش وخزاعة، بدأ بالخطوة

---

(١) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (لبنان؛ بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٩٠م)، ج ١، ص٥٨.

الأولى لتأسيس تلك الاستثنائية، فمنح قريشاً منزلة لم تصلها قبيلة من قبل، بما في ذلك خزاعة التي سيطرت على مكة قرنين أو ثلاثة؛ إذ جمع قريش من أطراف مكة ومن البوادي المجاورة والشعاب وأسكنهم بطحاء مكة في جوار الحرم، أي جعلهم جيراناً للكعبة، وهو أمر كان مستهجناً على ما ترويه المصادر، فلم يكن لأحد قبل ذلك أن يقيم في الحرم، إذ هو أرض مقدسة يدخلها الناس للطواف والاجتماع نهاراً، ثم يغادرونها إلى مساكنهم في التلال والشعاب ليلاً.

يقول اليعقوبي: «ولم يكن بمكة بيت في الحرم، إنّما كانوا يكونون فيها نهاراً، فإذا أمسوا خرجوا، فلما جمع قصي قريشاً، وكان أدهى من رُئِي من العرب، أنزل قريشاً الحرم، وجمعهم ليلاً، وأصبح بهم حول الكعبة، فمشت إليه أشراف بني كنانة، وقالوا: إنّ هذا عظيم عند العرب، ولو تركناك ما تركتك العرب. فقال: والله لا أخرج منه، فثبت»(٢).

ومن الواضح أن بناء قريش منازلها في الحرم، بخلاف من كان قبلهم، سيمنحهم شرفاً وميزة استثنائية على غيرهم، وسيرفع شأنهم فوق التصنيفات القبلية المعتادة المبنية على النسب والقوة والعدد؛ إذ لم تكن قريش أكثر القبائل عدداً ولا أشدها منعة، بل لم تكن وحدة قبلية متماسكة قبل قصي، فكان من ذكائه أن منحها منزلة تعلو على المعايير المتبعة في المقارنة بين القبائل وقتها، وجلها تقوم على التفاخر بعراقة النسب وكثرة العدد وشدة البأس، ولم تكن قريش لتنافس وفق هذه المعايير القبائل الأخرى؛ أما وقد صاروا جيران البيت وسدنته، فقد وضعوا معياراً جديداً لن تصله أية قبيلة أخرى، ومن أين لغيرهم مثل هذا الشرف الرفيع؟

هدف قصي من استيطان البطحاء لم يكن معنوياً فحسب، بل استراتيجياً بامتياز؛ إذ جمع بذلك شتات قريش من البوادي والشعاب والجبال، وأنزلهم جميعاً حول الكعبة، فجعل منهم عُصبة صلبة متماسكة، وعزز قوتهم ولحمتهم القبلية.

لكن هذه الخطوة الجريئة كانت منافية للتقليد المتبع فيما يخص البيت،

---

(٢) أبو العباس اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي** (النجف؛ العراق: منشورات المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤)، ج ١، ص٢٠٩.

وبما أن العرب ترى الكعبة رمزاً دينياً، فهي من ثَمَّ ليست مُلكاً لقبيلة بعينها، ولن يكون سهلاً أن تتَقبل خطوة قصي هذه. ويكشف النص الذي أورده اليعقوبي أن شيوخ كنانة ـ وهي القبيلة الأم التي تنتمي إليها قريش ـ استنكروا فعل قصي، ونبهوه إلى أنهم إن سكتوا عن هذا الانتهاك فإن العرب لن تقبل به، ولكن قصياً كان قد أعد لهذا الأمر خطة محكمة، تُقنع العرب بأن نزول قريش في جوار الحرم فيه مصلحة لهم، فإن رأوا ذلك ولمسوا فوائده تقبلوه وتعايشوا معه. وهنا نعود لنص اليعقوبي:

«وحضر الحج، فقال ـ أي قصي ـ لقريش: قد حضر الحج، وقد سمعت العرب ما صنعتم، وهم لكم معظِّمون، ولا أعلم مكرُمة عند الرب أعظم من الطعام، فليخرج كل إنسان منكم من ماله خَرجاً، ففعلوا، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، فلمّا جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزوراً، ونحر بمكة، وجعل حظيرة فجعل فيها الطعام من الخبز واللحم، وسقى الماء واللبن، وغدا على البيت فجعل له مفتاحاً وحجبة، وحال بين خزاعة وبينه، فثبت البيت في يد قصي، ثم بنى داره بمكة، وهي أول دار بنيت بمكة، وهي دار النَّدوة».

لقد انتبه قصي إلى أن شرعية قريش يمكن أن تتأكد إذا ما جعل من سيطرة قريش على الحرم منفعة مباشرة للحجيج، ففاجأ الحجيج بخدماتٍ فارهة لم يعتادوا عليها في زمن خزاعة: الطعام على أبواب مكة ترحيباً بالقادمين، الماء واللبن للعطاش ممن قطعوا الصحارى لأسابيع، ومعه تنظيم دقيق لشأن البيت، ونظام عام بمكة لم تعرفه العرب من قبل. عندها تمكن قصي من كسب الجولة، وتثبيت فائدة قريش وجدارتها برعاية البيت وخدمة حجيجه، ومن ثَّمّ فإن إقامتهم في البطحاء من حول الكعبة مبررة للقيام بالخدمات اللازمة، فلم يعترض عليها أحد.

المبادرة التالية لقصي كانت في تحويل الوجود القرشي إلى كيان سياسي منظم، فقد أسس لأول مرة في مكة نظاماً إدارياً متكاملاً، مؤسساً ما يشبه الحكومة التنفيذية، تدور وزاراتها حول الميزة الأبرز لقريش (جيران الحرم وسدنة البيت)؛ فقد جعل من إطعام الحجيج مهمة دائمة ووظيفة راتبة أطلق عليها (الرفادة)، وجعل من تقديم الماء واللبن وظيفة راتبة أخرى أطلق عليها (السقاية)، أما القيام على شأن البيت ورعايته فصارت وظيفة ثالثة هي (الحجابة)، وبنى قريباً من الكعبة داراً كبيرة جعلها مركزاً للحياة القرشية العامة،

وبرلماناً لسادة قريش ووجوههم، وأسماها (دار الندوة)، وصارت مقراً للحكم والرئاسة، وأسس وظيفة خامسة تتعلق بشؤون الحرب أسماها (اللواء). كل هذه الوظائف كانت تحت رئاسته المباشرة، فجعلت منه شخصياً الزعيم الأوحد لقريش. وعلى الرغم من أنه لم يطلق على نفسه لقباً ملكياً، إلا أن قريشاً، وكما أورد اليعقوبي، كانت «في حياة قصي، وبعد وفاته، يرون أمره كالدين المتَّبَع». وصارت دار الندوة مركز الحياة القرشية في كل مناحيها.

قال ابن عباس: «وفي داره (دار الندوة) التي جعل بابها إلى البيت، كان يكون أمر قريش كله وما أرادوا من نكاحٍ أو حربٍ أو مشورةٍ فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تَدَّرِعَ فما يشق درعها إلا فيها ثم ينطلق بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم ولا من قوم غيرهم إلا في دار الندوة يعقده لهم قصي، ولا يُعْذَر لهم غلام إلَّا في دار الندوة، ولا تخرج عِير من قريش فيرحلون إلَّا منها، ولا يقدمون إلَّا نزلوا فيها تشريفاً له وتيمناً برأيه ومعرفة بفضله، ويتّبعون أمره كالدين المتبع لا يعمل بغيره في حياته وبعد موته، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة وحكم مكة كله»(٣).

ومن إنجازات قصي التي تركت بصماتها على مكة، وضع أول تخطيط معماري للمدينة؛ إذ تم تقسيم أراضي مكة رباعاً، أي أحياءً، وزّعها على بطون قريش ليكون كل ربع حياً يسكنه ذلك البطن من قريش. وكان مما يُذكر له أنه جريء مبادر، إذ إنّ قريشاً عندما أقامت بالبطحاء حول البيت ضاق بهم البلد، فأرادوا أن يتوسَّعوا وأن يبنوا منازل جديدة، لكنّ العرف كان يقتضي ألا يُقطّع النبت أو الشجيرات التي تنمو في الحرم، فأمرهم قصي بقطعها لكي تُستصلح الأرض للبناء، فخافوا من عاقبة ذلك، فبادر هو بنفسه فقطع بعضها، ولما رأت قريش أنه لم يُصبه شرّ بادروا إلى استصلاح الأراضي وعمارة البلد.

توفّي قُصي وقد أدخل قريشاً كلها إلى الحرم، فسميت قريش البِطاح، والبطاح هي الأرض السهلة المنبسطة، بينما أقامت قبائل أخرى في البوادي والمرتفعات المحيطة بمكة، وأطلق عليهم قريش الظواهر، من بينهم فخذان اثنان فقط من نسب فهر آثروا حياة البداوة والغزو؛ غير أن قريش البِطاح هي التي ستقوم بالدور التاريخي القادم في سيادة العرب، حتى أُطلق عليهم

---

(٣) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**.

«أهل الله»، وصاروا «أدهى العرب، وأعقل البرية، وأحسن الناس بياناً»(٤).

يتجلّى دهاء قُصي وأهميته في التاريخ القرشي في أنه استطاع بناء قوة **سياسية وتنظيمية** راسخة، وكان واضحاً له أنّ سدانة البيت وخدمة الحجيج **يشكّلان** مرتكزاً أساسياً لبناء شرعيةٍ فريدة للسيادة والشرف، شرعيةٍ تتجاوز حدود الولاءات القبلية والانتماءات المركبة، لأنها شرعية خاصة بقريش، لا تمتلكها أية قبيلة أخرى، فالكعبة معظّمة عند العرب جميعاً؛ ومع أن بعض القبائل كان لديها بيوت أخرى تعظمها وتطوف بها، إلا أن البيت الحرام بمكة كان عابراً لحدود الجماعات والقبائل ومحل إجماع بين كل سكان الجزيرة. وكان لقصي أربعة أبناء: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، ورابعٌ سُمّي عبداً أو عبد قصي.

تشير الروايات التاريخية إلى أن قصياً قبل أن يُتوفى أوصى لابنه البِكر عبد الدار بالوظائف الخمس: الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة. ويذكر المؤرخون أن عبد الدار كان أضعف من بقية إخوته ممّن برزوا عليه في الشأن العام، فأراد أبوه أن يعزّز مكانته بمنحه الرئاسات جميعاً. ومع أنّ هذه الرئاسات اجتمعت لعبد الدار ولأولاده من بعده، إلا أنّ عبد مناف كان هو السيد الأبرز لقريش بعد أبيه، وهو الذي واصل تأسيس مكة وتخطيط أحيائها، فنظَّم مواطن سُكنى بطونها كما ورد في **الطبقات الكبرى**..: «لما هلك قصي بن كلاب قام عبد مناف بن قصي على أمر قصي بعده، وأمر قريش إليه، واختطّ بمكّة رباعاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه»(٥).

ونفهم من السياق العام للمراجع التاريخية أنّ عبد الدار، وعلى الرغم من وصيّة قصي له، كان ضعيفاً بالفعل، فلم يستطع القيام بأمر الزعامة الفعليّة لقريش، وهو ما أدّى إلى اضطلاع عبد مناف بها. وهنا حدثت ازدواجية في القيادة، فالزعامة الرسمية لعبد الدار والزعامة الفعلية لعبد مناف. وإذا كان عبد مناف قد استطاع التعايش مع هذا الواقع تقديراً لأخيه الأكبر واحتراماً لوصية أبيه، إلا أنّ المستقبل سيحمل صراعاً بين أبناء عبد مناف وأبناء عبد الدار

---

(٤) أبو منصور الثعالبي، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** (بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣)، ص١٨.

(٥) **الطبقات الكبرى**، مصدر سابق.

على هذه الرئاسات، وهو ما سيؤسِّس لأهم تحزُّبين في السياسة القرشية: حلف المطيِّبين وحلف الأحلاف.

بعد ذلك آلت زعامة قريش الفعلية لهاشم بن عبد مناف، فورث عن أبيه الرئاسة الفعلية لقريش وورث عن جده النباهة والحنكة التنظيمية وسعة الأفق. وتمثل الإنجاز الأكبر لهاشم في ترسيخ مكانة مكة كمركز للتجارة العابرة للصحراء في نهاية القرن الخامس الميلادي. ترسم لنا المصادر التاريخية صورة مأسوية عن وضع مكة الاقتصادي في تلك الفترة، وقبل بدء «الإيلاف» التجاري على يد هاشم، وهذا النص الذي يرويه المؤرخون شديد الوقع ومحمّل بكثيرٍ من الدلالات: «وكان أول من سنّ الرحلتين هاشم بن عبد مناف، وسبب ذلك أنهم كانوا يعتريهم خصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباءً وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً، ويسمى ذلك بالاعتفار (بالعين المهملة وبالراء. وقيل بالدال عوض الراء وبفاء)(٦). فحدث أنَّ أهل بيتٍ من بني مخزوم أصابتهم فاقةٌ شديدة فهمُّوا بالاعتفار، فبلغ خبرهم هاشماً، لأنّ أحد أبنائهم كان تِرباً لأسد بن هاشم، فقام هاشم خطيباً في قريش وقال: إنكم أحدثتم حدثاً تقلُّون فيه وتكثُرَ العرب وتذلُّون وتعزّ العرب، وأنتم أهل البيت الحرام والناس لكم تبعٌ، ويكاد هذا الاعتفار أن يأتي عليكم. ثم جمع كل بني أبٍ على رحلتين للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم»(٧).

وإذا كان قصي هو المؤسس للكيان القرشي، فإن هاشماً، بمبادرته وانفتاح عقله وحسن تدبيره، هو المؤسس للعصر الذهبيّ بمكّة؛ فهو الذي أخرجها من الفقر المدقع إلى العيش الكريم، وفتح أبواب التجارة الإقليمية أمام قوافلها، فخرجت مكة منذ ذلك الوقت من كونها قرية صغيرة نائية يزورها الحجاج من الأعراب إلى مدينة مطروقة مألوفة تذرعها القوافل العابرة للصحراء، المترعة بالبضائع، الناقلة للثقافات، الحاملة للحكايات والأخبار عن بلاد الفرس والروم وعن الحبشة واليمن؛ فغدت مكة حية متفاعلة بعد سبات.

---

(٦) اعتفر الشيء: أي تلوث بالتراب.

(٧) انظر أيضاً: **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط٢ (مصر: القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٦٤)، ج ٢٠، ص٢٠٥.

الإيلاف وبداية العصر الذهبي

تبدأ قصة الازدهار الاقتصادي لمكة وفق روايات الإخباريين عندما لاحظ هاشم أثناء رحلة تجارية إلى الشام أن أسعار البضائع مرتفعة كثيراً عمّا هي عليه في اليمن، فرأى فرصة تجارية ممتازة ستضع قريشاً على طريق الغنى والوفرة.

إذا درسنا الواقع الدوليّ في نهايات القرن الخامس الميلادي، وهي الفترة التي زار فيها هاشم الشام، يمكننا تفسير ارتفاع الأسعار في الشام ورخصها في اليمن بالعودة إلى حال التجارة العالمية في تلك الفترة، لا سيما حال الطرق التجارية الدولية التي تصل أسواق الصين والهند بالإمبراطوريتين العالميتين: الفرس والروم.

كانت أسواق الصين والهند أكثر الأسواق تأثيراً في الاقتصاد العالمي القديم، ونشأ عن ذلك شبكة من الطرق البرية والبحرية تربطهما بالإمبراطوريتين الفارسية والرومانية.

أطلق على شبكة الطرق هذه اختصاراً «طريق الحرير»، وهي ليست طريقاً واحداً، بل مجموعة طرق، أهمها طريق الحرير الشمالي ذو التأثير البالغ في التاريخ العالمي، والذي لا تزال الصين في زمننا تحاول إحياءه عبر مشروع اقتصادي عملاق.

عبر ألفي عام كان طريق الحرير الشمالي، وهو العابر من الصين إلى آسيا الوسطى ثم الدولة البيزنطية فأوروبا ـ أهم الطرق الدولية على الإطلاق، يمتد ستة آلاف كيلومتر، ويعبر أمصاراً وأمماً وشعوباً كثيرة، وتنقل قوافله بضائع شتى، أهمها الحرير الذي سُمِّيَ الطريق باسمه. ولكنّ الأمر لم يقتصر على الحرير، إذ حملت القوافل أنواعاً مختلفة من البضائع، كالبخور والعطور والأحجار الكريمة والتوابل وغيرها.

مشكلة طريق الحرير الشمالي أنه كان يخضعُ لعددٍ من السلطات، ويتأثر بمواقفها من بعضها البعض، وبالحروب والنزاعات التي تقع بين هذه الأطراف.

أمّا طريق الحرير الأوسط، فكان بحرياً، استفاد من الرياح الموسمية، ووصل الهند بالخليج العربي إلى البصرة، ثم براً عبر العراق التي تسيطر عليها الدولة الساسانية، فإلى الشام. وكان هذا الطريق أيضاً يختل ويضطرب عندما يحتدم الصراع بين الساسانيين الفرس والبيزنطيين.

الطريق الثالث هو البحري الجنوبي الواصل من الهند إلى عدن، وكان هذا الطريق تحديداً ينتعش كلما اضطرب الطريقان السابقان، فإذا احتدم الصراع بين القطبين الدوليين (الفرس والبيزنطيين)، تعطّل الطريق البري الشمالي والبحري الأوسط، وبقي البحري الجنوبي نشطاً.

في مطلع القرن الخامس الميلادي، كانت الصدامات بين القبائل التركية في آسيا الوسطى محتدمة، فأضرَّت بطريق الحرير الشمالي، كما كانت الصدامات المتتالية بين الفرس والروم البيزنطيين تُعطِّل طريق الحرير البحري الأوسط، فارتفعت أسعار البضائع المستوردة من حرير ولبان وبخور وأوانٍ ومنسوجات وغيرها. ولم يبقَ سوى طريق الحرير البحري الجنوبي، وكان يعبر من الهند باتجاه عدن، وكانت اليمن تحت الحكم الحميري، وتواصلها البحري مع الهند قديم جداً. وفي ظل الصراعات المتتالية بين الفرس والروم، كان هذا الطريق البحري أكثر استقراراً من الطريقين الآخرين، لأنه يتفادى نقاط التماس بين القوتين العظميين، فتكون تكلفة البضائع أقل.

في العادة تنقل السفن البيزنطية، أو الحبشية المتحالفة مع بيزنطة، البضائع من عدن إلى موانئ مصر على البحر الأحمر ثم إلى الإسكندرية براً ومنها إلى أوروبا، وتنقل سفن أخرى البضائع إلى ميناء أيلة، أو العقبة، ومنها براً إلى الشام، وبعضها إلى غزة ثم بحراً إلى أوروبا، وكان أكثر ما يُنقل عبرها البخور الذي يُستخدم في الطقوس الكَنَسيَّة، إلا أنّ الصدام بين القطبين الدوليين يؤدي أحياناً إلى تعطيل طريق البحر الأحمر أيضاً، فتتكدّس البضائع في ميناء عدن وتنخفض أسعارها.

في هذه الأثناء كانت ملاحظة هاشم التي سوف تغير واقع مكة؛ فالبضائع التي تصل إلى اليمن بحراً من الهند رخيصة نسبياً إذا ما قورنت بأسعار البضائع التي تُباع في الشام، فأدرك هاشم أنه إن تمكَّن من نقل البضائع من اليمن إلى الشام والعراق براً عبر مكة، فإنه سيتفادى نقاط الصراع والتوتر بين الإمبراطوريتين، وسوف تزدهر تجارة قريش وتثرى من خلال الفروق الكبيرة في السعر بين اليمن والشام.

مشكلة القوافل العابرة للصحراء هي أنها عُرضة لغارات الأعراب، والغارة أمر معتاد في جزيرة العرب، لكن مكانة قريش بين قبائل العرب وفَّرت لها فرصة نادرة لتوظيف هذه المكانة المعنوية من أجل تأمين قوافلها ضد الغارات؛

فالإيلاف الذي نسمع به، والذي ذكره القرآن الكريم في سورة قريش له جانبان؛ **الأول** اتفاق تجاري، يسمح بعبور التجارة القرشية إلى الشام واليمن والعراق والحبشة، وهذه دول لها حدود ونقاط عبور وضرائب، والتجارة في أراضيها تحتاج إلى ترخيص رسمي، وهو الإيلاف الذي سيحصل عليه هاشم وإخوانه؛ والجانب **الثاني** للإيلاف هو اتفاق مع قبائل العرب الواقعة على طول الطرق التجارية العابرة للصحراء، وإيلاف قريش مع هذه القبائل يحقق مصلحة للطرفين: قريش تحصل على تأمين قوافلها ضد الغارات، وبالمقابل تستفيد القبائل فائدة مباشرة بتحصيل رسوم حماية تدفعها القوافل لهذه القبائل، أو امتيازات تجارية تسمح للقبائل بالتجارة عبر هذه القوافل، فتبيع لها الجلود وتشتري منها الأواني والسلاح والألبسة؛ وهكذا سوف يصنع الإيلاف خارطة اقتصادية وسياسية جديدة في الحجاز وشمالي الجزيرة، وسيضع مكة في القلب منه. هذا الإيلاف سيكون مركزياً في فهم طبيعة الصدام الذي سينشب مستقبلاً بين دولة النبي في المدينة وقريش، وسيكون له بالغ الأثر في فهم خارطة التحالفات بين الطرفين مع القبائل الواقعة على طرق التجارة، وهو ما سيأتي تفصيله في موضعه.

وقد تعرض «الثعالبي» لتأثير إيلاف قريش على واقع مكة ومكانة قريش، فقال: «كانت قريش لا تتاجر إلا مع من وَرَدَ عليها من مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ، وفي الأشهر الحرام لا تبرح دارها، ولا تجاوز حرمها؛ للتحمُّس في دينهم، والحب لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بِمَا يصلحهم. وَكَانُوا بوادٍ غير ذي زرع كَمَا حكى الله تَعَالى عَن إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام حِين قَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فكان أول من خرج إلى الشام ووفد إلى الملوك وأبعد في السّفر ومرّ بالأعداء وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله، هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن ونحو الكسوم من الحبشة، ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم. وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل وسادات العشائر لخصلتين: إحداهما أن ذؤبان العرب وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا يؤمَنون على أهل الحرم ولا غيرهم، والخصلة الأخرى أن أناساً من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدراً، كبني طيئ وخثعم وقضاعة، وسائر العرب يحجُّون البيت ويدينون بالحرمة له. ومعنى الإيلاف إنما هو شيء كان

يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، ويحمل لهم متاعاً مع متاعه، ويسوق إليهم إبلاً مع إبله؛ ليكفيهم مؤنة الأسفار، ويكفي قريشاً مؤنة الأعداء. فكان ذلك صلاحاً للفريقين، إذ كان المقيم رابحاً، والمسافر محفوظاً؛ فأخصبت قريش، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة، وحسن حالها، وطاب عيشها. ولما مات هاشم قام بذلك المطلب، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام به نوفل، وكان أصغرهم»[٨].

من المعروف أن التجارة في جزيرة العرب قديمة، وأن الطريق البري العابر من اليمن باتجاه الشام يعود إلى قرون سابقة، إلا أن تنظيم هذا الطريق بإطار مؤسّسي مرتبط باتفاقيات تجارة عابرة للدول والقبائل كان من فعل هاشم وإخوانه من بني عبد مناف. ومما وصلنا من أخبار عن حال مكة قبل الإيلاف وبعده، فإن من الممكن القول إن الإيلاف الأول الذي تحصل عليه هاشم كان نقطة تحول في الحياة القرشية، فمكة الصغيرة القابعة في جوف الصحراء، التي يقوم اقتصادها المتواضع على رعاية شؤون الحجيج والتجارة بما يلزم لمواسمهم وأسواقهم، ستصبح عما قريب حاضرة التجارة البرية العابرة للصحراء والموصلة بين أسواق الشام والعراق واليمن والمزودة لها باحتياجات ضرورية وبأسعار أرخص وربح أكبر، والفضل في ذلك كله يعود إلى اضطراب الطرق الدولية التجارية الأخرى بسبب الصدامات الدائمة بين الفرس والروم.

بداية الإيلاف إذاً كانت مع هاشم، لكنه لم يكتمل إلا عبر السنوات التي تلت موته. الأرجح أن إيلاف هاشم كان مع السلطات التي تمثل الإدارة البيزنطية في الشام، وأنه في طريق عودته إلى مكة وقع اتفاقات مع سادة القبائل المحاذية للطريق التجاري الممتد من مكة إلى الشام.

توسع الإيلاف لاحقاً ليشمل مناطق أخرى إضافة إلى الشام، فقد أخذ بنو عبد مناف إيلافاً من النجاشيّ ملك الحبشة، ومن السلطات التي تمثل الساسانيين في العراق، ومن ملوك الحميريين في اليمن. وهكذا صار بإمكان قوافل قريش أن تجوب الصحراء آمنة مترعة باحتياجاتٍ متنوعة. ومع مرور الزمن وازدياد خبرة تجار قريش بالأسواق المختلفة، نشطت طرق تجارية خمسة رئيسة:

---

(٨) **ثمار القلوب** للثعالبي، مصدر سابق.

الطريق العابر من مكة إلى يثرب فخيبر وتبوك ثم غزة، على اعتبار أن غزة كانت ميناء مهماً تُنقل منه البضائع إلى أوروبا بحراً، وهو الطريق الذي اعتاده هاشم في تجارته، وتوفي في إحدى رحلاته إلى غزة ودفن فيها (لذلك عُرفت بغزة هاشم). والطريق الثاني مُتّجه من مكة إلى ساحل البحر الأحمر ثم شمالاً إلى الشام، وهو طريق سِيف البحر. وطريق بحري من ميناء الشُّعيبة[٩] على البحر الأحمر تُنقل منه البضائع بالسفن إلى الحبشة، وهي مملكة أكسوم. وفرع بحري منه يتجه شمالاً نحو إيلة، وهي العقبة حالياً. والطريق الرابع هو الطريق النجديّ، ويعبر إلى يثرب ثم يتجه عبر نجد إلى العراق. والطريق الخامس المتجه جنوباً من مكة عبر الطائف ثم نجران نحو اليمن.

أضحت مكة مركزاً يربط أربع أسواق كبيرة: الشام والعراق واليمن والحبشة، وكانت التجارة القرشية تستفيد من اختلاف المواسم والأجواء. فرحلة الشتاء إلى الحبشة واليمن، ورحلة الصيف إلى الشام ويصلون خلالها إلى بُصرى حاضرة الغساسنة، لكن معظم تجارتهم كانت تنتهي إلى غزة، التي برزت ميناءً مهماً لنقل البضائع إلى أوروبا.

هذه الطرق كانت تزدهر كلما ازداد الصراع الفارسي البيزنطي؛ إذ صارت مكة نقطة عبور لتجارة بديلة عن الطرق التجارية المعتادة، فمكة مستفيدة من تدهور الوضع الدولي، لا سيما إن اقترنت هذه الاضطرابات بتوقُّف الطريق البحري في البحر الأحمر أو اضطرابه، فتبقى قوافل قريش هي الناقل الوحيد للبضائع بين اليمن والشام.

من التجارة إلى السياسة

إلى جانب فطنته التجارية، يعتبر هاشم شخصية أساسية في التاريخ القرشي، فقد رويت عنه أخبار كثيرة، بعضها في شدة كرمه، وبعضها في استقامته وشرفه، وبعضها يدل على حصافته وحكمته، كما أن الإخباريين رووا ميزاتٍ خَلقية جذابة لشخصه، فقد كان طويلاً أبيض الوجه. نذكر هذه الصورة التي رسمها الأخباريون ونؤكد على أنه ينبغي لنا الحذر في أن نأخذ كل هذه

---

(٩) ميناء تاريخي على شواطئ البحر الأحمر جنوب غرب مكة المكرمة، وكانت الميناء الرئيس لمكّة المكرمة لفترةٍ من الزمن، قبل أن يصبح ميناء جدة هو الرئيس لاحقاً في عهد سيدنا عثمان بن عفان.

الروايات على إطلاقها، على اعتبار أن كثيراً منها جاء في وقت متأخر وبأثر رجعي حاول أن يرد الفضل إلى هاشم على اعتبار أنه الجد الأكبر للنبي عليه الصلاة والسلام.

وعلى كل حال، فإن دور هاشم القيادي في تدبير الإيلاف التجاري استدعى تعديلاً في التركيبة السياسية لقريش، وهكذا ظل أبناء عبد الدار يتولون رمزياً الحقائب السيادية في مكة، على اعتبار أنهم الذين ورثوا وصية جدهم قصي؛ أما أبناء عبد مناف، ومنهم هاشم، فكانوا عملياً من يقوم بتنفيذ هذه المهام، لا سيما الرفادة والسقاية وما تتطلبه من تكاليف وجهد كبير. ولم يرضَ هاشم باستمرار وجود الرئاسات الخمس بيد أبناء عمومته من عبد الدار، ورأى مع أبناء عبد مناف أن من الإجحاف أن يستأثر أبناء عمومتهم بالشرف المعنوي، بينما يقومون هم بالأعمال الفعلية اليومية، وحاولوا توحيد السلطة الاسمية للوظائف الخمس مع الواقع العملي الذي يقومون به، فنشب نزاع بين الطرفين، وانحازت بعض بطون مكة لهاشم وإخوانه في مطلبهم، بينما وقفت بطون أخرى مع أبناء عبد الدار في الاستحقاق الموروث للوظائف. وهذه الواقعة تحديداً ستكون عما قريب بداية شرخ كبير وممتد في البنية السياسية القرشية، وستؤسس لأهم حلفين رئيسين في تاريخ مكة: حلف المطيبين وحلف الأحلاف، فوقف إلى جانب بني عبد مناف بنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو زهرة بن كلاب وبنو تيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، وصار مع بني عبد الدار بنو مخزوم وسهم وجمح وبنو عدي بن كعب.

أُطلق على التحالف الذي انحاز لبني عبد مناف اسم «حلف المُطيِّبين»، ذلك أنهم جاؤوا بوعاءٍ قرب الكعبة فيه طِيب فغمسوا أيديهم فيه، ومسحوها بالكعبة، وتعاقدوا وتحالفوا ألا يتخاذلوا على الحلف فيما بينهم؛ أما التحالف الثاني المنحاز لبني عبد الدار فُسمي «حلف لَعَقة الدم» أو «حلف الأحلاف»، والسبب أنهم جاؤوا بجزورٍ[١٠] فذبحوه وغمسوا أيديهم فيه ومسحوها بالكعبة.

على إثر ذلك حَشَدَ الحِلفان قوّاتهما، واستعدّا للقتال، وكادت تكون مواجهة، إلا أنهما تصالحا فيما بينهما على تقسيم الوظائف بين بني عبد مناف

---

(١٠) أي: البعير، أو خاص بالناقة المجزورة. كما في «القاموس».

وبني عبد الدار، فتكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة، وتكون لأبناء عبد الدار الحجابة واللواء ودار الندوة.

هنا ينبغي لنا أن ندقق قليلاً في هذا التوزيع للصلاحيات بين الطرفين؛ فالسقاية والرفادة وظيفتان خدميّتان، بينما الحجابة واللواء والندوة وظائف شرفية، فالرفادة والسقاية فيهما قيم الكرم والبذل والسخاء، ولكنهما عموماً تعنيان أن يقوم أبناء عبد مناف بتقديم خدمات مباشرة للحجيج، وما في ذلك من عبءٍ مادي كبير، صحيح أن ذلك لا يعني أن ينفق بنو عبد مناف من أموالهم حصراً في الرفادة والسقاية، إذ كانت كل بطون مكة تقدم من مالها لهاتين الخدمتين، إلا أن العبء الأكبر والمسؤولية المباشرة تقع على هاشم أساساً، وكان هاشم في ذاته موسراً، وكان أكثر قريش بذلاً في الرفادة والسقاية. ونورد هنا ما ذكره صاحب **الطبقات الكبرى** في هذه الواقعة: «فاصطلحوا يومئذ أن وَليَ هاشم بن عبد مناف بن قصي السقاية والرفادة، وكان رجلاً موسراً، وكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال يا معشر قريش إنّكم جيران الله وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظّمون حرمة بيته، فهم ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزواره يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر[١١] كأنهن القداح قد أزحفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا، فاقْرُوْهم واسقوهم. فكانت قريش ترافد على ذلك، وكان أهل البيت يرسلون بالشيء اليسير على قدرهم. وكان هاشم بن عبد مناف بن قصي يخرِج في كل عام مالاً كثيراً، وكان قوم من قريش أهل يسار يترافدون، وكان كل إنسان يرسل بمائة مثقال هرقلية. وكان هاشم يأمر بحياض من أُدُم فتجعل في موضع زمزم ثم يستقي فيها الماء من الآبار التي بمكة فيشربه الحاج، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل التروية بيوم بمكة وبمِنى وجمع [أي: مزدلفة] وعرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق[١٢] والتمر ويجعل لهم الماء فيسقون بمنى، والماء يومئذ قليل في حياض الأدم، إلى أن يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرّق الناس لبلادهم»[١٣].

---

(١١) الإبل أو الخيول الهزيلة.

(١٢) طعام يُتخذ، من الحِنطة والشعير.

(١٣) **الطبقات الكبرى**، مصدر سابق.

ونخلص من السياق إلى أن هاشماً عندما اضطلع بمسؤولية الرفادة والسقاية كان مدركاً للقيمة الأخلاقية الرفيعة لهاتين الوظيفتين، واستخدم في خطابه مع قومه لغة أخلاقية في دعوتهم للوفاء بحقوق الضيافة، باعتبارهم جيران الله وأهل بيته. ومع أنّ قريشاً كلها ساهمت في الرفادة والسقاية، إلا أن العبء الأكبر كان على كاهل هاشم، ولعل ذلك هو ما استنزف ثروات بني هاشم من بعده، فورثوا عنه الاستقامة والمكانة الأخلاقية والذكر الحسن، ولكنهم كانوا أقل ثروة من أبناء عمومتهم؛ وهذا ما سيطبع حلف المطيبين في قابل الأيام، فهم قوامون على الجوانب الأخلاقية وتثبيت معايير الكرم والعدل، وصولاً إلى تقبُّل الرسالة المحمدية وتقديم الحاضنة الاجتماعية والمؤازرة القبلية لها، في مقابل «حلف الأحلاف» أو «لَعَقة الدم»، الذي سيكون مالكاً للندوة والحجابة واللواء، وكلها وظائف شرفية سيادية، وسيكون هذا الحلف ممثلاً للمؤسسة الحاكمة الحريصة على مصالحها، المستعدة لانتهاك كل المحرمات إذا لزم الأمر، للمحافظة على هيمنتها وسلطتها؛ العنيفة ضد كل من يعارضها ويهدد احتكارها السياسي. وسيجمع حلف الأحلاف الثروة والسياسة، وسيستخدمهما معاً ضد الرسالة المحمدية، وسيقوده غروره وغطرسته إلى مواجهة شرسة مع الإسلام، وصولاً إلى مغالبة وتدافع بين المعسكرين سيفضي بعد ثلاثةٍ وعشرين عاماً إلى انتصار حلف الخير وسعة الأفق على حلف الانغلاق والاحتكار.

توفي هاشم بن عبد مناف على الأرجح في نهاية القرن الخامس الميلادي، ذلك أن الأخباريين يتحدثون عن أن هاشماً تزوج في يثرب بسيدة تدعى سلمى بنت عمرو من بني النجار، وهم من الخزرج، وكانت يثرب على طريق التجارة بين مكة والشام، وتوفي في رحلته تلك ودفن في غزة، وولد ابن له أسمته أمه شيبة، ومكث شيبة بين أخواله بني النجار حتى صار فتى يافعاً، وبعد وفاة هاشم خلفه أخوه المطّلب بن قصي، وكان معروفاً بكرمه، ثم ارتحل المطلب إلى يثرب وعاد بشيبة بن هاشم، وأردفه وراءه على بعيره، فلما قدم على قريش قالوا جاء المطّلب ومعه عبده، فقال: بل هذا ابن أخي هاشم. وهكذا عُرف شيبة بن هاشم بعبد المطلب.

فإذا عرفنا أن عبد المطلب قد توفي عندما كان الرسول ﷺ في الثامنة من عمره، وأنّ ميلاد النبي(١٤) كان في عام ٥٧٠م، فهذا يعني أنّ وفاة عبد المطلب

(١٤) كان ميلاد النبي على الأرجح يوم الإثنين ١٥ ربيع الأوّل، ٣٠ كانون الثاني/ يناير ٥٧٠م.

حدثت عام ٥٧٨م؛ فإن صح أن عبد المطلب قد عاش ٨٢ عاماً، فإن ولادته تكون قريباً من عام ٤٩٦م؛ وإذا كان قد عاش ٩٢ عاماً، كما في بعض الروايات، فإن ميلاد عبد المطلب سيكون قريباً من عام ٤٨٠م، وهو العام المفترض أن هاشماً قد توفي فيه. وكل هذه التواريخ على التقريب بالطبع، وإنما نوردها هنا حتى نستأنس بالوقائع التاريخية التي هيمنت على العالم المحيط بمكة في ذلك الزمن، لا سيما الواقع السياسي للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية من ناحية، وللحبشة واليمن من ناحية أخرى.

الفصل الثاني

العالم من حول مكة

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

الثلث الأول من القرن السابع الميلادي سيشهد أكبر حدث جيوسياسي يشهده العالم، تمثّل في انهيار الإمبراطورية الفارسية وانحسار الإمبراطورية البيزنطية وبزوغ فجر الحضارة الإسلامية. إلا أن بدايات التحول في بنية النظام الدولي كانت قد بدأت في وقت مبكر. وحتى نستطيع الإحاطة بالسياق الدولي الذي ولد فيه الدين الجديد، فهذا يستدعي أن نتفحص القطبية الدولية التي هيمنت على العالم قبل الإسلام، القطبية الفارسية الرومية، وصراعها المرير الذي استمر قروناً سبعة؛ فالنظام الدولي حتى انبعاث الإسلام كان نتاجاً لهذا الصراع، وكان صراعاً شاملاً، تعدى تأثيره السياسة والاستراتيجيا ليشمل الاقتصاد والدين والثقافة، ولذلك فانهيار المنظومة القطبية في بدايات القرن السابع كان في الحقيقة انهياراً هائلاً، ليس لبنية النظام الدولي ولكن لكل ما مثله من وعي ديني وثقافي واجتماعي، إضافة إلى نظام اقتصادي.

سنستعرض في هذا الفصل جذور التحول الدولي ابتداء من القرن الخامس الميلادي، فالقرنان الخامس والسادس من القرون التي أثَّرت عميقاً في بنية النظام الدولي، فكان أهم محطّاتهما انهيار روما كعاصمة للإمبراطورية الرومانية عام ٤٧٦م، وانبعاث القسطنطينية خليفة لها على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي أطلق عليها المؤرخون اسم الإمبراطورية البيزنطية تمييزاً لها عن الإمبراطورية الرومانية الغربية. ومن المحطات الرئيسة اندلاع حرب عالمية مدمرة بين الفرس والبيزنطيين عام ٦٠٢م وعلى جبهات عديدة، أنهكت القطبين العالميين وغيّرت النظام الدولي إلى غير رجعة، ولم تنتهِ إلا في عام ٦٢٧م بانتصار البيزنطيين على الفرس في معركة نينوى، في العام ذاته الذي كان

المسلمون قد حسموا فيه موازين القوة لمصلحتهم بعد الحديبية وسيستعدون عما قريب لفتح مكة والانطلاق في فتوحات سترث الإمبراطوريتين المنهكتين وتقيم حضارة عالمية فريدة.

انبعاث القسطنطينية

الحدث الأبرز في القرن الخامس الميلادي هو انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية. ومع أن انهيار الإمبراطورية كان متدرجاً واستمر على مدار ثلاثة قرون، إلا أن التاريخ المُعتمد لسقوط الإمبراطورية وتفككها هو ٤ أيلول/ سبتمبر عام ٤٧٦م، عندما عُزل الإمبراطور الأخير رومولوس أغسطس على يد القبائل الجرمانية التي سيطرت على إيطاليا. وبسقوط الإمبراطورية الغربية ينتقل مركز الثقل الروماني إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي عرفت فيما بعد بالإمبراطورية البيزنطية، نسبة إلى عاصمتها بيزنطة؛ إسطنبول حالياً.

السبب الرئيس لانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية هو اتساع رقعة أراضيها، والحاجة إلى مركز استراتيجي قوي في مواجهة التهديد المتكرر للساسانيين الفرس، فرأى الإمبراطور دقلديانوس، الذي تسلم الحكم عام ٢٤٨م، أن يؤسس عاصمة إدارية للشق الآسيوي الناطق باليونانية من الإمبراطورية في قرية كانت تعرف ببيزنطة، وعندما تسلم الحكم الإمبراطور قسطنطين الأول جعل من بيزنطة عاصمة لإمبراطوريته، وأطلق عليها عام ٣٣٠م اسم القسطنطينية، وكانت تعرف بروما الجديدة. وقسطنطين الأول هذا كان أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية، وهو الذي دعا الأساقفة المسيحيين لاجتماع تاريخي هو الأهم في تاريخ المسيحية، عُرف بالمجمع المسكوني الأول، وحضره ما بين ٢٥٠ ـ ٣١٨ أسقفاً للحسم في خلاف كبير بين أسقف الإسكندرية ألكسندروس الأول والأسقف آريوس. وكان الخلاف على طبيعة المسيح، فقد تبنى بابا الإسكندرية مقولة أن المسيح هو ابن الله، وطبيعته إلهية، بينما كان آريوس موحّداً، فأنكر أزلية المسيح مؤكداً أنه من خَلق الله وصنعه، وأن الروح القدس من خَلقِه أيضاً.

انعقد مجمع نيقية في٢٠ أيار/مايو عام ٣٢٥ في بلدة نيقية[١]، التي تقع

---

(١) بلدة إغريقية قديمة، تقع على ساحل الأناضول، فتحها أورهان بن عثمان الأول في القرن الرابع عشر، وتسمى حالياً «إزنيق»، وهي تابعة لولاية بورصة التركية.

بالقرب من مدينة بورصة التركية حالياً، وافتتح قسطنطين المجمع بنفسه، وبعد مداولات لشهور طويلة، حُسم الخلاف بالاقتراع، فكانت النتيجة أن انتصر رأي ألكسندروس على رأي آريوس وتبنى المجمع قانون الإيمان المسيحي الذي يعتبر المسيح ذا طبيعة إلهية. وعلى إثر ذلك، وبسبب إصرار آريوس على اعتقاده، اعتُبِر مذهبه بدعة وهرطقة، وحُرقت كتبه واضطُهد أتباعه ونُفي آريوس إلى إسبانيا.

وعلى الرغم من اعتناق قسطنطين للمسيحية، إلا أن الديانة الرسمية المعتمدة للإمبراطورية بقيت وثنية حتى تسلّم الحكم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول الذي اعتمد المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية. وكان ثيودوسيوس، المتوفى عام ٣٩٥م، آخر إمبراطور روماني يحكم شِقَّي الدولة الرومانية، وبعده انقسمت الإمبراطورية إلى غربية عاصمتها روما، وشرقية عاصمتها القسطنطينية.

ومع ازدياد هجمات قبائل الواندال الجرمانية على روما ـ وكانت هذه القبائل على الأرجح تدين بالآريوسية ـ وتفكك المناطق التي كانت تخضع للدولة الرومانية في إسبانيا والغال[٢]، بدأت روما تذوي وتتراجع، فاجتاح الواندال روما عام ٤٥٥م وأحرقوا كثيراً من منشآتها، إلا أن التاريخ المعتمد لانتهاء الإمبراطورية الرومانية الغربية كان في ٤ أيلول/ سبتمبر عام ٤٧٦م عندما عُزِلَ رومولوس أغسطس آخر أباطرة روما.

ومع انهيار روما، سقطت أوروبا في حالة من الفوضى والصراع والتشظي وسيادة الخرافات والشعوذة، فيما عرف فيما بعد بالعصور المظلمة، بينما حافظت القسطنطينية على حكم مركزي قوي، وازدهرت فيها الفنون والعلوم، واستمرت وارثة للتاريخ الروماني والإغريقي.

بدأ الوزن الاستراتيجي للقسطنطينية بالصعود، واعتَبَر أباطرتها أنفسهم الورثة الشرعيين للإمبراطورية بشقّيها، ولم يتوقفوا عن محاولة استرجاع أمجاد الإمبراطورية وتوحيدها وإعادة احتلال المناطق التي استقلت عنها، حتى تسلم الحكم الإمبراطور الأبرز في تاريخ الإمبراطورية الشرقية، وهو جستِنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، الملقب بجستنيان الأكبر.

---

(٢) بلاد الغال هي المنطقة التي كانت تضم فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورغ وغالب سويسرا، وأجزاء من شمال إيطاليا وهولندا وألماني.

لحسن الحظ فإن تاريخ جستنيان قد حُفظ بشكل تفصيلي من خلال كتب المؤرخ اليوناني الشهير بروكوبيوس، الذي كان قريباً من دوائر الحكم، ورافق قادة الجيوش في عدد من المعارك، وعيَّنه جستنيان عضواً في مجلس الشيوخ، فكان شاهد عيان دقيق الملاحظة واسع الاطلاع، ودوَّن كتباً عديدة لا تزال مصدراً مهماً من مصادر التاريخ البيزنطي عسكرياً وسياسياً ومعمارياً.

يُعتبر جستنيان أعظم أباطرة القسطنطينية لعدة أسباب، فقد استعاد السيطرة على معظم أراضي الدولة الرومانية التاريخية، بما فيها شمال إفريقيا وإيطاليا وروما نفسها التي استمرت تحت حكم الدولة البيزنطية قرنين من الزمان؛ وعُرف جستنيان أيضاً بأنه الإمبراطور الذي عُني بالقوانين والنظم، فأعاد كتابة الدستور الروماني، ووضع القانون المدني الروماني، المعروف بالقانون الجستنياني، الذي يُعتبر من أهم المصادر القانونية عالمياً، ولا تزال كثير من بنوده مستخدمة في الدول الحديثة؛ وازدهرت في عصره الفنون والآداب والعمارة، وهو الذي بنى كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية، وصارت مركزاً للأرثوذكسية الشرقية لعدة قرون.

ومن إنجازاته الاستراتيجية أنه بنى أسطولاً بحرياً قوياً، وأحكم من خلاله السيطرة على الأمن في أرجاء البحر المتوسط وعلى الموانئ الرئيسة فيه، وبدأت سفنه تجوب البحر الأحمر؛ كما استطاع جستنيان أن يعزز تحالفات القسطنطينية مع كيانات وممالك ممتدة من وسط آسيا إلى مملكة أكسوم المسيحية، التي يَعرفها العرب بالحبشة، وصارت السفن الرومية تنقل البضائع من الموانئ الحبشية إلى ميناء أيلة (العقبة)، ملتفة بذلك على طريق الحرير الأوسط، الذي كان يصل الهند بالخليج العربي الخاضع لسيطرة الفرس.

ويذكر المؤرخون أنه في عام ٥٣١م طلب جستنيان من الأحباش المسيطرين على اليمن في ذلك الزمن أن يعززوا تجارتهم البحرية مع الهند أملاً في منافسة التجارة بين الساسانيين والهند. وتشير المراجع البيزنطية إلى أن الجنرال العسكري الأكسومي على اليمن، ويسمى أبرهة (أبراهام)، لم يقم بما هو مطلوب منه بحماس، وبدأ بإجراءات استقلالية عن الحبشة، منصِّباً نفسه ملكاً مستقلاً على اليمن، وقد أغضب ذلك ملك أكسوم وأغضب حليفه جستنيان. وسيكون لنا عودة إلى هذه القصة تحديداً في سياق الحديث عن الواقع الاستراتيجي لمكة.

عهد الازدهار الذهبي الذي شهدته القسطنطينية تحت حكم جستنيان انقطع مع أسوأ كارثة طبيعية عرفتها أوروبا؛ فقد اجتاح الطاعون القسطنطينية بين عامي ٥٤١ ـ ٥٤٣م، وهو ما يُعرف بطاعون جستنيان، وأودى بحياة أربعين بالمئة من مواطني العاصمة، كما اجتاح معظم أوروبا وقضى على ربع سكانها. وبسبب الموت والمرض والفقر تعطّل الإنتاج، وتراجعت أحوال الدولة، وبدأ كثير من الأقاليم بالتمرد على سلطانها، مما أوهن الإمبراطورية وأضعف عزيمتها في مواجهة الفرس الساسانيين ممن كانوا يتربصون بالروم ويستعدون للانقضاض عليهم في جولة جديدة من المعارك في حربٍ استمرت بين الجانبين سبعة قرون، وهي الحرب الأطول في تاريخ البشرية، لتمهِّد لجولةٍ ختامية ستنطلق قبيل البعثة المحمدية، وتشتعل جبهاتها في مختلف أرجاء العالم القديم، وتنتهي بتغيير جذري وعميق في موازين القوى العالمية، ممهدة لانطلاقة إسلامية عالمية فاجأت كلا الإمبراطوريتين العجوزين وقادتهما إلى الاندثار والاندحار.

الروم والدين

طوال عهد الإمبراطورية الرومانية كان الدين جزءاً لا يتجزأ من السلطة الرسمية للدولة، وهو بذلك أداة سياسية فائقة الأهمية، يوظّفها الأباطرة والسياسيون لتحقيق مصالحهم بشكلٍ فعال.

أخذ الرومان عن الإغريق عبادة الآلهة المتعددة، ولكن منحوها أسماء رومانية، وجعلوا لها معابد تقدم فيها القرابين وتقام فيها الطقوس والاحتفالات الدينية، وصارت هذه المعابد جزءاً من الهوية الرومانية، يقصدها الناس لاستخارة الآلهة في كل شؤونهم؛ ذلك أن الرومان اعتقدوا أن الأرواح تسكن كل شيء، وأن هذه الأرواح قادرة على التدخُّل في حياتهم، فانتشرت بينهم الطيرة والفأل. وكان لا بد من مرجع يفسر وقائع الحياة ويرشد إلى التصرف الأفضل، وقد قام كهنة المعابد بهذا الدور، فصاروا حلقة الوصل بين الناس والآلهة، وبالطبع كانت هذه الزيارات للمعابد مقترنة بتقديم القرابين السخيّة للآلهة.

الآلهة في التراث الروماني اثنا عشر إلهاً، ستة ذكور وست إناث، تحمل أسماء الكواكب السيارة، أهمها وأعلاها منزلة هو جوبيتر (نسبة إلى المشتري أكبر كواكب المجموعة الشمسية)، وهو بمثابة ملك الآلهة. وجوبيتر هو حارس

روما وراعيها، وهو إله السماء والبرق، وهو إله العدالة، وباسمه تُقَر القوانين. ولكل إله وظيفة محددة، ترتبط بظاهرة طبيعية أو بمسؤولية عن منحى من مناحي الحياة كالحصاد والزرع والمطر والحبّ وغيرها.

الإله في الديانات الرومانية لا يختلف عن البشر في شكله، لكنه يتسم بصفات الكمال جسداً وقدراتٍ، ومن ثَمَّ فهو من حيث المبدأ نسخة محسنة ومميزة عن الإنسان الروماني. ولكن الآلهة كما البشر تتآمر وتتجالف وتتقاتل، فالمشتري (جوبيتر) كبير الآلهة وصل إلى هذه المكانة الرفيعة بعدما قرر محاربة والده زحل (ساتورن) وإقصاءه عن العرش بالتنسيق مع شقيقيه نبتون إله البحر وبلوتو إله العالم السفلي، وبذلك صار المشتري ملك الآلهة ضمن ثالوث مقدس.

الديانات الرومانية كانت عماد الهوية الوطنية، وكان الكفر بها أو إهانتها خيانة وطنية، يعاقَب مرتكبها بالإعدام. وقد نجحت السلطات الحاكمة من طبقة النبلاء في السيطرة على الديانة؛ إذ إنها أقرت أن يكون الكهنة بالانتخاب. وبالطبع كان النبلاء وأصحاب النفوذ يفوزون بهذه الانتخابات، ويحتكرون تمثيل الآلهة، فما كان الساسة من دهاة روما لا يستطيعون إقراره من خلال مجلس الشيوخ يقومون بتمريره على أنه قرار الآلهة، ويشمل ذلك كل نواحي الحياة، بما فيها إعلان الحرب وتحديد مواعيد انتخابات مجلس الشيوخ وإقرار القوانين وغيرها.

وقد ارتبطت أعيادهم الدينية بالمهرجانات الشعبية الكبيرة التي كانت تُنظّم في روما، كما أن هذه الاجتماعات الشعبية كانت دوماً مناسبة مهمة للسياسيين والمرشحين لمجلس الشيوخ لكي يقوموا بحملاتهم الانتخابية؛ لقد تداخلت السياسة بالدين في روما بطريقة أفقدت الدين أية استقلالية.

ومن الطريف أن القيصر سيزر الشهير كان قد انتُخب ليكون الكاهن الأعظم لروما، وبالطبع فإنّ هذا الموقع، إضافة إلى قيادته لجيوش الجمهورية، ساعده كثيراً في الهيمنة التامة على مجلس الشيوخ ثم فرض نفسه (ديكتاتوراً) على المجلس، مهدداً القيم الديمقراطية للجمهورية، مما أدى إلى مقتله داخل مجلس الشيوخ طعناً من قبل زملائه عام ٤٤ ق. م. وهذا ما أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية التي انتهت بانتصار القيصر أغسطس بن يوليوس بالتبني، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً على روما عام ٢٧ ق. م، بعدما ثأر لمقتل والده، ليُنهي بذلك عهد الجمهورية ويبدأ عهد الإمبراطورية.

استخدم أغسطس الدين بدوره لتبرير مكانته المميزة التي لم يسبقه أحدٌ إليها، معتبراً نفسه شخصاً ذا مكانة إلهية مميزة؛ إذ يقول المؤرخون إن أغسطس فسّر ظهور مذنّب هالي على أنه روح يوليوس ترتفع إلى السماء لتنضم إلى الآلهة، ومن ثَمَّ طلب من مجلس الشيوخ اعتبار والده إلهاً، وقد فعل المجلس المغلوب على أمره ذلك، وتقرر تأسيس معبد كبير بروما للإله الجديد. المهم هنا أن أغسطس أضاف إلى ألقابه لقباً جديداً، هو (ابن الإله)، وبذلك جمع السلطات كلها في يده، وصار حاكماً مطلقاً تؤول إليه كل الأمور سياسية وعسكرية ودينية ـ وبالمناسبة ولد السيد المسيح في عهد أغسطس الذي حكم حتى عام ١٤م ـ وورث أباطرة روما هذه المكانة وصولاً إلى قسطنطين الأول الذي توِّج إمبراطوراً عام ٣٠٦م.

أدرك قسطنطين أنّ روما فاسدةٌ في مؤسساتها وطبقة نبلائها، وأدرك كذلك أن الروح الأخلاقية فاسدة هي الأخرى، وكان لا بد من تغيير جوهري للحفاظ على الإمبراطورية، فجاء التغيير على شكل خطوتين جوهريتين ظنّ من خلالهما أنه قادر على تجديد الإمبراطورية مبنى ومعنى: الخطوة الأولى اتخاذ عاصمة جديدة في أقصى الطرف الشرقي من الإمبراطورية، فوقع اختياره على بيزنطة التي أصبحت القسطنطينية؛ والخطوة الثانية اعتناق المسيحية وتشجيع انتشارها في أوساط الشعوب الخاضعة لسيطرة الدولة.

لا يُعرف بالضبط لماذا قرّر قسطنطين اعتناق المسيحية، إذ يُرجع بعض المؤرخين السبب إلى كون والدته (هيلانة) مسيحية، بينما يردد آخرون أسطورة تقول إن السبب المباشر لاعتناقه المسيحية أنه رأى صليباً في الشمس قبيل الغروب خلال إحدى المعارك. وعلى كل حال، ومهما كان الدافع المباشر لاعتناق المسيحية، فإن الإمبراطور الذي كان عاكفاً على بناء عاصمته الجديدة أعلن أنه سيدفع مالاً لكل مسيحيٍّ يستوطن فيها، وباشر ببناء الكنائس وتعيين المسيحيين في أعلى المناصب، وأعلن الأحد عطلةً رسمية.

لقد رأى قسطنطين أن يكون الجديد في القسطنطينية مسيحياً في مقابل القديم في روما، فأعلن عام ٣١٤م مرسوماً يضفي فيه الشرعية على الديانة المسيحية، مما مهّد للتبني الرسمي للمسيحية ديانة للدولة الرومانية. ولا شك أن استراتيجية قسطنطين كانت فاعلة، فتغيير العاصمة والديانة منح الإمبراطورية روحاً استمرت ثمانمئة عام بعد انهيار روما عام ٤٧٦م.

لكن هنا ينبغي لنا أن نوضِّح التالي: الدولة الرومانية منذ عهد قسطنطين تعاملت مع المسيحية كأداة جديدة في يدها، تبسط من خلالها نفوذاً روحياً وأخلاقياً على شعوبٍ متنوّعة الثقافات والأديان. الديانة الرومانية القديمة لم تكن قابلة لأن تصبح ديانة عالمية، كما أنها فقدت مرجعيتها الأخلاقية عندما صارت معابد روما وكهنتها دمية في أيدي النبلاء والطبقة الحاكمة، وأداة مكشوفة فاقدة لأي معنى مقدس، لقد صارت مجرد خرافات وأساطير تبرر لأهل النفوذ نهبهم لأموال الشعب.

جاءت المسيحية بديلاً مقبولاً ومناسباً، قابلاً لكي يكون ديناً عالمياً، كما أنّها ديانة مسالمة، لن تنازع الإمبراطور سلطانه، وتوسعت في تأويل القول المروي عن المسيح: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وفقاً لما ورد في الإنجيل:

«ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْماً مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّم، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إلى وُجُوهِ النَّاسِ، بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللهِ. أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لَا؟ نُعْطِي أَمْ لَا نُعْطِي؟ فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ ايتُونِي بِدِينَارٍ لِأَنْظُرَهُ. فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: لِمَنْ هذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: لِقَيْصَرَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ: أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلّهِ لِلّهِ. فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ»(٣).

ومع أن المدقّق في النص لا يصل إلى نتيجةٍ مفادها أنّ المسيح يضع سلطة القيصر موازية لسلطة الله، إلا أن تأويلها واستخدامها من قِبل الإمبراطور جعل من المسيحية ديناً متصالحاً مع الدولة؛ فالمسيحية هنا لا خوف منها، لا سيما إذا كانت مرتبطة بالدولة مستظلة بمباركتها ودعمها ووصايتها، وهذا برأيي ما شجع قسطنطين على اعتناق المسيحية ثم دفع الإمبراطورية كلها لاعتناق المسيحية.

على الرغم من أن الديانة الرسمية للدولة لم تتحول إلى المسيحية إلا عام ٣٨١ م، أي بعد وفاة قسطنطين، إلا أن تأثير قسطنطين في المسيحية نفسها كان بالغاً؛ فهو الذي دعا إلى انعقاد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقية

---

(٣) إنجيل مرقس، الإصحاح الثاني عشر، الآية ١٣ : ١٧.

عام ٣٢٥م، وافتتح المجمع بنفسه. وكان الغرض من المجمع، الذي شارك فيه أكثر من ٣١٨ أسقفاً من مختلف أنحاء العالم المسيحي، الفصلَ في الخلاف حول طبيعة المسيح الذي وقع بين آريوس من جهة والإسكندروس بابا الإسكندرية من جهة أخرى. كان آريوس يعتقد بأن المسيح من خلق الله، وأنه ليس أزلياً، بينما ذهب ألكسندروس إلى أن طبيعة المسيح هي من طبيعة الله، وهو الرأي الذي تبناه المجمع بعد التصويت، وصار معتقداً رسمياً للكنيسة وللدولة الرومانية فيما بعد، بينما تم إعلان آريوس عدواً للمسيحية وطورد أتباعه، ففر كثيرٌ منهم إلى مناطق لا تخضع لسلطان الدولة، من بينها الجزيرة العربية.

نلاحظ هنا مسألة مهمة، وهي أن المجمع الذي حسم القضية الأهم في المعتقد المسيحي، وهي الموقف الرسمي من طبيعة المسيح، تم بطلب الإمبراطور نفسه وبرعايته. وبغض النظر عن مدى تدخل قسطنطين وحاشيته في قرار المجمع تحديداً، إلا أنَ تدخُّل الدولة في تنظيم مثل هذه المجامع صار سنَّة متبعة في المجامع التالية؛ أي إن الدولة صارت هي المنظِّم للاعتقادات الدينية، والراعي لقراراتها، والمنفِّذ بقوة القانون لتوصياتها، وهذه كانت بداية التحام المسيحية بالدولة البيزنطية. من هنا يتضح لنا أن دوافع قسطنطين لاعتناق المسيحية لم تكن على الأرجح مجرّد صحوة إيمانٍ روحيٍّ وسعياً للخلاص الفردي، بل قراراً استراتيجياً واعياً، استدعى تبني ديانة جديدة، وفقاً لمحددات عقدية وتنظيمية تتناسب مع دورها القادم كديانة رسمية للإمبراطورية.

ما يعزِّز هذه الفرضية ويؤكِّدها الخطوات التالية التي قامت بها السلطات الرسمية في القسطنطينية؛ فقد رفضت الإمبراطورية الاستمرار على نهج الكنيسة المشرقية الآرامية ـ السريانية، وعمدت إلى إعادة صياغة الكنيسة لتصبح أكثر (رومانية)، فعمدت إلى التوفيق بين المعتقدات الرومانية القديمة والديانة المسيحية، وتبنت اللغة اليونانية بدل السريانية، ونصّبت أساقفة يونان على شؤون الكنيسة، وتدريجياً تعاظم دور الدولة في شؤون الكنيسة إلى درجة صارت الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية يُطلق عليها الملكانية، نسبة إلى الملك، وصارت جزءاً من بنية الدولة.

الطريق للهيمنة على الكنيسة لم يكن ميسراً، ومجمع نيقية لم يكن آخر المجامع، بل كان لمقرراته تداعيات عميقة، فعصفت الخلافات الاعتقادية

بالكنائس، وبرزت مقولات متضاربة حول طبيعة السيد المسيح والاسم الذي ينبغي أن يُطلق على السيدة مريم العذراء. ومن أبرز المجامع التي كان لها أثر سياسي لاحق مجمع آفسُس الأول، الذي انعقد عام ٤٣١م للبتّ فيما يقوله نسطور أسقف القسطنطينية من أنّ المسيح مخلوق، وأنه ذو طبيعتين منفصلتين، وعندما ولد كان إنساناً طبيعياً، ثم حلت عليه الكلمة الإلهية بعد العمادة على يد يوحنا المعمدان، وعليه فإن مريم ليست أم الإله، بل هي أم يسوع الإنسان، في مخالفة صريحة لاعتقاد الكنيسة الرسمي القائل بأقنوم الكلمة الواحد المتجسد في طبيعتين: بشرية وإلهية. وقد قضى المجمع ببطلان قول نسطور وقرر حرمانه كنسياً، كما قرر الإمبراطور نفيه، واضطُهد أتباعه، مما دفعهم للهجرة إلى بلاد فارس، حيث استقبلهم الفرس الساسانيون أملاً في إضعاف هيمنة الدولة البيزنطية على الديانة المسيحية.

الانقسام الأهم في الكنيسة المسيحية حدث على إثر مجمع الخلقدونية، الذي انعقد عام ٤٥١م للبت في الخلاف حول ما إذا كان المسيح ذا طبيعتين أم طبيعة واحدة. وقد أقر المجمع اعتماد رؤية كنيستي القسطنطينية وروما في أن للمسيح طبيعتين مختلفتين ومشيئتين مختلفتين، مما أدى إلى انشقاق الكنائس التي تعتقد بطبيعة واحدة يتّحد فيها اللاهوت بالناسوت، وهي الكنائس المشرقية (السريانية والقبطية والأرمنية)، أي كنائس مصر والحبشة وسوريا وأرمينيا.

واستخدمت الدولة قبضتها الأمنية لمحاربة الكنائس والتنكيل بالفرق التي لم تؤمن بالاعتقادات المسيحية الملكانية الرسمية، فقد أدركت الدولة البيزنطية أن هذه الانقسامات ذات تداعيات خطيرة على وحدة الكنيسة، السلاح المهم في يد الدولة؛ إذ إن الدولة البيزنطية أرادت أن تكون المسيحية الرسمية ديناً جامعاً لمواطني الإمبراطورية، أما الكنائس التي احتفظت باعتقادات مخالفة للمجامع الكنسية المعترف بها رسمياً فقد كانت تشكل خروجاً على الرؤية الرسمية للدولة، وكان بعضها يمثل خصوصية ثقافية أو قومية، كالكنائس السريانية والقبطية والأرمنية، وهو ما أدى إلى التضييق على هذه الكنائس، وقنَّن الإمبراطور جستنيان الأول رسمياً مقررات المجامع الأربعة الكنسية، واعتبر أن المخالف لها يعتبر مهرطقاً خارجاً على القانون، مهدداً المخالفين بالعقوبة الشديدة.

سياسات البطش التي مارسها أباطرة القسطنطينية لم تنجح إلا في تشكل

رأي عام في أوساط مسيحيي المشرق بأنهم لن يتمكنوا من ممارسة اعتقادهم الديني في ظل الهيمنة البيزنطية، وكان لذلك أكبر الأثر في الترحيب بالمسلمين الذين رأى فيهم كثير من مسيحيّي المشرق خلاصاً من القهر البيزنطي. وسنرى فيما بعد كيف أن النبي في رسالته إلى هرقل قال له: «أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين»، والأريسيون هنا هم الآريوسيون على الأرجح، أتباع آريوس الموحد، فقد فر كثير من الآريوسيين الموحدين بعيداً عن نفوذ بيزنطة، وجزيرة العرب تمثل ملجأً آمناً لمثل هؤلاء، وهو ما سيجعل حضورهم بين العرب مألوفاً.

الفرس الساسانيون

يحسن بنا الآن تقديم اللاعب الاستراتيجي الثاني في المسرح الدولي آنذاك: الفرس الساسانيون.

الساسانيون هم السلالة الفارسية الثالثة، ممن ورثوا عرش الإمبراطورية عن أسلافهم البارثيين عام ٢٢٤م، وكان البارثيون قد خلفوا الإخمينيين على عرش فارس. استمر حكم الأسرة الساسانية أربعة قرون إلى أن سقطت بيد الفاتحين المسلمين عام ٦٣٧م.

مؤسس السلالة الساسانية هو أردشير، الذي أُطلق عليه لقب الشاهنشاه أو ملك الملوك، والذي نُصِّب خادماً للنار المقدسة؛ رمز الديانة الزرادشتية أو المجوسية، الدين الرسمي للدولة الساسانية. ثم نَقل أردشير عاصمته إلى مدينة جور الحصينة (وهي مدينة فيروز أباد حالياً)، وبدأ بتوسيع رقعة إمبراطوريته، فضمت خُراسان وتركمانستان وبلخ وخوارزم، كما ضمّت البحرين ونينوى، وحاول ضم عدد من المناطق التابعة للدولة الرومانية، غير أنه لم يوفَّق في ذلك، بعدما استطاع الرومان هزيمته عام ٢٣٠م.

استمرت المواجهات بين الفرس والروم في عهد شابور الأول ابن أردشير، ثم طوال العهود التالية للأباطرة الفرس تخللتها عهود سلام قصيرة من خلال تسويات واتفاقات بين الطرفين ضمنت توزيعاً للمناطق المتنازع عليها، وكان أهمها أرمينيا والجزيرة الفراتية.

ولم يكن الروم العدو الأوحد الذي اشتبك الساسانيون معه طوال القرون، بل كانت هناك القبائل الهبثالية، أو من يُسَمَّون بالهون البيض، وهم مجموعة

شعوب بدوية استوطنت وسط آسيا، وهناك اختلاف بين المؤرخين حول أصول هذه القبائل، فيرجِّح البعض أنهم من أصول تركية، بينما يعتقد آخرون أنهم من مناطق تقع حالياً في أفغانستان وباكستان وإيران، واستطاعوا أن يقيموا إمبراطورية كبيرة امتدّت سيطرتها من الهند إلى وسط آسيا، ونشبت بينهم وبين الفرس حروب كثيرة، وهاجموا بلاد فارس، ولكنهم هُزموا على يد بهرام الخامس ويزدجرد الثاني، وعادوا مع نهاية القرن الخامس وهزموا بيروز الأول (٤٥٧ ـ ٤٨٤م)، وعاثوا في أراضي الإمبراطورية لمدة عامين، مما أشاع حالة من الفوضى، وعندما حاول بيروز مهاجمتهم وقع هو وجيشه في كمين نصبه الهبثاليون له على الطريق إلى هراة (هيرات) وأُبيد الجيش وقُتل بيروز، وعلى إثرها تقدم الهبثاليون واحتلوا مدينة (هيرات)، واستمرت الحروب بين الطرفين إلى أن تفاهم قُباد الأول معهم وحالفهم في حرب ضد الروم عام ٥٠٢م وسيطر على إثر ذلك على أجزاء من أرمينيا لتبدأ جولة جديدة من الحروب بين الروم والفرس.

العنصر المهم الخاص بموضوعنا هو أن الحروب بين الهبثاليين والفرس خلقت حالة من الفوضى والنزاع في المناطق التي يعبر منها الطريق التجاري الأهم في العالم القديم، وهو طريق الحرير الشمالي الواصل بين الصين وأوروبا. وفي وقتٍ لاحق سيعاود الهبثاليون احتلال بلاد ما وراء النهر وتصفية النفوذ الساساني فيها، ولم يستطع الفرس استعادتها إلا في عام ٥٦٥م في زمن أحد أهم ملوك الساسانيين: كسرى الأول.

اعتلى كسرى الأول عرش الدولة الساسانية في الفترة من ٥٣١م وحتى عام ٥٧٩م، ويلقب بأنوشروان، أي (صاحب الروح الخالدة). وعاصر كسرى الأول الإمبراطور البيزنطي جستنيان، ويُعتبر كسرى الأول من أكثر الأباطرة الساسانيين شهرة، وعُرف بإنجازات كبيرة على مستوى الإمبراطورية؛ فقد وضع قانوناً للضرائب معتمداً على ملكية الأرض، وحاول بكل الطرائق الارتقاء بالواقع الاقتصادي للإمبراطورية، وقلّص نفوذ الإقطاعيين لحساب الفقراء، ونظّم الجيش على أسس جديدة وقسمه إلى فرق متخصصة، وأصلح النظام الإداري للدولة.

وقّع معه جستنيان الأول اتفاقية سلام دائم عام ٥٣٢م دفع الروم للفرس بموجبها جزية سنوية قدرها ٤٤٠ ألف دينار ذهبي، لكنّ كسرى نقض الاتفاقية

عندما قدَّر أن الإمبراطورية البيزنطية تمر بحالة ضعف على إثر انشغال الروم بحروبٍ داخلية وعلى إثر الطاعون الكبير الذى ألحق بالبيزنطيين خسائر فادحة.

اجتاح كسرى الأول الشام عام ٥٤٠م، واستمرت المواجهات الدامية بين الطرفين أكثر من عقدين إلى أن عُقِدت اتفاقية سلام جديدة عام ٥٦٢م.

توفي جستنيان الثاني عام ٥٦٥م وخلفه جَستيْن الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨م)، وكان ذا نزعة مندفعة، فتوقف عن دفع منحة سنوية كان الروم يدفعونها للعرب من أجل وقف غاراتهم على أراضي الدولة البيزنطية في الشام، وتوقف كذلك عن دفع المبلغ المتّفق عليه للفرس، مستغلاً انشغالهم في إخماد ثورة في أرمينيا، وتحالف الروم مع الأرمن وهاجموا أراضي الدولة الساسانية عام ٥٧٣م، لكنهم هُزموا، وأعاد الفرس احتلال الشام، واضطر جستين الثاني للقبول بهدنة جديدة مدتها ٥ سنوات يدفع بموجبها مبلغاً كبيراً للفرس، غير أن الحرب استؤنفت بعد وقت قصير واستمرت المواجهات العنيفة بين الإمبراطوريتين.

الفرس والدين

اعتنقت السلالات الفارسية الثلاث: الإخمينية والبارثية والساسانية الديانةَ الزرادشتية، وهي من أقدم الديانات العالمية. وزرادشت هو مؤسس الديانة، يقال إنه ولد في القرن السابع قبل الميلاد. الديانة الزرادشتية بصيغتها الأولى تؤمن بالتوحيد، وتمجد (أهورا مازدا) وتعني الإله الحكيم، وهو واحد عظيم متعالٍ في السماء، وتؤمن بخلود الأرواح وأن مصيرها إما إلى جنة أو جحيم، وفقاً لأفعالها الأرضية، وأن الإنسان حر في أفعاله، ولكنه مسؤول عنها، وتقتضي مسؤوليته الدينية أن يحافظ على التوازن الذي خلقه الإله في الكون، من خلال الفعل الخيِّر والقول الحسن، وأن يرفض الفوضى التي تنتج عن الخروج على النظام الإلهي.

في الجانب الطقوسي، رفضت الزرادشتية كل أنواع الرهبنة، ويؤدي الزرادشتيون خمس صلوات يومياً مرتبطة بتقلُّب الليل والنهار، وصلاتهم تأمُّل وترديد لبعض الأذكار كما وردت في كتاب **الفيستا** المقدس عندهم، وقبل الدخول في الصلاة يتطهَّر الزرادشتي بغسل وجهه وأطرافه ثلاث مرات، وتعتبر الزرادشتية الماء والنار عنصرين طاهرين، ويؤدِّي الزرادشتيون صلواتهم بوجود

النار، لأنها مصدر النور، ويعتبرون الماء مصدر الحكمة، والنار هي الوسيلة الناقلة للحكمة، ويعتبر الزرادشتيون الأجساد الميتة نجسة، وحتى لا تختلط بالأرض والماء الطاهرين ينبغي ألا تُدفَن في الأرض، ولأن النار طاهرة هي الأخرى ينبغي ألا تُحرق الجثث، ولذلك يبنون أبراجاً يسمونها (أبراج الصمت) يضعون جثث الموتى في أعلاها لكي تقتات عليها الطيور الجارحة، ثم يجمعون العظام ويحفظونها داخل البرج بعيداً عن الاختلاط بتراب الأرض.

أطلق العرب اسم المجوسية على الديانة الزرادشتية، وأصل كلمة (مجوس) كما ينقل جواد علي[٤] هي من كلمة مغوس بالفارسية، وتعني عبدة النار، وهي من الألفاظ التي دخلت إلى اليونانية كذلك.

الواضح أن الساسانيين، الذين انقلبوا على البارثيين عام ٢٢٦م، كانوا ينحدرون من نسب كهنة زرادشتيين، وكان يطلق عليهم المجوس، وقد استخدموا علاقتهم الوثيقة ككهنة في إضفاء شرعية على حكمهم، ومع انتشار المسيحية وازدياد أعداد المنضوين إليها، وتخوُّف الدولة من امتداد التأثير الروماني بسبب ذلك، عزز الساسانيون من مكانة المجوسية كديانة رسمية للدولة، وازداد تمسك ملوك الساسانيين بطقوس التدين من أجل مقاومة المد المسيحي.

وكما كان شأن الدولة البيزنطية مع المسيحية، عندما اتخذت من المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية، كيَّف الساسانيون الزرادشتية لتكون ديناً جامعاً للدولة، يمكن توظيفه لبناء شخصية قومية وهوية جامعة للفرس وعمَّالهم في مختلف أرجاء الإمبراطورية، وحاولوا التوفيق بين الزرادشتية الأصلية والديانات الفارسية القديمة التي كانت تقدّس مظاهر الطبيعة، وهذا ما جعل النسخة الجديدة من الزرادشتية (المجوسية) تقترب من عبادة النار، وتقول بالثنوية وجوهرها الصراع بين الخير والشر.

المجوسية لم تكن سوى بعضٍ من هيكلة الدولة، وكهنتها يشكّلون طبقة رفيعة المنزلة، كثيرة العطايا من الدولة، والملك هو رأس الديانة باعتباره خادم النار المقدسة، وهي بذلك ديانة إمبراطورية. وبما أنّ ارتباطها بالدولة قديم جداً، فقد أصبحت أداةً طيّعة في أيدي الملوك الساسانيين. ولمّا كان الملك هو

---

(٤) جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت؛ لبنان: دار الساقي، ٢٠٠١)، ج١٢، ص٢٦٨.

ممثلها، فقد أضافت إليه قدسية إلهية جعلت منه ملك الملوك المتعالي عن عموم البشر، وهذه غاية كل مستبد عبر الزمن.

الزرادشتية انتشرت بحكم سلطان الدولة ونفوذها خارج بلاد فارس؛ إذ تذكر المصادر أنها انتشرت في أذربيجان وعدد من مقاطعات الإمبراطورية، لكنها بقيت ديانة فارسية. ويبدو أن الساسانيين لم يكونوا معنيين بالتبشير بديانتهم كما كانت الدولة البيزنطية بالنسبة إلى المسيحية، بل على العكس من ذلك، فإن الفرس رحبوا بالمسيحيين النساطرة المختلفين عن الكنيسة الملكانية الرومانية نكاية بالبيزنطيين، ورغبة في توسيع هوة الخلاف داخل المسيحية نفسها، وتعزيزاً للمذهب المعارض لمذهب البيزنطيين الرسمي، كما أن الدولة الفارسية أطلقت للمسيحيين النساطرة حق التبشير بدينهم في أوساط مواطني الإمبراطورية ما لم يكونوا فُرساً، لأنّ الدولة تريد أن تُبقي الزرادشتية ديانة قومية للفرس، ويبدو أنها أدركت أن مواطني الإمبراطورية من غير الفرس لن يعتنقوا الزرادشتية، ولذلك من الجيد أن يعتنقوا ديانة تكون هي الأخرى تحت وصاية الدولة؛ وبالفعل انتشرت المسيحية في أوساط العرب الخاضعين لسلطان الدولة الساسانية في العراق والبحرين والجزيرة الفراتية. هذا مع أن بعض المؤرخين يفسرون عدم انتشار المجوسية خارج بلاد فارس بأن الأمم الأخرى كانت تأنف من بعض الطقوس المجوسية، لا سيما ما يخص عدم دفن الموتى، وبقاء أجسادهم في الأبرا، كما أسلفناً.

حاربت الدولة الساسانية أية اعتقادات بين مواطنيها تعارض الزرادشتية، فقد وقفت بشراسة ضد المانوية في بداية القرن الثالث الميلادي، وهي ديانة غنوصية عرفانية، تقول بالثنوية وإن العالم مركب من نور وظلمة، وتحرّم كل ما يشجع الشهوات الجسدية.

مشكلة الدولة مع ماني سياسية؛ إذ كان يبشِّر بديانة تجمع بين الزرادشتية والمسيحية، فقد كان يؤمن بعيسى ﷺ، ويقول عن نفسه إنه يُكمل رسالة المسيح، وبما أن المسيحية هي ديانة العدو، فمن الطبيعي أن تعتبر الدولة الفارسية التقارب معها خطراً على الأمن القومي.

المزدكية هي الأخرى حوربت في عهد كسرى أنوشروان، الذي تسلم الحكم عام ٥٣١م. والمزدكية تُنسب إلى مزدك، المتوفى عام ٥٢٨م، وحاول فيها محاربة نفوذ الإقطاعيين واحتكارهم للثروات بنزعة اشتراكية تجعل من

المال والنساء مشاعاً لعامة الناس، على اعتبار أنهم سواسية. في البداية حاول الإمبراطور قُباد (والد كسرى) الاستفادة من المزدكية لتقليص نفوذ طبقة الإقطاعيين عندما خشي من تعاظم نفوذهم، ولما تُوفي حارب ابنه كسرى أنوشروان المزدكية واعتبرها خارجة على القانون، بينما ساند الزرادشتية وعزز من نفوذها(٥)، وقد دون في عهده الكتاب المقدس للزرادشتية (**فيستا**)، ويضم مقولات وترانيم لرجال دين وكهنة زرادشتيين(٦).

وبالتأكيد فإن التوظيف المؤقت للمزدكية في عهد قباد كان لغرض محدد ولفترة قصيرة، لأن مناداة مزدك بالاشتراكية متناقضة مع سياسة الإمبراطورية، فالإقطاع كان نظاماً تتبناه الدولة من أجل إدارة البلاد وجمع الضرائب. وعلى العموم كان نهج الدولة في هذه الأمور واضحاً: الزرادشتية ديانة آمنة، وهي جزء من بنية الدولة، ودينها الرسمي، ومن يبتغِ من الفرس غيرها فهو خطر ينبغي اجتثاثه.

مع أن الأخباريين يشيرون إلى أن بعض العرب اعتنقوا المجوسية، مثل زرارة بن عدس وابنه حاجب بن زرارة والأقرع بن حابس وأبي الأسود جد وكيع بن حسان(٧)، غير أن هؤلاء كانوا أفراداً من زعماء تميم، وإن صح اعتناقهم للمجوسية، فتفسيره أنهم فعلوا ذلك لمصلحة، فهم من سادات تميم التي كانت في حالة عداء مع بكر بن وائل، وربما ظنوا أن في مجوسيتهم ما يقربهم من الفرس، طمعاً في النفوذ وفي العطاء؛ لكن المجوسية لم تنتشر بين العرب، فكثير من عرب الحيرة والجزيرة الفراتية الخاضعين لنفوذ الساسانيين اعتنقوا المسيحية، بينما انتشرت اليهودية في اليمن تحت النفوذ الفارسي. كانت سياسة الدولة حيال المسيحية واضحة: المسيحية مرحب بها إن كانت مختلفة عن المسيحية الأرثوذكسية التابعة للقسطنطينية، أما إن كانت جزءاً من المسيحية الأرثوذكسية الملكانية فهي معادية ينبغي الحد منها؛ ولذلك رحبت الدولة الساسانية باعتناق العرب المناذرة للمسيحية المشرقية، وهي التي آوت النسطوريين وسمحت لهم ببناء كنائسهم في نصيبين والرها؛ أما في اليمن فقد قام حليفها ذو نواس اليهودي في مطلع القرن السادس بمذبحة واسعة ضد المسيحيين في نجران وذمار على اعتبار أنهم عملاء للأحباش والبيزنطيين.

---

(٥) المصدر السابق.

(٦) *Encyclopedia Iranica*. Zoroastrianism.

(٧) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مصدر سابق.

مكانة اليمن في التجارة الدولية قديمة، يقول المؤرخ الإغريقي أجاثرخيدس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد إنه «لا يبدو أن ثمّة شعباً أغنى من السبئيين. وأهل جرهاء كانوا وكلاء عن كل شيء يقع تحت اسم النقل بين آسيا وأوروبا، وهم الذين جعلوا سورية البطلمية غنية، وأتاحوا للتجار الفينيقيين تجارة رابحة، وآلافاً من أشياء أُخَر»(٨). ووصفهم بأنهم محاربون أشداء وملاحون مهرة يبحرون في سفن كبيرة إلى مستعمراتهم ليأتوا بمنتجات لا تتوفر إلا هناك.

وحتى ندرك الأبعاد الاستراتيجية لليمن في القرنين الخامس والسادس، نحتاج أن نلقي الضوء على المملكة الأهم والأعرق في تاريخ الجزيرة العربية والقرن الإفريقي، ألا وهي مملكة سبأ، التي امتدت سيطرتها لتشمل بلاد اليمن والحبشة.

هيمنت مملكة سبأ على المسرح الجنوبي للجزيرة العربية لفترة طويلة، وامتد سلطانها ليشمل أجزاء من الحبشة، وهي المناطق التي ستشكل مملكة أكسوم بعد انهيار سبأ. بدأت مملكة سبأ بالظهور في الآثار والمنحوتات والكتابات في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، واستمرت حتى القرن الأول للميلاد، عندما سيطر الحميريون على الجانب اليمني والأكسوميون على الجانب الإفريقي.

احتلت أخبار مملكة سبأ بثرائها وازدهارها حيزاً مهماً من المخيال الشعبي في العصور القديمة، واستمر أثرها في التراث العربي والإفريقي إلى يومنا هذا؛ فهجرة القبائل اليمنية بعد انهيار سد مأرب شكّلت حراكاً سكانياً جديداً في الجزيرة العربية وصولاً إلى العراق والشام، وشكلت التقسيمات القبلية المعروفة حتى وقتنا الحاضر. وبعد اندثار سبأ ذات المنعة والوفرة بدأت حضارة اليمن القديمة بالتراجع، وفقدت مركزيتها السياسية الذاتية، لتصبح جزءاً من المحاور الاستراتيجية للقوتين العظميين في ذلك الزمان: الفرس والروم.

رأينا كيف أنّ الصدامات المتكررة بين القطبين الدوليين: الفرس والروم، كانت تعطل كلاً من طريقي الحرير الشمالي والأوسط، ومن ثَمَّ ازدادت أهمية

(٨) Hourani George, *Arabs Seafaring in the Indian Ocean* (Princeton University Press, 1951).

الطريق البحري الجنوبي الواصل إلى عدن، وسوف يكون ذلك سبباً رئيساً في تنافس محموم بين الإمبراطوريتين للسيطرة على اليمن، والتحكم بمكانتها الاستراتيجية في التجارة الدولية.

الروم كانوا بحاجةٍ ماسة إلى التجارة مع الشرق، وكانت تجارتهم مع الهند والصين تعبر لا محالة في مناطق مضطربة، سواء أكانت بلاد وسط آسيا بقبائلها المتمردة وثوراتها المتكررة والنفوذ الساساني الواسع فيها، أم الطريق الأوسط العابر للدولة الفارسية نفسها. وأدرك الروم قديماً أنهم بحاجة إلى طريق يتفادى هيمنة الدولة الفارسية، ويزوِّدهم بما يحتاجون إليه من بضائع بسلاسة، لذلك نشطوا في تأمين خط تجارة بحري بين عدن وأيلة (العقبة) عبر البحر الأحمر. ويقتضي تأمين هذا الخط تأسيس نفوذ سياسي على ضفتي البحر الأحمر. وبالفعل فإن تحالف الروم مع الحبشة كان قديماً، وقد أمّن لهم الضفة الغربية للبحر الأحمر، أما الضفة الشرقية فبقيت عصية على الخضوع لهيمنة الروم.

رأينا كيف حاول الروم منذ عهد الإمبراطور أغسطس (٢٧ ـ ١٤ ق.م) تأسيس نفوذ لهم في الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وسيّروا حملة عسكرية رومانية انطلقت من مصر وعبرت بحراً إلى جزيرة العرب فوصلت إلى يثرب ثم توجهت جنوباً إلى نجران، لكنها فشلت في تأسيس وجود دائم في جنوب الجزيرة. واستمر الروم يتطلعون لنفوذ دائم في الجزيرة، إلى أن واتتهم الفرصة لإخضاع اليمن في عهد الإمبراطور جستنيان تحت ذريعة الثأر لمحرقة المسيحيين بنجران على يد ذي نواس الحميري، المتحالف مع الفرس. وبالفعل نفّذ التحالف البيزنطي الحبشي احتلالاً لليمن، وأنهى حكم ذي نواس، وأسس الأحباشُ وجوداً عسكرياً دائماً لهم في اليمن عام ٥٢٥م، إلا أنه لم يستمر طويلاً، فقد ظل الفرس يتحينون الفرصة لاستعادة نفوذهم على اليمن، ولاحت تلك الفرصة عام ٥٧٠م عندما وفد سيف بن ذي يزن على الإمبراطور الساساني وطلب دعماً من كسرى للمساعدة على هزيمة الأحباش وإخراجهم من اليمن، فاستغل الفرس تلك المناسبة لتوجيه ضربة للنفوذ البيزنطي في جنوب الجزيرة العربية. أدرك الفرس أنهم إن دعموا سيف بن ذي يزن فإنهم سوف يُضعفون نفوذ التحالف البيزنطي الحبشي؛ ليس في اليمن فحسب، ولكن في البحر الأحمر كله، فإذا تمت السيطرة على باب المندب، صارت حركة السفن البيزنطية تحت رحمة القوات الفارسية.

الهدف الثاني للفرس هو احتكار طرق التجارة العالمية في العالم القديم، فقد كانوا يسيطرون على طريق الحرير الرئيس العابر لوسط آسيا، وطريق الحرير البحري الشمالي الواصل إلى العراق عبر الخليج، وكانت اليمن منتهى طريق الحرير البحري الجنوبي، فإن هم سيطروا عليه فقد صاروا القوة التجارية الأولى عالمياً.

أرسل كسرى جيشاً صغيراً قوامه خمسة آلاف مقاتل ـ وقيل ٨٠٠ مقاتل ـ عبر بحر العرب إلى موقع قريب من عدن، واستطاع الجيش الفارسي إلحاق هزيمة بالاحتلال الحبشي، ونُصِّب سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن في الفترة بين ٥٧٥ ـ ٥٧٧م، إلا أن الأمر لم يستتب له، فقامت حروب أهلية وثورات أدت إلى مقتل سيف، وبعد مقتله تدخل الفرس مرة أخرى ونصّبوا ابنه معد يكرب، غير أن التدخل الفارسي السافر في شؤون اليمن أسفر عن ثورة أطاحت بالفرس، فأرسل الفرس جيشاً آخر احتل اليمن عام ٥٩٨م وألحقها رسمياً بالدولة الساسانية. وبقيت اليمن تحت الحكم الفارسي حتى أسلم حاكمها باذان بُعيد مقتل كسرى الثاني عام ٦٢٨م، كما سيأتي تفصيله لاحقاً.

الحرب العالمية

الصراع بين الفرس والروم قديم، والصراع بين الطرفين استمر سبعة قرون، وبذلك يكون الأطول في التاريخ الإنساني، إلا أنّ الحروب كانت تتخللها اتفاقات ومصالحات سرعان ما تنهار عندما تلوح لدى طرفٍ منهما الفرصة للفتك بالطرف الآخر.

في نهاية القرن السادس كانت الحياة السياسية في المدائن، عاصمة الساسانيين، تعبر منعطفاً حاداً إثر خلاف كبير على السلطة أدى إلى انقلاب على الشرعية الموروثة للملك الجديد كسرى أبرويز.

وهنا نتوقف قليلاً لنشير إلى أن مصادر التاريخ الإسلامية تحفل بذكر ملكين فارسيين مهمين، كلاهما يحمل اسم كسرى، وكسرى اسم عَلَم، وليس لقباً ملكياً كما ظهر في كتابات المؤرخين المسلمين، فالتاريخ الساساني فيه مَلِكان اثنان يحملان اسم كسرى، وهما كسرى الأول الملقب أنوشروان الذي ذكرناه سابقاً، والذي حكم من ٥٣١م إلى ٥٧٩م، وهو الملك الذي وُلد في عهده النبي محمد ﷺ، والملك الآخر الذي كان اسمه كسرى الثاني هو حفيد

كسرى الأول، وهو الذي عاصر البعثة النبوية وحكم في الفترة من ٥٩٠ - ٦٢٨م، وكان لقبه برويز؛ أي المظفّر.

بعد وفاة كسرى الأول خلفه على العرش الساساني ابنه هرمز الرابع، الذي قُتل في انقلابٍ نظّمه عدد من زعماء الأسر الفارسية ونصّبوا ابنه كسرى الثاني خلفاً له، وكان صغيراً، إلا أن القائد العسكري القوي بهرام جوبين في عام ٥٩١م رفض مبايعة الملك الجديد وأعلن نفسه ملكاً، مما دفع كسرى الثاني إلى اللجوء إلى الشام والاحتماء بالبيزنطيين.

وجد الملك الطريد ترحيباً ودعماً من قِبل البيزنطيين، فقادوا حملة عسكرية أطاحت ببهرام وأعادت تنصيب كسرى الثاني على عرش فارس عام ٥٩١م. وبالطبع لم يفعل البيزنطيون ذلك خدمة بريئة لكسرى، بل كان الإمبراطور البيزنطي موريس قد أبرم صفقة مع كسرى تقضي بأن تتنازل الدولة الساسانية عن بعض الأراضي للبيزنطيين، من بينها شمال شرقي العراق، ومناطق في أرمينيا والقوقاز، كما نصّ الاتفاق على أن تُعفى الدولة البيزنطية من دفع الخراج السنوي الذي كانت تؤديه للفرس وفقاً لاتفاق الهدنة السابق بين الطرفين. ولا شك أن علاقة كسرى الثاني بالبيزنطيين كانت نقطة سوداء في سيرته، إذ ليس فخراً لملك فارسي أن يكون العدو الأهم لمملكته هو الذي أعاده إلى عرشه، كما أن تنازلات كسرى للبيزنطيين لم تكن مقبولة بين قادته ولا رعايا مملكته؛ لذلك سوف يتحيّن كسرى الفرصة المناسبة لاستعادة هيبته، واسترجاع أراضي مملكته.

وقد لاحت هذه الفرصة في عام ٦٠٢م، عندما قُتل الإمبراطور البيزنطي موريس في انقلابٍ عسكري قاده فوقاس، وكان قائداً للقوات البيزنطية في البلقان، عندها اندلعت مواجهات وانشقاقات عسكرية في مختلف أرجاء الإمبراطورية البيزنطية.

استغل كسرى الثاني، كما فعل جده كسرى الأول، حالة الفوضى والضعف التي اجتاحت الإمبراطورية البيزنطية، وباشر هجومه على أراضيها محاولاً استعادة الأراضي التي اضطر لتسليمها للبيزنطيين، واندلعت المواجهات بين الطرفين في مختلف الجبهات.

حال الدولة البيزنطية كانت صعبةً؛ فاغتصاب فوقاس للحكم في

القسطنطينية وسوء إدارته وبطشه أدخل الدولة في دوامة من العجز والاضطراب، مما أقنع كثيرين بعدم أهليته للحكم، ومع ازدياد هزائم الجيش البيزنطي أمام الفرس استمرت شعبيته في الانحدار، إلى أن انشق حاكم قرطاجنة البيزنطي، واسمه هرقل الكبير، وأعلن عصيانه، وقاد ابنه، المسمى هو الآخر هرقل، قوات والده لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الإمبراطورية المتهالكة، فسيطر على مصر ثم قاد الجيش ودخل القسطنطينية وقتل فوقاس ونصَّب نفسه إمبراطوراً عام ٦١٠م، وهذا هو العام الذي بُعث فيه النبي.

استمرت الحرب بين الفرس والروم لمصلحة الفرس، ولم يتمكن هرقل في السنوات العشر التالية من أن يواجه الفرس ويوقف زحفهم؛ ففي عام ٦١١م اجتاح كسرى الثاني الجزيرة الفراتية وأرمينيا واحتل سوريا وسيطر على أنطاكيا عام ٦١١م.

غُلِبَت الروم

في عام ٦١٣م هُزم الجيش البيزنطي في معركة حاسمة خارج أنطاكيا، وواصل الفرس احتلال الأراضي التابعة للدولة البيزنطية، فدخلوا القدس عام ٦١٤م، وهي الهزيمة الأشد وقعاً على البيزنطيين، لما للقدس من مكانة دينية، فقد أخذ الفرس الصليب المقدس، المسمى بالصليب الحقيقي، والحربة المقدسة إلى المدائن، وهي من أكثر الرموز الدينية أهمية بالنسبة إلى الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ كان يعتقد المسيحيون أن هذا الصليب هو الذي استُخدم في صلب المسيح، بينما يعتقدون أن الحربة هي التي طعن بها جندي روماني جسدَ المسيح المصلوب في جنبه. وفي هذا العام ـ أي في السنة الرابعة للبعثة ـ نزلت سورة الروم على النبي عليه الصلاة والسلام، تلفت نظر النبي إلى الواقع الاستراتيجي الدولي الذي ستصنعه هزيمة الروم في أدنى الأرض، وهي الشام، لكنها تلفت النظر إلى أن هذه الهزيمة ستكون مؤقتة. وبين الهزيمة والانتصار سنوات ستمتلئ بأحداث دموية وصراعات هائلة بين الطرفين، لكنها ستنتهي بإضعاف الطرفين، وستفتح في جدار المنظومة الدولية شقوقاً ستسمح لقطبٍ فتِيٍّ جديد بملء الفراغ ووراثة الإمبراطوريتين المتنازعتين.

واصل الفرس نجاحاتهم العسكرية في أكثر من جبهة، وبعد سيطرتهم على القدس والشام انتقلوا إلى مصر؛ سلة غذاء الإمبراطورية البيزنطية ومخزن

قمحها، فاحتل الفرس الإسكندرية عام ٦١٩م، وسيطروا على بقية مصر عام ٦٢١م.

سقوط القدس كان ضربة موجعة لشرعية الدولة البيزنطية المعتمدة على كونها حامية الديانة المسيحية، أما سقوط مصر بيد الفرس فكان ضربة اقتصادية قاصمة، ذلك أنها أغنى المقاطعات البيزنطية، وأدى سقوطها إلى انقطاع صادرات القمح إلى القسطنطينية، وكانت مصر عبر القرون المصدر الأهم لتوريد القمح إلى الإمبراطورية الرومانية بشقيها الغربي والشرقي، وبسبب هذا الانقطاع وقع غلاء فاحش في الأسعار في القسطنطينية.

في هذه الأثناء بدا كأن الإمبراطورية البيزنطية في طريق انهيار محتوم، لا سيما عندما استغل الفرس حالة التفكك والذعر اللذين انتشرا في الولايات البيزنطية، فحاصروا القسطنطينية نفسها، ووصل الأسطول الفارسي إلى مياه البوسفور، وأوشكت العاصمة على السقوط.

في تلك الفترة الحرجة حدثت المعجزة التي ستنقذ الدولة البيزنطية؛ إذ تسلل هرقل، بعدما وحّد ما تبقى من فلول الجيوش البيزنطية، وتحالف مع شعوب الخزر وقبائل الترك، وقام بحركة التفافية من وسط آسيا مهاجماً الدولة الساسانية من حيث لا تحتسب، كان هجوماً مميزاً وذكياً اخترق أراضي بلاد فارس من الشمال ابتداء من عام ٦٢٢م، ليبدأ بنجاحات عسكرية متكررة، رفعت معنويات الجيش البيزنطي، وأنهكت الجيوش الفارسية التي تباعدت بها الأسفار وطالت خطوط إمدادها، وصعبت إدارتها مركزياً، مما منح هرقل فرصة نادرة لتحقيق انتصارات عسكرية محدودة ولكنها استراتيجية. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر من شتاء عام ٦٢٧م باغت هرقل الجيش الفارسي بهجوم كاسح في نينوى (الموصل) وألحق بالفرس هزيمة فادحة، واستمر في تقدمه جنوباً بمحاذاة نهر دجلة وانتهب أحد قصور كسرى، ولكنه لم يتمكّن من احتلال المدائن عاصمة كسرى، لأن الفرس دمروا الجسر الواصل بالمدينة فوق نهر النهروان، فانسحب هرقل إلى ديالى في شمال العراق مواصلاً فتوحاته في طريق عودته المظفرة إلى القسطنطينية.

أما في بلاد فارس، فالهزيمة الساحقة التي مُني بها كسرى على يد هرقل في نينوى أوقعت إهانة كبرى بهيبة المُلك، وعلى إثرها، وفي مطلع عام ٦٢٨م، قُتل كسرى الثاني شرّ قتلة على يد ابنه قُباد الثاني الملقّب بشيرويه، وقيل إن

كسرى سُجن في أحد الأقبية مغلولاً بالسلاسل من دون طعام ولا شراب إلى أن هلك. وبذلك انتهى عهد كسرى الثاني الذي استمر ٣٨ عاماً، وكثيراً ما يرد اسمه في كتب السيرة والتاريخ العربي، بل إن أهمية كسرى كانت بالغة لدرجة صار العرب يطلقون على ملوك فارس اسم كسرى ويجمعونها على أكاسرة، والحقيقة أن اسم كسرى هو عَلَم كما بيّنا، فكسرى الأول هو الذي وُلِد النبيُّ في عهده، ويؤرخ رواة السير ميلاد النبي بأنه جاء في العام الأربعين لحكم كسرى، وهو كسرى الأول، الملقب بأنوشروان، أي الروح الخالدة؛ أما كسرى الثاني، الذي حمل لقب برويز، ويعني المظفر، فهو آخر ملوك الدولة الساسانية الكبار، وهو الذي أرسل له النبي رسالةً مع عبد الله بن حذافة السهمي عام ٦٢٨م، بعد الحديبية، أي بعد هزيمته مباشرة.

ويروي البخاري(٩) في كتاب الجهاد حديثاً عن عبد الله بن عباس أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ «بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلاً، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إلى عَظِيم الْبَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ الْبَحْرَيْنِ إلى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ. فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ الْمُسَيَّبِ قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ»(١٠). والأرجح أن كتاب رسول الله وصل كسرى بعد هزيمة نينوى، ولم يكن الرجل في أحسن مزاج، ويقول رواة السير إنه غضب غضباً شديداً لما قرأ الكتاب، ووجد أن النبي قد بدأ باسمه قبل اسم كسرى، فقد ذكر المؤرخون أن نص الكتاب بدأ كالتالي: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس»، فلم يرقْ كسرى ذلك، وهو المغترّ بنفسه حتى بعد الهزيمة الكبرى، بل لعل الهزيمة زادت من حساسيته المفرطة، فقال وهو يمزق الرسالة: أيكتب لي هذا وهو عبدي؟ فكتب إلى عامله باذان في اليمن أن ابعث إليّ بهذا الرجل الذي ظهر بالحجاز، أرسل رجلين جَلْدين من عندك ومرهما أن يأتياني به. وفعلاً انتدب باذان رجلين إلى رسول الله ﷺ وحمّلهما رسالة يأمر فيها النبي بأن يذهب معهما إلى كسرى دون إبطاء، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُول اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَنِي أَنْ يُقْتَلَ كِسْرَى فِي يَوْم كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا»، فَلَمَّا أَتَى بَاذَانَ الْكِتَابُ تَوَقَّفَ لِيَنْظُرَ، وَقَالَ: إِنْ كَانَ نَبِيّاً فَسَيَكُونُ مَا قَالَ. فَقَتَلَ اللهُ كِسْرَى فِي الْيَوْمِ الَّذِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ بَاذَانَ بَعَثَ

(٩) محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري** (دمشق؛ بيروت: دار ابن كثير، ٢٠٠٢).

(١٠) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: دعوة اليهود والنصارى، وعلى ما يُقاتلون عليه، وما كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر والدعوة قبل القتال [(١/ ٧٢٤)، رقم الحديث: ٢٩٣٩].

بِإِسْلَامِهِ وَإِسْلَام مَنْ مَعَهُ مِن الْفُرْسِ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ[11].

وكان قباد هو من قتل أباه وتسلّم الحكم من بعده. ومرة أخرى ينصِّب البيزنطيون ملكاً على عرش فارس. وفي محاولة لإنقاذ الدولة أنهى قباد الحرب مع هرقل بتوقيع اتفاق يضمن فيه الانسحاب من المناطق التي احتلتها جيوش أبيه.

وفي عام ٦٢٩م استعاد هرقل الصليب المقدّس ونصبه في كنيسة القيامة بالقدس في احتفال كبير عام ٦٣٠م، أراد هرقل من خلاله ترسيخ مكانته الرسمية والدينية، وسار هرقل حافياً مرتدياً ملابس بسيطة وحاملاً الصليب على عاتقه، متأسياً بالمسيح في «درب آلامه»، وفقاً للرواية المسيحية.

الدولة الساسانية لم تستعد عافيتها، إذ استمرت الحروب والنزاعات الداخلية، وقُتِل قباد بعد شهور من تسلمه الحكم، وتعاقب خمسة أباطرة على عرش فارس في أربع سنين، وانتقلت السلطة الفعلية إلى أيدي قادة عسكريين متنافسين، ولما وصلت جيوش الفتح الإسلامي إلى العراق كانت الدولة الساسانية تحتضر، فأجهز عليها المسلمون ودخلوا عاصمتها وفتحوا أراضيها الشاسعة.

القوى الإقليمية

هيمن الفرس الساسانيون والروم البيزنطيون على المسرح الدولي، وشكّل الصراع بينهما خارطة التوازنات العالمية، إلا أنّ هذا التدافع بين القطبين الكبيرين لم يحل دون وجود قوًى إقليمية في جزيرة العرب وحولها، كان لها دور مهم في تشكُّل الواقع السياسي لجزيرة العرب، ومكة تحديداً. ومع أن هذه القوى الإقليمية كانت إما تابعة للقطبين الرئيسين، أو متحالفة معهما، إلا أنها كانت ذات تفاعل سياسي واقتصادي مباشر مع جوارها، ويحسن أن ننظر إليها وندرس تأثيرها على مكة.

مملكة الحيرة

الحيرة مدينة عربية قديمة، تقع أطلالها حالياً بالقرب من الكوفة في

---

(١١) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ط٢ (القاهرة؛ مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٥)، ج١، ص٦٩.

العراق، وتعود أخبار تأسيسها إلى بدايات القرن الأول الميلادي، وذاع صيتها عندما أصبحت عاصمة اللخميين المناذرة ابتداءً من عام ٢٦٨م وحتى عام ٦٣٣م. وكانت الحيرة بالغة التأثير في الحياة العربية عموماً، فقد كانت أعظم مدن العرب وأجملها وأكثرها ثراءً، كما أنها كانت عاصمةً للشعراء، والموسيقى والفنون، وموطناً للكتابة العربية، وتدلّ دراسات الباحثين على أن الكتابة العربية وصلت إلى مكة من الحيرة، خلافاً للنظريات السابقة التي كانت تعزو أصولها إلى اليمن(١٢).

ارتبطت مكانة الحيرة ونفوذها بسلالة المناذرة، الذين ينتسبون إلى قبيلة لخم ذات الأصول اليمنية، وقد استقر لهم ملك الحيرة مدة طويلة نسبياً، إذ حكموا أكثر من ثلاثة قرون، وتعاقب على المملكة ثمانية عشر ملكاً، كان أولهم عمرو بن عدي، وكان آخر ملوكهم الفعليين النعمان بن المنذر الذي قتله كسرى الثاني - على الأرجح عام ٦٠٩م، أي على مشارف البعثة النبوية.

أخبار الحيرة وملوكها تملأ المخيال الشعبي القديم، ونجد رواياتها وحكاياتها في كتب الأخباريين، بدءاً من قصص الشعراء من أمثال النابغة الذبياني وامرئ القيس وعنترة العبسي، مروراً بحكايات قصور الحيرة كالخورنق والسدير، إلى يوم فأل النعمان ويوم شؤمه. وقد احتلّت الحيرة هذه المكانة الرفيعة بالتوازي مع السلطان السياسي الكبير للمناذرة في العراق والجزيرة الفراتية والبحرين وصولاً إلى عمان، وكان ملك الحيرة يُلقِّب نفسه (ملك العرب)، وكانت للحيرة صلات مع الممالك العربية المعاصرة في الحضر وتدمر والأنباط، كما أن قوافلها التجارية كانت تذرع الجزيرة، وتشترك في كل مواسمها وأسواقها المختلفة تحت حماية خاصة، إضافة إلى سوقها السنوي الأهم في دومة الجندل، وهو من أشهر أسواق العرب. وكانت قوافل قريش تأتي إلى الحيرة وتتّجر في أسواقها، ويتواصل سادة قريش مع ملوكها، ويعودون بالبضائع وبالأخبار والحكايات إلى مكة.

انتشرت في أوساط المناذرة الديانة المسيحية على المذهب النسطوري، وهي المسيحية التي تنتسب إلى الأسقف نسطور، واختلفت مع المذهب الرسمي للبيزنطيين في مسألة طبيعة المسيح بعد قرارات مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، ففرّ

(١٢) انظر: جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**.

أتباع المذهب إلى خارج حدود النفوذ البيزنطي، واستقروا في ظل الدولة الفارسية.

واحتضنت الحيرة عدداً من الكنائس والأديرة، كما عرفت رجال دين مسيحيين كثراً، شاركوا في الكنيسة المشرقية، وساهموا بشكل فاعل في نشر المسيحية بين العرب في ذلك الوقت.

سياسياً كان استقلال المناذرة نسبياً، وضمن ما يسمح به سقف الدولة الساسانية، وأدق تقييم للواقع السياسي ما كان المؤرخون الرومان يشيرون به إلى ملوك المناذرة والغساسنة، إذ يعتبرون المناذرة (عرب الفرس) والغساسنة (عرب الروم)[١٣]، وهذه هي الحقيقة الاستراتيجية الأوضح في تقييم النفوذ الإقليمي للمناذرة، فهم كيان تابع للفرس خاضع لمصالحهم، وهو ما بدا جلياً في الدور الوظيفي للمناذرة ممثلاً في حفظ النظام على حدود الإمبراطورية الفارسية من جهة الصحراء العربية، إذ كثيراً ما كانت غارات الأعراب توقع فوضى واضطراباً على تخوم الدولة الساسانية، فاقتضت المصلحة تعزيز نفوذ المناذرة ليكونوا حراساً لتخوم الدولة، فهم أقدر من الفرس على التعاطي مع الأعراب، فاستمالوهم من جانبٍ بالعطايا والهبات والتجارة، وأرهبوهم من جانبٍ آخر بالحملات التأديبية العسكرية.

البعد الاستراتيجي الثاني في التبعية للفرس كان واضحاً في الصراع الدائم بين المناذرة والغساسنة، وبالطبع فهذه الحروب كانت جزءاً من الصراع الدولي بين المعسكرين الكبيرين: الفرس والروم، وكثيراً ما كانت حروبهما تدور بمشاركة عرب على الجانبين، فقد قاتل المناذرة إلى جانب الفرس ضد الدولة البيزنطية مراراً، وقاتل الغساسنة ضمن الجيش البيزنطي.

الروايات التي ينقلها الأخباريون عن مقتل النعمان بن المنذر قد لا تكون دقيقة في تفاصيلها، لكنها مهمة في فهم طبيعة العلاقة بين المناذرة والفرس؛ إذ ينقل الأخباريون أن النعمان رفض أن يزوِّج ابنته لملك الفرس، وكيف أنه في مناسبةٍ أخرى رفض أن يهديه فرساً كانت له؛ ولكنّ هذه الحكايات، وإن اتسمت بطابع مشوق وتحمل شوقاً شعبياً للبطولة، لا يعوّل عليها في فهم حقيقة سبب مقتل النعمان على يد كسرى الثاني، لكن السياق الذي جاءت فيه

---

(١٣) المصدر السابق، ج ٥، ص١٦٥.

الأحداث يمكن أن يعيننا على فهم سبب غضب كسرى على النعمان.

قلنا إن كسرى الثاني كان قد تسلم العرش الساساني عام ٥٩٠م، لكنه وُوجِه بانقلاب على سلطته، فهرب إلى أحضان الدولة البيزنطية، وأعانه الإمبراطور البيزنطي موريس في استعادة ملكه مقابل توقيع اتفاقية هدنة طويلة الأمد بين الدولتين، وهذا ما كان بالفعل، ووضعت الحرب أوزارها بين الطرفين حتى عام ٦٠٢م، عندما قُتل الإمبراطور موريس على يد قائد عسكري بيزنطي، عندها قرر كسرى استئناف الحرب على الدولة البيزنطية.

يشير بعض الأخباريين إلى أن النعمان بن المنذر لم يساند كسرى عندما انقلب عليه البلاط، ولم يهاجر معه إلى بلاد الروم عندما هاجر طالباً النصرة، كما أنه تخلف عن مساندته في الحرب الأخيرة على الشام.

الدولة الساسانية بدأت حربها على البيزنطيين عام ٦٠٢م باستعادة الجزيرة الفراتية من أيدي البيزنطيين، ثم امتدت المواجهات إلى الشام، وفي كلا المنطقتين يُتوقع أن يقوم المناذرة، وهم عرب مثل مواطني الجزيرة والشام، بدورٍ بمحوريٍّ في مساندة الفرس كما جرت العادة، لكن النزعة الاستقلالية لدى النعمان جعلته متردداً في الزجّ بكل ثقله في أتون الحرب، وهذا ما أقنع كسرى بضرورة التخلص منه واستبداله بملك يكون مطواعاً منقاداً للفرس من دون تردد، عندها استدرج كسرى النعمانَ بن المنذر إلى المدائن (طيسفون).

تروي الأخبار أنّ النعمان عندما جاءه رسول كسرى يستدعيه إلى المدائن أيقن أن كسرى سيتخلص منه، ففكر بالهرب، واستمزج القبائل فلم يسانده أحدٌ خوفاً من بطش الفرس، عندها أشار عليه هانئ بن مسعود الشيباني بأن يمضي إلى كسرى، وقال له: «لأن تَمُوت كريماً خيرٌ من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد المُلك، هذا إن بقيتَ، فامضِ إلى صاحبك، واحمل إليه هدايا ومالاً، وألقِ بنفسك بين يديه، فإما أن يصفح عنك فتعود ملكاً عزيزاً، وإما أن يصيبك، فالموت خير من أن يتلاعب بك صعاليك العرب ويتخطّفك ذنابها، وتأكل مالَك وتعيش فقيراً مجاوراً أو تُقتَل مقهوراً»، فقال: كيف بحرمي؟ قال: «هنّ في ذمتي لا يُخلَص إليهن حتى يُخلَص إلى بناتي. فقال: هذا وأبيك الرأيُ الصحيح ولن أجاوزه».

وبالفعل استودع النعمان أهله وماله ودروعاً كانت له عند هانئ، ثم مضى لحتفه.

رُويت أخبار كثيرة عن كيفية مقتل النعمان، وقيل إن كسرى سجنه حتى توفي بالطاعون؛ لكن ذلك ليس مهماً، فالنتيجة أن النعمان قُتل، وعيّن كسرى مكانه ملكاً جديداً هو إياس بن قبيصة من قبيلة طي، وكانت مهمته الأولى مساعدة الفرس في حربهم ضد الروم والقبائل العربية المتحالفة معهم، وهذا ما تم بالفعل؛ فقد التحق إياس بالجبهة وقاتل الروم عند نهر يسمى ساتيدما قرب أرزن، ولعلها أرضروم في تركيا حالياً(١٤).

ستثبت الأحداث التي تلت مقتل النعمان أن كسرى كان قد اتخذ قراراً متعجلاً تعوزه الحكمة، إذ فتح بمقتل النعمان باباً كان مغلقاً، وهو عداء القبائل العربية وهجماتها الانتقامية؛ فقد حاول إياس ملك الحيرة المُعَيَّن من الفرس استرداد أموال النعمان ودروعه، فأبى هانئ بن مسعود وفاءً بوعده للنعمان، عندها استعان إياس بالفرس، وقاد جيشاً فيه بعض القبائل العربية المناصرة له ومقاتلون فرس، واستعان هانئ بن مسعود بقبائل العرب، فسارت معه قبائل بكر بن وائل إلى ذي قار، وتواصلت معه طي والعباد وإياد وسائر من كان مع الفرس من العرب سراً، وكانت هذه القبائل من ضمن جند إياس بن قبيصة، فاتفقوا مع بني بكر أنهم سوف ينقلبون أثناء المعركة ويقاتلون إلى جانبهم(١٥).

قاتلت قبائل العرب ضد الجيش الفارسي ببسالة، واستطاعت هزيمته في اليوم التالي، ولاحقت فلوله إلى داخل أرض السواد، كما أورد الأخباريون. وكان من نتائج هذه المعركة المباشرة أن عَزَل كسرى إياس بن قبيصة، وعين مكانه والياً فارسياً يُسمى آزاذبه بن ماهان، وهذه هي المرة الأولى التي يحكم الفرس فيها الحيرة بشكل مباشر، وقد فشل في استعادة الاستقرار الذي طبع علاقة المناذرة قديماً بالدولة الفارسية.

ليس مؤكداً متى وقعت معركة ذي قار، فهناك خلاف بين الأخباريين؛ فقد ذهب بعضهم إلى أنها كانت عام بعث النبي سنة ٦١١م، ويرى آخرون أنها في العام الثاني من البعثة، أي عام ٦١٣م، ويروي آخرون أنها كانت بعد الهجرة

---

(١٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (بيروت؛ لبنان، دار صادر، ١٩٩٣)، ج ٣، ص١٦٩، مادة ساتيدما.

(١٥) لمطالعة القصة كاملةً، راجع: الطبري، **تاريخ الطبري**، سلسلة ذخائر العرب، ط٢ (القاهرة؛ مصر: دار المعارف، ١٩٦٨)، ج٢، ص١٩٣ ـ ٢١٢.

من مكة إلى المدينة أو بعد معركة بدر عام ٦٢٤م[١٦]، بينما تذهب **الموسوعة الإيرانية** التي تشرف عليها جامعة كولومبيا الأمريكية إلى أنّ الدراسات المعاصرة تضع معركة ذي قار في الفترة من ٦٠٤ ـ ٦١١م، وهذا هو الأرجح[١٧].

ومع أن المؤرخين العرب لم يُجمعوا على تاريخ معركة ذي قار، إلا أنها واقعة مشهورة وذات رمزية عالية، واحتفى العرب بها شعراً ونثراً، وكأنها أعادت إليهم شيئاً من وحدتهم وثقتهم بأنفسهم.

بالنسبة إلى الفرس، كانت الهزيمة مفاجئة؛ ذلك أن قبائل العرب لم تُعرف بقدراتٍ عسكرية نظامية في مواجهة الخبرة العسكرية الفارسية، كما أن حجم المعركة كان صغيراً مقارنة بالمواجهات الضخمة بين الفرس والروم، ولذلك لا تذكر المصادر الفارسية شيئاً عن المعركة، نظراً لحجمها العسكري الصغير مقارنة بالمعارك المعتادة بين الفرس والبيزنطيين في ذلك الوقت. وكان تعداد الفرس المقاتلين كما أورده الأخباريون العرب ألفين، إضافة إلى ثلاثة آلاف من العرب المتحالفين معهم، إلا أن رمزية الهزيمة ونتائجها المستقبلية كانت سلبية على الإمبراطورية المنهكة المنشغلة في حرب طويلة الأمد مع البيزنطيين، فبلاد العرب شديدة القرب من قلب الدولة الفارسية، واختلال الأمن في هذه المناطق سيتردد صداه في عاصمة الفرس، إضافة إلى أن وظيفة المناذرة التقليدية في إبقاء الأعراب تحت السيطرة لم تعد قائمة. والتأثير الاستراتيجي المباشر لاختلال الأمن في الصحراء كان ملموساً بالفعل بعد ذي قار، فقد كان الفرس محتاجين إلى التواصل مع عمالهم في اليمن الخاضعة وقتها للاحتلال الفارسي، ولا بد للقوافل والوفود المسافرة لليمن من أن تمر بمضارب العرب، وفي ذلك مخاطرة كبيرة، وقد تحدث الأخباريون بالفعل عن هجمات قبلية على هذه القوافل أو اللطائم كما كانت تُسمى.

النتيجة الأهم لمعركة ذي قار كانت نفسية. لقد تحرر العرب من عقدة الخوف وتجرؤوا على الفرس، واهتزت تلك الصورة الهائلة لهم في المخيلة العربية. كانت معركة ذي قار مقدمة لجرأة ستتصاعد ضد الإمبراطورية العجوز، وستؤتي ثمارها مع قدوم الإسلام، فترحب هذه القبائل بجيوش الفتح بعد

---

(١٦) انظر: محمد بيومي مهران، **دراسات في تاريخ العرب القديم** (الإسكندرية؛ مصر: دار المعرفة الجامعية، ط٢)، ج١، ص٥٣٣.

(١٧) انظر: *Encyclopædia* Iranica، مادة: ك. DŪ QĀR.

عقدين من الزمن، وتندفع بالرسالة الجديدة لتجهز على الدولة الفارسية وتجتثها من الجذور.

الغساسنة

ينتسب الغساسنة كما المناذرة إلى قبائل اليمن، هاجروا منها في فترات متباينة نظراً لاضطراب الأوضاع الأمنية في اليمن وما صاحبها من تردي الأحوال المعيشية وانهيار سد مأرب. واستوطن الغساسنة، وهم من قبيلة الأزد، على تخوم الجزيرة العربية الشمالية، وجاوروا الدولة البيزنطية في البلقاء وحوران، وكانت قاعدة ملكهم في الجابية بالجولان، ووجدت السلطات البيزنطية فيهم أداة مهمة لحماية أراضيها من غارات الأعراب، فمنحتهم اعترافاً مكّنهم من بسط نفوذهم على بادية الشام، وأوكلت إليهم مهام أمنية، تراوحت بين حفظ الأمن في شمالي الجزيرة ومقاتلة الفرس وحلفائهم المناذرة، وبذلك صار الغساسنة كما المناذرة من الكيانات التابعة للقطبين الدوليين المتصارعين.

اعتنق الغساسنة الديانة المسيحية، ونشطوا في نشرها بين القبائل العربية بمباركة البيزنطيين ودعمهم، فقد اقترن النفوذ البيزنطي بالديانة المسيحية، إلا أنّ المصادر البيزنطية تشير إلى أن بعض أمراء الغساسنة في القرن السادس الميلادي اعتنقوا المذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح خلافاً للمذهب البيزنطي الرسمي القائل بالطبيعتين، مما أثار حالة من التوتر بين البيزنطيين والغساسنة، لكن البيزنطيين سرعان ما تجاوزوا هذا الخلاف تغليباً لمصالحهم الأمنية، واستمالة للغساسنة حتى يستمروا في دورهم الأمني المفيد للدولة البيزنطية.

تحفل أشعار الجاهليين بالإشادة المبالغ فيها بملوك الغساسنة وذكر فضائلهم، لكن هذه الأشعار تضع الغساسنة فوق ما كانوا عليه، ومن هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني وحسان بن ثابت، وكان حسان ممن يكثر مدح الغساسنة قبل الإسلام، فقد كان يتردد عليهم ويغدقون عليه العطايا.

من الثابت أن لقب (ملك) فيما يتعلق بالغساسنة كان مبالغاً فيه، فقد كانوا عمّالاً للبيزنطيين لا أكثر، حتى إن تَسَمّوا بخلاف ذلك؛ فالمصادر البيزنطية تؤكد أن الإمبراطور جستنيان منح الحارث بن شمر الغساني لقب (فيلارخ) عام ٥٢٨م على إثر انتصاره على المنذر بن ماء السماء، ملك المناذرة؛ ولقب

فيلارخ يعني (العامل)، أي إنه عامل للبيزنطيين على مناطق معينة. وجاء هذا التكريم على إثر قيام الغساسنة بالدور الأمني المطلوب منهم، وهو في هذه الحالة قتال أبناء عمومتهم من المناذرة التابعين للدولة الساسانية.

من الواضح أن البيزنطيين لم يحفلوا بالغساسنة ولم ينظروا إليهم إلا كقوة أمنية يوظفونها لخدمة مصالحهم، وهو ذات البعد الذي نظر من خلاله الساسانيون الفرس إلى المناذرة؛ فعندما نتحدث عن (ممالك) شمالي الجزيرة، فنحن نتحدث في الواقع عن كيانات وظيفية مسلوبة السيادة، إلا إذا تعلق الأمر بقتالها لبعضها البعض أو قتال القبائل العربية في الصحراء لدفع غاراتها.

انتهى نفوذ الغساسنة بعدما وقعت الشام وفلسطين تحت الاحتلال الفارسي عام ٦١٣م. وعندما أعاد هرقل السيطرة على هذه المناطق عام ٦٢٨م حاول استعادة الدور الوظيفي للغساسنة، فعادوا إلى واجهة الأحداث ولكن بشكل أقل تأثيراً ولزمن قصير، فقد أنهى الفتح الإسلامي نفوذ الغساسنة نهائياً، ففي هذه الفترة تذكر السيرة اسم جبلة بن الأيهم الغساني كآخر أمير غسّاني، وكان قد قاتل إلى جانب البيزنطيين في معركة اليرموك، واعتنق جبلة الإسلام بعد ذلك في زمن عمر بن الخطاب ثم عاد إلى النصرانية والتحق بالقسطنطينية.

مملكة أكسوم

التفاصيل التي ذكرتها الكتب السماوية الثلاثة عن مملكة سبأ وعن اللقاء التاريخي بين ملكتها والنبي سليمان ﷺ تلقي بعض الضوء على طبيعة هذه المملكة ومركزيتها في القرن العاشر قبل الميلاد، وعلى حجم قوتها وثرائها، وهو تأثير لا يزال يُلهم مخيلة الأدباء والشعراء والفنانين، ويؤسس لكثير من الأخبار والأساطير والمرويات الشعبية. والثابت أن مملكة سبأ كانت تقع على طرق تجارية بالغة الأهمية للعالم القديم، فهي واصلة بين التجارة الهندية والصينية وبين الأسواق المصرية واليونانية ثم الرومانية والفارسية، وطورت نظام كتابة بخط المُسند، ونقلته إلى المواقع التي سيطرت عليها في شمال الجزيرة والحبشة، ونظاماً كتابياً آخر هو الزبور، وكان أهلها يستخدمون خط المُسند لتدوين الأحداث التاريخية، ويستخدمون الزبور لتدوين المعاملات اليومية.

ويُعتبر خط المُسند الخط المؤسس للحرف العربي والأمهري والتيجراني، ويُكتب من اليمين إلى الشمال.

على الجانب الإفريقي، خلّد الإثيوبيون تراث مملكة سبأ، لا سيما حينما اعتبروا أن الملوك الإثيوبيين منحدرون من الملك منليك (كلمة منليك تعني «ابن الحكيم»)، وهو حسب معتقداتهم ابن سليمان من ملكة سبأ، ويسمونها (مكيدا) في الكتابات الإثيوبية، لا سيما (كتاب **مجد الملوك**)، الذي أصبح مرجعاً لشرعية ملوك أثيوبيا ممن يزعمون الانتساب إلى سليمان. وتقول الأسطورة إن ملكة سبأ وضعت منليك في طريق عودتها من زيارة سليمان، ويقولون إنه عاد ليزور أباه بعدما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وإن سليمان فرح به كثيراً، وأعطاه التابوت المقدّس الذي فيه عصا موسى، فرجع بالتابوت إلى الحبشة، وتبنى اليهودية ديانة رسمية لسبأ، وإن الملوك من نسله استمروا في حكم إثيوبيا حتى القرن العاشر الميلادي، أي حتى نهاية مملكة أكسوم[١٨].

ويميل الباحثون إلى اعتبار هذه القصة حكاية مختلَقة، لا يقوم عليها دليل؛ إذ يُعتقد أن مملكة سبأ في عهد سليمان لم تكن قد توسعت بعد لتشمل الحبشة، كما أن رواية إنجاب ولد من علاقة بين سليمان وملكة سبأ لم تثبت، وعلى الأرجح أن الملوك الإثيوبيين أرادوا في مرحلة متأخرة نسج هوية خاصة بهم، تزوّدهم بشرعية دينية، يكونون فيها من نسل سليمان، والكتاب الذي احتوى هذه الروايات (كتاب **مجد الملوك**) كُتِبَ في القرن الثاني عشر الميلادي، وصار أساساً منذ ذلك الوقت للهوية القومية الإثيوبية، ولشرعية السلالة الحاكمة في إثيوبيا، لدرجة أن الدستور الإثيوبي تضمن مادة تعطي الحق الإلهي في الحكم للأباطرة من نسل منليك، ولذلك كان هيلا سيلاسي ـ آخر الأباطرة الإثيوبيين (الذي حكم أثيوبيا من ١٩٢٨ ـ ١٩٧٤م) ـ يعتبر نفسه سليل ذلك النسب السليماني، وأن ترتيبه هو الـ ٢٢٥ في تسلسل الملوك المنحدرين من منليك، ولذلك كان من ألقابه الرسمية أسد يهوذا، كما أن كلمة هيلا سيلاسي تعني قوة الثالوث.

ولدت مملكة أكسوم مع بداية القرن الميلادي الأول، واستمرت حتى القرن العاشر، وفي عهدها الذهبي شملت سلطتها مساحات شاسعة من أراضي إريتريا وشرقي السودان وإثيوبيا وجيبوتي وصولاً إلى مدينة بربر شمالي الصومال، واعتنق ملك أكسوم المسيحية في وقت مبكر، إذ تشير العملات

(١٨) *The Glory of Kings*, Translated by Miguel F. Brooks (Eritrea; Asmara: The Reds Sea Press, 2002).

والمسكوكات إلى أن الملك الأكسومي اعتنق المسيحية عام ٣٣٠م، بالتزامن مع الفترة التي اعتنق فيها الإمبراطور الروماني قسطنطين المسيحية.

كثيرة هي العوامل التي أثرت على مكة سياسياً واجتماعياً واقتصادياً في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، لكن مملكة أكسوم ـ أو (الحبشة) كما يطلق عليها العرب ـ تعتبر مصدراً لأهم المؤثرات، وأسباب ذلك:

أولاً: أن أكسوم تعتبر امتداداً جغرافياً طبيعياً لجزيرة العرب، فالحجة القائلة إن البحر الأحمر حاجز طبيعي فصل الحجاز عن شرق افريقيا وباعد فيما بينهما، على اعتبار أن أهل مكة كانوا أقرب إلى البداوة، وأبعد عن ركوب البحر، ليست دقيقة. والصحيح أن العرب كانوا يقطعون البحر الأحمر بيسرٍ وسهولة، ودليل ذلك الموانئ الكثيرة الممتدة على ساحلي البحر المتقابلين، والسفن العابرة كانت راتبة في رحلاتها، لها جدول محدد. وقد روت السيرة النبوية أن المسلمين ممن هاجروا إلى الحبشة ركبوا سفينتين كانتا على وشك المغادرة من ميناء الشعبية، فلم تلحق بهم قريش، وأن أجرة الراكب كانت نصف دينار، وهو الدينار الذهبي البيزنطي. والوقت اللازم لقطع البحر الأحمر في حال كانت الرياح مواتية لا يزيد على يومين اثنين، وهو زمن يسير مقارنة بالأسابيع اللازمة لاجتياز الصحراء باتجاه الشام أو العراق أو جنوباً إلى اليمن، ولذلك فإن البحر الأحمر كان قناة تواصل سهلة وميسورة، وليس حاجز انفصال بين الجزيرة والحبشة.

ثانياً: الروابط الاقتصادية بين الطرفين كانت وثيقة، فقد كانت الحبشة مقصداً تجارياً معتاداً لأهل مكة، لتبادل البضائع من جلود وأخشاب نادرة وأحجار كريمة وعطور وغيرها، ولم تكن الحبشة مجرد جهة تجارية، بل كانت نقطة عبور إلى ما وراءها من أسواق في العمق الإفريقي، وصولاً إلى مَرَوِي(١٩) بالسودان وإلى النوبة. وتدل بعض الأخبار على أن تجار قريش كانوا كثيراً ما يُبحرون بتجارتهم من وإلى موانئ الحبشة ثم يركبون البحر من هناك جنوباً إلى عدن، وهي طريق أسرع وأيسر من الطريق البري العابر لجنوب الجزيرة، لا سيما في فترات الاضطراب السياسي والحروب الأهلية في اليمن.

---

(١٩) مدينة أثرية في شمال السودان الحالي على الضفة الشرقية لنهر النيل، وتبعد حوالي ٢٠٠ كم من الخرطوم.

ومن الواضح أن الأحباش كانوا ينظرون إلى أهل مكة نظرة احترام وتقدير، فهم في نظرهم (أهل الله)، وهي الصفة ذاتها التي كانت كثير من قبائل العرب تنظر بها إلى أهل مكة. وقد تشكلت بين بعض تجار مكة والنجاشي علاقات وثيقة، كتلك التي جمعت بين عمرو بن العاص والنجاشي كما سيأتي ذكره في حديث هجرة الحبشة.

ثالثاً: الروابط اللغوية كانت عميقة بين الجانبين، ذلك أن اللغة الجعزية القديمة، التي تُعتبر اللغة المؤسسة للغتين الرئيستين في إثيوبيا في الوقت الحاضر: التيجرية والأمهرية، هي لغة سامية ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغات العربية القديمة كالسبئية والمعينية والحميرية، وهو ما أورث اللغة العربية المتأخرة صلات وثيقة بالجعزية، فتبادلت وإياها أساليب اللغة ومفرداتها. وأغلب الظن أن التواصل بين الطرفين كان ممكناً من غير الحاجة إلى ترجمة، وهو ما كان ظاهراً في الحوار بين جعفر بن أبي طالب والنجاشي.

هذا التواصل اللغوي بقي حاضراً في العهد الإسلامي، فكثير من المفردات التي وردت في القرآن الكريم وفي السياق الديني عموماً هي من ذات الأصل الجعزي السبئي، وبقيت حية في الجعزية وأخذها العرب عنها، ومثال ذلك كلمة قريش، التي تعني التُّجار بالجعزية، وكلمات: منبر، محراب، سُحت، جبت، طاغوت، قسورة، منسأة، مشكاة، وغيرها. ومما روي في الحديث أنّ كلمة مصحف التي استخدمت أول مرة بعد جمع القرآن الكريم أُخذت من اللسان الحبشي، وإن اعتبر البعض أنها من المشترك السامي الجامع، وليس حبشياً حصراً[٢٠].

رابعاً: كثير من سكان مكة كانوا من أصول حبشية، بعضهم من العبيد، مثل بلال بن رباح، وبعضهم من التجار والمقيمين والصناع، ما يعني أن أهل مكة كانوا على صلة يومية باللغة الحبشية وبعادات الأحباش في الطعام والشراب والملبس، ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن بركة أم أيمن حاضنة الرسول الكريم كانت حبشية، وهي التي قامت على حضانته بعد وفاة أمه وبقيت ملازمة له طوال حياته، وكان يصفها بقوله: «أم أيمن أمي من بعد أمي»، واذا رآها

---

(٢٠) عبد الصبور شاهين، **تاريخ القرآن**، ط٣ (مصر؛ القاهرة: دار النهضة، ٢٠٠٧)، ص١٤٣.

فرح وقال: «هذه بقية أهل بيتي»[٢١]؛ أي إن الثقافة واللغة والعادات الحبشية لم تكن بعيدة عن بيت النبوة. ونشير أيضاً إلى الحديث الشريف الذي اصطحب فيه النبي عائشة في يوم عيد لمشاهدة الأحباش وهم يلعبون بالرمح، فحضورهم في المدينة أيضاً كان مألوفاً وطبيعياً وشكلاً من أشكال الحياة المعتادة.

---

(٢١) ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (بيروت؛ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤)، ج ١٣، ص١٩٨.

الفصل الثالث

مكة من الهامش إلى المركز

﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَـٰفِهِمْ﴾ [قريش: ١ - ٢]

مما سبق من حديث عن الخارطة السياسية ومراكز القوى الإقليمية والعالمية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، يمكننا الخروج بنتيجةٍ هي أن مكة كانت بلدة صغيرة تعتمد في وجودها واقتصادها بشكل رئيس على موسم الحج في عهد قصي وعبد مناف، مع وجود نشاط تجاري محلي، يعتمد في الأساس على البضائع التي يأتي بها الحجيج إلى أسواق مكة، وأن الطفرة الاقتصادية والنقلة النوعية للحياة المكية بدأت بعدما تمكّن هاشم بن عبد مناف من إبرام اتفاقياته (إيلاف) مع الروم ومع القبائل العربية الواقعة على الطريق البري بين الشام ومكة ثم بين مكة واليمن، ليتوسع الإيلاف بعد وفاة هاشم ويشمل العراق والحبشة، وأن هذا الإيلاف قد أسس لمفهوم التجارة الآمنة، في عصر كانت فيه الحروب بين الفرس والروم في أوجها، وقد أثرت هذه الحروب على النشاط التجاري العالمي لأنها جميعاً كانت تحدث حول المعابر البحرية والطرق البرية الواصلة بين أسواق العالم القديم.

وحتى تحتفظ بهذه الوظيفة كان ينبغي على مكة أن تحافظ على معادلة «عدم انحياز سياسي» حيال الصراعات الإقليمية والدولية، لأنها إن أرادت ممارسة وظيفتها الواصلة بين المتصارعين، فينبغي ألا تُحسب على طرف بعينه من تلك الأطراف، فليس لها مصلحة في معاداة الفرس الذين يسيطرون على أسواق اليمن والعراق، ولا مصلحة لها في معاداة الروم، ممن يسيطرون على مصر والشام؛ بل لا بد من علاقات ودية مع الطرفين تضمن استمرار الإيلاف وما يفتحه من حدود أمام قوافل قريش المحملة بالبضائع. ومن أجل الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع القطبين الكبيرين كان لا بد من علاقات دافئة مع حلفائهما كذلك: مملكة أكسوم المسيحية؛ الجار القريب في الحبشة المنحازة للروم،

وملوك الحيرة في العراق المتحالفين مع الفرس، والغساسنة في الشام المتحالفين مع الروم.. كل هذه الأطراف ضرورية لضمان قنوات تواصل عبرها مع الروم والفرس من ناحية، ومهمة لأن أراضيها أسواق قوافل قريش ومصدر بضاعتها من ناحية أخرى.

عدم الانحياز المكي ودرس نجران

التشبث بعدم الانحياز دفع مكة إلى رفض كل محاولات الزج بها في أتون التنافس بين القوتين العظميين في ذلك الوقت، وتجربة نجران في هذا المضمار كانت مريرة؛ إذ يذكر المكيون كيف أحدث التنافس الرومي الفارسي في اليمن فساداً كبيراً، وولّد صراعات عميقة، وصلهم خبرها، وبعض خطرها أيضاً.

كانت نجران مركزاً تجارياً مهماً بين اليمن وأسواق الروم والفرس، وكانت نقطة عبور مهمة لقوافل التجارة على طريق البخور، ومنها يتفرّع الطريق القادم من اليمن إلى طريقين: الأول يتجه شمالاً عبر الحجاز إلى مصر والشام، والثاني إلى الشمال الشرقي باتجاه هجر وأراضي الدولة الفارسية؛ فمن نجران كانت القوافل تصل اليمن بالروم والفرس، ولذلك صارت نقطة صراع ساخنة بين الإمبراطوريتين منذ زمن بعيد. وتعود محاولات الروم للهيمنة على نجران إلى عام ٢٥ قبل الميلاد، عندما سيّر الحاكم الروماني على مصر آليوس جالوس بتوجيهات من الإمبراطور الروماني أغسطس جيشاً للسيطرة على طرق التجارة في الجزيرة العربية للاستيلاء عليها وعلى ثروتها العظيمة التي اشتهرت بها من الاتجار بالتمر واللبان والبخور، وللقضاء أيضاً على لصوص البحر الذين كانوا يحتمون بسواحل الحجاز واليمن، وللهيمنة على البحر. وقد أمر بوضع حرّاس على ظهر السفن التي تجتاز البحر الأحمر، لحمايتها من أولئك اللصوص. وواجه الجيش فشلاً ذريعاً بسبب البيئة القاسية والمرض.

وقد نقل لنا الرحالة والجغرافي اليوناني سترابون (٣٦ ق م ـ ٢٤م) المقرّب من آليوس تفاصيل مثيرة عن هذه البعثة العسكرية؛ فقد وصل الجيش الروماني إلى يثرب، وودع أهلها، واتجه جنوباً إلى نجران، التي يصفها سترابون بأنها تابعة لمملكة سبأ، فاحتلها واتخذها قاعدة لمهاجمة مأرب عاصمة سبأ، غير أن الرومان اضطروا للانسحاب بعدما فشا مرض غير معروف

في الجند، وفقدوا أعداداً كبيرة منهم[1].

ولما ثار الحميريون على سبأ عام ٢٨٠م سيطروا على نجران، إلا أنّ الكتابات الحميرية القديمة تتحدث عن ثورة قام بها السكان بمساعدة من الحبشة، غير أن الحميريين استطاعوا إخمادها.

وتسجل الكتابات القديمة محاولة من طرف آخر مقرّب من الفرس للسيطرة على نجران قام بها ملك المناذرة، امرؤ القيس بن عمرو عام ٣٢٨م، ومن الطبيعي أن يكون ذلك بتوجيه ودعم من الفرس، على اعتبار أن المناذرة كانوا حلفاء الفرس وأداتهم في التدخل في الجزيرة.

استمرت محاولات الحبشة للسيطرة على نجران من خلال أهل نجران ممن بدؤوا باعتناق المسيحية، ووجدوا في إخوانهم الأحباش حليفاً مهماً ضد بطش الحميريين وقسوتهم في التعامل مع أتباع الدين الجديد. وبالطبع فإن العلاقة المتميزة بين المسيحيين.والأحباش كانت تُعتبر في نظر الدولة الحميرية خيانة وطنية، ذلك أن الحبشة (مملكة أكسوم) كانت حليفاً قوياً للروم، وهو ما يتناقض مع توجه الدولة الحميرية الموالية للفرس. وفي هذا السياق قام ذو نواس بحملة وحشية ضد المسيحيين، محاولاً اجتثاثهم واجتثاث النفوذ الحبشي الروماني معهم.

يذكر المكيون محرقة نجران، فعندما بُعث النبي ﷺ كان قد مضى عليها تسعون عاماً، فذكرياتها وأخبارها حاضرة في الذهن المكي، ولذلك نبّه إليها القرآن في الفترة الأولى من البعثة، وقصتها كما وردت في المصادر العربية والبيزنطية هي أن «ذا نواس الحميري»، أو «دانياس» كما ورد في المصادر البيزنطية، كان موالياً للفرس، وأدرك أن انتشار المسيحية في أرجاء اليمن سيقود إلى تعزيز الهيمنة الرومانية، لذلك شن في عام ٥٢٣م، بتشجيع من الفرس، حملة واسعة على المسيحيين في المُخا وظفار يريم وفي نجران. وتروي المصادر القديمة أن الجنود الحميريين كانوا يصبون الزيت على رؤوس النساء ويحرقونهن أحياءً في نجران. وورد في المصادر البيزنطية والسريانية أن «ذا نواس» هاجم المسيحيين والبعثات الحبشية في ظفار يريم، وأنه توجه بعدها إلى نجران، وبعد أن استسلمت المدينة أحرق الكنائس وخيّر المسيحيين بين

(١) جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٣، ص٤٣.

الموت حرقاً أو التخلي عن دينهم. وتشير بعض الكتابات السبئية القديمة التي عُثر عليها في اليمن بأن «ذا نواس» قد قتل ما يزيد على اثنين وعشرين ألف مسيحيٍّ خلال حملاته. وقد عثر المستكشفون على نص سبئي غاية في الأهمية، وجد منقوشاً على الحجر بخط المسند في بئر حما، على بعد ١٢٠ ميلاً شمال شرقي مدينة نجران، ويصف النص الأجواء التي صاحبت هذه الحملات، ونورده هنا مترجماً:

«ليبارك الرب الذي له ملك السماوات والأرض الملك يوسف أسار يثأر ملك كل الشعوب، وليبارك الأقيال الذين ناصروا سيدهم الملك يوسف أسار يثأر عندما أحرق الكنيسة وقتل الأحباش في ظفار وعلى حرب الأشاعرة وركبان السفن، وقد أفلح الملك في هذه المعركة في قتل اثني عشر ألفاً وخمسمئة قتيل وأسر أحد عشر ألفاً وتسعين وغنم مئتي ألف رأس من الإبل والبقر والضأن، وقد كتب هذه المسند القيل شرحال ذي يزن عندما رابط في نجران مع شعب همدان والعرب المقاتلين اليزنيين وأعراب كندة ومراد ومذحج وأخوته الأقيال الذين رابطوا مع الملك على البحر من جهة الحبشة، وأقاموا سلسلة من التحصينات في باب المندب، وجميع الذين ذكروا بهذا المسند قاتلوا وغنموا ورابطوا في هذه المهمة، وعادوا في تاريخ ثلاثة عشر، وليبارك الرحمن أبناء شرحبال يكمل وهعن وأسار بن لحيعت»(٢).

المصادر البيزنطية بدورها تتحدث عن واقعة نجران، وتذكر أن شخصاً يُسمى دوس ذو ثعلبان كان الناجي الوحيد من المحرقة، وأنه لجأ إلى القسطنطينية، وأطلع الروم على تفاصيل ما حدث، وهو ما أغضب الإمبراطور جستين الأول، الذي كان يعتبر نفسه حامي المسيحية، فشجع ملك الحبشة على احتلال اليمن وإنقاذ المسيحيين. وتشير المصادر البيزنطية أيضاً إلى أن جستين الأول زوّد ملك الحبشة بسفن نقلت جنوده إلى اليمن، واستطاع الأحباش قتل «ذا نواس»، وإنهاء الحكم الحميري في اليمن عام ٥٢٧م.

قصة «ذا نواس» هذه وردت أيضاً في رسالة بعث بها الأسقف شمعون من اليمن عام ٥٢٤م إلى الإمبراطور، وتضمنت الرسالة تفاصيل مروعة عما حدث

(٢) Beeston, A. F. L., Two Bi'r Hima Inscriptions Re-Examined (Bulletin of the School of Oriental and African Studies (University of London, Vol. 48, No. 1, 1985).

في نجران، وسردت قصصاً لأشخاص معينين ووصفاً لما لاقوه على يد «ذي نواس»(٣).

مصادر مملكة أكسوم الحبشية تروي أن رجلاً يسمى أمية حضر إلى بلاط الملك الحبشي وروى له تفاصيل ما حدث، فجهز الملك جيشاً من سبعة آلاف مقاتل، كان من قادته شخصٌ يُدعى أبرهة (أبراهام)، وأن هذا الجيش أنهى حكم الحميريين وأعاد سيطرة الأحباش على اليمن.

اعتُبرت محرقة نجران حدثاً مهماً في التاريخ المسيحي. وعلى الرغم من أن مسيحيي نجران كانوا ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية قد رسّمت زعيم المسيحيين في نجران، وكان اسمه الحارث، قديساً تحت اسم القديس أريثاس.

ومن الواضح من سياق الحرب التي شنها ذو نواس على المسيحيين وعلى الوجود الحبشي في اليمن أنه كان يريد تصفية الوجود الروماني فيها، إذ يذكر المؤرخ اليوناني بروكبيوس، الذي عاش في القرن السادس الميلادي، في كتابه «**تاريخ الحروب الرومانية الفارسية**»(٤) أنّ «ذا نواس» (دومانيوس) قد أجمع في عداوة الروم مما جعله يهاجم كل سفينة تجارية رومية تبحر في البحر الأحمر متذرعاً بأن الروم يضطهدون اليهود في جهات حوض البحر الأبيض المتوسط، فكان من نتاج تدابير «ذا نواس» أن تعطلت تجارة البحر الأحمر لأنها كانت تنتهي يومذاك إلى أسواق الروم المسيطرين على مصر وعلى مداخل البحر الأحمر الشمالية في فلسطين.

لحق الضرر الاقتصادي أسواق الحبشة، فكتب ملك الحبشة إلى «ذا نواس» محتجاً على سياسته تجاه الروم مبيناً ما ترتب عليها من ضرر بتجارة الحبشة في البحر الأحمر ومهدداً بأنه لن يقف مكتوف اليدين إذا استمرّ ذو نواس في اتباع سياسة تلحق الضرر بالمصالح الحبشية. وعندما استمر في مواقفه تجاه الروم والنصارى ممن كانوا باليمن أو جاؤوا مبحراً لموانئها وموانئ الحبشة وجنوب البحر الأحمر، لم يجد النجاشي ملك الحبشة بدأ من إعلان

---

(٣) Walker, Joel Thomas, *The legend of Mar Qardagh: Narrative and Christian Heroism in Late Antique Iraq* (University of California Press, 2006).

(٤) Procopius, *History of the Wars*, Translated by H. B. Dewing (Massachusetts; USA: Harvard University Press, 1914).

الحرب على ملك اليمن «ذي نواس». على أنه لما تلبس بالحرب أعلن أنه يحارب أيضاً لمناصرة النصارى المستضعفين باليمن[5].

مكة ترث نجران

درس نجران والصراع العالمي عليها لا شك أنه مُعطًى مهم في تشكُّل الوعي القرشي بخطر الوقوع في فخ الاستقطاب الدولي، فإذا أخذنا بالاعتبار أن تلك الفترة كانت بعدما أبرم هاشم الإيلاف مع الأطراف المختلفة؛ فهذا يعني أن مكة في طريقها لوراثة نجران من حيث كونها منطقة تجارة عابرة للصحراء، وينبغي لها أن تعتبر بنتيجة الصراع على نجران من أجل حماية نفسها من مصير مشابه، وهو ما يؤكد استراتيجية عدم الانحياز القرشي.

تداعيات نجران أصابت مكة بشررها، فقد فتحت ذريعة لتدخلٍ خارجي حبشي بيزنطي أطاح بـ «ذي نواس» الحميري واستبدل بالنفوذ الفارسي نفوذاً بيزنطياً، وما هي إلا سنوات قليلة حتى جاء جيش أبرهة محاولاً اجتثاث أصل الاستثناء المكي ممثلاً في الكعبة.

بعد أن سيطر الأحباش على اليمن بدعم لوجستي مباشر من البيزنطيين عام ٥٢٥م، عيّن النجاشي ـ واسمه كالِبْ ـ مسيحياً حميرياً اسمه سُميفع آشوع، حاكماً على اليمن، وباشر هذا الأخير بإعمار الكنائس التي هدمها ذو نواس، غير أن فترة حكمه لم تطل، وتشير المصادر البيزنطية إلى أن سُمَيْفِع لم يستطع القيام بدوره، إذ «أرسل الإمبراطور جستنيان رسولاً عنه يُدعى (يوليانو) أو (جوليانو) إلى النجاشي وإلى السميفع آشوع، ليتودد إليهما، وليطلب منهما باسم العقيدة المشتركة التي تجمعهم أن يكوِّنا مع الروم جبهة واحدة في محاربة الساسانيين، وأن يقوما مع من ينضم إليهم من قبائل العرب بمهاجمتهم. وحمل السفير إلى السميفع رجاء آخر، هو موافقته على تعيين رئيس عربي اسمه قيس عاملاً (فيلارخ) على قبيلة عربية تدعى (معديني)، أي قبيلة (معد)، ليشترك معه ومع عددٍ كبير من أفراد هذه القبيلة بمهاجمة الساسانيين.

وقد رجع السفير فرحاً مستبشراً بنجاح مهمته، معتمداً على الوعود التي

---

(٥) جعفر ميرغني، **أوراق المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا** (جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠٠٦)، ص٩.

أخذها من العاهلين، غير أنهما لم يفعلا شيئاً، ولم ينفّذا شيئاً ممّا تعهدا به»[٦].

خاب ظن الإمبراطور جستنيان بقدرة السميفع على القيام بهذه المهام، فقرر تنحيته وتولية شخص يكون أكثر ولاءً وقدرةً على تنفيذ الأهداف الاستراتيجية للروم، وهنا يظهر اسم أبرهة (وباللاتينية آبراموس وتعني إبراهيم) على مسرح الأحداث. وهناك خلاف على شخصية أبرهة وماذا كان يعمل قبل توليه حكم اليمن، فتشير بعض المصادر إلى أنه كان من قادة الأحباش الذين رافقوا الجيش الحبشي في إنهاء حكم الحميريين، بينما يذكر بروكبيوس أن أبرهة كان مملوكاً لتاجر رومي يعمل في ميناء أدوليس على الساحل الأثيوبي الغربي للبحر الأحمر. وعلى كل حال فإن أبرهة قتل السميفع وتولى حكم اليمن، ولقّب نفسه باللقب الملكي الحميري: «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في المرتفعات والتهائم». ويصف بروكبيوس أبرهة بأنه كان متعصباً جداً للمسيحية.

هنا يتبيّن لنا من مجمل النصوص أن الدور الذي أراده جستنيان في اليمن لم يكن يحظى بموافقة تامة من الأحباش، فقد تبين للبيزنطيين أن الأحباش لن ينحازوا بشكل صارخ للروم ضد الفرس، فقد علمتهم الدروس السابقة أن الفرس قادرون على الانتقام، وتشير بعض الكتابات إلى أن الأسطول الفارسي قام بحملة ضد مملكة أكسوم وسيطر على جزيرة دهلك المقابلة للساحل الأكسومي في البحر الحمر، فآثر النجاشي أن يبقي خط رجعة فيما لو عاد الفرس لاحتلال اليمن مجدداً، وكانت حساباته السياسية حكيمة، لأن الفرس سيعودون عمّا قريب بالفعل إلى اليمن.

المهم أن الروم اتخذوا قرارهم بدعم أبرهة الذي استغل انشغال مملكة أكسوم في معارك مع النوبة، فحقق طموحه بأن يصبح ملكاً على اليمن، أغنى الدول في تلك الفترة، إذ كانت تسمى في كتب التاريخ البيزنطي (الأرض السعيدة).

غضب النجاشي من انقلاب أبرهة على السميفع، وسيَّر جيشاً بقيادة أرياط للقضاء عليه، غير أن أبرهة انتصر على أرياط. بعدها وقعت هدنة بين أكسوم

---

(٦) **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مصدر سابق.

وأبرهة الذي أرسل سفارة للنجاشي يسترضيه ويعلن ولاءه له، فقبل النجاشي عذره وبارك ملك أبرهة على اليمن.

نتوقف قليلاً عند (قيس) الذي تحدث عنه السفير البيزنطي لملكي الحبشة واليمن مطالباً بدعمه ليصبح ملكاً على قبائل معد، فهو امرؤ القيس بن حجر، صاحب المعلقة المشهورة، والذي كان قد سعى بالفعل ليكون ملكاً على العرب، وتشير المصادر الإسلامية إلى رحلته نحو القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور، ولكنه توفي في أنقرة في طريق عودته، على أثر مرضٍ ألمّ به، وينسب إليه المؤرخون قصيدةً قالها قبل موته، يتحدث فيها عن رحلته إلى بلاد الروم وتطلعه لكي يصبح ملكاً. وبموت امرئ القيس اتجهت أنظار البيزنطيين إلى أبرهة لكي ينفذ مهمة السيطرة على قبائل معد بن عدنان.

بعض أنشطة أبرهة وأخبار حملاته مدونة لحسن الحظ في ستّ كتابات بخط المسند، أربع منها كتبها هو باسمه، عثر عليها في خمسينيات القرن الماضي في منطقة تدعى آبار المريغان قرب نجران، تذكر إحداها معاركه مع يزيد بن كبشة، سيد قبيلة كندة، ويتحدّث عن لقاءات لأبرهة مع مبعوثين فرس وبيزنطيين، ونص آخر عن مواجهات بينه وبين قبائل معد، واحدة ضد عامر بن صعصعة بالقرب من الطائف والأخرى في حلبان في الشمال الشرقي للجزيرة، وورد فيه ما يلي:

«بقوة الرحمن ومسيحه الملك أبرهة زيبمان ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وقبائلهم (في) الجبال والسواحل، سطر هذا النقش عندما غزا (قبيلة) معد (في) غزوة الربيع في شهر ذو الثابة (أبريل) عندما ثاروا كل (قبائل) بني عامر وعين الملك (القائد) أبي جبر مع (قبيلة) علي (والقائد) بشر بن حصن مع (قبيلة) سعد (وقبيلة) مراد وحضروا أمام الجيش ـ ضد بني عامر (وجهت) كندة وعلي في وادي ذو مرخ ومراد وسعد في وادي على طريق تربن وذبحوا وأسروا وغنموا بوفرة وحارب الملك في حلبن واقترب كظل معد (وأخذ) أسرى، وبعد ذلك فوضوا (قبيلة معد) عمرو بن المنذر (في الصلح) فضمنهم ابنه (عن أبرهة) فعينه حاكماً على معد ورجع (أبرهة) من حلبن (حلبان) بقوة الرحمن في شهر ذو علان في السنة الثانية والستين وستمائة».

ووفقاً للنص فإن هذه الحملات انتهت بإخضاع تلك المناطق. ومن الملاحظ أن النص لا يتحدث عن مكة، فليس بعيداً أن لا تكون هذه الحملة

هي التي دخلت مكة بقصد هدم الكعبة، على اعتبار أنه قد وصل الطائف وليست بعيدة عن مكة، ومما يؤكد ذلك أن مصادر الأخباريين العرب تشير إلى زيارة أبرهة للطائف، وأن ثقيفاً وادعته فانصرف عنهم، «حَتَّى إِذَا مَرَّ بِالطَّائِفِ خَرَجَ إِلَيْهِ مَسْعُودُ بْنُ مُعَتِّبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ ثَقِيفٍ فِي رِجَالِ ثَقِيفٍ فَقَالُوا لَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّمَا نَحْنُ عَبِيدُكَ سَامِعُونَ لَكَ مُطِيعُونَ لَيْسَ عِنْدَنَا لَكَ خِلَافٌ، وَلَيْسَ بَيْتُنَا هَذَا الْبَيْتَ الَّذِي تُرِيدُ - يَعْنُونَ اللَّاتَ - إِنَّمَا تُرِيدُ الْبَيْتَ الَّذِي بِمَكَّةَ وَنَحْنُ نَبْعَثُ مَعَكَ مَنْ يَدُلُّكَ عَلَيْهِ فَتَجَاوَزَ عنهم»(٧).

ومما يعزز هذه الرواية أن أحد النصوص التي كتبها أبرهة تتحدث عن كنيسة كبيرة بناها في مأرب(٨)، وعلى الأغلب أنها (القُلّيس) الوارد ذكرها في كتب التاريخ العربي(٩)، وكلمة قليس مشتقة من «قلسن» بالحميرية وتعني كنيسة. أما إغفال النصوص الستة الإشارة إلى مكة فهو مفهوم ومبرر، فهذه النصوص ليست روايات محايدة أو تقارير صحفية موضوعية، فالملوك كانوا يدونون انتصاراتهم وفتوحاتهم من أجل أن يَخلُد ذكرهم، وما حدث مع أبرهة في مكة كان هزيمة، ومن ثَمَّ لا يدخل ضمن أمجاده وانتصاراته، فليس من مصلحته سرده أو الإشارة إليه.

وعموماً فإن السياق العام للكتابات الست يدفعنا للاستنتاج بأن بعثة أبرهة العابرة للحجاز كان لها هدف رئيسي هو السيطرة على طرق القوافل التجارية من خلال إخضاع قبائل الحجاز لهيمنته، ويعرف أبرهة أنه إن فعل ذلك فسوف يكون قد حقق مكسباً مهماً، على اعتبار أن تلك الطريق تحديداً تمنحه وزناً استراتيجياً لدى الروم، ممن جاؤوا به لهذا الغرض في الأساس.

أما لماذا قرر أبرهة هدم الكعبة، فذلك لأن مكة الواقعة على الطريق التجاري استطاعت أن تميز مكانتها على غيرها من المدن التجارية بوجود

---

(٧) ابن كثير، **البداية والنهاية** (دمشق؛ سوريا: دار الفكر، ١٩٨٦)، ج ٢، ص١٧١.

(٨) إحدى محافظات اليمن حالياً، تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة صنعاء، وتبعد عنها نحو ١٧٣ كيلومتراً.

(٩) راجع حسين مؤنس، **تاريخ قريش: دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر** (جدّة، السعودية: الدار السعودية، ١٩٨٨)، ص١٥٥.

الكعبة، وهو ما لا تمتلك مثله أيٌّ من المدن الأخرى الواقعة على طريق التجارة مثل نجران والطائف ويثرب وخيبر. فإذا أخذنا في الاعتبار أن أبرهة كان متشدداً في مسيحيته وفقاً للمصادر البيزنطية، فقد قاده (كيده) ـ وفقاً للتعبير القرآني ـ إلى محاولة هدم الكعبة، كي يحقق بذلك هدفين: الأول إضعاف مكة وهدم رمزيتها لتصبح جزءاً من منطقة نفوذه، والثاني نشر الديانة المسيحية في أوساط العرب، وهو ما أشار إليه المؤرخون المسلمون بالقول: (وأراد صرف العرب إلى كنيسته)، وصرفهم للكنيسة يتضمن اعتناقهم للمسيحية. ومع أن العرب لم يكونوا أتباع ديانة واحدة محددة، إلا أنهم كانوا جميعاً يعظّمون الكعبة، فصارت بمنزلة رمز الوحدة القبلية العربية، فإزالتها يفتح الباب أمام نشر ديانة جديدة، لا سيما إذا كانت هذه الديانة مدعومة من تحالف ثلاثي مهم: الإمبراطورية البيزنطية، ومملكة أبرهة في اليمن، ومملكة أكسوم في الحبشة. ومن المؤكد أن أهداف أبرهة في دعم انتشار المسيحية لم تكن دينية صرفة، فهو يعرف أن اعتناق العرب للمسيحية يعني ولاءً سياسياً لدولته وللروم.

لم يُفلح أبرهة في فرض سيطرته على الحجاز ولا على شمال الجزيرة، وتذكر المصادر أن أبرهة توفي في وقت بين ٥٦٠ ـ ٥٦٥م وخلفه ابنه يكسوم، فحكم، ثم خلفه ابنه الثاني مسروق[١٠]؛ ومسروق هذا هو الذي واجه ثأراً فارسياً عاتياً، جاء أولاً في شكل مساندة لسيف بن ذي يزن، ثم على شكل احتلال مباشر، وذلك لمحاصرة النفوذ البيزنطي الحبشي في اليمن، واستبداله باحتلال فارسي دام حتى عام ٦٢٨م، عندما أسلم حاكم اليمن الفارسي «باذان» كما سيأتي لاحقاً.

يبقى هنا أن نشير إلى قضية مهمة تتعلق برواية مولد النبي في عام الفيل، فمن الجلي أن أبرهة كان قد توفي قبل ولادة النبي بسبع سنين على الأقل، ومن ثمّ فإذا كان أبرهة قد قاد حملة على مكة فإنها وقعت قبل ميلاد النبي الذي كان على الأرجح عام ٥٧٠م[١١].

---

(١٠) المرجع السابق.

(١١) Mehmet Apaydin, *Siyer Kronolojisi* (Turkey; Istanbul: Kuramar, 2018).

سنعتمد تأريخ أحداث السيرة كاملةً من هذا الكتاب وفقاً لما ورد في كتاب الباحث التركي محمّد أبايدن؛ إذ إنّها الأكثر موثوقية باعتبار اعتماده طريقة علميّة مختلفة لحساب التواريخ، وباعتبار تقاربها مع الكثير من التواريخ التي اعتمدناها وفق قراءتنا للأحداث من زوايا متعددة وأيضاً من مصادر عربية وغير عربية.

وعلى العموم فهذه قضية تحتاج بحثاً منفصلاً، مع الإشارة إلى أن هناك روايات متعددة حول مولد النبي تضمنتها كتب السيرة، منها أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين، وقيل بثلاثين سنة، وهذا رأي الزهري(١٢).

وهناك رأي آخر قد يحل الإشكال، وهو أن أبرهة الذي حاول هدم الكعبة ليس أبرهة الأول الذي ملك اليمن بعد مقتل أرياط؛ فقد ميز الباحث التركي محمد أبايدن في كتابه القيم عن تواريخ السيرة ثلاث شخصيات حملت اسم أبرهة: الأول هو أبرهة الأشرم الذي توفي قبل ولادة النبي بزمن طويل، وهو الذي حاز حكم اليمن وظلت عائلته مسيطرة على اليمن ثلاثين عاماً؛ والثاني هو أبرهة بن الصباح، وهو حفيد أبرهة الأشرم من ابنته ريحانة وأبوه من حمير، فهو حميري، وهذا الذي جاء لغزو الكعبة في حادثة الفيل، وهو قريب من عبد المطلب في السن؛ كما أن هناك أبرهة ثالثاً، هو أبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح، وهو جفيد أبرهة الحميري الذي غزا الكعبة، وهذا أسلم وجاء النبي ﷺ.

فشل أبرهة في إخضاع الحجاز وشمال الجزيرة. كانت له آثار مهمة على توازنات القوى الدولية فيما بعد، إذ أصبح جلياً أن النفوذ البيزنطي يتراجع على جبهتي اليمن والجزيرة في النصف الثاني من القرن السادس، فقد كان الملك الفارسي كسرى أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩م)، المعروف بحنكته وحسن سياسته، يراقب محاولات خصمه الإمبراطور جستنيان للهيمنة على التجارة العالمية من خلال عزل الفرس عن موانئ اليمن، وتعزيز طرق التجارة البحرية عبر البحر الأحمر، ومحاولة السيطرة التامة على الطرق البرية العابرة للجزيرة؛ وكما دعم الروم أبرهة ليكون حليفهم في اليمن، اغتنم الفرس أول فرصة لتوجيه الضربة القاصمة للنفوذ البيزنطي باليمن، فزود الفرس سيف بن ذي يزن بجيش استطاع إيقاع هزيمة ساحقة بالأحباش، ونُصّب سيفٌ ملكاً على اليمن.

أصداء هزيمة الأحباش وانتصار سيف بن ذي يزن كانت إيجابية واحتفالية في مكة، وذلك مفهوم لعدة أسباب؛ أولها: ثأراً من الحبشة ومحاولتها الفاشلة تدمير الكعبة؛ وثانيها: أن عودة الفرس إلى اليمن سوف تعرقل الطريق التجاري في البحر الأحمر، وهو الطريق الذي كان الروم يفضلونه لقلة تكلفته، ولأن

---

(١٢) البداية والنهاية.

البحر الأحمر في تلك المرحلة كان يقع في دائرة النفوذ البيزنطي، وتعثره سوف يعيد الاعتبار للطريق الصحراوي، وهو ما يعني أرباحاً وفيرة لتجارة مكة.

يذكر لنا الأخباريون أن وفداً من زعماء مكة برئاسة عبد المطلب بن هاشم، فيه أمية بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان وخويلد بن أسد ووهب بن عبد مناف، قد سافر لتهنئة سيف بن ذي يزن بانتصاره على الأحباش، وأن عبد المطلب خاطبه على أنه «ملك العرب وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد..». وفي رواية أحداث تلك الزيارة إشارة إلى التراجع الاقتصادي الذي عاشته مكة في ظل هيمنة الروم على اليمن والبحر الأحمر، فقد ورد أن عبد المطلب قال لسيف بن ذي يزن: «نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أنهجك لكشفك الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفود المرزئة»(١٣).

ويبدو أن سفارة عبد المطلب قد نجحت في تأسيس علاقة وثيقة بذي يزن الذي تذكر مصادر الأخباريين أنه أجزل لهم العطاء وخصّ عبد المطلب بعشرة أضعاف ما أعطى للواحد من الوفد.

ومن البديهي هنا أن وفد قريش لم يقم بتلك الزيارة لمجرد التهنئة والاحتفال بطرد الحبشة، لكن قريشاً أدركت أن عهداً جديداً في اليمن قد بدأ، وأنها مدعوة لتوثيق إيلافها مع الملك الجديد، واستعادة ما انقطع من تجارة مع اليمن أثناء الحكم الحبشي، وكان زعماء قريش يدركون من سابق تجربتهم أن النفوذ الفارسي القوي في اليمن سيمنح قريشاً فرصة كبيرة كي تستعيد عافيتها التجارية، فهيمنة الفرس على اليمن تعني انقطاع طريق التجارة البحرية عبر البحر الأحمر، ومن ثمّ سوف ترتفع الأسعار في الشام، ويمكن لقوافل قريش أن تحقق أرباحاً مضاعفة، لأنها ستكون الناقل الحصري لبضائع اليمن القادمة من الهند.

بعدما تولى سيف بن ذي يزن حكم اليمن، بدأ الفرس يطالبونه بتنفيذ سياساتهم ومصالحهم التي من أجلها دعموه، ولكنه كان متردداً في ذلك، ويبدو أنه كان معتداً بنفسه وبمكانته في قومه، ولم يقبل أن يكون تابعاً للسياسة الفارسية؛ عندها قرر الفرس إزالة حكمه، فأرسلوا جيشاً ثانياً سيطر على اليمن

---

(١٣) المصدر السابق.

تماماً وألحقها بالدولة الفارسية، وعيّن لها حاكماً فارسياً ينفذ سياسات كسرى بشكل مباشر.

سفينة الصحراء في مقابل سفن البحر

بعدما خسر الرومُ اليمن، وتراجعت حركة السفن في البحر الأحمر، بدؤوا يفكرون في السيطرة على الطريق البري الصحراوي العابر لمكة، هذه المرة من خلال تعيين ملك مسيحي على مكة يضمن مصالحهم التجارية.

تروي كتب التاريخ أن رجلاً يُدعى عثمان بن الحويرث طلب من قيصر توليته على مكة وأنه أقنعه عندما قال له: «تكون زيادة في ملكك كما كسرى صنعاء»، فاقتنع قيصر وكتب كتاباً مختوماً لعثمان بن الحويرث بتوليته مكة، وكساه كسوة حسنة وحمله على بغلة مسرجة بسرج من ذهب، فأقبل عثمان على أهل مكة وقال لهم: «يا قوم، إن قيصر من قد علمتم، أمانُكم ببلاده، وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ، والعكة من السمن والإهاب(١٤)، فأجمع ذلك ثم أبعث به إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمتنع منكم الشام، فلا تتجروا به، ويقطع مرفقكم منه. فلما قال لهم ذلك خافوا من قيصر، وأخذ بقلوبهم ما ذكر من متجرهم، فأجمعوا أن يعقدوا على رأسه التاج عشية وفارقوه على ذلك».

هنا أراد عثمان بن الحويرث أن يخاطب قريشاً بلغة المصالح، فذكّرهم بالأمان الممنوح لهم في بلاد قيصر، في إشارة إلى الإيلاف، وخوفهم من انقطاع تجارتهم مع الشام إن هم أبَوا الانصياع لأوامر الروم، فلما سمعوا ذلك منه أثّر فيهم، وقرروا الامتثال لكتاب قيصر.

إلا أن فكرة أن يكون في مكة ملك معيّن من القسطنطينية فكرةٌ متعارضة مع استراتيجية قريش في عدم الانحياز، فإن وافقوا على تعيين ملك من قِبل الروم خسروا الفرس، وعندها سيضحّون بعلاقاتهم مع اليمن الخاضع للنفوذ الفارسي، فكان لا بد من أن يرفضوا تولية عثمان، وهو ما كان بالفعل؛ إذ

---

(١٤) الجراب: وعاءٌ يحفظُ فيه الزاد، والقرظ هو: أجود ما تُدبغ به الجلود في أرض العرب، والعكّة هي: وعاءٌ من جلودٍ مستدير، للسمن والعسل، والإهاب هو: الجلد. والمعنى أنّ الضرائب التي ستدفعونها ضئيلة وليست مكلفة لكم.

تقول المصادر إن ابن عمه أبان «صاح على أحفل ما كانت قريش في الطواف: يا لعباد الله، ملك بتهامة!؟ فانحاشوا انحياش حمر الوحش، ثم قالوا: صدق واللات والعزى، ما كان بتهامة ملك قط. فانتقضت قريش عما كانت قالت له، ولحق بقيصر ليعلمه». وهكذا انتصر المنطق الاستراتيجي السليم واستمرت مكة «لَقاحاً لا تُملَك»، كما ورد في سياق الجدل حول موضوع ابن الحويرث[١٥].

رؤية قريش إذاً كانت واضحة حيال الصراع بين الإمبراطوريتين الكبيرتين: الفرس والروم؛ فكلما ازداد التوتر بينهما تعطلت طرق التجارة العالمية وازداد الاعتماد على الوسطاء، وفي ذلك مكمن الربح والغنى لقوافل مكة؛ فطريق الحرير الشمالي الواصل بين الهند عبر آسيا الوسطى باتجاه أوروبا تعطل لفترات طويلة بسبب الصراع الفارسي الرومي على آسيا الوسطى وبسبب هجمات القبائل التركية، وطريق الحرير البحري الأوسط الواصل بين الهند وعُمان وغيرها من موانئ الخليج كان يضطرب كلما اندلع الصراع حول الجزيرة الفراتية المتنازع عليها بين القوتين، أما الطريق الوحيد السالك دوماً فهو البحري الجنوبي الواصل بين الهند واليمن.

التنافس البيزنطي الفارسي على اليمن لم يوقف الطريق البحري الواصل إلى عدن، لكنه كان يؤثر في طريقة نقل البضائع من عدن إلى أسواق فارس والشام، وهنا كانت المعادلة واضحة أمام قريش: إذا كانت اليمن تحت نفوذ المعسكر البيزنطي، فإن السفن البيزنطية ستنقل البضائع من اليمن عبر البحر الأحمر شمالاً إلى الموانئ المصرية وميناء أيلة (العقبة) بتكلفة أقل بكثير من القوافل البرية، وهو ما يهدد الطريق البري العابر للصحراء، ويضعف مكة اقتصادياً؛ أما إذا كانت اليمن تحت النفوذ الفارسي فإن السفن البيزنطية لن تمخر عباب البحر الأحمر بيسر وسهولة، عندها تنتعش التجارة العابرة للصحراء وتزدهر مكة، ولذا فرحت قريش بانتصار سيف بن ذي يزن على الحبشة. وبالفعل فإن الموانئ اليمنية لم تعد تستقبل السفن البيزنطية بعد سقوط الحكم الحبشي باليمن، إذ كان الفرس حريصين على حرمان سفن الروم من نقل تلك البضائع، فانخفض عدد السفن البيزنطية الناقلة للبضائع عبر البحر الأحمر، وانحسرت تجارة الروم مع مملكة أكسوم (الحبشة).

---

(١٥) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق** (دمشق؛ سوريا: دار الفكر، ١٩٨٤)، ج ١٦، ص٨٢.

المعادلة واضحة: سفينة الصحراء القرشية تزدهر كلما تعطلت سفن البحر الأحمر، فحلت الجمال مكان السفن الرومية في وصل موانئ اليمن بالشام في رحلتي الشتاء والصيف. ومع نهاية القرن السادس الميلادي بدأ العصر الذهبي في مكة، وتشير الروايات التي ينقلها الأخباريون إلى أن القرشيين لم يعودوا يقبلون بأقل من ربح يصل إلى مئة في المئة؛ مدركين أنهم باتوا يحتكرون كثيراً من البضائع.

ازدهار مكة

مع نمو المكانة الاستراتيجية لمكة، وزيادة ثراء تجارها، بدأت كثير من مناحي الحياة بالتغير، وشملت الطفرة أنماط التفكير السياسي والاجتماعي والاستهلاكي، وبدأت مكة تنظر إلى نفسها وإلى العالم من حولها نظرة جديدة، فالمدن الواقعة على خطوط التجارة العابرة للحدود تمتاز بسمات جوهرية تطبع حياة سكانها وأنماطها الاجتماعية والسياسية، فالقوافل لا تنقل البضائع فحسب، بل والأخبار والأفكار والأديان وأساليب الحياة المختلفة؛ وبالفعل تأثرت مكة بشكل عميق، فعلى المستوى السياسي استدعت استراتيجية عدم الانحياز مهارات دبلوماسية وحذراً وحسن تصرف واتزاناً ودربة في شؤون السياسة.

الصورة الكئيبة لمكة في نهايات القرن الخامس الميلادي عندما كان الفقراء لا يجدون سبيلاً سوى الاعتفار وانتظار الموت، حلت مكانها في نهاية القرن السادس صورة من الوفرة والثراء والبذخ؛ لقد ارتفعت أرصدة تجار قريش المالية إلى مستويات هائلة، حتى انتشرت أساطير شعبية تُرجع سبب ثروة بعضهم مثل عبد الله بن جدعان إلى أنه عثر على مغارة سرية مليئة بالذهب في الجبل.

استخدم تجار مكة المال من أجل المكانة والمنزلة والسؤدد، فتنافسوا في نصب الموائد، وتقديم الطعام، واستخدام الأواني الذهبية والفضية، ونقلوا عن الروم استخدام السكاكين والملاعق، وبدأ بعض سادة قريش يحرصون على المظاهر الشخصية، فيلبسون أفخر الثياب، ويطيل الواحد منهم ثوبه فيجره على الأرض خيلاءً وبطراً، ويسير الغلمان والعبيد من خلفهم في مظاهر احتفالية شبيهة بما كان يفعله أثرياء الروم.

دخلت مكة بحق زمن الأمن والوفرة في عالم من الفقر والمرض والخوف، فالقرن السادس كان عاصفاً على المستوى السياسي والاقتصادي العالمي بسبب الحرب الشرسة بين الفرس والبيزنطيين، وكان مأسوياً بسبب انتشار الأوبئة، فطاعون جستنيان أودى بحياة أربعين بالمئة من سكان القسطنطينية، واجتاح معظم الأراضي الأوروبية وبلاد فارس، مما خلق جوعاً وفقراً، مع ما تبع ذلك من قلاقل وصراعات وثورات؛ أما قريش فكانت تعيش في منأى عن ذلك، وصدق الله العظيم عندما ذكرهم بذلك في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

هذه الطفرة كان لها أثرٌ عميق على البنية الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في مكة، وهنا بدأت تعيد رسم بنيتها الاجتماعية والسياسية، وانتقلت من النمط البسيط إلى الواقع السياسي المركب. بدأ عهد التمايز والتحالفات، فبرز الحلفان الأهم في تاريخ مكة: حلف المطيبين وحلف الأحلاف؛ الأول هو التجمع المحافظ على مرجعية قريش في أنهم أهل الله وجيران الحرم، والثاني هو معسكر السلطة المتنفذة ورأس المال المتوحش.

الفصل الرابع

الاستثنائية القرشية

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ ـ ٤]

لم تكن قريش أكبر القبائل العربية ولا أقواها، فلم تكن معروفة بشدة بأسها ولا كثرة عددها، بل هي قبيلة صغيرة إذا ما قورنت بقبائل عربية أخرى مثل هوازن وتميم وغطفان، وما لهذه القبائل من شدة وبأس، لا سيما أنها اعتادت الغزو مصدراً مهماً للسلب والسبي وتوفير احتياجاتها المعيشية، فغدت الطرق البرية في الجزيرة العربية معرضة للغارات والهجمات القبلية، وكان على القوافل أن تتنقل في مسارات محددة وفي جوار زعماء قبليين يوفرون لها الغطاء الأمني، ويمنعون هجمات الأعراب، وبالمقابل كانت القوافل تدفع الإتاوات وتقدم الخدمات لمن تدخل في حمايته.

لقد كانت قريش تعلم أنها مميزة لا بعددها ولا مالها، ولكن بسدانتها للكعبة وقيامها على أمر الحجيج، وهكذا بدأت قريش في ترسيخ مكانة استثنائية بين قبائل العرب، فبما أنهم «أهل الله وجيران الحرم» فقد وظفوا هذه المنزلة إلى أقصى حدٍّ ممكن، فكان الوجه الأول لهذا التوظيف هو ترسيخ مفهوم الحرمة المزدوج: الأشهر الحرم والأرض الحرام، وهو ما أعطى مكة منزلةً آمنةً فريدةً في واقع مضطرب، واستثنائية لا يسري عليها ما يسري على غيرها من أعراف وقوانين.

استفادت قريش من مفهوم الأشهر الحرم إلى أبعد حد، فبسبب حاجتهم لهدنة يأمنون فيها على أنفسهم، ويمكّنون الحجاج خلالها من زيارة الحرم، استمرت قبائل العرب في احترام بند من شريعة إبراهيم عليه السلام، وهو الأشهر الحرم (المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة)، أما بقية الأشهر الثمانية فكانت

مجالاً مفتوحاً للقبائل تمارس فيها ما تشاء من هجمات واعتداءات وغزوات. ولولا الأشهر الحرم لما انتظم الحج، ولما عمرت أسواق مكة، ولأودى ذلك بها اقتصادياً ودينياً.

وعندما حدثت بعض المواجهات العسكرية بين قريش وكنانة مع قبائل قيس عيلان (هوازن وغطفان وسليم وثقيف) في الأشهر الحُرم، أُطلق على هذه المواجهات حروب الفِجار (٥٨٠ ـ ٥٩٠م)، نُسبت إلى الفجور استفظاعاً لانتهاكها قدسية الأشهر الحرم، وتأكيداً على أنها خارجة على العرف والمألوف..

مكانياً عززت قريش مظهراً آخر من الحرمة في تأسيس نطاق عازل يمنع اعتداءات القبائل، فالحرم الممتد على مسافة واسعة حول مكة وفّر حماية طوال العام، وليس في الأشهر الحرم فحسب؛ الحرم الذي لا يجرؤ أحد على تنفيذ أي اعتداء فيه.

لم يكن مفهوم الأمن المزدوج المبني على حرمة الزمان والمكان مرتبطاً فقط بمكة نفسها، بل صار في وقت لاحق مرتبطاً بالقرشي نفسه حيثما وجد؛ إذ تدل الروايات على أن القرشي صار يُسمى (حِرْمياً)، وكان أكثر أمناً من غيره حتى في ترحاله خارج مكة، وفي سياق تفسير سورة قريش ذكر الطبري[1] أقوالاً معبرة عن هذه المكانة، منها قول قتادة في قوله ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ إيلافهم: «كان أهل مكة تجاراً، يتعاورون ذلك شتاءً وصيفاً، آمنين في العرب، وكانت العرب يغير بعضها على بعض، لا يقدرون على ذلك، ولا يستطيعونه من الخوف، حتى إن كان الرجل منهم ليُصاب في حيّ من أحياء العرب، وإذا قيل حِرْمِيٌّ خُلِّي عنه وعن ماله، تعظيماً لذلك فيما أعطاهم الله من الأمن»، وعن قتادة أيضاً في قوله ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال: «كانوا يقولون: نحن من حرم الله، فلا يَعرض لهم أحدٌ في الجاهلية، يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أُغير عليه» وقال ابن زيد في قوله: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: «كان العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فأمنوا من ذلك لمكان الحرم، وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]».

أما التوظيف الثاني للحرم فكان في ابتداع منظومة جديدة تسمى (الحُمس)؛ فقد أورد ابن إسحاق وصفاً لنظام الحُمس وآلياته في النص التالي:

---

(١) الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (الجيزة؛ مصر: دار هجر، ٢٠٠١).

«وقد كانت قريش ابتدعت رأي الحُمس رأياً رأوه وأداروه؛ فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطان مكة وساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا قد عظّموا من الحل مثل ما عظّموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم، فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة ولا نعظّم غيرها كما نعظّمها نحن الحمس، والحمس أهل الحرم . . . ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم، بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم»[٢].

إن التدبر في هذا النص مهم، فالمبررات التي سردتها قريش ركزت على البعد الاستثنائي والمكانة المتميزة لقريش في أنهم (بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت)، ومن ثمَّ فليس لأحد من العرب مثل ما لهم من منزلة ومكانة؛ وهذا صحيح، إلا أن استغلال هذه المنزلة بشكل نفعي كان مرذولاً، بل متناقضاً مع مفهوم الانتماء إلى إبراهيم ﷺ، إذ أسقطوا فيه عن أنفسهم إحدى الشعائر الكبرى للحج وفقاً لدين إبراهيم ممثلاً في الوقوف بعرفة، بزعم أنهم لا ينبغي لهم أن يخرجوا من حدود الحرم. وبما أن عرفة تقع خارج الحرم، فقد اكتفوا بالوقوف في مزدلفة والإفاضة منها، بينما يقف بقية العرب في عرفة.

وهكذا فلقد كان الحُمس عبارة عن توظيف استعلائي سلبي، يمكن فهمه في إطار تصاعد نفوذ معسكر السلطة والمال، ففيه جانب مادي بحت، ومنافع اقتصادية مباشرة؛ فقد ابتدعوا أن لا يَطوف أهل الحل بالبيت إلا بلباس مصدره من الحُمس، فإما أن يشتريه الحاج من داخل مكة، وإما أن يمنحه أحد الحُمس تلك الثياب، فمن لم يجد طاف بالبيت عرياناً، فإن خالفوا وطافوا بغير ثياب الحمس ألقوها بعد ذلك ولم ينتفعوا بها، كما أن الحاج من أهل الحل لا يأكل من طعام جلبه من الحل إلى الحرم.

ومن الواضح من خلال هاتين القاعدتين أن تجار مكة يدفعون الحجاج

---

(٢) ابن هشام، مصدر سابق.

والمعتمرين إلى ابتياع ملابسهم وطعامهم من داخل الحرم، وهو ما يعود عليهم بالربح والمنفعة، أو يُلجئون من لا يجد مالاً إلى الاعتماد على كرم الحُمس في تزويد الحجاج بالملابس لكي يطوفوا بها، والاكتفاء بطعام الرفادة الذي تقدمه قريش للحجاج مجاناً.

المركزية الثقافية

مما سبق نرى أن البيت والحرم والحج وما يتصل بهم من طقوس ومناسك كانت العمود الفقري للاستثنائية القرشية، وقد حوّلت قريش ذلك كله إلى وسيلة لتعزيز حضورها بين العرب والارتقاء بمنزلتها لتصبح قبيلة مميزة لا يمكن لأحد أن يصل إلى مرتبتها. إذاً فأصل الاستثناء ديني، لكن قريشاً كانت بارعة في تحويل كل ذلك لموارد دخل مالية، من خلال الحمس والتجارة، واستفادت من موسم الحج في تأسيس ثلاث أسواق سنوية مهمة، هي: عكاظ، وذو المجاز، ومجنة.

كانت هذه الأسواق الثلاث مرتبطة بالحج، وتدل الروايات على أن الناس كانوا يرتادونها محرمين للحج، وهذا واضح من توقيت انعقاد هذه الأسواق، فكانت سوق عكاظ تنعقد لمدة عشرين يوماً من أول ذي القعدة إلى العشرين منه، ثم تنعقد سوق مجنة في العشر الأواخر من ذي القعدة، وبعدها مباشرة تنعقد سوق ذي المجاز في الأيام الثمانية الأولى من شهر ذي الحجة، وبعده ينصرف الناس لإتمام مناسك الحج.

سوق عكاظ هي أهم هذه الأسواق، وتقع على بعد مسيرة ثلاثة أيام من مكة ويوم من الطائف، وكانت تجمع بين البضائع المختلفة التي يأتي بها التجار من قبائل العرب، إضافة إلى ما تجلبه وفودٌ تجارية من الحيرة واليمن والحبشة. لكن سمعة سوق عكاظ وشهرتها قامت على الرمزية الأدبية والسياسية لها، فقد كانت فعالياتها الشعرية والخطابية حدثاً مهماً بين القبائل، لا سيما المبارزات الشعرية، والمساجلات بين الخطباء، وكان في عكاظ هيئة تحكيم من كبار الشعراء، ذات سلطة أدبية فائقة، تنعقد سنوياً لسماع القصائد الجديدة، وفي هذه السوق كانت تتقرر مصائر الشعراء الجدد، فإن أجيزت قصائدهم حازوا مكانة مميزة في أوساط العرب، وإن لم تُجَز خرجوا من ميدان الشعر، ومع الزمن صار موسم عكاظ المجمع الثقافي الأعلى في شبه جزيرة العرب.

وبالطبع فإن القصائد التي تُجاز وتتناقلها وفود العرب إلى أرجاء الجزيرة كافة كانت تحمل قيماً متنوعة، وكان الشعر وسيلة للتعبير الفردي والمجتمعي، فالشاعر كان ناطقاً مهماً باسم قبيلته، ويكون شعره تعبيراً اجتماعياً وسياسياً عن الوقائع والمواقف؛ أي إن جزءاً مهماً من الشعر كان بمنزلة الإعلام المعاصر، ولذلك كانت القبائل تحتفي بشعرائها، وتوظف شعرهم في الفخر وبناء المنزلة والمنعة.

وقد بلغ الحال بالمساجلات الشعرية والخطابية في سوق عكاظ أن المستمعين كانوا يتحمسون لهذا الفريق أو ذاك، وقد تصل الأمور بينهم إلى الشجار، وربما الاقتتال، لا سيما إذا كان موضوع السجال مفاخرة بين قبيلتين؛ وبالفعل فإن حروب الفِجار انطلقت من عكاظ.

خدمت هذه الأسواق سمعة قريش وعززت رمزيتها من عدة أوجه؛ فهي ملتقى اقتصادي، يتبادل فيه التجار الفرص والصفقات، ويتعرفون إلى واقع التجارة وأسعارها واحتياجات البلدان والقبائل المختلفة؛ وهي ملتقًى سياسي، كانت تجمع النخبة القيادية في الجزيرة وأطرافها، فيلتقي فيها سادة القبائل، مما شكل مناسبة لفضّ كثيرٍ من النزاعات وحسم القضايا العالقة بين القبائل من صراعات وثارات وخلافات، كما أنها كانت مناسبة لبناء التحالفات وعقد الاتفاقات؛ أما ثقافياً، فقد كانت السوق مهرجاناً ثقافياً سنوياً، ساهم في تعزيز لغة قريش ونشرها بين قبائل العرب، على اعتبار أن القصائد كانت تُنشد بلغة قريش، ثم تروى في الآفاق بعد عودة الحجيج، وهكذا صارت لغة قريش اللغة الرسمية المعتمدة للأدب الرفيع والشعر المحكّم. وقد استفادت قريش من رمزية الكعبة في أن كرّمت بعض الشعراء الكبار بأن علقت قصائدهم في جوف الكعبة، وهي القصائد المعروفة بالمعلقات، وتعتبر من أجود ما قالته العرب شعراً، وتحمل في نصوصها أبعاداً مهمة في فهم الظروف الاجتماعية والسياسية والقبلية في تلك العصور.

البنية السياسية

الخارطة السياسية في مكة كانت هي الأخرى معتمدة اعتماداً كلياً على البطون القبلية ومكانتها في السلم القبلي من حيث النسب، وفي المنزلة المادية من حيث الثراء.

ومع أن مكة كانت (لَقاحَاً) ليس فيها ملك، والسلطة فيها لم تكن مركزية، ولم تشهد نظام حكم يلزم بقوة الدولة وجبروتها كما كانت عليه الحال في اليمن وديار المناذرة والغساسنة، إلا أن السلطة الاعتبارية لزعماء البطون والقبائل كانت محترمة ومقدرة بشكل نافذ، فالقبيلة هي اللاعب السياسي والاجتماعي، أما الفرد فلا قيمة له من دون غطاء قبلي؛ إذ تقدم القبيلة لأبنائها الحماية وتمنع عنهم العدوان، وتتدخل لمعاونة الفرد إن وقع في مشكلة أو دَين، وتتشارك جميعاً في دفع الدية إن قتل أحد أفرادها شخصاً آخر، وتتعاون في جمع الفدية لتحرير الأسير، كما أنها تعقد تحالفات ومعاهدات مع بطون وقبائل أخرى فتعزز بذلك منعتها وتحصّن سلطتها وتوسع دائرة الأمان لأبنائها، وتحقق لهم مجالاً آمناً للتنقل والتجارة. وإذا حدث أن وُجد فرد من غير انتماء قبلي بسبب انقطاعه عن أهله أو هجرته إلى مكان جديد فكان عليه أن يصبح من موالي قبيلة معينة، فينتفع بالغطاء القبلي مثل أبنائها.

والقبيلة كيان تشاركي شوري، السيادة فيه للأقدر على القيام بأعباء الزعامة، وليس بالضرورة من خلال النسب، فحاجات القبيلة ملحة ولا تحتمل التأخير، ومن يقدم خدمات أكثر وبراعة أعلى في خدمة قبيلته يتقدم الصفوف وتؤول إليه مقاليد القبيلة، فإن تلكأ وتراجع تقدّم غيره. ويمكن للقبيلة أن يكون لها عدد من الزعماء، لكن شأنها الداخلي يبقى شورياً بين وجهائها وزعمائها، ويلتزم معظم أبناء القبيلة بإجماع الملأ منهم.

أما أمر قريش العام وتحالفاتها الخارجية ومصالحها المشتركة فتُناقش في دار الندوة، التي تتخذ قراراتها بالإجماع بعد مداولات معمقة، وهي الدار التي أسسها قصي قرب الكعبة، وبقيت مركز الحياة القرشية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانت عضوية دار الندوة لزعماء البطون المختلفة ممن زاد عمرهم على الأربعين، إلا باستثناءات محددة لشبابٍ تميزوا عن أترابهم في أمور الشأن العام، وصار حضورهم مداولات دار الندوة مفيداً لرأي يقدمونه أو مشورة يساهمون بها.

ومع أن قريشاً كانت شديدة الحرص على أن تبدو موحدة في مواقفها أمام القبائل العربية، حتى ترسخ هيبتها ومنعتها وأهليتها الدينية والتجارية، إلا أن شقوقاً متعددة ظهرت في المجتمع القرشي من بعد قصي، هذه الشقوق هي التي شكّلت الحراك السياسي الداخلي، وهيأت فسحة مناسبة لحماية الرسالة

الإسلامية في سنواتها الأولى، ثم استمرت من بعد ذلك عاملاً مهماً في مسار علاقة قريش بالنبي وأصحابه بعد هجرتهم إلى المدينة، ووظفها الرسول توظيفاً ذكياً، ورأى فيها فرصة لتفريق أعدائه كما سيأتي بيانه. كما أن تأثير بعض هذه التمايزات والشقوق استمر في تشكيل الخارطة السياسية للدولة الإسلامية لمدة طويلة.

شرخ في رأس الهرم

الشرخ الأهم في الجسد القرشي كان في رأس الهرم السياسي، أي في ما يمكن اعتباره العائلة الحاكمة في قريش، وهي مجموعة البطون المنتمية إلى قصي نفسه.

رأينا كيف أن قصيّاً كان بمنزلة المؤسس لقريش، وصار أمره كالدين المتبع، وحظي بمكانة لم يحظَ بها غيره، وبقي محمود السيرة والذكر على مر الزمن، وورثت البطون المنتسبة إلى قصي منزلة خاصة، حتى صارت أقرب ما تكون إلى العائلة الحاكمة في العرف السياسي، وهي البطون المنتمية إلى أبناء قصي الأربعة (عبد شمس وعبد مناف وعبد الدار وعبد قصي)، وبما أن عبد قصي لم يكن له أولاد، فإن البطون الثلاثة كانت تمثل ما يمكن اعتباره العائلة الحاكمة في قريش، لا من حيث السلطة الفعلية فحسب، بل أيضاً من حيث المنزلة والشرف والسؤدد، وكان اسم قصي في نسب الرجل كفيلاً بأن يمنحه احتراماً في مكة وفي ما عداها من قبائل العرب.

ورأينا كيف أن قصياً أوصى لابنه البكر عبد الدار بالوظائف الرئيسة الخمس: الرفادة والسقاية والحجابة والندوة واللواء، غير أن الزعيم الفعلي الذي استطاع القيام بأعباء الرئاسة لم يكن عبد الدار بل كان أخاه عبد مناف. ورأينا كيف أن هاشم بن عبد مناف لم ترقْه مسألة احتكار أبناء عمومته من عبد الدار للوظائف، ورأى أنه من غير العدل أن يتحمل هو أعباء الزعامة الفعلية بينما تبقى الزعامة الرسمية بيد غيره، فقرر القيام بها جميعاً، عندها نشأ الخلاف السياسي الأول في مكة بين فريقين؛ انحاز الأول لأبناء عبد مناف، فيما انحاز الثاني لأبناء عبد الدار، فكان بَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَبَنُو زُهرة، وَبَنُو تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ، وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ فِهْر مَعَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، فيما اصطف بَنُو مَخْزُوم، وَبَنُو سَهْم، وَبَنُو جُمَحَ، وَبَنُو عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ مَعَ بَنِي عَبْدِ الدَّار.

عُرِفَ التكتل الأول الموالي لبني عبد مناف بحلف المطيبين، لأنهم وضعوا طيباً في جفنة ثم غمسوا أيديهم فيها دلالة على التعاقد والتحالف، وعُرِف التكتل الثاني بحلف الأحلاف أو حلف لعَقَة الدم، وذلك لأنهم غمسوا أيديهم في جفنة فيها دم جزور، وقيل إن أحدهم لعق يده فلعق الجميع أيديهم، ولذلك سُموا (لَعَقَة الدم).

وتشير الروايات إلى أن الحلفين كادا يقتتلان لولا أن الطبيعة القرشية النافرة من الصدام قد غلبت، فاحتكم الطرفان إلى التفاوض لتسوية النزاع، فانتهوا إلى إسناد مهمتي الرفادة والسقاية لأبناء عبد مناف، فيما أُسندت مهام الحجابة واللواء والندوة لأبناء عبد الدار، فكفوا عن القتال وتصالحوا على ذلك.

غير أن هذه الواقعة شكلت الأرضية التي استندت إليها الحياة السياسية في قريش، فمنها ولد ما يشبه الحزبين الكبيرين: المطيبون والأحلاف. واستمر هذا التصنيف فاعلاً في مستقبل الأيام، وتعزز في مناسبات كثيرة كما سيأتي ذكره.

وبنظرة فاحصة على تشكل الحلفين الرئيسين، يمكننا القول إن قريشاً انتقلت من البساطة السياسية إلى عهد جديد من السياسة المركبة، فالحراك السياسي الناتج عن التنوع في التحالفات كان إيجابياً في مجمله، إذ أثرى الحياة السياسية لقريش وعزز تشكيل آليات منظمة لفض النزاعات، ومهّد لأول عقد اجتماعي مؤسسي لحماية حقوق الضعفاء والوافدين، وهو حلف الفضول.

إذ تذكر المصادر أن رجلاً أتى من اليمن خرج بتجارة إلى مكة، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف لَعقة الدم، وهم: عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدي، فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل وانتهروه، فصعد الأسدي جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ورموز قريش في أنديتهم حول الكعبة، ونادى بأعلى صوته منشداً شعراً يطلب فيه حقه، عندها التقى بنو هاشم بزعامة عبد المطلب، وبنو المطلب بن عبد مناف وبنو تيم وبنو زهرة، جميعهم من حلف المطيبين، في دار عبد الله بن جدعان في ذي القعدة، «فتعاقدوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بلّ بحر

صوفة[٣] وما رسا حراء وثبير مكانهما[٤]، وعلى التأسي في المعاش»، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: «لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر»، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه. ولقد أثنى النبي على هذا الحلف الذي حضره بنفسه عندما كان عمره عشرين عاماً، وقال فيه: «لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت». وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: «شهدت غلاماً مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحب أن لي حمر النعم وإني أنكثه»[٥].

حلف القيم والعدالة

حلف الفضول ثمرة حلف المطيبين، يضمن آلية تنفيذ القانون العام من خلال إنصاف المظلوم والاقتصاص من الظالم، وشمل عقداً اجتماعياً (يتأسّى به الناس في المعاش)، أي يتكافلون ويعاون بعضهم بعضاً بما يحقق قدراً من الحياة الكريمة لعموم الناس. ومن الملاحظ أن الحلف بدأ بتطبيق القانون على زعيم من زعماء حلف الأحلاف، وهو العاص بن وائل، سيد بني سهم، وألزمه برد حق الزبيدي. وسيكون لهذا الحلف دور في إرساء قواعد العدالة بمكة، يلجأ إليه المطالبون بحقوقهم، لا سيما الغرباء والضعفاء ممن تجرأ عليهم السادة والزعماء.

وإذا ألقينا نظرة على الأطراف التي دخلت في حلف الفضول لوجدناها مختلفة قليلاً عن حلف المطيبين، ذلك أن حلف المطيبين شمل جميع بني عبد مناف، أما حلف الفضول الذي جاء بعد حلف المطيبين بعقدين على الأقل، فاقتصر على بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف، وخرج منه بنو عبد شمس وبنو نوفل بن عبد مناف، وهو ما سيكون عليه الحلف من الآن وصاعداً؛ وسبب ذلك أن خلافاً نشب بين هاشم وأمية بن عبد شمس، حول الأحقية بالزعامة والرئاسة، وأن هذا الخلاف قد انتهى إلى ما يُعرف بالمنافرة،

---

(٣) يعنون سيكونون هكذا دائماً، لأنّ قدرة البحر على بلّ الصوفة لا تتوقف ولا نهاية لها.

(٤) حراء وثبير، جبلان من جبال مكة.

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، (٣/ ٢١٠)، رقم الحديث: ١٦٧٦، وصححه الألباني. وقد روي الحديث بأكثر من صيغة.

وهي احتكام إلى كاهن يقبله الطرفان، وحكم الكاهن في هذا الأمر قطعي واجب النفاذ، وأن المنافرة بين هاشم وابن أخيه كانت إلى كاهن خزاعي، فقضى الكاهن أن هاشماً أشرف من أمية وأحق بالسيادة منه، وكان على أمية في هذه الحال أن يُغرّم خمسين بعيراً وأن يُنفى عن مكة عشر سنين، وتشير الروايات إلى أنه قضاها في الشام، وكانت إقامته فيها سبباً فيما بعد في تطوير علاقة خاصة لبني أمية مع الشام، فاستفاد منها أمية اطلاعاً على الحياة الحضرية في الشام وعلى تفاعلاتها السياسية، وخبراتها التجارية، امتدت إلى أحفاده من بعده وصولاً إلى أن أسس معاوية بن أبي سفيان في الشام مُلك بني أمية، على إثر انتصاره على الهاشميين.

أما نوفل بن عبد مناف، الأخ غير الشقيق لأبناء عبد مناف الباقين، فقد اغتصب أراضيَ ومزارع لعبد المطلب بن هاشم، واضطر عبد المطلب إلى الاستعانة بأخواله من بني النجار في يثرب، فجاؤوا لمساعدة ابن أختهم في ثمانين مقاتلاً، وألزموا نوفلاً بإعادة ما اغتصبه من ابن أخيه، ولذلك لم يشارك أبناء نوفل في حلف الفضول.

وكما أشرنا سابقاً، فأولاد عبد مناف الأربعة كانوا بمنزلة العائلة الحاكمة في قريش، فكان لكل واحد منهم شأن في قومه، وكان المقدمَ فيهم هاشم، وهو مؤسس الإيلاف مع الروم، كما أن إخوانه الآخرين استكملوا الإيلاف إلى الجهات الثلاث الأخرى: عبد شمس مع الحبشة، والمطلب مع اليمن، ونوفل مع فارس. ولذلك يقول ابن كثير(٦) بأن بني عبد مناف قد «صارت لهم الرياسة، وكان يقال لهم المجيرون، وذلك لأنهم أخذوا لقومهم الأمان من ملوك الأقاليم ليدخلوا التجارات إلى بلادهم». أما الصدع الذي وقع بين بني هاشم وبني أمية فقد أصاب قمة الهرم القيادي بمكة، وطَبَع الحياة السياسية القرشية أزمنة طويلة، وكان واضحاً بعد البعثة النبوية، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب بسبب حمايتهم للنبي، وشذ عنهم أبو لهب وحده، أما بنو أمية وبنو نوفل فانحازوا لقريش في عدائها للنبي وقومه. واستمر الصراع في الحياة السياسية القرشية وصولاً إلى أن ترأس أبو سفيان بن حرب بن أمية قريشاً في حربها ضد النبي الهاشمي بعد الهجرة. وبقي الصدع فاعلاً في

---

(٦) **البداية والنهاية**، مصدر سابق.

العهد الإسلامي وصولاً إلى الصدام العنيف بين المعسكر الهاشمي بزعامة علي بن أبي طالب، والمعسكر الأموي بزعامة معاوية بن أبي سفيان.

إننا عندما ننعم النظر في حلف الفضول من حيث تركيبته القبلية ومساره العملي، نجد أنه حلف بُنَي على علاقات متينة، أهّلته لكي يستمر متماسكاً لفترة طويلة؛ فمن أبرز المشاركين في حلف الفضول، إضافة إلى أبناء هاشم والمطلب بن عبد مناف، قبيلةُ تيم بن مرة، ومع أنها لم تكن من القبائل الكبيرة في قريش، إلا أنها عُرفت بحضور سيدها عبد الله بن جدعان على المسرح القرشي وعلو صيته، وقد ورد ذكره في وفد قريش لتهنئة سيف بن ذي يزن، وهو الذي استضاف في داره الاجتماع التأسيسي لحلف الفضول، وكان تاجراً ثرياً أُطلق عليه لقب (حاسي الذهب)، لأنه كان يتناول طعامه في أوانٍ من ذهب، وروى الأخباريون حكايات عن جوده وكرمه وصلت إلى حد المبالغة، مما دفع قبيلته للحجر عليه بعدما تقدم به العمر بسبب مبالغته في العطاء، ووصف الأخباريون القِدْرَ الهائلة التي كان يقدم فيها عبد الله بن جدعان الطعام، فيأكل منها الراكب وهو على بعيره، وكيف أن صبياً وقع فيها فغرق. وجاء في حديث مقتل أبي جهل أن رسول الله قال لأصحابه: «تطلبوه بين القتلى وتعرفوه بشجة في ركبته، فإني تزاحمت أنا وهو على مأدبة لابن جدعان فدفعته فسقط على ركبته فانهشمت، فأثرها باقٍ في ركبته»(٧) فوجدوه كذلك.

وابن جدعان هو ابن عم أبي قحافة والد أبي بكر الصديق، وتشير الروايات أنه توفي قبل البعثة النبوية بوقت قصير.

ومن شخصيات تيم البارزة التي ستقوم بدورٍ في نصرة الإسلام الصحابي طلحة بن عبيد الله، إضافة إلى أبي بكر الصديق وآل بيته.

ومن أعضاء حلف الفضول بنو زهرة، وسيدهم يومئذ وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، والد السيدة آمنة أم النبي ﷺ، وكان يربط بني زهرة ببني عبد مناف علاقات وثيقة، حتى كان يقرن بين عبد مناف بن قصي وعبد مناف بن زهرة فيقال (المنافان) لقربهما ورفعة شأنهما، وكان البطنان متجاورين في منازلهما، وربطت بينهما المصاهرة، فتزوج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب، فهم أخوال النبي ﷺ، وقد حفظوا قدراً من الود للنبي، وهو ما دفعهم

(٧) **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج ٣، ص٢٨٧.

للانسحاب من بدر، فلم يقاتلوا ابن أختهم، بعدما أشار عليهم الأخنس بن شريق بذلك فقال لهم: «إِنّمَا مُحَمّدٌ رَجُلٌ مِنكُمْ، ابْنُ أُخْتِكُمْ، فَإِنْ يَكُ نَبِيّاً فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ بِهِ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً يَلِي قَتْلَهُ غَيْرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلُوا قَتْلَ ابْنِ أُخْتِكُمْ، فَارْجِعُوا وَاجْعَلُوا جُبْنَها بِي، فَلَا حَاجَةَ لَكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ مَنْفَعَةٍ»[٨].

وممن آمن بالنبي واتبعه من بني زهرة: عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والمسور بن مخرمة.

وخلاصة الأمر أن حلف الفضول كان يمثل النواة الصلبة المنبثقة من حلف المطيبين، وأنه كان حلف المحافظين على القيم الحميدة، المدافعين عن المظلوم، المحتفين بإطعام الحجيج وسقايتهم والساعين لسد حاجات المعوزين، فهم بذلك يمثلون التيار الأخلاقي في قريش.

وبفضل حديث النبي ﷺ عن حلف الفضول، فقد بقي للحلف مكانة خاصة في نفوس الناس، وهناك حادثة معبرة رواها ابن هشام تعود إلى بداية العهد الأموي، يستحضر فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما حلف الفضول في منازعة مع الوليد بن عتبة بن أبي سفيان؛ وتقول الرواية كما أوردها ابن هشام أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان ـ والوليد يومئذ أمير على المدينة أمّره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ـ منازعة في مالٍ كان بينهما بذي المروة. . «فكان الوليد تحامل على الحسين رضي الله عنه في حقه لسلطانه، فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي، ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول. قال: فقال عبد الله بن الزبير، وهو عند الوليد حين قال الحسين رضي الله عنه ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي، ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً. قال: فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي»[٩].

---

(٨) محمد بن عمر الواقدي، **كتاب المغازي**، ط٣ (بيروت؛ لبنان: دار الأعلمي، ١٩٨٩)، ج١، ص٤٤.

(٩) ابن هشام.

ومن المهم هنا ملاحظة أن الذي هدد باستدعاء حلف الفضول هو الحسين بن علي حفيد أبي طالب من بني هاشم، أحد مؤسسي حلف الفضول، وأن الاستدعاء سيكون ضد الوليد بن عتبة من بني أمية الذين لم يكونوا طرفاً في الحلف، وأن الذين أعلنوا أنهم سيناصرون الحسين إن استُدِعي الحلف هم من أحفاد الأطراف المؤسسة للحلف، فالزبير بن العوام من بني أسد بن عبد العزى، والمسور بن مخرمة من بني زهرة، وأما عبد الرحمن بن عثمان فهو من تيم.

حلف السلطة والمال

أما حلف الأحلاف فكان الوجه الآخر لقريش، فهو تجمّع أصحاب المال والسلطة، فيه قدر كبير من الانتهازية، وإصرار على حماية الواقع بكل ما فيه من استعلاء على الفقراء، واعتداد بالجاه والعصبية، وعناد في مواجهة قيم التغيير والحق والعدالة.

ومن أهم المنتسبين إلى حلف الأحلاف أبناء عبد الدار بن قصي، وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جُمح، وبنو عدي.

وإذا عدنا إلى أسماء الملأ من قريش ممن قادوا العداء ضد النبي وأفحشوا له في القول، وكانوا قساة غلاظاً، فسنجد أن معظمهم كانوا من حلف الأحلاف؛ فمنهم النضرُ بن الحارث، سيد بني عبد الدار، الذي وصفه ابن هشام بأنه من شياطين قريش، وكان يؤذي النبي ويناصبه العداء، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٨]. ومن بني مخزوم، الوليد بن المغيرة، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨ ـ ٢٠]. ومن بني مخزوم أيضاً عمرو بن هشام، الملقب بأبي جهل، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. ومن بني جُمح أمية بن خلف، الذي نزل فيه قول الله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ ـ ٢]. ومن بني سهم العاص بن وائل، ونزلت فيه سورة الكوثر بعدما وصف النبي بالأبتر لأنه لا ولد له. أما الاستثناء فهم بنو عدي، فكان إسلام عمر بن الخطاب سبباً في تحييد عشيرته التي لم يشارك منها أحدٌ في بدر.

الكتلة الثالثة

الكتلة الثالثة التي ينبغي أن نميزها في هذا المقام عن كل من الأحلاف والفضول هم أبناء عبد شمس بن عبد مناف، وكانوا في الأصل من المطيبين، لكنهم لم يواصلوا التحالف مع بني هاشم بعد الخلاف بين البطنين، فلم يدخلوا في حلف الفضول. وسبب الخلاف كما ينقله الأخباريون يعود إلى تنافر وقع بين هاشم بن عبد مناف وابن أخيه أمية بن عبد شمس، وعلى الرغم من أن أسباب النزاع ليست واضحة تماماً، إلا أنها تعود إلى التنازع على الرئاسة وإدارة شؤون الرفادة والسقاية. وقد برز نجم بني عبد شمس على إثر حروب الفجار، عندما اجتمعت قبائل قيس عيلان على قتال قريش في الفترة من ٥٨٠ ـ ٥٩٠م، بعدما رأوا من احتكار قريش للمال وعلو منزلتها، مما دفعهم لمحاولة كسر شوكتها، عندها تقدم بنو عبد شمس لقيادة قريش، وأبلوا بلاءً عظيماً في هذه الحروب، فظهر أمر (الأعياص)، وهم بنو أبي أحيحة العاص بن أمية، و(العنابس)، وهم حرب بن أمية وأبناؤه، وأهمهم أبو سفيان بن حرب. عندها صار لبني عبد شمس كلمة عليا في مكة، وبما أنهم كانوا من كبار التجار، فقد جمعوا المكانة والسؤدد إلى جانب الغنى والمال.

استمر عداء بني أمية لبني هاشم وتعمّق مع البعثة النبوية، فكانوا في مقدمة المعادين للنبي. في عام مبعث النبي كان عتبة بن ربيعة وأخوه الأصغر شيبة زعيمي بني عبد شمس، وكذلك كان أبو سفيان بن حرب في المرتبة القيادية الثانية، ومعه عقبة بن أبي معيط، وكانوا جميعاً من المعادين للرسالة الجديدة.

إلا أننا نلحظ بأنّ عداء بني عبد شمس للنبي كان بدوافع مختلفة عن بقية الأحلاف، مثل بني مخزوم؛ ذلك أنهم كانوا يدركون حقيقة مهمة، وهي أن النبي، وإن كان من بني هاشم، هو في العرف القبلي ابن عمهم؛ ويعرف بنو عبد شمس كذلك أن الدافع الرئيس لعداء بني مخزوم للنبي نابع من تنافس مع بني عبد مناف، فالعداء مع بني مخزوم لا يقف عند بني هاشم، بل يعود إلى بني عبد مناف وبني قصي، أي إنه يطال بني عبد شمس أنفسهم. وتفيد الروايات التي نقلها لنا الأخباريون أن هذه العداوة كانت معروفة وشائعة في ذلك الوقت، وعبّر عنها أبو جهل في مناسبات كثيرة؛ إذ سأل المسور بن مخرمة خاله أبا جهل عن حقيقة محمد ﷺ، فقال: «يا خال: هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال: يا ابن أختي والله لقد كان محمد

فينا وهو شاب يُدعى الأمين، فما جرّبنا عليه كذباً قط. قال: يا خال فما لكم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أختي تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف فأطعموا وأطعمنا وسقوا وسقينا وأجاروا وأجرنا حتى إذا تجاثينا على الركب (أي جلسنا على الركب للخصومة) وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي، فمتى ندرك مثل هذه؟»(١٠).

وفي حادثة أخرى. . : «لقي النبي أبا جهل فصافحه، قال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟! فقال: والله إني أعلم إنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟»(١١).

وفي رواية أخرى. . : «قال الأخنس بن شريق يوم بدر لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟»(١٢). ولعلّ هذا ما دفع الأخنس بن شريق في بدر إلى نصح بني زهرة بالعودة إلى مكة، فإذا كان الأمر مسألة عصبية قبلية، فإن بني زهرة هم أخوال النبي، فكيف يقبلون منطق أبي جهل فيقاتلون ابن أختهم؟!

والملاحظ في الروايات الثلاث السابقة أن واحدة منها ذكرت بني هاشم، والثانية بني عبد مناف، بينما أعادت الثالثة أصل الخصومة إلى قصي.

ومما يؤكد التنافس بين بني عبد شمس وبني مخزوم ما نقله الأخباريون من أن قوماً من بني مخزوم ومن بني شمس التقوا عند الحِجْر فتذاكروا العز والمنعة، واختلفوا فيما بينهم، فبنو مخزوم يقولون نحن أعز وأمنع، وبنو عبد شمس يقولون بل نحن؛ فجرى بين أسيد بن أبي العيص سيد بني عبد شمس، والوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم نزاعٌ، فقال الوليد: أنا خير منك أماً وأباً وأثبت منك نسباً، فقال أسيد: أنا خير منك منصباً وأثبت منك في قريش نسباً، فاتفقا على المنافرة، وقالا يحكم بيننا سُطيح، وكان كاهناً يحتكم

(١٠) ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى** (مكة؛ السعودية: دار عالم الفوائد، ٢٠٠٨)، ص٤١.
(١١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت؛ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ج ٣، ص٢٢٤.
(١٢) مغازي الواقدي، مصدر سابق.

إليه العرب، واتفقا على أن يجعلا بينهما خمسين من الإبل لمن ينفر على صاحبه. وقد حكم سطيح للوليد على أسيد(١٣).

هكذا لم يكن خافياً على بني عبد شمس دوافع العصبية القبلية لدى بني مخزوم ومن معهم من الأحلاف، فالمسألة لم تكن انتصاراً للآلهة، ولا تكذيباً للرسالة، بل مسألة تنافس على الزعامة، وما فيها من منافع ومصالح. أما دوافعهم هم في تكذيب النبي وعدائه فكانت أيضاً في سياق العصبية القبلية، ولكنها عصبية بين بيتين من بيوت قصي بني أمية بن عبد شمس وبني هاشم بن عبد مناف، فهي شأن داخلي في البيت الواحد. ومع ذلك فإن نساءً ورجالاً من بني عبد شمس كانوا من أوائل المسلمين، ومن الملاحظ أنهم جميعاً ينتمون إلى جيل الشباب، وأنهم من أبناء سادة بني عبد شمس، منهم ابن زعيم بني عبد شمس أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكذلك عبد الله بن سعيد بن العاص، وكان من مهاجرة الحبشة، وعثمان بن عفان، الذي أكرمه النبي بأن زوجه اثنتين من بناته، فسُمّي ذا النورين، ومن النساء أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت هي الأخرى من أوائل المسلمات وهاجرت مع زوجها عُبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، ثم تزوجها رسول الله بعد ارتداد زوجها، ومن المسلمات الأوائل أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، مع أن أباها كان من أشد أعداء النبي غلظة، وأكثرهم بذاءة، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وعلى الرغم من تسرّب الإسلام إلى بيوت بني عبد شمس، إلا أن موقفهم الرسمي كان يمثله زعيمان اثنان من سادتها: عتبة بن ربيعة ثم أبو سفيان بن حرب، الذي آلت إليه مقاليد الأمور بعد مقتل عتبة في بدر. وكان الموقف الرسمي يمثل انحيازاً إلى قريش في عدائها للنبي، ومع ذلك فالشقوق في الموقف بين الطرفين المشركَين كانت واضحة، لأن التباين في الدوافع ولد تبايناً في المواقف، وبرزت هذه الشقوق بوضوح في بدر، عندما حاول بنو عبد شمس تفادي قتال المسلمين؛ فبعدما نجت القافلة أشار سيد بني عبد شمس عتبة بن ربيعة على قريش بالعودة إلى مكة، لكن أبا جهل، سيد بني مخزوم والأحلاف، أصر على المُضي قدماً إلى بدر، ولما احتدم الجدل بين الطرفين اتهم أبو جهل

(١٣) أبو جعفر البغدادي، **المنمّق في أخبار قريش** (بيروت؛ لبنان: عالم الكتب، ١٩٨٥)، ج١، ص١٠٥.

عتبة قائلاً: لقد جبن ابن ربيعة لأن ابنه أبا حذيفة في جيش محمد، «فلا نرجع حتى نرد ماء بدر وتعزف القيان وتدق الطبول وتسمع بنا العرب»(١٤)، وهو ما أغضب عتبة فقال: «لا يشق القوم إلا ابن الحنظلية»، يقصد أبا جهل. كما أن أبا سفيان أرسل هو الآخر كتاباً إلى قريش يدعوها إلى الرجوع، لكنّ أبا جهل أصر على المسير، وهو في ذلك إنما أراد أن يعزز موقعه في مقابل عتبة، فيبدو بمظهر الزعيم القوي الذي يأمر فيطاع. ونلحظ هنا أن التنافس على زعامة قريش المعادية للنبي كان مستعراً بين بني عبد شمس والأحلاف؛ فمع أن عتبة بن ربيعة كان أكبر زعماء قريش سنّاً وسيدها، إلا أن أبا جهل أصر على تجاوزه والتقليل من شأنه. وسنلحظ أن هذا التنافس سيبقى مستمراً بعد مقتل الطبقة الأولى من سادة قريش في بدر، إذ سيتسلم أبو سفيان زعامة بني عبد شمس، ولكننا سنرى كيف أن أبا سفيان سيكون له نهج آخر مختلف عن نهج أبي جهل، وأنه سيدخل بسبب ذلك في صراع مع الجيل الثاني من سادة الأحلاف، وعلى رأسهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إلى أن ينتهي الأمر بأبي سفيان إلى تسليم مكة للنبي وحقن دماء قريش.

وإذا ابتعدنا قليلاً عن تفاصيل الواقع السياسي القرشي وما فيه من تحالفات وشقوق، ونظرنا نظرة كلية إلى المشهد، فسنلاحظ أن السيادة الرمزية في قريش بمجملها بقيت في أيدي أبناء قصي، ولكن ضمن معسكرين متقابلين: معسكر السلطة والمال من قريش، وهم الأحلاف، ويتفق معهم في الموقف من النبي بنو عبد شمس، ودوافعه عصبية قبلية؛ أما الطرف الآخر فكان بزعامة بني هاشم وحلفائهم من المطيبين. الطرف الأول كان يمثّل العصبية القبلية في اعتدادها بالماضي وتمسكها بالواقع، حماية للمصالح والمغانم الدنيوية. أما الطرف الثاني من قريش فكان أكثر تمسكاً بالقيم الموروثة منذ قصي، التي تنبع من سقاية الحجيج ورفادتهم والالتقاء تحت حلف الفضول لرد المظالم ومحاسبة الظالم، فهو بذلك حلف أكثر انفتاحاً. ومن الملاحظ أن نسبة الشباب فيه كانت أكبر من الحلف الأول، والشباب بالطبع لهم قابلية نفسية للخروج من العصبية المنغلقة والعادات الموروثة.

---

(١٤) ابن هشام، مصدر سابق.

حلف المهمّشين

الحلفان الرئيسان: حلف المطيبين وحلف الأحلاف، كانا ينتميان إلى عمود النسب القرشي الرئيس، أي: البطون التي يرجع نسبها إلى فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو الذي يعتقد النسّابون أن اسمه قريش.

وبالطبع لم يكن كل سكان مكة من هذه البطون، ومع ازدياد ثروتها التجارية وانفتاحها على العالم بدأت نسبة غير القرشيين تزداد، فهناك الموالي من قبائل مختلفة آثروا الإقامة بمكة ودخلوا في حلف موالاة مع أحد بطونها، وهناك الصنّاع والعبيد وغيرهم.

ويعيدنا هذا إلى التعمق قليلاً في التركيبة السكانية لمكة؛ فبعد أن اتسعت تجارتها وصارت القوافل تغدو فيها وتروح، مع نهاية القرن السادس الميلادي، أقبل على سكناها وافدون جدد، مجموعات وأفراداً، وشمل ذلك جماعات من أعراب البادية الباحثين عن بعض الاستقرار، وعبيداً محررين ممن بدؤوا مسار حياتهم العملية، وأبناء إماء لآباء قرشيين أحرار، ومهاجرين من أماكن بعيدة، جاؤوا بحثاً عن فرص جديدة في بيئة مستقرة ومزدهرة. وفي مجتمع قبلي معتدٍّ بالنسب، فإن هذه المجموعات تعتبر تلقائياً أقل شأناً في عرف قريش. ومن الطبيعي أيضاً أن تجد في مكة طبقة من الحرفيين ممن عملوا في النجارة والحدادة وصناعة السيوف ودباغة الجلود، وكان أهل مكة ينظرون نظرة دونية للمشتغلين بالحرف عموماً، وكان بعض هؤلاء من غير العرب، وفي حديث الإخباريين عن بناء الكعبة أن قريشاً استعانت بعامل من الروم ـ أو من الأقباط اسمه باقوم، كان نجّاراً مقيماً بمكة ـ في تسقيف البيت. وفي حديث آخر لهم: إن هذا الرجل كان في سفينة جهزها قيصر الروم لبناء كنيسة، وقد شحنها بالرخام والخشب والحديد، فجنحت عند ميناء الشُّعيبة فاستعانت قريش بما تبقّى من أخشابها وبخبرة هذا الرومي في تسقيف البيت. وقد دُعي باقوم الرومي أيضاً. هذا إضافة إلى ما ورد عن آخرين من غير العرب، فقد أُشير إلى غلام آخر كان بمكة، اسمه بلعام، ذُكر أن الرسول كان يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنه كان يتعلم منه. وقيل: إن ذلك الرجل الذي قال أهل مكة: إن الرسول كان يتعلم منه، اسمه أبو اليسر، وكان نصرانياً، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وفي جملة من أشار إليهم أهل السير من النصارى الذين كانوا بمكة، رجل اسمه نسطاس، وكان من موالي صفوان بن أمية، ونسطور الرومي، ويوحنا مولى صهيب الرومي، وصهيب الرومي نفسه، وهو من الصحابة، جاء من بلاد الشام، ونزل بمكة، وتشارك مع عبد الله بن جدعان، ثم استقل عنه، وصار ثرياً من أثرياء مكة، ثم دخل في الإسلام؛ ومنهم مولًى يوناني تزوج سمية أم بلال بن رباح، ومنهم عدّاس الذي التقاه النبي في مزرعة لعتبة بن ربيعة بالطائف، وكان من نينوى، وصدّق نبوة الرسول، وقيل إنه أسلم(١٥).

هذا الخليط السكاني نتاج طبيعي لتحول مكة إلى كيان حضري ومركز تجاري منفتح على العالم. وهذا الخليط السكاني المتنوع لم يكن قليل العدد، ويقدّر بعض الباحثين بأن نصف سكان مكة قبيل البعثة كانوا من هذه الفئات. وبالطبع فإن هذه الفئات لن تكون على القدر نفسه من الأهمية السياسية، فأمر قريش كان لسادتها وليس لعامتها، وكان من أسباب مقاومة الدعوة الإسلامية أن سادة قريش خافوا من المفاهيم الجديدة التي بدأ الدين الجديد ببثها في صفوف هذه الطبقة، لا سيما مبدأ المساواة، وكان كثير من أتباع الرسول في مبتدأ دعوته من المهمشين، فخافت قريش على امتيازاتها، وشنت حرباً لا هوادة فيها على من أسلم من الضعفاء، وصلت إلى حد التصفية الجسدية، كما حدث مع والد عمار بن ياسر وأمه على يد أبي جهل، الذي عذب آخرين مثل زُنيّرة وكانت أمةً لبني مخزوم، عذبها حتى عميت، وكذا فعل أمية بن خلف مع بلال بن رباح وغيرهم.

لقد كانت طبقة المهمّشين هذه ذات اهتمامات ومصالح مشتركة. وفي مجتمع قبلي بدأت هذه الطبقة في تأسيس تجمع يشبه البنية القبلية، ولكن من غير الانتساب المشترك لجد أعلى. ويذكر الأخباريون أن حلفاً تشكل في مكة سُمي بحلف الأحابيش، وأنه ضم قبائل مختلفة، منهم بنو المصطلق والحيا من خزاعة، وبنو الهون بن خزيمة، وغيرهم. وقيل إن اسم الأحابيش هذا أُعطِي للحلف لأنهم تحبشوا أي تجمعوا، وقيل إنه أعطِي لهذا التجمع لأنه انعقد بالقرب من وادي الأحبش، وقيل بل بجانب جبل الأحبش بمكة. ولرواة الأخبار في حلف الأحابيش مذاهب شتى، فمنهم من يعتبره الحلف الأول

(١٥) **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مصدر سابق، ج ٧، ص١٢١.

بمكة، وأنه انعقد بعد إخراج قريش لقبيلة خزاعة من مكة، وأن الحلف انعقد بين قريش وبني المصطلق والحيا ضد بني بكر، وأن قبائل الأحابيش حاربت في يوم «ذات نكيف» ضد بني بكر وانتصرت عليهم، وأن الأحابيش شاركوا في حرب الفجار.

يقودنا تتبع الروايات التي تذكر الأحابيش إلى أن المصطلح استخدم استخدامات شتى؛ إذ تذكر كتب التاريخ لفظ الأحابيش في كثير من الأحيان ملحقاً ببطن رئيس آخر في قريش، فيقال: بنو عبد مناف وأحابيشهم، بنو عبد شمس وأحابيشهم، وهكذا؛ وورد أيضاً أن قريشاً «جمعت أحابيشها لقتال النبي في يوم الفتح». وهذا ما دفع البعض إلى اعتبار أن حلف الأحابيش كان قوة عسكرية تألّفت من العبيد الأفارقة ومن عرب مرتزقة للدفاع عن مكة. ويرى آخرون أن لفظ الأحابيش إنما أُطلق على قاطني مكة من أصول حبشية، على اعتبار أن التواصل بين تهامة والحبشة كان مفتوحاً ومستمراً، وأنه أدى إلى هجرات متبادلة، ومن الممكن أن بعض الأحابيش اختلطوا وتزاوجوا مع كنانة منذ أزمنة بعيدة، أو أن خضوع بعض قبائل كنانة للحكم الحبشي في فترات معينة أكسبهم هذا اللقب، حتى صار علَماً لكنانة ومن حالفها، وعليه فإنه ليس من اللازم أن يكون الأحابيش كلهم من حبش إفريقيا، بل كانوا عرباً وقوماً من العبيد والمرتزقة ممن امتلكتهم مكة[١٦].

غير أننا نجد في سياق الحديث عن الأحابيش أنهم كانوا جماعة منظمة لهم سيد مطاع؛ فقد روي أن سيد الأحابيش ابن الدغنّة من بني القارة من الهون بن خزيمة، هو الذي أجار أبا بكر الصديق بمكة ومنعه من الهجرة إلى الحبشة، وورد كذلك ذكر سيد آخر من سادة الأحابيش هو الحُلَيس بن زبّان، وأنه «مرّ بأبي سفيان بن حرب وهو يضرب شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح بعدما قُتل بأُحد ويقول ذُق عُقَق، فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحماً؟ فقال: ويحك! اكتمها عني، فإنها كانت زلة»[١٧].

وورد ذكر الحليس مرة أخرى في موقف إيجابي آخر، وأنه زار معسكر

---

(١٦) انظر المصدر السابق.

(١٧) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق.

المسلمين في الحديبية، فوصفه النبي بأنه من قوم يتألهون، أي يتعبدون ويعظمون أمر الله، وأن الحليس تأثر كثيراً بمرأى المسلمين في لباس الإحرام، وتأثر بمشهد الهدي، وقد أكلت أوبارها من طول مدة الانتظار، فعاد إلى قريش وطلب منهم السماح للمسلمين بدخول مكة، فقالوا له: «اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب الحليس وقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَاللهِ مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَيُصَدُّ عَنْ بَيْتِ اللهِ مَنْ جَاءَ مُعَظِّماً لَه؟! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ، لَتُخَلُّنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَأَنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ. قَالَ: فَقَالُوا لَهُ: مَهْ، كُفَّ عَنَّا يَا حُلَيْسُ حَتَّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ»(١٨).

مما سبق، نستطيع تحديد بعض سمات الأحابيش، فهم قوم تنظر إليهم قريش نظرة دونية، ويتضح ذلك من استهزاء الملأ منهم بسيد الأحابيش في الحديبية واصفين إياه بأنه أعرابي لا علم له، وما كان بمقدورهم أن يقولوا ذلك لسيد من سادات القبائل المعروفة، ثم إن الأحابيش كانوا قوة منظمة، وهو ما يظهر من العبارة التي قالها الحليس بعدما أغضبه سادة قريش، فقد هدد بأن يستعدي عليهم الأحابيش فينفرون إليه نفرة رجل واحد، وواضح من رد سادة قريش أنهم أخذوا تهديده على محمل الجد، فطلبوا التشاور فيما بينهم، ولو كان الأحابيش مجموعات هامشية متفرقة لما أبهوا بتهديد الحليس ولا بوعيده.

أما المواقف الثلاثة الواردة لسيِّديّ الأحابيش فتدل على أنهما كانا وافري العقل والحكمة، ويبدو أن الأحابيش كانوا أبعد عن العصبية وأقرب إلى تعظيم حرمات البيت، وهو ما نفهمه من وصف الرسول لهم بأنهم قوم يتألّهون، وهذه دلالة أخرى على غياب العصبية الجاهلية، وتمسكهم بالمنطق الطبيعي المعروف في مثل هذه الحالات، وربما كان بعضهم مسيحياً على غير دين قريش.

من هذا المنطلق يمكننا القول إن الأحابيش يمثلون عدة مجموعات وأصناف من الناس؛ أي إنهم بطون قبلية صغيرة وجماعات وافدة إلى مكة وأعراب مقيمون فيها، إضافة إلى من لحق بمكة من وافدين وحرفيين، وأن الأحابيش لم يكونوا مجموعة قبلية محددة ثابتة مثل حلفي المطيبين والأحلاف،

---

(١٨) المصدر السابق.

وهذا ما أدى إلى تحيزهم للقيم الجامعة المتفق عليها عرفاً بين كل تلك الأصناف، ولذلك كانوا أكثر إنصافاً وأبعد عن العصبية، ومن هنا نرجّح أنهم كانوا من عامة أهل مكة، وأكثر سكانها، وأنهم كانوا مهمّشين مستضعفين، وكانت مكة المنتسبة إلى عمود النسب القرشي من أبناء فهر بن مالك لا ترى فيهم سوى ملحقين بأمرها، تابعين لرأيها، إلى أن جاء الإسلام فزود هذه الطبقة بمعانٍ جديدة من المساواة والأخوة. وسنرى كيف اتبع الرسول ﷺ استراتيجية ثابتة في استمالة هؤلاء المهمّشين، وتعزيز شعورهم بإنسانيتهم، حتى غدَوا قوة سياسية اضطرت قريش إلى أن تحسب لهم حساباً كما رأينا من أمر الحُليس في الحديبية.

الفصل الخامس

مكة تخاصم المستقبل

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾
[ص: ٦]

تلقّى النبي ﷺ الوحي يوم الإثنين ١٧ رمضان (الموافق ٨ آذار/ مارس) عام ٦١١م، وكانت حكومة الملأ من قريش، وأهل الندوة فيها تضمُّ زعماء البيوت القرشية، ولم يكن التمثيل يقتصر على ممثل واحد عن كل بطن، بل كان يشارك في الاجتماعات كلّ من له وزن أو مشهود له بالرأي. وعلى العموم، وبالعودة للروايات والأحداث المختلفة التي شاركت فيها دار الندوة بقرار أو لقاء، يمكننا أن نضع القائمة التالية على أنها تمثل الأعضاء الدائمين في حكومة الملأ القرشي مع بدء البعثة النبوية:

- عن بني عبد شمس بن عبد مناف: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، وأبو سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وسعيد بن أبي العاص بن أمية.

- عن بني هاشم بن عبد مناف: أبو طالب بن عبد المطلب.

- عن بني عبد الدار بن عبد مناف: النضر بن الحارث.

- عن بني نوفل بن عبد مناف: المطعم بن عدي وأخوه طعيمة.

- عن بني أسد بن عبد العزى: أبو البختري، العاص بن هشام بن الحارث، والأسود بن المطلب، ونوفل بن خويلد، وحزام بن خويلد.

- عن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن هشام بن المغيرة، وأبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله، وعبد الله بن أبي أمية بن مهشم بن المغيرة وأمه عاتكة.

- عن بني سهم: نبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل السهمي.

- عن بني جمح: أمية بن خلف بن وهب بن حذافة وأخوه أُبي بن خلف.
- عن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث.
- عن بني عامر بن لؤي: سهيل بن عمرو.
- عن بني تيم: عبد الله بن جدعان.

في ذلك العام كان لدى دار الندوة الكثير لكي يتباحثوا فيه؛ ففيه احتدمت الحرب بين الفرس والروم، فهاجم كسرى الثاني الجزيرة الفراتية والأناضول، وبدأ بمشاغلة الروم في الشام، وفي ذلك العام أيضاً تسلم هرقل، القائد العسكري البيزنطي، حكم القسطنطينية بعدما أطاح بالإمبراطور فوقاس سيئ السمعة. ومع اضطراب العالم من حولهم، لم يكن زعماء مكة قلقين على تجارتهم، بل على العكس من ذلك، فكلما زادت المشكلات بين الروم والفرس، تعرقلت طرق التجارة الدولية، وزادت الحاجة إليهم كوسيطٍ تجاريٍّ بديل، فهم في مأمنهم بمكة تكبر قوافلهم كلما استعرت الحرب، وفي هذه المرحلة وصل حجم القافلة الواحدة إلى ألفي بعير، ويشارك معظم أهل مكة في هذه القوافل، فتعود عليهم بربح قد يبلغ مئة في المئة.

وكلما ازدادت ثرواتهم، احتدم التفاخر والتنافس بين الملأ من قريش، فتجد فيهم من يجلب الطباخين من بلاد فارس ومن اليمن لكي يقدّم وجبات جديدة غير معهودة تكسبه صيتاً وسمعة، فيفاخر غيره ويعلو عليه، وربما ينتشر ذكره بين العرب من خلال أبيات ينظمها شاعرٌ ملأ بطنه بالطعام وجيبه بالمال. فبعدما كان العرب يعيِّرون قريشاً بأكل السخينة، وهي طبخة بسيطة تُصنع من الدقيق والتمر كانوا «يأكلونها في شدة الدهر وغلاء السعر وعجف المال»[1] دخلت إلى مكة صناعة الفالوذج، وهي حلوى فارسية تُصنع من الدقيق والعسل، أدخل صناعتها إلى مكة عبد الله بن جدعان، المعروف بحاسي الذهب، إذ استقدم من بلاد فارس غلاماً حاذقاً في صناعتها، وقدمها لضيوفه في مكة، وكان يضع الموائد أمام المسجد فينادي مناديه: من أراد الفالوذج فليحضر.

ومنهم التاجر الثري واسع الثراء، كالوليد بن المغيرة، الذي بنى ركناً من أركان الكعبة على نفقته، بينما بنت قريش بقية الكعبة، وكان يسمى (وحيد مكة)، لأن قبائل قريش تكسو الكعبة عاماً ويكسوها وحده عاماً آخر.

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

ومنهم من يبالغ في المطعم والملبس، فيأكل في أواني الذهب والفضة، ويشرب في أكواب البلور، ويتعمم بعمائم الحرير الصيني المستورد عبر موانئ اليمن، ويرتدي قطيفة قطن حيكت في العراق، وجبة يمنية ملونة، ويتختم بالحجارة الكريمة المستوردة من الهند، ويمشي ومن خلفه عبيد أحباش يرفعون مظلة فوق رأسه، ويذبون عنه بالمراوح اليدوية. ويدير أعمالهم التجارية عبيد بيض من أصول رومية وفارسية يبتاعونهم من أسواق الشام والعراق.

وكان سادة قريش يملكون الضياع والبساتين في الطائف، ويقضون فيها أشهر الصيف، نظراً لاعتدال جوّها وكثرة مياهها وجودة فاكهتها. وامتلك بعضهم الضياع في الشام، فامتلك أبو سفيان ضيعة في البلقاء.

وكان الملأ من قريش يلتقون في دار الندوة، وهي مركز حياتهم السياسية، وملتقاهم الاجتماعي، وفيها تعقد الزيجات ويُختتن الأطفال، وتوثّق العقود، وتُعقد رايات الحرب، وتُناقش التحالفات، ويُفصل في الخصومات، وأمرهم بينهم شورى، مع مراعاة المكانة والسن؛ فعتبة بن ربيعة، وأبو طالب بن عبد المطلب، والوليد بن المغيرة، وعبد الله بن جدعان، هم شيوخ قريش، المتقاربون في السن والمنزلة. ومع أن أبا طالب أقلهم مالاً وأضعفهم تجارة، إلا أنه سيد بني هاشم، القائم على السقاية والرفادة، المعروف بكريم خلقه ورجاحة عقله، مما أهّله لأن يكون صنواً للآخرين ممن عُرفوا بثرائهم الفاحش.

أمّا سادة مكة ممن هم أصغر سناً، مثل أبي جهل وأبي سفيان وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، فهم طبقة قيادية ثانية، يعرفون للشيوخ منزلتهم ولا يتجاوزونهم.

كان هؤلاء الملأ هم المقدّمون، كل في قبيلته أو البطن الذي ينتمي إليه، إليهم يرفع أفراد القبيلة حاجاتهم، فيقضون بينهم، ويفصلون في الخلاف؛ أما أمر قريش العام، فهو شورى بينهم جميعاً، وقراراتهم تؤخذ بالإجماع، فإذا وقع الخصام بين إثنين من السادة احتكما إلى كاهنٍ من كهنة العرب، فيقضي بينهما ويلتزم الطرفان بحكمه، فيما كان يُعرف بالمنافرة.

ولم يقتصر الثراء على الرجال، بل نجد نساءً ثريات، كانت لهن تجارة، منهن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وكانت للنساء مكانة في مكة، وأمر زواجهن إليهن، ولهن على رجالهن كلمة ورأي.

كانت مكة تشهد في العقد الأول من القرن السابع حيويةً وثراءً، فها هي أسواق أهل مكة في عكاظ ومجنة تزخر بالبضائع، وها هم قد فرغوا من إعادة بناء الكعبة بعدما تهدّمت بفعل سيلٍ أصاب الحرم، وكسوها ستور الخز والحرير، فغدت أكمل بناءً وأجل قدراً في عيون الحجيج من القبائل العربية، فارتفع نجمهم بين العرب، وعلا شأنهم. ولم تكن قريش منشغلة بشأن الدين إلا ما يعود عليها بالمنفعة والمنزلة من تعظيم للبيت وترسيخ لنظام الحمس والقيام بالحجابة والرفادة والسقاية، أما آلهتهم فأكبرها هُبَل، المنصوب في جوف الكعبة، وعنده يُستَقسَم بالأزلام(٢) وأمام الكعبة إسافٌ ونائلة، ومن حولها ما يزيد على ثلاثمئة صنم تمثل معبودات القبائل العربية. لقد أرادت قريش أن تحوّل الكعبة إلى مجمع للآلهة، فتتيح لمن شاء أن يستودع الكعبة صنمه، فتضمن تمثيل الكعبة لكل قبائل العرب، وبذلك يحج إليها الجميع من دون استثناء.

الحياة الروحية في قريش خاوية، إلا من كلماتٍ يطلقها ورقة بن نوفل أو غيره ممن استمروا يعظون الناس ببقيةٍ من حنيفية إبراهيم، أو حِكَم قس بن ساعدة، أو أحاديث يتسامر بها اليهود والنصارى الزائرون، فيستمع البعض إليهم بشيءٍ من الاهتمام العابر، ثم يمضون إلى شأنهم المنغمس في المادية والتفاخر بالأنساب.

أمّا عامة الناس من حرفيين ورعاة وعمال وخدم، فيئنُّون تحت طائلة الحاجة والاستغلال، وكان الواحد منهم إن احتاج إلى مالٍ اقترضه من الأثرياء ولكن بربا فاحش، فيقع في فخ الاستغلال، ويجد نفسه في كثير من الأحيان عبداً مملوكاً لدائنه. أما الرقيق فكانوا متاعاً لمن يملكهم، وكان بعضهم يُكره فتياته على البغاء ليجلبن له المال، ويبيع أبناءهنّ لمن يشتري.

هكذا كانت مكة في مطلع العقد الأول من القرن السابع، موغلة في ماديتها، منصرفة عن تراثها، متعلقة بأستار الكعبة ربحاً وتجارة وسؤدداً، متنكرة لها ديناً وهدياً والتزاماً.

---

(٢) الأزلام: كانت من عادات الجاهليّة، وهي عبارة عن سهامٍ مكتوب على كلٍّ منها ما يدلُّ على فعلٍ معيّن، فكان الشخص الذي يريد الاستقسام بالأزلام يأتي من يقوم بهذه الحرفة ويعطيه مالاً، فيخرج سهامه من الكنانة فيرميها، فإذا خرج سهمٌ على شكلٍ معيّن فهذا يعني أنّ على الشخص أن يفعل ما يريد، وإذا وقع على شكلٍ معينٍ آخر فمعناه ألا يفعل الشخص ما يريد، وهي من العادات التي حرّمها الإسلام.

وفي حمأة انشغالاتهم وأسفارهم وتجارتهم، بدأ أشراف مكة يشعرون بروح جديدة تتسرب إلى مخادعهم وبيوتهم، تتشكل بعيداً عن صخب أسواق مكةٍ وسمر أنديتها. بدأ الأمر همساً، ثم ارتفع، حسبوه في البداية وعظاً عابراً كوعظ ورقة بن نوفل، لكنهم انتبهوا إلى أن هذه الروح وتلك الهمسات تنفذ إلى عمق حياتهم، وتتغلغل في مخادعهم وبيوتهم وتقلب مصالحهم وموازينهم الاجتماعية والتجارية، فالكلام الذي يبثّه محمد بن عبد الله ذو وقْعٍ خاص، فيه روح ثائرة، ونهج متوثّب، ووعد بمستقبل جديد.

اقرأ باسم ربك الذي خلق

حراء: غار صغير بسيط على قمة جبل مطل على مكة، فيه بدأت مسيرة ثلاث وعشرين سنة، وبدأت القصة بخطابٍ علويّ يهتف: «اقرأ»، فيرد النبي: «ما أنا بقارئ»، فيأتي الجواب: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

هذه الكلمات القليلة تحمل في مضمونها خطاباً فريداً، مفارقاً لطبيعة الخطاب السائد في أسفل الوادي، إنه أمرٌ بالقراءة، وقد كانت على غير ما فهم النبي لأول وهلة، إنها ليست قراءة نص مكتوب أو خطاب مسطور، بل قراءة كونية واسعة، تتصل في أعلاها باسم الرب الخالق، ثم تنداح لتشمل الخلق جميعاً، قراءة من نوع جديد، تحمل مضامين جديدة وفريدة للكون والإنسان والحياة، وتجعلها جميعاً تصدر عن إرادة إلهية واحدة. ثم إن هذه القراءة الكونية الواسعة تتم باسم رب هو الأكرم، والكرم عطاءٌ متجدد، فالقراءة في عالم الخلق ثرية واسعة من غير حدّ.

تذكّرنا هذه الآيات بالحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه عندما أراه الله ملكوت السماوات والأرض، فطفق يقرأ لقومه من كتاب الله المنشور منبهاً إياهم إلى أن الكواكب والقمر والشمس ليست كائنات قائمة بذاتها، بل هي جزء من ملكوت واحد، سيده المتعالي هو الحقيق بالعبادة.

يذكر رواة السيرة أن النبي ﷺ، عندما تنزلت عليه هذه الآيات فزع وخاف، وهذا طبيعي، فاللقاء بين الروح القدس والبشر اتصال بين عالم السماء وعالم الأرض، وهو ليس حدثاً عادياً، ويحتاج استعداداً نفسياً عالياً، ودُربة فائقة، لقد كان اتصالاً ثقيلاً في طبيعته، يُدخل في النفس تساؤلات كثيرة: هل

كان حقاً أم وهماً؟ وهل هو اتصال علوي منزه أم هو وسوسة من عالم الجن؟

التجأ النبي إلى زوجه ذات العقل الراجح والنفس المطمئنة. خفّفت خديجة من روع زوجها، وهمست في أذنه: «أبشر، فوالله لا يُخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وبحكمةٍ بالغة، وهدوءٍ واثق، بدأت تبحث وتسأل وتستفسر، ثم تضع مساراً هادئاً صائباً للتعامل مع الحدث، فتسأل ورقة بن نوفل وتستشيره، فيطمئنها ويقدم لها وللنبي مفهوم الوحي: «هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً ـ ذكر طرفاً ـ، قال رسول الله ﷺ: أومخرجيّ هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجلٌ بما جئت به إلا أُوذي، وإن يدركني يومك حياً أنصرك نصراً مؤزراً»[٣]. هنا بدأت الرؤية تتضح، وسكن قلب النبي، وانطلق يهيئ نفسه لأعظم مهمة كُلِّف بها بشر.

قليلة هي الروايات التي تخص السنوات الثلاث الأولى من البعثة النبوية، يصفها المؤرخون عادة بأنها سنوات الدعوة السرية، يبدؤها النبي بمفاتحة أقرب الناس إليه، بيته الصغير: خديجة، وعلي بن أبي طالب ذي العشر سنين، وزيد بن حارثة الذي كان يُسمى «زيد بن محمد»، فيصدقونه ويؤمنون به؛ ثم يفاتح صاحبه أبا بكر بن أبي قحافة التيمي، فلا يتردد ولا يتلكأ، بل يؤمن على الفور، ثم عثمان بن عفان الأموي فعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، عشيرة أخواله، ثم سعد بن أبي وقاص.

هذه المجموعة الصغيرة من الثقات المقربين مثلت سنداً نفسياً وبطانة حانية كان يحتاجها في مبتدأ رسالته، لأن شأن الرسالة كان حملاً كبيراً، يحتاج إلى شعورٍ بالاستقرار النفسي والاستعداد الروحي، ولا أجمل من أن يشترك آل بيت الرجل وأقرب أصحابه في الإسناد والدعم والمؤازرة والاتباع.

المشروعات العظيمة تحتاج إلى عنصرين رئيسين: رؤية واضحة متماسكة، وفريق مؤمن بالرؤية متفاعل معها ومتفانٍ في تنفيذها. السنوات الثلاث الأولى كانت دورة تدريبية وتكوينية عالية المستوى للنبيّ وفريقه الصغير.

---

(٣) الحديث صحيح، أخرجه البخاري (١/ ١٢٦٣) رقم الحديث: ٤٩٥٣؛ ومسلم (١/ ١٣٩) رقم الحديث: ٢٥٢، من حديث عائشة رضي الله عنها.

المصالحة الكبرى مع الوجود

قائمة السور الأولى التي نزلت على النبي في مستهل البعثة تضم الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ثم الآيات السبع الأولى من سورة المدثر، وقريش والضحى والشرح والعصر والشمس والماعون والطارق والتين والزلزلة والقارعة والعاديات والليل[٤].

وإذا حلّلنا المفاهيم الكبرى في هذه السور، فسنجد أنفسنا أمام خطاب جديد، ينتقل بالعقل البشري إلى مستوى غير مسبوق من النظر في الكون والنفس وغايات الوجود. لقد تنزّل الوحي في هذه الفترة بمفاهيم تؤسس لمنهج معرفي جديد، ينتقل بالنبي ومجموعة المسلمين الصغيرة إلى تعامل أليف مع الحياة والكون، ويفتح أفقاً ممتداً بين ملكوت السماوات والأرض. إنه خطابٌ يصل عوالم الفضاء البعيد بدواخل النفس البشرية، يمنح الوجود صلات جديدة، ويصل ما انقطع منها بفعل العقل البشري المحدود.

كان العقل البشري يعيش حالة من النظر المجزّأ في الوجود، يتأمل الشمس فيحسبها كياناً قائماً بذاته، له حياة وإرادة، وقوى خارقة، فيعبدها طمعاً أو خوفاً؛ وينظر في القمر فيراه هو الآخر ذا حياة أخرى منفصلة، فيسجد له؛ وإن أشكل عليه فهم ارتباط ظواهر الكون ووظائف موجوداته نصب لكل منحى من مناحي الحياة إلهاً من حجر أو شجر أو حيوان، فللزرع والمطر إله، للرياح إله، وللبحر إله، وكذلك للحرب، وللثروة، وللحب؛ فالكون يعج بالآلهة. ولأن العقل البشري ينزع دوماً إلى تجسيد المجرد، فقد جعل هذه الآلهة على صورته وطبعه: تتقاتل وتتصالح وتتحالف، والإنسان فيما بينها ضعيف خانع لا يملك من أمر هذا الوجود المبهم العنيف إلا الاحتماء بالخضوع التام لكل هذه الآلهة. ولأن هذه الآلهة لا تتواصل مع عابديها ولا تكلمهم، كان لا بد من كهنة ومنجمين وعرافين، يفسّرون إرادة الآلهة، فيزجرون الطير وينظرون في النجوم ويضربون الأقداح، ثم يجمعون العطايا والقرابين من الإنسان الضعيف المتعلق بأي أمل يقيه شراً مستطيراً، وغضباً للآلهة مدمراً، لكنه لا يعرف لماذا تغضب ولا كيف ترضى إلا من خلال ما يبوح به الكهنة والسدنة والمنجمون.

هذا هو منتهى العقل التجزيئي الحائر، فجاءت آيات التنزيل الأولى لتبني

---

(٤) حسين مؤنس، **تاريخ قريش**، مصدر سابق.

مصالحة وجودية كبرى، تلغي هذا الاضطراب، وتعيد للوجود انتظامه ومعقوليته وتوازنه، فكل ما في الكون من شمس وقمر وليل ونهار، وحتى النفس البشرية ذاتها، كلها تنتمي إلى منظومة محكمة الخلق والصنع، لها خالقٌ واحد، يمنحها غاية ونظاماً تسير فيه، فلا تملك من أمرها ضراً ولا نفعاً: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۞ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ ـ ٤٠].

وتلفت آيات القرآن الأولى نظر النبي وصحبه إلى أن هذا الانسجام الخلقي والغاية الوجودية لا يستثنيان النفس الإنسانية إلا فيما أودعه الخالق فيها من قدرة على الاختيار: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۞ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

ثم تستمر القراءة التوحيدية للكون، فتقدّم لهم نظاماً ثنائياً متقابلاً، في مظاهر الكون من ليل ونهار، وتربطه بعالم الاجتماع البشري من ثنائية الذكر والأنثى، وتصل ذلك كله بغاية عليا: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۞ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١ ـ ١١].

كانت آيات التنزيل الحكيم الأولى تبني وتدرب وتشكل ذهنية النواة الصلبة الملتفة حول النبي، لذلك جاءت مفارقة للأجندات التي يعج بها المجتمع القرشي، فلا ذكر فيها لما تخوض فيه قريش من تنافس في الأموال وتفاضل في الأحساب وتقرب من الأوثان. المنهج التكويني للنواة المؤمنة الأولى كان متسامياً يبث مفاهيم بعيدة عن جدليات قريش المكررة، واهتماماتها الساكنة، ومفاهيمها الموروثة الرتيبة؛ هذا خطاب لم يعهده الناس، لا في معلقات أشعارهم ولا خطبهم.

الفريق المؤسس

إذا أنعمنا النظر في الفريق الأول لوجدنا أن له سمتين اثنتين: **الأولى** أنه عميق الصلة بالنبي الكريم، فهم أقرب الناس إليه، أهل بيته الصغير: خديجة

وعلي وزيد، ثم صاحبه الأقرب أبو بكر، وكذلك زوج ابنته ـ لاحقاً ـ عثمان، ثم عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، كلهم جميعاً متصلون بالنبي أو بزوجه أو صاحبه.

وتتسع الدائرة بعد ذلك لتشمل حلقة أوسع، هم أيضاً من الثقات المقربين من الدائرة الأولى: أبو عبيدة عامر بن الجراح، أبو سلمة المخزومي، الأرقم بن أبي الأرقم، عثمان بن مظعون، عبيدة بن الحارث بن المطلب، سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب، وكذلك أسماء وعائشة ابنتا أبي بكر، وخباب بن الأرت.

في آخر السنوات الثلاث الأولى يذكر رواة السيرة أن تعداد المجموعة المسلمة بلغ الستين، وفي قراءة لأسمائهم وأنسابهم نجد أن هذه المجموعة كانت تنتمي إلى كل أطياف المجتمع المكي، فيهم أبناء البطون الرئيسة في قريش، وفيهم الموالي والعبيد، وفيهم الرجال والنساء، لكن غالبيتهم من جيل الشباب، فلم يسلم في تلك المرحلة من صناديد قريش وسادة بطونها الكبرى أحد.

المجموعة المسلمة الأولى كانت أيضاً متنوعة الاختصاصات والوظائف، ففيها أبو بكر، نسّابة قريش وأعلمها بأنساب القبائل، ولا يخفى كم لذلك من قيمة في التواصل مع المجتمع المكي، فالأنساب تعني وشائج القرابة والصلات الاجتماعية من نسب ومصاهرة، ومعها معلومات مهمة عن العدد والعدة والتحالفات، وهي أوسع بذلك من دائرة الإحصاءات العامة في لغتنا المعاصرة، وسيكون أبو بكر أفضل مساعد للنبي في الاتصال مع كل هذه البطون والقبائل، وتقديم المعلومات اللازمة عنها وعن قابليتها لحماية الدين الجديد؛ وفي هذه المجموعة من هو متصل بمجتمع رجال الأعمال، مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وفيهم من هو متصل ببطون حلف الأحلاف، مثل الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي وعثمان بن مظعون الجمحي، وفيهم من هو متصل بالموالي، مثل خباب بن الأرت حليف بني زهرة، وكذلك صهيب الرومي وعمار بن ياسر وأبواه، وفيهم من الرقيق مثل بلال بن رباح.

هذه مجموعة فريدة في انفكاكها عن النظام الاجتماعي وتراتبياته المستقرة في مكة، فلم يكن مألوفاً أبداً أن يلتقي مثل هذا التنوع الرأسي والأفقي في تجمّع واحد، الناس فيه سواسية؛ لقد كان حدثاً اجتماعياً استثنائياً: فريق

استثنائي، وخطاب استثنائي، لا تدري قريش كيف تقرؤه ضمن معاييرها المعهودة.

لقد أحسّت قريش بحركة النبي ومجموعته، لكنها لم تُعِر ذلك اهتماماً كبيراً في السنوات الثلاث الأولى، حسبته بعضاً مما يقوله المتحنّفون والمتبتلون، كورقة بن نوفل وصحبه. ولأن قريشاً تنزع دوماً نحو الهدوء والحفاظ على السلم القبلي المجتمعي، لم تشأ أن تجعل من قضية عشرات المكّيين شأناً عاماً ذا خطر ينبغي تداركه في هذه المرحلة، لا سيما أن ما يرشح من آيات لا تعني لقريش الكثير، فما على قريش إن تحدث محمدٍ عن الشمس والقمر والليل والنهار؟

غفلة قريش عن الدين الجديد أتاحت فرصة ممتازة للنبي لإعداد الفريق الأول من المسلمين بعناية فائقة، فاختارت المجموعة مقراً لاجتماعاتها ولقاءاتها، هو دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهو من بني مخزوم واسمه عبد مناف بن أسد، وكان الأرقم يعيش مع أبيه في دار واسعة على الطريق بين الصفا والمروة، ولم يكن في البيت إلا الأرقم وأبوه، وكان شيخاً ضريراً. وعلى الأرجح أن النبي وأصحابه اتخذوا من دار الأرقم مقراً لهم في السنة الثانية للبعثة، واستمرت كذلك ثلاث سنين، أي حتى السنة الخامسة للبعثة.

لعل الشيء الذي لم يرتح له سادة قريش هو أن الجماعة الجديدة تتواصل فيما بينها خارج العرف الطبقي السائد، وتؤسس صلاتٍ متبادلة بعيدة عن روح الطبقية القبلية وخارقة للعادة في التبسط مع العبيد والموالي. هذا مشهد لا يريح السادة الكبار، ولكنه لا يدعو إلى كثيرٍ من القلق أيضاً.

بداية المواجهة

تعددت الروايات التي نُقلت عن مبادأة النبي ﷺ لقريش، وتتنوع في تبيان اللحظة التي انتقل الحديث فيها من خطاب خاص لبني هاشم وبني المطلب إلى خطاب عام لقريش؛ فمنهم من جعلها متزامنة مع نزول آية سورة الشعراء [٢١٤] ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، ومنهم من جعلها بعد آية سورة الحجر [٩٤] ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾. وهذا ما نقله ابن كثير ففيه عند أحمد عن ابن عباس بقوله: «لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾، أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّفَا فَصَعِدَ عَلَيْهِ ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهُ»، فَاجْتَمَعَ النَّاس إِلَيْهِ بَين رجل يجِيءِ

إِلَيْهِ وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي لؤي، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ صَدَّقْتُمُونِي؟**». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَمَا دَعَوْتَنَا إِلَّا لِهَذَا. فأنزل الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٥].

وفي **صحيح مسلم** أنّه «لَمَّا نزلت هَذِه الآيَة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشاً فَعَمَّ وَخَصَّ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي وَاللهِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِلَّا أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»[٦].

كما ورد في **صحيح مسلم** أيضاً عن عائشة ﵂ أيضاً قالت: لما نزلت «**وأنذر عشيرتك الأقربين**»، قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**»[٧].

وللجمع بين هذه الروايات يمكننا القول إن المسافة الزمنية بين الوليمة التي دعا النبي إليها بني هاشم وبني المطلب، والخطاب المفتوح لعامة بطون قريش، كانت قريبة جداً؛ فخلاصة الأمر أن الإذن بدعوة العشيرة المقربة والطلب من النبي أن يصدع بما يؤمر كانا في زمنٍ واحد أو متقارب.

إلا أن ابن إسحاق يورد نصاً مهماً في هذا السياق، إذ يجعل بدء الخلاف مع قريش ليس فور الإعلان العام، بل بعدما بدأ النبي يواجه منظومة قريش الفاسدة، فيقول: «فَلَمَّا بَادَى رَسُولُ اللهِ ﷺ قَوْمَهُ بِالْإِسْلَامِ وَصَدَعَ بِهِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَوْمُهُ، وَلَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ - فِيمَا بَلَغَنِي - حَتَّى ذَكَرَ آلِهَتَهُمْ

---

(٥) انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، مصدر سابق.

(٦) صحيح على شرط الشيخين، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب: في قوله تعالى: «**وأنذر عشيرتك الأقربين**»، (١/ ١٩٢) حديث رقم: ٢٠٤. وأورده الترمذي والنسائي وأحمد في مسنده.

(٧) **صحيح مسلم** (١/ ١٩٢) رقم الحديث: ٢٠٥.

وَعَابَهَا، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْظَمُوهُ وَنَاكَرُوهُ، وَأَجْمَعُوا خِلَافَهُ وَعَدَاوَتَهُ، إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالى مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَهُمْ قَلِيلٌ مُسْتَخْفُونَ، وَحَدِبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، وَمَنَعَهُ وَقَامَ دُونَهُ، وَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَمْرِ اللهِ، مُظْهِراً لِأَمْرِهِ، لَا يَرُدُّهُ عَنْهُ شَيْءٌ»(٨).

كان ذكر النبي لآلهة قريش بمبادرةٍ منه، لكنه قرار محسوب؛ فمن جهة قريش فإن الأسلم لها هو أن تتجاهل الدعوة وتهمل الرد عليها، ومن ثَمَّ تقلل من قيمتها، لكن النبي أراد أن ينتقل من المساحة المريحة التي تتوقعها قريش إلى استراتيجية يحدد معالمها هو بنفسه، وذلك يحتاج مبادرة تنقل قريشاً إلى دائرة رد الفعل، وهذا بالضبط ما فعله النبي.

المبادرة وعدم الانحباس في مربع الخصم كانت من المبادئ الاستراتيجية البارزة طوال عهد النبوة؛ إذ لم يكن يقبل بأن يحصره عدوه في مسار محدد، بل كان يفاجئ الخصم بمبادرات متتالية، تضع الطرف الآخر في حالة رد الفعل.

إذاً فقد اختار النبي لحظة الانطلاق وقرر دفع قريش إلى القيام برد فعلٍ ما، فكان أن ذكر آلهتهم وعابها.

قريش لم تُعرف بشدّة تدينها الروحيّ، ودين قريش ليس منظومة اعتقادية وروحية سامية، بل منظومة تديُّن وظيفي، فهي قبيلة تقوم على المصالح والتوازنات والمنافع، وقد تماهى الدين لديها مع المصالح والامتيازات المتحصّلة عنه، ولذلك فإن إهانة معتقدات قريش الدينية ليست مما يستفز قريش في حد ذاته، فالمتحنّفون ممن كانوا يتبعون دين إبراهيم في مكة كانوا يعيبون على قريش عبادة أصنامٍ لا تضر ولا تنفع، وقريش تعلم في قرارة نفسها أن الله هو الإله الواحد المعبود، ولكنها اتخذت من الأصنام هذه ذريعة لبناء هوية خاصة بها؛ وبتعبير إبراهيم عليه السلام كما في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، أي إنها روابط لتأسيس مصالح دنيوية، ووسيلة لجمع كلمة القبائل المختلفة حول مركزية مكة الدينية، وإلا فما مغزى أن توضع أصنام يزيد عددها على ٣٦٠ صنماً حول

---

(٨) السيرة النبوية لابن هشام.

الكعبة؟ فقريش كانت تعبد أصناماً معروفة، مثل هبل وإساف ونائلة، أما ما عداها فكانت أوثاناً جاءت بها قبائل العرب ونصبتها حول الكعبة، وقريش في ذلك إنما كانت تستغل هذا الحضور لأصنام العرب من أجل ترسيخ مكانة مكة كنقطة ارتكاز ديني للجميع، وفي ذلك فوائد تجارية وسياسية بالغة.

دين قريش بأوثانها ومواسم حجها وحرمة بيتها ونظام حُمسها كلها كانت قد أصبحت أدوات توظفها لمصالحها الدنيوية، فإن عاب النبي هذه الآلهة فإنما يعيب كل النظام الذي بُني عليها، من استعلاء قبلي واستغلال مالي ومن مصادرة ما هو مقدّس لحساب ما هو دنيوي، وهذا ما لا تتسامح معه قريش أبداً.

الاستراتيجية القرشية

مكة مجتمع تجاري قبلي، ورأس المال يرغب دوماً في الاستقرار ولا يحب المفاجآت، وقريش تنزع دوماً نحو صيانة الواقع الراهن، ولكنها إن وجدت نفسها مضطرة للرد، فإنها ستتبع استراتيجية متوقعة: سيكون ردها متدرجاً، سيبدأ دبلوماسياً تفاوضياً ثم ينتقل إلى تهديد محسوب، وينتهي إلى إجراءات تصعيدية.

اتخاذ القرارات الاستراتيجية في قريش يتم عادة بالتوافق في دار الندوة بحضور سادة جميع بطون قريش، لكن في حالة كهذه، حيث يكون الخصم من أبناء قريش، مسنوداً ببطنين رئيسيين فيها، هما بنو هاشم وبنو المطلب، فإن مركز صناعة القرار سيكون خارج دار الندوة، فالعرف المتّبع في هذه الحال أن تتشاور الأطراف مع الحلفاء المقربين. وبما أن النبي من بيتٍ ينتمي إلى حلف الفضول، فإن الطبيعي أن يكون المعسكر الآخر - حلف الأحلاف - هو الذي يتشاور ويتباحث فيما بينه في كيفية الرد؛ وبما أن بني عبد شمس هم أيضاً ليسوا أعضاء في حلف الفضول - بسبب الخلاف القديم الذي نشأ بين هاشم وأمية بن عبد شمس - فإنهم سيكونون أيضاً ضمن المجال التشاوري في قضية مثل موضوع النبي.

إذا ألقينا نظرة على التركيبة القيادية في قريش في هذه المرحلة فسنجد أن البنية القيادية تضم طبقتين اثنتين: **الأولى** هي طبقة كبار السادة من الشيوخ المتقدمين في العمر والمنزلة، وعلى رأسهم في تلك الفترة الوليد بن المغيرة، سيد بني مخزوم، وأبو أحيحة بن العاص بن أمية بن عبد شمس، ثم عتبة وشيبة

ابنا ربيعة. وكانت هذه الطبقة تمتاز بالرويّة والميل نحو تسوية النزاعات بطرائق تفاوضية، والحفاظ على وحدة قريش وتماسكها.

أما الطبقة الثانية من القيادة القرشية فتضم الجيل الأصغر سناً، ومعظمهم من أتراب النبي، مثل أبي الحكم عمرو بن هشام، الذي سيعرفه المسلمون بأبي جهل، وهو ابن أخي الوليد بن المغيرة، ثم أبي سفيان حرب بن صخر، زوج ابنة عتبة وابن أخيه، وكذلك النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي، وهؤلاء كانوا أكثر تهوراً واندفاعاً من الطبقة الأولى.

الملاحظ من متابعة الوضع القيادي بمكة في هذه الفترة أن زعامة كبار السادة كانت شرفية، لكنها حاسمة إذا اقتضى الأمر، أما القيادة التنفيذية اليومية فيقوم بها المنتمون إلى الطبقة الثانية.

الأجواء التي انتقلت فيها المواجهة مع قريش باتجاه التصعيد بدأت من خلال حوادث معزولة، فقد كان أول دم أُريق في الإسلام في حادثة وقعت عندما خرج سعد بن أبي وقاص مع بعض المسلمين إلى شعب من شعاب مكة للصلاة. وقيل إن مجموعة من المشركين تعرضوا لهم وعابوا فعلهم، فضرب سعدٌ أحدَهم بعظم جمل فشجه[٩].

إلا أنّ التصعيد الأهم كان عندما تعرض أبو جهل وبعض قيادات قريش من المندفعين للنبي وللمسلمين، وهكذا يكون التوتر قد وصل إلى مستوًى غير مسبوق، وينذر باندلاع نزاع واسع في بنية قريش، وهو ما لم يرق السادةَ الكبار، فإن استمر الأمر على تلك الحال فإن الانتماءات القبلية والأحلاف المنبثقة عنها سوف تُستَنفَر، ويخرج الأمر عن السيطرة. ويبدو أن الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة كانا في منتجعاتهما بالطائف على عادة الأثرياء من زعماء قريش ممن كانوا يصطافون في مزارع وبيوت لهم هناك بعيداً عن قيظ مكة، فلما عرف السادة بالأمر قرروا قطع إجازتهم وعادوا إلى مكة لاحتواء التوتر.

---

(٩) ذكر ابن حجر في الإصابة (ج١، ص٦٩٦) أنّ أوّل من قتل من المسلمين تحت الركن اليماني كان ربيب رسول الله ﷺ: الحارث بن أبي هالة؛ فقد أورد في ترجمته عن ابن الكلبي وابن حزم أنّه ذكر «أول من قتل في سبيل الله تحت الركن اليماني. وقال العسكريّ في «**الأوائل**»: لما أمر الله نبيه ﷺ أن يصدع بما أمره قام في المسجد الحرام فقال: «قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا»، فقاموا إليه فأتى الصّريخ أهله، فأدركه الحارث بن أبي هالة فضرب فيهم فعطفوا عليه فقتل، فكان أول من استشهد».

أدرك شيوخ قريش أنهم يحتاجون للاضطلاع شخصياً بحل مشكلة محمد عندها بادروا بسلسلة إجراءات، أهمها أنهم قرروا الحديث المباشر مع النبي. ودعونا نقرأ خبرَ واحدةٍ من عدة روايات نقلها ابن إسحاق عن مثل تلك اللقاءات، هذه المرة محاولة قيل إن عتبة بن ربيعة هو من قام بها:

«فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السِّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قد أتيت قَوْمك بِأَمْر عَظِيم فرّقت جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي حَتَّى أَعْرِضَ عَلَيْكَ أُمُوراً تَنْظُرُ فِيهَا، لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أسمع يَا أَبَا الْوَلِيد**».

قَالَ: يَا ابن أَخِي: إنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَا لَكَ من أَمْوَالنا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفاً سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْراً دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَأْياً تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطِّبَّ وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرجل حَتَّى يتداوى مِنْهُ. أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ. حَتَّى إِذَا فرغ عتبة قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: اسْمَع مِنِّي.

قَالَ: أَفْعَلُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٣]. فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْرَأُهَا، فَلَمَّا سَمِعَ بِهَا عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلْقَى بِيَدَيْهِ خَلْفَهُ أَوْ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِداً عَلَيْهِمَا لِيَسْمَعَ مِنْهُ.

حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى السَّجْدَةِ فَسَجَدَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟**»، قَالَ: سَمِعْتُ.

قَالَ: «فَأَنْتَ وَذَاكَ».

ثُمَّ قَامَ عُتْبَةُ إلى أَصْحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: نَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ. فَلَمَّا جَلَسُوا إِلَيْهِ قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ قَالَ: وَرَائِي أَنِّي وَاللهِ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلاً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا الْكِهَانَةِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُوهَا بِي، خَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ واعتزلوه، فوالله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبَأً، فَإِنْ تُصِبْهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرْ عَلَى الْعَرَب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وَكنتم أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ.

قَالُوا: سَحَرَكَ وَاللهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ.

قَالَ: هَذَا رَأْيِي لَكُمْ، فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ»(١٠).

وفي رواية أخرى قيل إن الوليد بن المغيرة هو الذي خاطب النبي، والغالب أن الوليد قام بمحاولة أخرى كانت نتائجها قريبة من نتائج محاولة عتبة، وأن الوليد امتنع عن اتخاذ موقف نهائي بشأن النبي بعدما سمع منه. ويروي ابن إسحاق أن أبا جهل هو الذي أقنع الوليد بأن يتخذ موقفاً أشد صرامة، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا عَمِّ إِنَّ قَوْمَكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالاً. قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: ليعطوكه، فَإِنَّك أتيت مُحَمَّداً لتعرض مَا قبله. قَالَ: قد علمت قُرَيْش أَنني من أَكْثَرِهَا مَالاً.

قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلاً يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَهُ».

وبالفعل عاد الوليد إلى قومه واقترح أن يقولوا هو ساحر لأنه يفرق بين المرء وقومه.

نفهم من سياق النص أن زعماء الطبقة الأولى كانوا مترددين بداية في الوصول إلى رأي قاطع ضد النبي، لأن ذلك سيسرِّع المواجهة، فهم يعرفون أن تبعات هذا القرار هي صراع داخلي في قريش، وهذا ما يرجون دفعه في هذه المرحلة. وفي حادثة مشابهة نلحظ أيضاً تردد زعيم آخر مكافئ للوليد وعتبة في المنزلة والسن، وهو أبو أُحيحَة بن العاص، فقد تحدث إلى قومه بخطاب تغلب

(١٠) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مصدر سابق.

عليه لغة المصلحة المباشرة فقال: «دعوا محمداً ولا تعرضوا له، فإن كان ما يقول حقاً، كان فينا دون غيرنا من قريش، وإن كان كاذباً قامت قريش به دونكم. فكان النبي ﷺ يمر به فيقول: إنه ليتكلم من السماء، حتى أتاه النضر بن الحارث فقال له: إنه يبلغني أنك تحسن القول في محمد، وكيف ذلك وهو يسب الآلهة، ويزعم أن آباءنا في النار، ويتوعد من لم يتبعه بالعذاب؟ فأظهر أبو أحيحة عداوة رسول الله ﷺ، وذمه، وعيّب ما جاء به، وجعل يقول: ما سمعنا بمثل ما جاء به، لا في يهودية ولا نصرانية»(١١).

ونلاحظ في كلتا الحالتين أن رجلين ينتميان إلى الطبقة الثانية تدخلا للضغط على كلٍّ من الوليد وأبي أحيحة لتغيير موقفيهما: أبو جهل في حالة الوليد، والنضر بن الحارث في حالة أبي أحيحة.

فشل زعماء قريش في أن يُقنعوا النبي بالعدول عن تبليغ رسالته، وكان ذلك متوقعاً، فقريش في خطابها كانت منسجمة مع نفسها من باب أنها ترى كل القضايا مسائل مصلحية يمكن حلها بالإغراء المادي أو وعود الرئاسة والسؤدد، أما النبي فكان يتحدث إليهم بخطاب مبدئي، وهو خطاب أعلى منزلة من خطاب قريش، فلا يستطيعون تفنيده ولا تجاهله؛ فقريش تعلم أن شرعيتها الاستثنائية قائمة على البيت والحرم، وهما تراث إبراهيمي، لا يستطيعون إنكاره، وهذا النبي يقول إنه يتبع ملة إبراهيم حنيفاً، الذي لم يعبد أحداً إلا الله الواحد، وإنه يطالبهم بالعودة إلى نقاء العقيدة الإبراهيمية المؤسسة للكعبة والبيت الحرام والأشهر الحرم والحج، وهي كلها مكونات الاستثنائية القرشية، ويدعوهم إلى الإنصاف والعدل والمساواة وترك الجشع والتطفيف في الأوزان وصلة الرحم، فبأي حجة يستطيعون تقبيح دعوته؟

من هنا كان التفاوض المباشر مع النبي لا يأتي بنتيجة، بل يزيدهم غيظاً؛ ذلك أنهم يعرفون في قرارة أنفسهم أن دعواه جادة وخطيرة، تتجاوز الحديث عن الآلهة إلى نقض البناء القيمي القرشي كله، كما أن محمداً الذي يعرفونه من قبل بالأمين لم يكن طالب سلطة زمنية ولا ثروة دنيوية، فالرسالة والرسول في حد ذاتهما محصنان من العيوب القادحة في أهليتهما أو في شرعيتهما. هنا كان

(١١) البلاذري، **أنساب الأشراف** (بيروت؛ لبنان: دار الفكر، ١٩٩٦)، ج ١، ص١٤١.

لا بد لهم من أن ينقلوا مستوى التفاوض ليكون مع سيد بني هاشم؛ عم النبي وحاميه.

كان أبو طالب شيخاً ذا قدر في قريش، وهو زعيم بني هاشم والمكلف بالرفادة والسقاية، ومعروف بأنه حامل لقيم الرمزية الهاشميّة في إغاثة الملهوف ودفع الظلم وإحقاق الحق، إلا أن أبا طالب لم يكن ثرياً كما كان سادة قريش الذين من نفس طبقته.

الوفد التفاوضي الأول الذي زار أبا طالب تشكّل من عشرة أشخاص، هم:

الوليد بن المغيرة وأبو جهل، وهما من بني مخزوم؛ عتبة وشيبة ابنا ربيعة إضافة إلى أبي سفيان بن حرب، وثلاثتهم من بني عبد شمس؛ أبو البختري العاص بن هشام والأسود بن عبد المطلب، وهما من بني أسد بن عبد العزى؛ نبيه ومنبه ابنا الحجاج ومعهم العاص بن وائل، وهم جميعاً من بني سهم.

الجولة التفاوضية **الأولى** مع أبي طالب كانت هادئة؛ خاطبه الوفد بلطف، وطلبوا منه أن يكف محمداً عنهم، فهو يعيب آلهتهم ويسفّه أحلامهم ويتعرض لهم في الأسواق والمجالس، فرد أبو طالب على قومه برفق وكلمات مطمئنة ووعدهم خيراً.

نلاحظ هنا أن معظم شخصيات الوفد ليست من المنتمين إلى حلف الفضول، ما عدا بني أسد بن عبد العزى الذين حضر منهم أبو البختري والأسود، لكن ليس هنا أحد من بني زهرة ولا تيم، إضافة طبعاً إلى بني هاشم وبني المطلب.

فاتحَ أبو طالب النبيَّ في شأن الزيارة ومطلب الوفد بأن يكف عن تعييب آلهتهم والتعرض لهم في الأسواق والمجالس، والمقصود طبعاً هنا الكف تماماً عن تبليغ الدعوة للعموم. لكن النبي أوضح بما لا يقبل الشك أنه مستمر في تبليغ رسالته، ولم ينهَه أبو طالب عن ذلك بل سكت عنه.

الجولة **الثانية** من المفاوضات حملت تصعيداً خطيراً، هدد الوفد أبا طالب بلغة واضحة مباشرة، طلبوا منه أن يرفع الحماية عن ابن أخيه، وأن يخلّي بينهم وبينه، لأنه إن لم يفعل فسوف يتصاعد الموقف إلى درجة قد يستخدم فيها العنف، ويحتكمون فيه إلى السلاح، وكان مما قالوا: «يا أبا طالب، إن لك

سناً وشرفاً ومنزلة فيناً، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهَه عنا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

عندها استدعى أبو طالب النبي وقال له: «يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق؛ قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمِّه فيه بداء وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال رسول الله ﷺ: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك فيه. قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيءٍ أبداً».

الجولة **الثالثة** عرض فيها وفد قريش عرضاً بائساً، لكنه يدل على أنهم قد وصلوا إلى نهاية الطريق؛ فقد طلبوا من أبي طالب أن يُسلّم لهم محمداً ليقتلوه، وأن يعطوه بالمقابل أجمل فتيان قريش، وهو عمارة بن الوليد، ليتخذه ولداً بدلاً من محمد. وهو عرضٌ سخيف، ردّ عليه أبو طالب بسخرية فقال لهم: «لبئس ما تسومونني به، أعطيكم ابني لتقتلوه، وتعطونني ابنكم أغذّيه لكم، هذا والله لا يكون أبداً»[١٢].

بيوت السادة تُخترق

مع انسداد الأفق التفاوضيّ، كان واضحاً أنّ كل محاولات قريش لإسكات النبي قد فشلت، بل لقد خرج الأمر عن السيطرة تماماً؛ فتهمة «الساحر» التي اتفق عليها الملأ منهم لم تؤتِ ثمارها في صدّ من كان قد أسلم عن الدين الجديد، ولم تمنع أشخاصاً جدداً من اعتناقه، كما أن المفاوضات مع أبي طالب وبني هاشم قد وصلت إلى طريق مسدود.

كانت قريش في عجلةٍ من أمرها لإنهاء قضية النبي قبل أن يؤثّر خبر رسالته على مكانتها بين قبائل العرب، فأسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز وموسم

---

(١٢) راجع الرواية كاملة في **السيرة النبوية** لابن هشام.

الحج جميعاً تنقل الأخبار إلى كل أرجاء الجزيرة أن ثمّة خطباً ما في مكة، وقريش قبيلة تعتاش على المكانة والسمعة، ومكة مدينة تجارة، السمعة والاستقرار فيها هما رأس المال الأول، وانتشار خبر النبي سيعطي انطباعاً سلبياً عن البيت الداخليّ لقريش وصورته المتماسكة الموحّدة الجديرة بالتقدير والإعجاب، فكثير من قبائل العرب تتمنى أن ترى انشقاقاً بمكة؛ فخزاعة مثلاً لم تنسَ كيف أخرجتها قريش من مكة، أما قبائل قيس عيلان فكانت قد حاربت قريشاً منذ ثلاثة عقود في حرب الفِجار، وستكون سعيدة لو أن قريشاً ضعفت.

المشكلة الثانية الضاغطة على الملأ من قريش، والتي تدعوهم للتحرك العاجل، كانت تكمن في أن أتباع الدين الجديد يزدادون بشكلٍ مستمرّ، وهم ليسوا من الضعفاء والموالي والعبيد فحسب، بل إن أكثرهم من بطون قريش، بل من بيوت السادة ذاتها، لا سيما الشباب منهم.

ومما يثير الدهشة أن النبي ﷺ استطاع أن يخترق بيوت سادة قريش، وأن ينشر الإسلام في أوكار المكر والكيد القرشيّ في عهد الإسلام الأول، فأسلم أبناء وبنات عدد من زعماء قريش، ولم يبقَ بيتٌ من بيوت أشراف قريش إلا دخله الإسلام في السنوات الخمس الأولى، فإذا أخذنا في الاعتبار أننا نتحدث عن مجتمع يعتدُّ بالأنساب، ويقدِّس تراث الآباء ويلتزم هديهم، فإن إقناع الأبناء بخلع دين الآباء واعتناق دين جديد يصبح مهمةً عصيبة، فكيف إذا كان المسلمون من أبناء الزعماء والسادة منتمين إلى بطون قريش كلها، لا لبني هاشم ولا لبيوت بني عبد مناف ولا المطيبين فحسب، فمنهم من بني مخزوم وبني سهم وجُمح وبني عامر وبني عدي وبني تيم وزهرة وبني عبد شمس(١٣).

لنأخذ مثلاً أكثر بطون قريش ضراوة في قيادة الحملة الشرسة ضد النبي: بنو مخزوم.

قاد الوليد بن المغيرة حرب الكلمة والسياسة، وخاض عمرو بن هشام حملة الإرهاب والعنف، واستحق بذلك لقب أبي جهل، وقيل إن عمّه الوليد أول من ناداه به، عندما رأى طيشه وخفّته وفظاظة تعامله مع المسلمين، وعلى الأرجح أن المسلمين هم من أطلقوا اللقب عليه. ولكنّنا سنجد أن هذين البيتين كانا قد اختُرقا بنفس الدعوة التي يقودان الحرب عليها، ولعلّ ذلك ما أغاظ أبا

---

(١٣) المصدر السابق.

جهل وأفقده صوابه، وأي شيء أدعى للغيظ والحنق من أن يخسر المرء أهل بيته، فيصطفُّوا مع عدوِّه، ولا يترددوا في هجر دينه وتسفيه رأيه؟ ليس هذا فحسب، فإذا كان تبرير مخالفة الأبناء للآباء ممكناً، فكيف بمخالفة البنات للآباء؟

من المدهش عندما ندقق في أسماء المسلمين الأوائل، بمن فيهم من هاجر إلى الحبشة، أن نجد أن كثيراً من شباب بني مخزوم رجالاً ونساءً قد أسلموا:

سَلَمة بن هشام بن المغيرة شقيق أبي جهل لأبويه وابن أخٍ للوليد بن المغيرة من قدماء من أسلم بمكة، وكان ممن هاجر إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة، ومن مهاجرة الحبشة أيضاً هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة، ابن عمٍّ لأبي جهل، وأخوه لأمه عياش بن أبي ربيعة وهو من مهاجرة الحبشة، ومنهم أم سلمة بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة، شقيقة عبد الله بن أبي أمية، وأبوها عم أبي جهل، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها.

أما بيوت قريش الأخرى فكانت هي الأخرى قد اختُرِقَت:

من بني عدي أسلم زيد بن الخطاب وأخته فاطمة، ثم عُزَّ الإسلام والمسلمون بإسلام عمر بن الخطاب، وهو ابن اخت أبي جهل، أمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة، وأسلم ابن أخت آخر لأبي جهل، هو هشام بن العاص بن وائل، سيد بني سهم، وأمه حرملة بنت هشام، أما زعيم بني سهم منبه بن الحجاج فقد أسلم ابنه الحجاج.

أما أمية بن خلف سيد بني جمح فقد أسلم ابن عمه عثمان بن مظعون، أما سهيل بن عمرو سيد عامر بن لؤي فقد أسلم ولداه: عبد الله وأبو جندل، وأخوه سليط بن عمرو، وابنته سهلة بنت سهل، وكانت من مهاجرة الحبشة مع زوجها أبي حذيفة، وهو ابن سيد بني عبد شمس، عتبة بن ربيعة، وكان سيد قريش في بدر، وأكثر زعماء مكة دهاء.

ومن بني عبد شمس أسلم عمرو وأخوه خالد ابنا سعيد بن العاص، من سادة بني عبد شمس، وبالطبع فإن إسلام عثمان بن عفان، ابن عم أبي سفيان، كان قديماً. ومن آل أبي سفيان أسلمت ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان وكانت من مهاجرة الحبشة.

إسلام خديجة بنت خويلد من بني أسد بن عبد العزى كان مقدِّمة لإسلام

عدد من أبناء بني أسد، منهم الزبير بن العوام بن خويلد ابن أخي خديجة، وخالد بن حزام ابن أخي خديجة، وابن سيد بني أسد حزام بن خويلد وشقيق سيد آخر هو حكيم بن حزام.

أمّا شيطان قريش النضر بن الحارث، سيد بني عبد الدار، فقد أسلم ابنه فراس، وهاجر إلى الحبشة، وهاجر معه من بني عبد الدار مصعب بن عمير وأخوه أبو الروم.

ومع كل ذلك فإنّ ما زاد قريش اضطراباً أنها فشلت في إقناع بني هاشم وبني المطلب بالتراجع عن حماية النبي، بل لقد دفع طيش أبي جهل حمزةَ بن عبد المطلب، عمّ النبي المشهور بشجاعته، إلى الإعلان عن إسلامه؛ فعندما سمع أن أبا جهل تعرّض للنبي بالأذى والشتم جاءه وضربه بقوس كان في يده فشج رأسه، وقال: «أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد عليَّ ذلك إن استطعت».

لما دخل الإسلام بيوت زعماء قريش، فُجعوا بذلك وفقدوا صوابهم، ولما فشلوا في إقناع أبنائهم باللين، عمد كل واحد منهم إلى من يليه إكراهاً وسجناً وتعذيباً، فالمكانة القبلية لهذه النخبة من المسلمين لم تقدم لهم الحماية، بل كانت سبباً في اضطهادهم من قِبل آبائهم من سادة قريش، وكانت العقوبة المفضلة لديهم هي السجن، فقد حبس أبو جهل ابن أخيه هشاماً بعد عودته من الحبشة، فلم يأتِ المدينة إلا بعد الخندق، وحبس أبو جهل شقيقه سلمة بن هشام، ولحق بأخيه من أمه عياش بن أبي ربيعة إلى المدينة وأعاده إلى مكة مقيّداً، وبقي فيها سجيناً إلى ما بعد الخندق.

وممن حُبس في مكة مصعب بن عمير، حبسته أمه وعذبته، وحُبس هشام بن العاص بن وائل، أما سُهيل بن عمرو فقد حبس ابنيه عبد الله وأبا جندل؛ أما عبد الله فهرب قبيل بدر والتحق بالمسلمين في المدينة، بينما استمر حبس أبي جندل إلى ما بعد الحديبية. وفي العموم لم تتمكن قريش من تجاوز الحدّ في أذاها لأبنائها وأبناء سادتها من المسلمين، فكان الحبس أكثر العقوبات شيوعاً، وكانوا يعتدون بالضرب على بعضهم، كما حدث لعثمان بن عفان ولأبي بكر في بعض الأحيان. غير أن العصبية القبلية، وشبكة التحالفات بين البطون، ونظام الجوار، كانت تكبح جماح قريش عن تجاوز حدٍّ معيّن في أذاها لهذه المجموعة من المسلمين.

أصبحت الجماعة المسلمة في مطلع العام الخامس للبعثة مكتملة في بنيتها الاجتماعية، فقد نما عددها حتى قارب الثلاثمئة، وشملت جميع قطاعات المجتمع المكي. ولو ألقينا نظرة عامة على المسلمين في هذه المرحلة لوجدنا أنهم متنوعون في انتماءاتهم القبلية وخلفياتهم الاجتماعية بشكل لم يسبق له مثيل؛ فإلى جانب من أسلم من أهل النسب والحسب في قريش ممن ذكرنا، كان هناك موالٍ وعبيد وضعفاء، منهم زيد بن حارثة مولى رسول الله، وآل ياسر حلفاء بني مخزوم، وبلال بن رباح وكان مملوكاً لأمية بن خلف، وصهيبٌ الرومي وكان مولى لعبد الله بن جدعان، وخباب بن الأرت وكان مملوكاً عند امرأة اسمها أم أنمار، وعبد الله بن أم مكتوم، وهو الذي عاتب اللهُ فيه رسولَه[١٤] عندما ألحّ في السؤال بينما كان الرسول يحادث بعض زعماء قريش طمعاً بإسلامهم، وكان النبي كلما لقيه بشّ له وقال: «مرحباً بالذي عاتبني فيه ربِّي»؛ ومنهم عبد الله بن مسعود، وكان راعياً للغنم عند عقبة بن أبي معيط، وسالم مولى أبي حذيفة. ونجد بين الأسماء التي حرّرها أبو بكر من الرق إضافة إلى بلال أشخاصاً آخرين أقل شهرة من الأسماء السابقة، منهم: عامر بن فُهيرة، وفَكِيه الأزدي، وأم شميس، وزُنيّرة، والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل التي كانت عند بني عدي، وأم عميس وكانت عند بني تيم.

وقد صبّت قريش على هؤلاء الضعفاء العذاب صباً، ووقع عليهم ما هو أشدّ وأنكى مما وقع على أبناء السادة، فمنهم من قُتل تحت التعذيب كسمية بنت الخياط أول شهيدة في الإسلام وزوجها ياسر بن عامر، وقتلهما أبو جهل، ولم ينجُ عمار بن ياسر إلا بعدما أظهر شتم النبي، ومنهم من كُوي بالنار مثل خباب بن الأرت، ومنهم من عُذِّب والصخر فوق جسده في رمضاء مكة مثل بلال بن رباح، وعُذّب صهيب الرومي، وكان من الموالي، حتى فقد وعْيه، وعندما هاجر إلى المدينة اضطر للتنازل عن كل ماله للمشركين حتى يسمحوا له بالهجرة[١٥].

في هذه المرحلة يمكننا القول إن قريشاً قد انقسمت بالفعل، وفقدت

(١٤) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، مصدر سابق، ج ٨، ص٣٢٠.

(١٥) ابن هشام.

السيطرة على مسار الأحداث، وهذا ما يفسر توحشها في الإساءة والتنكيل بالمسلمين. ولعل الأكثر إيلاماً لقريش أن معظم أتباع النبي هم أيضاً قرشيُّون، فقد نجحت استراتيجية النبي في تأسيس مفهوم «قريش الجديدة» في مواجهة «قريش القديمة»؛ قريش الجديدة مسلمة، شابة فتية، متطلعة إلى المستقبل، أساس منهجها التوحيد، وما يجلبه من تحرر ومساواة وعدل؛ أما قريش القديمة، فمشركة، متهالكة سناً وقيماً وثقافة، تقدس تراث الآباء والأجداد، ساكنة في الماضي، متقوقعة في طبقية النسب والحسب.

السفارة الأولى

اختيار النبي للحبشة (مملكة أكسوم) مقصداً لهجرة أصحابه كان اختياراً استراتيجياً فيه وجاهة وبُعد نظر، إذ إن الأحباش أهل كتاب، يفهمون لغة التنزيل، ولمّا كانوا يتعاملون بشكلٍ مستمر مع أهل مكة وقبائل العرب، فهم يعرفون أنهم عبّاد أوثان، فإن جاء من بين العرب من يقول قريباً مما يقول المسيحيون فهو أقرب أن يُفهم ويُحترم ممن يعبدون الأصنام.

من ناحيةٍ أخرى فإن وجود المسلمين في الحبشة يعطيهم ميزة استراتيجية على قريش، لأهمية الحبشة لتجارة قريش، فإن قَبِل النجاشي استضافة المسلمين، فقريش حيال ذلك لا يمكنها فعل شيء، بل ستكون في غاية الحذر من إغضاب الملك الذي يتاجرون مع بلاده. ومن الواضح أن النبي كان مطّلعاً على البيئة السياسية في الحبشة في ذلك الوقت، وهو ما يُفسِّر وصفه لملكها عندما أرشد أصحابه إلى الحبشة: «لَوْ خَرَجْتُمْ إلى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجاً ممّا أنتم فيه»[١٦].

خرج الوفد الأول من أصحاب النبي في السنة الخامسة للبعثة، ومجموع من فيه اثنا عشر شخصاً، وكان في مقدمته عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله.

تشير المصادر إلى أن الهجرة كانت لجوءاً من اضطهاد قريش، وهذا تفسيرٌ صحيح من وجه، لكنّه غير كافٍ، فالهجرة تحمل دلالات أوسع من مجرد اللجوء، لأسباب عديدة؛ إننا نلاحظ عندما ندقق في أسماء مهاجرة الحبشة

---

(١٦) المصدر السابق.

الأوائل أنهم ليسوا مضطرين للهرب من بطش قريش، إذ كانوا ذوي درجة عالية في قريش نسباً ومرتبة، فإضافة إلى عثمان بن عفان الأموي وزوجه رقية الهاشمية، نجد أسماء من أبناء السادة، مثل أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجه سهلة بنت سهل بن عمرو، وكذلك الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة، وعبد الله بن جحش من بني أسد ومعه زوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وهكذا نلاحظ أن كل من كان في الوفد هم من البطون المعروفة بمكة، وليسوا من المستضعفين، إلا عبد الله بن مسعود، فكان حليفاً لبني زهرة، وكان يرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط.

ونعرف أن استهداف قريش للمسلمين في هذه المرحلة كان شديداً، إلا أنه كان أشد ما يكون ضد المستضعفين من الموالي والعبيد والمحررين، أما بالنسبة إلى رجال مثل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأبي حذيفة بن عتبة، فهم ليسوا من المستضعفين، والعُرف القبلي يمنحهم غطاءً معقولاً لا يضطرون معه إلى الهجرة.

الأرجح أن هذه الهجرة كانت مهمة استطلاع واستجلاء للأمور وفتحاً للعلاقات مع ملك الحبشة، وهذا ما يُفسّر عودة الوفد بعد فترة قصيرة، ثم ترتيب هجرة ثانية لعدد أوسع تجاوز الثمانين، فيه كثير من المستضعفين.

فالهجرة الأولى كانت سفارة فَتحت العلاقات، وهيّأت الأرضية المناسبة لاستقبال مهاجرين آخرين، والثانية فيها عدد أكبر ممن يطلبون اللجوء.

نفهم من سياق المرويّات الخاصة بالهجرة إلى الحبشة أن علاقات المسلمين مع النظام السياسي فيها قد تطورت، وصار للمسلمين سفارة مقيمة في الحبشة، يرأسها ابن عم النبي جعفر بن أبي طالب، وسوف يتأثر النجاشي شخصياً برسالة الإسلام ويُسلِم، وسوف يقدِّم الدعم الكامل والحماية التامة للمهاجرين، فيما فشلت محاولات سفير قريش عمرو بن العاص في إقناع النجاشي بتسليم المسلمين.

ويعزز ذلك أنّ بعض مهاجري الحبشة طالت إقامتهم فيها، حتى عادت آخر مجموعة منهم بقيادة جعفر بن أبي طالب بعد صلح الحديبية وأثناء فتح خيبر، فلو كان الهدف الرئيس من وجود المسلمين في الحبشة هو الفرار بدينهم لكانوا التحقوا بالنبي بعد الهجرة إلى المدينة، أما إقامتهم طوال هذه المدة فتدل

على أن لديهم مهام أخرى، منها نشر الدعوة والتواصل مع نظام سياسي صديق وإدامة العلاقة معه، وهذا من مقتضيات تثبيت أركان الدولة الإسلامية في المدينة؛ ذلك أنه لو كانت الحبشة على عداء مع دولة المسلمين، لكانوا واجهوا خطراً آخر يضاف إلى المخاطر الكثيرة المحيطة بهم في جزيرة العرب. فسفارة جعفر إلى الحبشة كانت مستمرة قبل هجرة المدينة وبعدها حتى خيبر، ولا نعرف ما إذا كان قد بقي للمسلمين تمثيل في الحبشة بعد خيبر، لكن على الأرجح أن بعض الأحباش قد اعتنقوا الإسلام، وواصلوا مهمة نشر الدعوة بعد مغادرة جعفر وأصحابه.

من المهم التأكيد على أن إسلام النجاشيّ لا يعني إسلام النظام، فقد أسلم الملك سراً، بينما بقيت المملكة مسيحية، ذلك أن الديانة المسيحية كانت العمود الفقري لشرعية الحكم في الحبشة، ولو أن النجاشيّ أظهر إسلامه لكان قد خسر عرشه، لكنه أسرّ إسلامه في نفسه، وسمح للمسلمين بممارسة شؤون دينهم والدعوة إليه.

ونقرأ عند ابن إسحاق أن وفداً من النصارى جاء إلى النبي في مكة عندما سمع به من الحبشة، وأن الوفد قد أسلم: «ثُمَّ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ عِشْرُونَ رَجُلاً أَوْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِن النَّصَارَى، حِينَ بَلَغَهُمْ خَبَرُهُ مِن الْحَبَشَةِ، فَوَجَدُوهُ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَلَسُوا إِلَيْهِ وَكَلَّمُوهُ وَسَأَلُوهُ، وَرِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ فِي أَنْدِيَتِهِمْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْأَلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَمَّا أَرَادُوا، دَعَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى اللهِ عز وجل وَتَلَا عَلَيْهِم الْقُرْآنَ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ فَاضَتْ أَعْيُنُهُمْ مِن الدَّمْعِ، ثُمَّ اسْتَجَابُوا لله، وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَعَرَفُوا مِنْهُ مَا كَانَ يُوصَفُ لَهُمْ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ. فَلَمَّا قَامُوا عَنْهُ اعْتَرَضَهُمْ أَبُو جَهْلِ بْن هِشَامٍ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُمْ: خَيَّبَكُم اللهُ مِنْ رَكْبٍ! بَعَثَكُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ تَرْتَادُونَ لَهُمْ لِتَأْتُوهُمْ بِخَبَرِ الرَّجُلِ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ مَجَالِسُكُمْ عِنْدَهُ حَتَّى فَارَقْتُمْ دِينَكُمْ وَصَدَّقْتُمُوهُ بِمَا قَالَ، مَا نَعْلَمُ رَكْباً أَحْمَقَ مِنْكُمْ ـ أَوْ كَمَا قَالُوا ـ فَقَالُوا لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَا نُجَاهِلُكُمْ، لَنَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، وَلَكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَمْ نَأْلُ أَنْفُسَنَا خَيْراً»(١٧).

---

(١٧) المصدر السابق.

نفهم من سياق الرواية أن أبا جهل ومن معه من سادة قريش كانوا يعرفون مهمَّة الوفد، وأنها استطلاعية، فقد أرسلهم قومهم لاستجلاء حقيقة النبي الجديد. وهذا الوفد قد يكون جاء من نجران وفقاً لبعض الروايات، ولكنَّ الأرجح أنه من الحبشة، أرسله النجاشيّ لاستجلاء حقيقة الدين الجديد، فلما عاد الوفد إلى النجاشي مسلماً، كان ذلك دافعاً إضافياً للنجاشيّ لكي يسلم هو أيضاً.

النجاشي من هو؟ وأين كان؟

وحتّى تكتمل الصورة، نحتاج إلى تدقيق في الأماكن والأسماء المتعلّقة بالهجرة إلى الحبشة، لأن في ذلك فائدة من أجل وضوح الخارطة السياسية والعلاقات الاستراتيجية في تلك المرحلة، وهذا جدلٌ احتدم في مطلع الثمانينيات والتسعينيات، ولا يزال مستمراً، وكنت شاهداً عليه مطلع التسعينيات عندما كنت طالباً في الدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية في الخرطوم، وكانت كلية الدراسات الإفريقية تحفل بحواراتٍ كثيرة وكتاباتٍ متعددة حول هذه المسألة، وتتمحور حول قضيتين: الأولى ما يخص مكان الهجرة؛ والثانية هويّة الملك الذي هاجر المسلمون إلى بلاده.

بالنسبة إلى مكان الهجرة فقد تباينت الآراء، ولكلٍّ حجته؛ فمنهم من قال إنّ الهجرة وقعت إلى أكسوم في إثيوبيا الحالية، وذهب آخرون إلى أنها كانت إلى مصوع(١٨) الواقعة حالياً في إريتريا، بينما رأى البعض من علماء السودان، وفي مقدمتهم عبد الله الطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنها كانت إلى ميناء سواكن(١٩) في السودان لموقعه المقابل لميناء الشُّعيبة الذي كانت مكة تبحر منه إلى الحبشة.

هذا الجدل نشأ في بعضه لأسباب متعلقة بتساؤلات مشروعة عن مسار الرحلة، وبعضه الآخر لدوافع متعلقة بالهوية الوطنية للدول الثلاث: إثيوبيا وإريتريا والسودان، وتسابق كل طرفٍ منها للحصول على شرف الهجرة الأولى للمسلمين.

---

(١٨) إحدى مدن إريتريا الحالية، وتطل على ساحل البحر الأحمر.

(١٩) سواكن مدينة تقع في شمال شرق السودان، كانت سابقاً الميناء الرئيس للسودان.

ومثل هذا الجدل لا يُحسم بسهولة، ومن المفيد أن يُخَصِّص بعض الباحثين وقتاً لهذه المسألة، وأن يمتدّ البحث خارج النصوص الإسلامية ليشمل تواريخ الأمم الأخرى وكذلك الحفريات واللسانيات وفحوص الحمض النووي وغيرها من العلوم الحديثة تجليةً لهذا الأمر وغيره من وقائع السيرة، فالسيرة النبوية لم تحظَ ببحثٍ استقصائيٍّ حديث، يجمع علوم العصر مع نصوص التاريخ في عمل جدّي. هذه المهمة ينبغي أن يقوم بها علماء من مختلف التخصصات، حتى نخدم السيرة بأفضل ما أتاحه عصرنا من أدوات.

أمّا بالنسبة إلى غايتنا في هذا الكتاب، التي تركز على البعد الاستراتيجي في السيرة، فيكفي أن نعرف أن لفظ الحبشة كان يستخدم من قِبَل العرب للإشارة إلى المناطق التي تقع على الضفة المقابلة من البحر الأحمر، ومملكة أكسوم لم تكن في القرن السابع الميلادي تضمُّ الأراضي التي تضمها دولة إثيوبيا حالياً، فإثيوبيا المعاصرة تشكّلت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت حبشة أكسوم في الشمال الغربي من إثيوبيا المعاصرة، أي في المناطق التي تضم إريتريا الحالية وبعض الصومال ووادي عدوة وجبال البجاة على البحر الأحمر، أما بحيرة تانا وأديس أبابا وأعالي الهضبة الإثيوبية فلم تكن لها علاقة بهجرة الصحابة(٢٠).

أما بالنسبة إلى الملك الذي أقام المسلمون في حمايته، فقد ذكرت المصادر الإسلامية أن اسمه أصحمة بن أبجر، أو أصحمة بن أبحر، أو سهم بن أبحر، أو غيرها؛ ولم نعثر في سجل ملوك مملكة أكسوم على هذا الاسم أو قريباً منه. والراجح في هذا الأمر أن النجاشيّ الذي هاجر إليه المسلمون ليس ملك أكسوم، بل هو ملك إقليم البحر ذي الحكم الذاتي التابع لمملكة أكسوم؛ ذلك أن مملكة أكسوم كانت تضمّ عدداً من الأقاليم، لكلٍّ منها ملك، أي «نيجاس» باللغة الجعزية، ونطقها العرب «النجاشي»، أما الملك، وعاصمته أكسوم، فهو «نَجوسا نَجاست»، وترجمتها «ملك الملوك».

نفهم من سياق الروايات أنّ المسافة التي قطعها المسلمون في البحر من ميناء الشُّعيبة استغرقت ليلتين، وهذا ما يعني أنهم لم يصلوا إلى ميناء عدوليس، الميناء الرئيس لمملكة أكسوم، لأنه أبعد من ذلك بكثير، لكنهم على الأرجح

---

(٢٠) عبد الله الطيب، مجلة دراسات إفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، كانون الثاني/ يناير ١٩٩٨.

نزلوا في ميناء باضع، أو مصوع حالياً، على ساحل إريتريا، وكان يقع ضمن إقليم يرأسه (بحر نيجاس) أي ملك البحر، وعاصمته في دباروا في إريتريا، وتبعد ٢٥ كيلومتراً عن العاصمة أسمرة. وعلى الأرجح أنه هو نفسه النجاشي أصحمة، الوارد ذكره في كتب السيرة. وقد ورد في حديث طويل عن أم سلمة خبر القتال الذي دار بين النجاشي ورجل حاول الانقلاب عليه، وروت أن الزبير بن العوام كان «يستطلع الأمر للمسلمين، فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده»[٢١].

فالغالب أن النهر المذكور هو نهر مارب الذي يفصل بين إريتريا وإثيوبيا حالياً، وكان تاريخياً يفصل بين إقليمين هما إقليم البحر شمال النهر، وإقليم التيجري جنوب النهر.

مدينة دباروا حالياً في إريتريا تضم سكاناً مسلمين ومسيحيين، المسيحيون ينتمون إلى الطائفة الأرثوذكسية التوحيدية Tewahe، وهذه الكلمة جعزية، لكن أصلها عربي من كلمة التوحيد.

الحصار

مع مطلع العام السابع للبعثة، الموافق لعام ٦١٨م، وبعدما يئست قريش من احتواء الموقف، ورأت أن المسلمين قد انفتحوا على الحبشة، قامت بخطوة تصعيدية غير مسبوقة، وهي حصار بني هاشم وبني المطلب وضرب مقاطعة اجتماعية واقتصادية عليهم.

قرار المقاطعة هذا جاء بعد مداولات عقدها الملأ من قريش، فاقترح بعضهم قتل محمد عليه الصلاة والسلام، لكن الرأي لم يجتمع على ذلك، لأن مثل هذه الفعلة ستقود حتماً إلى حرب داخلية، وهو ما تريد قريش تفاديه بكل الوسائل. عندها جاء قرار الحصار، وشمل مقاطعة بني هاشم اجتماعياً واقتصادياً، فلا يبيعونهم ولا يشترون منهم، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ولا يقبلون منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله

(٢١) سيرة ابن هشام.

للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في الكعبة، تأكيداً للعزم على تنفيذها.

انحاز بنو المطلب وبنو هاشم إلى أبي طالب، ودخلوا جميعاً في شِعبِه[٢٢]، وكثير من بني المطلب وهاشم كانوا يقطنون قريباً من بعضهم بعضاً في الشعب، ودخل فيه من كان بعيداً من البيوت. وعلى الأرجح أن دخول الجميع في الشِّعب كان بضغطٍ من قريش، وهذا ما تعززه رواية ابن سيد الناس في «**عيون الأثر**»، حيث أشار إلى أن المشركين أجمعوا على منابذة بني هاشم وبني المطلب وإخراجهم من مكة إلى الشِّعب. وعلى كل حال، فإن قريشاً قصدت من حصارهم في الشعب السيطرة على اتصالهم بالمحيط الخارجي، وتسهيل تنفيذ قرارات الصحيفة. إلا أن الحصار في الشعب لم يكن سجناً للناس داخل الشعب، فسياق الأحداث التي تلت تدل على أن النبي كان دائم التردد على مجالس قريش، يحاججهم ويدعوهم، وأنّ غيره من بني هاشم وبني المطلب كانوا يتجولون بمكة ويجلسون في أنديتها[٢٣].

وعلى الأرجح فإنّ الاجتماع في الشعب كان من باب السكنى والإقامة. وعلى الرغم من أن قريشاً قصدت به شراً، إلا أنّه حمل بعض الخير؛ فاجتماع بني هاشم وبني المطلب ومجاورتهم بعضهم بعضاً في حيّز متجاور محدود يمنح قاطنيه شعوراً بالأمان، كما أن إقامتهم في الشعب أدعى إلى تعزيز الوحدة فيما بينهم وقيم التكافل والتعاضد في وقت عصيب كهذا. الواضح من أخبار الشِّعب أن إجماعاً قد تشكل في أوساط بني المطلب وبني هاشم على ألّا يُسلموا النبي، وعلى الالتفاف حول زعامة أبي طالب، ولم يشذَّ عن هذا الإجماع إلا «أبو لهب». وسنرى أن الحَميَّة القبلية في أوساط بني المطلب وبني هاشم كانت من أبرز العوامل التي أفشلت الحصار الذي استمر قرابة ثلاث سنوات، فإجماع مسلمهم وكافرهم على موقفٍ واحد أفشل مخطط قريش في إخضاع الحاضنة الاجتماعية للنبي أو تفكيكها، وهو ما سيثير عواقب أخرى متعددة، لا سيما من قبل المتصلين مع بني هاشم وبني المطلب بنسبٍ أو مصاهرةٍ من بقية بطون قريش.

المسألة المهمة هنا أن هذا الحصار كان في حد ذاته فعلاً يائساً غير

---

(٢٢) الشِّعب هو الوادي أو الفجوة بين جبلين، وهو الحي الذي يقيم فيه البطن أو الفخذ من قريش.

(٢٣) ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** (لبنان؛ بيروت: دار القلم، ط١، ١٩٩٣)، ج ١، ص١٤٧.

محسوب، لسببين اثنين: فاشتراط تسليم النبي للقتل لم يكن ممكناً بالنظر إلى الأعراف القبلية السائدة وقتها، وسيكون الخضوع لشرط قريش في تسليم النبي إهانةً بالغةً وسُبةً ستلحق بهم إلى آخر الدهر، ولن يقبلوا تلك الإهانة، وهم أكثر بيوت قريش شرفاً في انتسابهم الأصيل إلى قصيّ مؤسس سيطرة قريش على مكة.

وقرار الحصار من ناحيةٍ أخرى انتهاكٌ غير مسبوق لمفهوم التعايش القبليّ المعمول به في مكة، وهدم لأهم أركان المجتمع القرشي القائم على التوافق واحتواء الأزمات الداخلية، وقريش كيان اجتماعي أولاً قبل أن تكون كياناً سياسياً، وهي مترابطة ترابطاً عميقاً في النسب والمصاهرة والأحلاف، وكانت عادة بطون مكة أن يتزوجوا من غير أبناء عمومتهم، وهؤلاء المحاصرون في الشعب لهم أعمام وأخوال، وتجمعهم بكثير من بطون قريش أواصر النسب والتحالفات القديمة.

لقد نجح الحصار في شهوره الأولى بالفعل في إيقاع الأذى ببني هاشم، وبما أن معظم دخلهم يأتي من التجارة، وأن أبا جهل وعدداً من زعماء قريش كانوا قد تشددوا في تطبيق الصحيفة لدرجة وصلت أحياناً إلى استخدام العنف ضد من حاول إدخال الطعام إلى الشعب ـ كما في قصة حكيم بن حزام وإدخاله الطعام لعمّته خديجة ـ فقد تضرر المحاصرون بالفعل بعدما نفدت المؤن وأصابهم جوع شديد.

هنا تحرّك في قريش عامل الكيان الاجتماعي في مقابل الكيان السياسي، فعلاقات بني هاشم وبني المطلب ببطون قريش المختلفة كانت وثيقة. هناك علاقة مصاهرة تجمعهم ببني زهرة، فهم أخوال النبي، وخديجة من بني أسد بن عبد العزى، وأخوال حمزة بن عبد المطلب هم أيضاً من بني وهب؛ وهكذا كان لجميع المحاصرين في الشعب امتدادات نسب أو مصاهرة في بطون قريش المختلفة، ومن الواضح أن هذه الأواصر كانت حاضرة باستمرار في خلفية المشهد، وهو ما دفع بعض القرشيين، لا سيما الشباب، إلى انتهاك مقررات الصحيفة سراً. فقد روت لنا كتب السيرة أن هشام بن عمرو بن ربيعة من بني عامر بن لؤي، وأمه من بني هاشم، كانا يغافلان قريشاً ويدخلان أحمال الطعام إلى الشعب. ونورد نص الرواية لما فيها من دلالاتٍ مهمة في معرفة الأجواء النفسية المضطربة التي صنعها الحصار في مجتمع مؤسّس على العرف القبلي

والاعتداد بالنسب: «قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثني أبو بكر بن عبد الله بن أَبِي سَبْرَة عن إسحاق بن عبد الله بن أَبِي سلمة الحضرمي قال: كان هشام بن عمرو العامري أوصل قريش لبني هاشم حين حصروا في الشِّعب، أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعام، فعلمت بذلك قريش، فمشوا إليه حين أصبح، فكلّموه في ذلك، فقال: إني غير عائد لشيءٍ خالفكم، فانصرفوا عنه، ثم عاد الثانية فأدخل عليهم ليلاً حِمْلاً أو حِمْلَيْن، فغالظته قريش وهمُّوا به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه، رجلٌ وَصَل أهل رَحِمه، أما إنِّي أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا، أو أحرى تركناهم يشترون بأموالهم، أما إني قد كنتُ كارهاً لما صنعت قريش بهم، قد تكون العداوة بأجمل من هذا، فأسكت القوم وتفرقوا»(٢٤).

والرواية الثانية التي ينقلها ابن إسحاق عن محاولاتٍ قام بها حكيم بن حزام لإدخال القمح لعمّته خديجة مهمة هي الأخرى في هذا السياق: «وَقَدْ كَانَ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَام ـ فِيمَا يَذْكُرُونَ ـ لَقِيَ حَكِيمَ بْنَ حِزَامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بن أَسَدٍ، مَعَهُ غُلَامٌ يَحْمِلُ قَمْحاً يُرِيدُ بِهِ عَمَّتَهُ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ، وَهِيَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَهُ فِي الشِّعْبِ، فَتَعَلَّقَ بِهِ وَقَالَ: أَتَذْهَبُ بِالطَّعَامِ إلى بَنِي هَاشِم؟ وَاللهِ لَا تَبْرَحُ أَنْتَ وَطَعَامُكَ حَتَّى أفضحك بِمَكَّة. فَجَاءَهُ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ ابْن هَاشِم بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أسد، فَقَالَ: مَا لك وَلَهُ؟ فَقَالَ: يَحْمِلُ الطَّعَامَ إلى بَنِي هَاشِم، فَقَالَ (لَهُ) أَبُو الْبَخْتَرِيِّ: طَعَامٌ كَانَ لِعَمَّتِهِ عِنْدَهُ بَعَثَتْ إِلَيْهِ (فِيهِ) أَفَتَمْنَعُهُ أَنْ يَأْتِيَهَا بِطَعَامِهَا! خَلِّ سَبِيلَ الرَّجُلِ، فَأَبَى أَبُو جَهْلٍ حَتَّى نَالَ أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ، فَأَخَذَ (لَهُ) أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لَحْيَ بَعِيرٍ فَضَرَبَهُ بِهِ فشجّه، ووطئه وطأً شَدِيداً، وَحَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَرِيبٌ يَرَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَيَشْمَتُوا بِهِمْ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ يَدْعُو قَوْمَهُ لَيْلاً وَنَهَاراً، وَسِراً وَجَهَاراً، مُبَادِياً بِأَمْرِ اللهِ لَا يَتَّقِي فِيهِ أَحَداً مِن النَّاسِ»(٢٥).

ولافت هنا موقف أبي سفيان وأبي البختري، وكلاهما من أتراب أبي جهل ومن المقدّمين في قومهم، ولكنه موقف متوقَّع، إن أخذنا في الاعتبار

---

(٢٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مصدر سابق.

(٢٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، مصدر سابق، ج ١، ص٣٥٤.

الطبيعة القبلية وحميتها؛ فأبو سفيان من بني عبد شمس بن عبد مناف وتجمعه ببني هاشم وبني المطلب صلة القرابة، وأبو البختري من بني أسد بن عبد العزى، عشيرة السيدة خديجة، وهي ابنة عم أبيه، وحكيم بن حزام هو ابن عمومته، ولن يسكت على إهانة أبي جهل له. وهكذا يلعب النسب والمصاهرة في الإجماع القرشي المزعوم ويفعل فعله في التراخي بتطبيق المقاطعة وصولاً في مرحلة لاحقة إلى نقضها.

وسوف نرى لاحقاً كيف أن النبي ﷺ سوف يأمر بألا يُقتل زمعة بن الأسود ولا أبو البختري في بدر، وكانا في جيش المشركين، وعقَّب ابن إسحاق على قرار النبي هذا بالقول: «إِنَّمَا نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ لِأَنَّهُ كَانَ أَكَفَّ الْقَوْمِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ لَا يُؤْذِيهِ، وَلَا يَبْلُغُهُ عَنْهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَكَانَ مِمَّنْ قَامَ فِي نَقْضِ الصَّحِيفَةِ الَّتِي كَتَبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ»(٢٦).

ومع مرور الوقت بدأ القرشيون من ذوي المروءة يتحركون لوقف معاناة المحاصرين، إلى أن نمى تيار بمكة يطالب صراحة برفع الحصار، وكان أكبر المتحمسين لذلك هشام بن عمرو والمطعم بن عدي وأبو البختري العاص بن هشام وحكيم بن حزام وزهير بن أبي أمية المخزومي وزمعة بن الأسود بن المطلب وغيرهم.

قام هؤلاء بالتحرك في أوساط قريش وتحدثوا في مجالسها بمثالب هذا الحصار، وكيف أنه يجلب العار على قريش، ثم إنه استمر سنوات ثلاثاً من دون أن يحقق أغراضه، فلماذا نستمر فيه ونضع أنفسنا بين العرب في موقع قطاع الرحم؟

التفاصيل التي ينقلها لنا رواة السير تعيد الفضل في تحويل التذمر هذا إلى حركة عصيان إلى هشام بن عمرو بن ربيعة، وكانت أمه من بني هاشم؛ إذ تواصل مع عدد من القرشيين المتذمرين ممن يتصلون مع بني هاشم بنسبٍ أو بمصاهرةٍ، أولهم زهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، وكذلك المُطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ثم أبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى ووالده ابن عم خديجة،

---

(٢٦) المصدر السابق.

وكذلك زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ووالده هو الآخر ابن عم خديجة. وواضح أن هذه المجموعة التي بادرت لتنظيم حملة رأي عام معارض للصحيفة كانت تمثل آخرين ممن لم يجرؤوا على البوح بآرائهم. ثم تحوّلت الحملة إلى حركة تمرد فعلي؛ إذ ينقل لنا ابن إسحاق رواية مهمة حول أحداث اليوم الذي انهارت فيه الصحيفة والتخطيط الذي سبقه من قِبل هذه المجموعة فيقول: «فَاتَّعَدُوا خَطْمَ الْحَجُونِ لَيْلاً بِأَعْلَى مَكَّةَ، فَاجْتَمَعُوا هُنَالِكَ، فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي الصَّحِيفَةِ حَتَّى يَنْقُضُوهَا، وَقَالَ زُهَيْرٌ: أَنَا أَبْدَؤُكُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَكَلَّمُ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إلى أَنْدِيَتِهِمْ، وَغَدَا زُهَيرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ عَلَيْهِ حُلَّةٌ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعاً، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنَأْكُلُ الطَّعَامَ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ، وَبَنُو هَاشِمٍ هَلْكَى لَا يُبَاعُ وَلَا يُبْتَاعُ مِنْهُمْ، وَاللهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةُ. قَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ: كَذَبْتَ وَاللهِ لَا تُشَقُّ. قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ: أَنْتَ وَاللهِ أَكْذَبُ، مَا رَضِينَا كِتَابَهَا حَيْثُ كُتِبَتْ. قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ: صَدَقَ زَمْعَةُ، لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ فِيهَا، وَلَا نُقِرُّ بِهِ. قَالَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ: صَدَقْتُمَا وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، نَبْرَأُ إلى اللهِ مِنْهَا وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا. قَالَ هِشَامُ بْن عَمْرٍو نَحْواً مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بِلَيْلٍ، تُشُووِرَ فِيهِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَكَانِ. وَأَبُو طَالِبٍ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ. فَقَامَ الْمُطْعِمُ إلى الصَّحِيفَةِ لِيَشُقَّهَا، فَوَجَدَ الْأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتْهَا إِلَّا (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)»[٢٧].

وهكذا انتهت الصحيفة وانهارت مقاطعة قريش، وخرج المسلمون منتصرين، وبدا واضحاً أنّ قريشاً تقف الآن عاجزة في مواجهة الوحدة والإصرار الذي أبداه بنو هاشم وبنو المطلب في حماية النبي، وأن لا مناص من البحث عن استراتيجية جديدة تضمن فيها احتواء الرسالة، فكانت مبادرتها باتجاه محاولة عقد تسويةٍ ما مع النبي، كأن تعبد قريش إله محمد يوماً ويعبد هو آلهتها يوماً آخر، أو من خلال محاولة عقد اتفاقٍ جديدٍ مع أبي طالب لتسوية النزاع، هذه المرة ليس بتسليم محمد للقتل، إذ تعرف أن ذلك غير ممكن، ولكن من أجل تسويةٍ تصالحيةٍ يمكن أن تقدّم من خلالها تنازلات.

---

(٢٧) المصدر السابق.

زيارة الطائف

ترجّح الروايات أن زيارة النبي إلى الطائف كانت في السنة العاشرة، عقب وفاة عمه أبي طالب، وما تبع ذلك من انكشاف الغطاء القبلي الذي وفّره أبو طالب للنبي، فأراد النبي أن يفتح آفاقاً جديدة للدعوة، وأن يختبر أرضاً أخرى قد تكون مناسبة لتقبل الإسلام، والطائف هي المدينة الأقرب إلى مكة، ومن الطبيعي أن يفكر النبي بها، فاصطحب معه زيد بن حارثة، وجاء الطائف وأقام بها عشرة أيام يكلّم سادتها، لكنهم لم يستجيبوا له، بل كان موقفهم عنيفاً، ذلك أنهم حرّضوا السفهاء للإيقاع به.

نعرف أن الطائف كانت على صلات تجارية وسياحية وثيقة مع قريش، فقد كان لسادتها مزارع وبيوت في الطائف يقضون الصيف فيها لاعتدال طقسها، وقد وافقت زيارة النبي وجود بعض هؤلاء السادة في الطائف، وأراد سادة ثقيف أن يبعثوا برسالة إلى سادة قريش أنهم صارمون في رفض كل ما يضر بمصلحة قريش، وهذا ضروري لاستقرار العلاقات بين الطرفين، ولعل هذا ما حملهم على التعامل مع النبي بسفاهة معلنة، لكي يصل خبرها إلى قريش بأسرع وقت. ونعلم من المصادر أن رجلين على الأقل من سادة قريش قد شهدا هذه الواقعة، هما عتبة وشيبة ابنا ربيعة، إذ كانا يصطافان في مزرعةٍ لهما بالطائف.

عودة إلى مكة محصنّة بوعي التاريخ

عندما رجع النبي من الطائف لم يدخل مكة مباشرة، لأنه كان يعلم أن قريشاً التي وصلتها الأخبار ستزداد عدواناً وشراسة، فاحتاج إلى ترتيبات أمنية مناسبة، لذلك أقام في نخلة قريباً من مكة لكي يقوم بهذه الترتيبات. وتذكر الرواية أنه لما وصل إلى حراء أرسل رجلاً من خزاعة إلى المُطعم بن عدي يطلب أن يدخل في جواره، فأجاره المطعم ودخل مكة آمناً.

نتوقف قليلاً عند هذه الرواية لنبحث دلالات اختيار النبي لرجل من خزاعة لكي يكون رسولاً إلى المطعم بن عدي، فقد علمنا أن خزاعة كانت حليفاً لعبد المطلب في واقعةٍ مشهورة تستحق أن تُذكر هنا لعلاقتها المباشرة بجوار مطعم للنبي، ولمستقبل التحالف الذي سيتطور بين النبي وخزاعة وصولاً إلى فتح مكة.

تبدأ القصة عندما قام نوفل بن عبد مناف بالاعتداء على ابن أخيه

عبد المطلب، وصادر منه حقه في وصية أبيه هاشم بن عبد مناف، ويقال إن الخلاف كان على ساحات كانت مخصصة للسقاية تُسمى الأركاح، فلما اغتصبها نوفل استنصر عبد المطّلب قومه فلم ينصره أحد، فلما رأى خذلان قومه له استنصر بأخواله من بني النجار في يثرب، ذلك أن أم عبد المطلب كانت منهم، فجاؤوا لنصرته في سبعين أو ثمانين رجلاً، وأجبروا نوفلاً على إرجاع حقوق عبد المطلب.

في هذه الأثناء كانت قبيلة خزاعة تراقب ما يدور في مكة، وخزاعة على عداء قديم مع قريش، فلما رأت أن عبد المطلب قد قوي بنصرة أخواله له، قررت التحالف معه، فوافق عبد المطلب. وكان ممن أبرم الحلف من جانب خزاعة ورقاء بن عبد العزى، وهو والد بُديَل بن ورقاء الذي سيكون له شأن لاحقاً في الحديبية، وتمّ الحلف في دار الندوة وتم توثيقه في كتاب، وبذلك صارت خزاعة حليفاً لبني هاشم على «التناصر والمؤاساة حلفاً جامعاً غير مفرق الأشياخ على الأشياخ والأصاغر على الأكابر والشاهد على الغائب. . . حلف أبد لطول أمد»(٢٨).

هذا الحلف سيكون له شأنٌ في السيرة النبوية، إذ سيستمر في أبناء عبد المطلب وأحفاده، وصولاً إلى النبي ﷺ، وستبقى خزاعة وفيّة لهذا الحلف، مسلمهم وكافرهم، وسنرى ذلك طوال أحداث السيرة التالية.

لكنّنا نعود الآن إلى غار حراء، فنجد أن النبي قد أرسل رجلاً من خزاعة، وهذا مفهوم نظراً إلى أن خزاعة على حلفٍ مع بني هاشم، ولكن لماذا اختار المطعم بن عدي ليطلب منه الجوار؟

المطعم بن عدي هو حفيد نوفل بن عبد مناف، ولا يخفى عليه أنّ جده عندما اغتصب حقوق جد محمد كانت النتيجة كارثية، ذلك أن عبد المطلب لجأ إلى خارج عشيرته للنصرة، وفعلاً وجد أنصاراً في يثرب، ثم وجد حلفاء من خزاعة، وكان ذلك شؤماً على بني نوفل، حملوا تبعاته كابراً عن كابر، وها هو اليوم حفيد عبد المطلب يطلب جوار حفيد نوفل، من خلال رسالة يحملها رجلٌ من خزاعة، فإن رفض المطعم فيستطيع محمد أن يجد في أنصار جده أو حلفائه بديلاً. لكن المُطعم كان فطناً ذا عقل ورأي، ولن يرتكب نفس الخطأ

---

(٢٨) **المنمّق في أخبار قريش**، مصدر سابق.

الذي ارتكبه جده نوفل، وسيقبل طلب النبي ويقدم له الجوار، فدعا أبناءه وحملوا السلاح وأعلن أمام قريش أنه قد أجار محمداً، فرجع النبي إلى مكة مواصلاً الدعوة إلى الله.

هذه الواقعة وجذورها شاهد جديد على فهم النبي العميق للتباينات القبلية والسياسية داخل المجتمع القرشي، ولقد استطاع توظيفها بما يخدم الرسالة، وهذا ما سنراه كثيراً في السنوات التالية.

لكننا ينبغي أن نشير أيضاً إلى أن المطعم بن عدي كان أكثر سادات مكة حلماً واتزاناً وإنصافاً للمسلمين، فكان ممن سعى في إلغاء الحصار عن بني عمومته في الشِّعب، وسيكون له مواقف أخرى إيجابية عندما يبدأ المسلمون هجرتهم، وهو والد الصحابي جُبير بن مطعم. توفي المطعم قبل معركة بدر عن بضعة وتسعين عاماً، وحزن عليه المسلمون، ورثاه شاعر الرسول حسان بن ثابت بقصيدة مشهورة.

الفصل السادس

الهجرة نحو المستقبل

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]

قلنا إنّ من المبادئ الكبرى للاستراتيجية النبوية مبدأ المبادرة، الذي ضمن للنبي أن يكون سبّاقاً في رسم ملامح الصراع بين المسلمين وقريش، وفي تحديد ميادينه وأزمنته. مبدأ المبادرة يتطلب وعياً عميقاً بموازين القوى الداخلية والخارجية، وقدرة على استشراف ردود فعل الخصم، كما يستدعي شجاعة وحكمة، وهدف المبادرة على الدوام مفاجأة الخصم وإرباكه، ودفعه إلى دائرة ردود الفعل.

ضَمِن مبدأ المبادرة للنبي ألا يقع هو في دائرة ردود الفعل، لأنّ ذلك يستنزف مشروعه بمشاغلاتٍ ومعارك يفتعلها الخصم، فتفقده القدرة على إبقاء اهتمامه منصبّاً على أولوياته الاستراتيجية.

بعدما أسّس النبي فريقه المركزيّ في المحضن الأول الممتدّ ثلاث سنين، بادر إلى إعلان الدعوة بنفسه، بثقةٍ وقوةٍ وعزم، فأربك الصفَّ القرشيّ وأوقعه في حيرةٍ وجدل، فلما اتفقت معظم بيوت قريش على إيذاء المسلمين، بادر مرة أخرى إلى ابتعاث وفد لفتح قناة اتصال مع النظام الحبشي المجاور، مما أربك قريشاً مرة أخرى وأوقعها في دائرة رد الفعل، فأرسلت عمرو بن العاص لرد المسلمين ففشل، فاندفعت قريش بعنجهيتها وكِبْر سادتها إلى رد فعل بائس تعوزه الحكمة، فكان حصار بني هاشم، فضرب مبدأً مهماً من مبادئ الحياة السياسية القرشية، وهو مبدأ التوافق، ولذلك فشل الحصار.

بعدها بادر النبيُّ إلى الاتصال مع القبائل، وبادر إلى زيارة الطائف. وعلى الرغم من أن الزيارة لم تنجح، إلا أن التعامل مع تداعياتها كان درساً مهماً في

فالإسراء إيذان وإعداد وتوجيه للمرحلة الثانية من الدعوة، ممثلة في الهجرة.

الطريق نحو يثرب

وقع اختيار النبي على يثرب، وهذا قرار استراتيجي بامتياز، لم يحدث مصادفة، ولا بسبب أن بعض أهل يثرب جاؤوا إلى مكة والتقوا به وعرضوا عليه الهجرة إليهم؛ الهجرة إلى يثرب بالشكل الذي حدثت فيه كانت تدل على سابق تفكير عميق وتخطيط محكم من النبي وأصحابه.

التوجيه القرآني للنبي في سورة الإسراء واضح في البحث عن مخرج صدق ومدخل صدق وعن سلطان نصير، ولننظر ما هي الخيارات المتاحة التي سيتحقق فيها مدخل الصدق والسلطان النصير.

الطائف؟

لقد رأينا كيف أن ثقيفاً لم ترحب بالنبي، بل أسرفت في رد فعلٍ سلبيّ، كان القصد منه إرسال رسالة إلى سادة قريش أنها لن تكون مقراً لزعيمٍ معارضٍ لهم، إذ تعرف ثقيف أن الاقتصاد القرشي ضروريّ لإنعاش الطائف، لا سيما بعد أن استثمر سادة مكة في ابتياع مزارع وضياع لهم في الطائف، وصارت وجهتهم السياحية الصيفية المفضلة، وأهل الطائف لن يضحُّوا بمثل هذه المكتسبات في سبيل إيواء رجل ليس لديه نفوذ ولا مال يوازي ما لدى سادة قريش؛ فالطائف لا يتحقق فيها مدخل الصدق ولا السلطان النصير.

وماذا عن الحبشة؟

الحبشة أرض صدق، ولو كانت الهجرة بحثاً عن ملجأ يأوي إليه النبي خوفاً من بطش قريش، أو منفًى اختياريٍّ مؤقّتٍ يمكث فيه بعض الوقت ليعود إلى مكة، فإنّ الحبشة خيارٌ مناسب لذلك، وكان بإمكان النبي الهجرة إلى الحبشة، لا سيما أن النجاشي كان قد أسلم سراً واحتفى بالمسلمين ممن هاجروا إليه، ووجدوا في ضيافته ملجأً من بطش قريش.

ولكن هل سيتحقق فيها السلطان النصير؟

إذا كانت الحبشة مناسبة للمهاجرين من عامة المسلمين، لا سيما المستضعفين الطالبين للأمن واللجوء، فلا يمكن أن تصلح مستقراً للنبي القائد،

إدارة الأزمات، فقد استطاع احتواء الأزمة من خلال توظيف وعيه العميق بطبيعة التحالفات القرشية وتوازناتها الداخلية، فعاد إلى مكة ليبدأ البحث عن مبادرة جديدة تضع قريشاً مرة أخرى في مواجهة خطوة استراتيجية بالغة الأثر، ستغيِّر قواعد اللعبة السياسية، وتخرج النبي والمسلمين تماماً من المربّع الذي أرادت قريش حبسهم فيه.

في هذه الأثناء وقعت حادثة الإسراء إلى بيت المقدس، وهي في الحقيقة إعدادٌ للنبيّ وتوجيه له لما هو قادم من شأن الهجرة. لقد نزلت سورة الإسراء قبل عام وشهرين على الهجرة، فالإسراء تهيئة وإعداد، وهو انفتاح على أفق جديد من خلال اطّلاع على سيرة أُمة سابقة بَنَت دولة، لكنها لم تحفظ سنن الله فيها، فانقلبت هلاكاً ودماراً عليها، فالدولة لا تعني نهاية الغَلَبة ولا نهاية الانتصار، بل هي أداة، إن أُسيء استخدامها كانت شراً مستطيراً.

الإسراء برنامج تدريبي للنبي في سُنن بناء الدول والقدرة على استدامة صلاحها، وهي إعداد له لفهم البنية السياسية والطبيعة النفسية لبني إسرائيل ممن سيلتقي بهم قريباً في يثرب.

بعدما استعرضت سورة الإسراء هذه السنن التي تتراوح بين طبيعة الدولة ورسالتها وموازين القوة اللازمة لاستدامتها، يوجه الله نبيه إلى التفكير بسنّةٍ أخرى متعلقة بالهجرة، مبشراً إياه أن إخراجه من مكة سيكون فاتحة هزيمة لقريش وانتصاراً للدعوة.. ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦ ـ ٧٧]. فخروجه من مكة لن يكون هزيمة له ولمنهجه، بل بداية الهزيمة لقريش ونهجها. ثم يوجّه القرآن النبيَّ إلى أن يدعو الله سبحانه أن ييسر له الهجرة، ذلك أنها سوف تأتي له بالسلطان النصير، وما سينتج عنه من حق يهزم الباطل ويُزهقه.. ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ۞ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨٠ ـ ٨١].

في هذه الفترة اتضحت معالم المستقبل أمام النبي، فقد وصل الأمر إلى اللحظة التي ينبغي أن تحدث فيها المفارقة مع قريش والواقع المكي المنغلق، وينبغي من الآن وصاعداً أن يتجه الجهد إلى مكان جديد، يحقق للمسلمين السلطان والنصير، وهذا لن يكون في مكة، فالتمايز صار واجباً، ومن هنا

ولا للفريق المركزيّ المصاحب له، فهو صاحب دعوة، وسيستمرّ في تبليغ دعوته ونشر رسالته، ويعلم أن هذا الدين سينتشر ويتسع ليصل المشارق والمغارب، ومن ثَمّ فإنه لا يبحث عن ملجأ ولا منفى، بل هو بحاجة إلى عاصمة يدبر فيها أمر الدعوة، ويدير منها استراتيجيته للانتشار ورفع كلمة الله، والحبشة لا تصلح لذلك، ففيها نظام حكم مستقرّ، له مصالحه وتحالفاته وهويته القومية والدينية. صحيح أن الحاكم في ذاته كان قد أسلم، إلا أن نظام الحكم مسيحي، تمثل فيه الأرثوذكسية دين الدولة الرسمي، ولو قبلت الحبشة بمحمدٍ الفرد مهاجراً، فلن تقبل بمحمد النبي القائد.

بالطبع لم يكن وارداً أن يهاجر النبي إلى خيبر، فهي مركز مالي يقطنه اليهود، أولوياتها تجارية، وليس فيها مقومات الهجرة، إضافة إلى بعدها عن مكة.

ولم يكن وارداً أن يهاجر النبيّ إلى صنعاء، فقد كانت تحت الحكم الفارسي، وكذلك الحيرة حاضرة المناذرة. أمّا الشام فمنطقة نفوذ يتصارع عليها الفرس والروم، ولا يمكن في ظل الصراع الدولي المحتدم أن يتسامح أحد الفريقين مع دعوة دينية مستقلة لا تستطيع القبضة الإمبراطورية توظيفها لخدمة مصالحها.

في ظل هذا التقييم السريع للخيارات، بقي خيار وحيد، تجتمع فيه كل المقومات اللازمة لنجاح الهجرة؛ يثرب.

مدخل الصدق

يثرب بلدة فريدة، قديمة في تاريخها، خصبة في أرضها، متنوعة في سكانها، معتدلة في مناخها، استراتيجية في موقعها، ومع هذا كله كانت قد خرجت من زلزال أمني وقبلي كبير، وتبحث عمن يعيد بناءها أخلاقياً واجتماعياً.

هناك فوارق مهمة بين يثرب ومكة، هذه الفوارق هي التي جعلتها وجهة طبيعية للهجرة، ليست هجرة أفراد باحثين عن مأوى وملجأ، ولكن هجرة رسول ورسالة، هجرة فريق ودعوة.

الفارق الأبرز بين المدينتين أن مجتمع يثرب أقرب إلى المساواة من

المجتمع المكي؛ فالمجتمع القرشي تجاري شديد الطبقية، قائم على السؤدد والتفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، وتحتل التراتبية الطبقية فيه مكانة بالغة في أذهان القرشيين، فالسادة من التجار أصحاب الثروات المتراكمة والقوافل المُترعة شديدو الحرص على إظهار سيادتهم؛ أما المجتمع اليثربي فقد كان أقرب إلى التوازن لأسبابٍ موضوعية، منها أن الفوارق بين الأغنياء والفقراء ليست بمستوى التباين الموجود بمكة، فالزراعة هي العمود الاقتصادي ليثرب.

كانت التجارة حاضرة وكذا الصناعة، ولكنها لم تسمح بفوارق هائلة بين المواطنين، ومجتمع زراعي كهذا أسهل طبعاً وأكثر تسامحاً، يمكن أن يتفاعل بشكلٍ أكبر مع رسالة النبي التي تنادي بالأخوّة والمساواة، وأن الناس سواسية كأسنان المشط، أما في مكة فدعوة كهذه تمثل تهديداً مباشراً لسلطة القلة الغنية المتحكمة في الأغلبية المهمّشة.

الفارق الثاني أنّ مجتمع يثرب أكثر تسامحاً دينياً من مكة، فالدين بالنسبة إلى قريش مسألة عصبية مرتبطة بمفهوم الاستثناء القرشي، فالبيت الحرام يمثِّل مركز تميز عرفت قريش كيف تستغله وتتسيّد فيه على بقية العرب. الدين بالنسبة إلى قريش مسألة مكانة وسؤدد واقتصاد، فإذا كان النبي يعيب آلهتهم ويسبّها، فهو لا يتعرض لمنظومتهم الاعتقادية فحسب، بل يزلزل رمز سيادتهم وعلوهم، ولذلك وقفوا في وجهه مدافعين عن مصالحهم وامتيازاتهم، حتى إن كان قد بدا لهم صدق دعوته.

أمّا يثرب فالدين لم يكن فيها محل إجماع، ولا عموداً فقرياً لعصبية قبلية، ولا وسيلة للغنى والتجارة؛ ففيها اليهود وهم أهل كتاب، وفيها أتباع الآلهة المختلفة من الأميين العرب؛ فإن جاء من يقول بدينٍ جديد، فالأميُّون (غير الكتابيين) من أهل يثرب أقرب إلى أن يتعاملوا معه بمنطق أكثر توازناً واعتدالاً من منطق الأميين بمكة.

الفارق الثالث متعلّق بتركيبة النظام السياسي لكل من المدينتين، فالتوافق السياسي القرشي المتمثّل بمؤسسة دار الندوة ووظائفها المختلفة من حجابة ورفادة وسقاية ولواء مثّل حكماً جماعياً ملزماً لبطون قريش، وقدّم آلية لفض النزاعات والحسم في الخلافات، فالشأن العام في مكة كان لحكومة الملأ من قريش، وحكومة الملأ هذه مرتبطة بعلاقاتٍ مستقرّة موروثة بين بطون قريش، وبمصالح تجارية هي محل إجماع دار الندوة. صحيح أن حكومة دار الندوة

أدت إلى مجتمع مستقر في مكة، إلا أنها جعلت المجتمع القرشي أسيراً لعقلية جامدة ترفض التغيير، وتقاليد موروثة صارت ديناً متبعاً، فلما جاء الإسلام رأى فيه سادة قريش تهديداً وجودياً لإجماعهم التقليدي الجامد، فحاربوه ورفضوا التعامل معه.

حكومة الملأ هذه لم يكن لها مثيل بيثرب، ذلك أن ديموغرافية يثرب مختلفة، فهي متوزعة على خمسة بطون رئيسة وعدد من البطون الصغيرة؛ فالأوس والخزرج بطنان أبناء عمومة من أصول يمنية، وبنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ثلاثة بطون يهودية قديمة الاستقرار في يثرب. ولكلٍّ من بطون يثرب رئاسته الخاصة، وبعضها متحالف مع الآخر، لكن لا ذكر لمؤسسة حكم جامعة لكل قبائل يثرب وبطونها، ونتيجة لغياب إدارة مركزية، فإنّ النزاعات القبلية بيثرب مألوفة وكثيرة الوقوع، لا سيما بين الأوس والخزرج، ويذكر الأخباريون سلسلة طويلة من الوقائع والحروب بين الطرفين وحلفائهما من قبائل اليهود. إلا أن غياب الإجماع السياسي الداخلي في يثرب جعل من المجتمع أكثر انفتاحاً على الأفكار الجديدة، كما أن قبول التغيير كان أيسر من قبول التغيير في مكة.

الفارق الرابع أنّ الأولويات الاستراتيجية للمدينتين مختلفة، فالعدو الاستراتيجي في مكة كان على الدوام خارجياً، وحروب الفِجار ماثلة في أذهان القرشيين، يدفعهم الخوف من العدوان الخارجيّ إلى تبنِّي حالة إجماع وتماسك داخلي، فالخوف من عدوٍّ خارجي أفضل وسيلة لجمع الكلمة والصف، وكان في الوقت نفسه من ذرائع عداء الرسالة المحمدية على اعتبار أنها تفرّق الصف.

أما التهديد الاستراتيجي في يثرب فكان على الدوام داخلياً، تَمَثَّل في النزاع المتواصل بين الأوس والخزرج وحلفائهما، وآخر فصوله حرب «بُعاث» ذات التأثير المدمر على الحياة اليثربية الداخلية.

وقعت «بُعاث» قبل الهجرة بخمس سنوات، واشتركت فيها معظم بطون يثرب؛ الأوس ومعهم قريظة والنضير وحلفاؤهم من مُزيَنَة، والخزرج ومعهم قينقاع وحلفاؤهم من أشجع وجُهينة. وكان من نتائجها هزيمة الخزرج وحرق بيوتهم ونخيلهم، ومقتل زعيمهم عمرو بن النعمان وكذلك مقتل زعيم الأوس حُضَير الكتائب والد أُسيد بن حُضَير، الذي خَلَفه في سيادة قومه(١).

---

(١) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق.

الاستقرار الداخلي كان مفقوداً في يثرب، وكانت تكلفة الصراع هائلة، إلا أنّ من النتائج المهمة لحرب بُعاث تغيير التركيبة القيادية؛ فقد قُتل عدد من شيوخ الطرفين، مما سمح بصعود طبقة من القيادات الشابة إلى الصدارة، من بينهم أُسيد بن حُضير وسعد بن معاذ من الأوس، وسعد بن عبادة من الخزرج، وهؤلاء الثلاثة أسلموا قبل هجرة النبي عليه الصلاة والسلام إلى يثرب، وكان لإسلامهم أثر عميق في تهيئة الأرضية المناسبة لاستقبال النبي وأصحابه. ولعل الجرح العميق في بنية مجتمع يثرب، والشعور الجمعي بضرورة البحث عن مخرج من حلقة الصراع المفرغة، كان حافزاً إضافياً لهذه النخبة القيادية وللمجتمع بشكلٍ عام، مما دفع للترحيب بقيادة حكيمة وافدة من الخارج.. قيادة ليست طرفاً في الصراعات والثارات والعصبيات اليثربية، وما يمثله ذلك من فرصة لتأسيس إجماع يمنح المدينة المنهكة أفقاً جديداً، وكانت هجرة النبي إلى يثرب فرصة مناسبة للعقلاء ممّن يبحثون لها عن أفق جديد.

السلطان النصير

زعماء الأوس والخزرج وممثلوهم ممن التقوا بالنبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية كانوا على وعي تامٍّ بتبعات هجرته ﷺ أمنياً إلى يثرب، كما أن النبي كان حريصاً على تأكيد متطلبات السلطان النصير في حواراته مع وفد يثرب؛ وسنورد هنا نصّين، أولهما للطبري والثاني لابن إسحاق؛ يقول الطبري: «إن الْقَوْمَ لَمَّا اجْتَمَعُوا لِبَيْعَةِ رَسُولِ اللهِ قال العباس بن نضلة الأنصاري: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلاً أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللهِ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِنْ فَعَلْتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نُهْكَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا؟ قَالَ: الجنة. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعُوهُ»(٢).

وفي نصٍ آخر أورده ابن إسحاق في سيرته عن كعب بن مالك: «قَالَ:

(٢) الطبري، **تاريخ الطبري**، مصدر سابق.

فَاجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى جَاءَنَا وَمَعَهُ (عَمُّهُ) الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ. فَلَمَّا جلَسَ كَانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ. قَالَ: وَكَانَتِ الْعَرَبُ إِنَّمَا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ: الْخَزْرَجَ، خَزْرَجَهَا وَأَوْسَهَا: إِنَّ مُحَمَّداً مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا، مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى إِلَّا الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ، وَاللُّحُوقَ بِكُمْ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كنتمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنَ الْآنَ فَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ. قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ: قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ. فتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَلَا الْقُرْآنَ، وَدَعَا إِلى اللهِ، وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ قَالَ أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ. قَالَ: فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ (نَبِيّاً)، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا (أي نساءنا)، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَنَحْنُ وَاللهِ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ، وَأَهْلُ الْحلْقَةِ، وَرِثْنَاهَا كَابِراً (عَنْ كَابِرٍ). قَال فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ، وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً، وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي الْيَهُودَ - فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلى قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**»[٣].

وهناك نصٌّ ثالث أورده ابن إسحاق في سياق الحديث عن بدر؛ ذلك أنّ النبي ﷺ لما علم أن قريشاً قد خرجت للقائه في بدر، أراد أن يستوثق من الأنصار فيما إذا كانوا سيقاتلون معه، وبعد أن سأل رأي أصحابه في القتال وتحدث ثلاثةٌ منهم، كانوا جميعاً من المهاجرين، لكنه لم يكتفِ بذلك، بل استمر يسأل لكي يسمع موقف الأنصار، «ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَشِيرُوا عَلَيَّ

---

(٣) سيرة ابن هشام.

أَيُّهَا النَّاسُ. وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَدَدُ النَّاسِ، وَأَنَّهُمْ حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّا بِرَاءٌ مِنْ ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلى دِيَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا، فَأَنْتَ فِي ذِمَّتِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَلَّا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا نَصْرَهُ إِلَّا مِمَّنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلى عَدُوٍّ مِنْ بِلَادِهِمْ»[٤].

أي إنّ بنود البيعة تضمَّنت حماية النبي بعد أن يصل المدينة، ولم يكن محسوماً فيها أن الحماية والنصرة تشمل القتال خارج المدينة، فأراد النبي أن يتوثق من أن الأنصار سيقاتلون معه في بدر، على اعتبار أنها ليست في المدينة نفسها.

أوردنا هذه النصوص لكي نبرز مسألة مهمة، وهي وعي الطرفين بالأبعاد الاستراتيجية للبيعة وتأكيد الطرفين على تدقيق هذه الأبعاد وتوثيقها، لا سيما ما تضمنته من حمايةٍ ونصرة، وما يستدعيه ذلك من تبعاتٍ سياسية وأمنية، ولذلك سُميت بيعة الحرب، تمييزاً لها عن البيعة الأولى التي لم تتضمَّن النُّصرة، والتي على أثرها سُمي المسلمون من أهل المدينة بالأنصار. كان العباس حريصاً على توضيح الأبعاد الأمنية بشكلٍ لا يدع مجالاً للشك، وحضور العباس ـ وهو على دين قومه ـ التفاتة مهمة للطبيعة الاستراتيجية لهذه البيعة، فالعباس هنا حاضر بصفته زعيم بني هاشم، عصبة النبي في مكة، وهم من تكفلوا بحمايته حتى الساعة، وكان حديثُ العباس صريحاً، في أنّ النبي في هجرته ليس باحثاً عن مأوى ومسكن، وليس طريداً يطلب الجوار، ولا حليفاً يسعى للموالاة، فهو في مَنَعَةٍ من قومه، وهم قادرون على مواصلة دورهم في حمايته، إلا أنه نبيٌّ قائد، وصاحب دعوة، وهذه الدعوة لم يعد لها مستقبل أمام تعنّت قريش، ولذلك فهو سيهاجر، ويريد من أهل يثرب أن يحيطوا علماً بغاية هجرته إليهم، وأبعاد نصرتهم له، فهم سيستقبلونه باعتباره نبياً وصاحب دعوة، وسيواصل دعوته من يثرب وسيتخذها عاصمة لقيادته، وأهل يثرب بموافقتهم على حمايته ونصرته سيضطرون للدخول في صراع، وسيدفعون ثمن ذلك من أموالهم ودمائهم، وهو ذات المعنى الذي أكده حديث النبي. وإذا كان السؤال الذي طرحه أبو الهيثم التيهان منطقياً في أجواء صياغة بيعةٍ مثل هذه، فإن جواب النبي كان واضحاً

(٤) المصدر السابق.

وشافياً كذلك، فقد تعهد بأن يتخذ من يثرب وطناً، لا منفى مؤقتاً، ولا دار عبور إلى جهة جديدة، بل يشترك معهم في المصير، وهو من الآن وصاعداً منهم وهم منه، يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا.

كان واضحاً من النصوص أن أهل يثرب ممن شهدوا بيعة العقبة الثانية، وعددهم ٧٣ رجلاً وامرأتان، من مختلف بيوت يثرب، وفيهم زعيم أوسي هو أُسيد بن حُضير، وآخر خزرجي هو سعد بن عبادة، يدركون تبعات هجرة النبي؛ فهناك حسابات استراتيجية واقتصادية لا بد أن تؤخذ بالحسبان، لأن استضافة النبي وصحبه إعلان تلقائي لعداء قريش، وقريش قبيلة نافذة بين العرب، وسيجر عداؤها إلى مشكلات متعددة؛ إذ ترتبط يثرب بصِلاتٍ تجارية مع قريش، تعبر تجارة قريش منها في رحلاتها نحو الشمال، وتجارة يثرب تحتاج إلى الأسواق لبيع منتجاتها ومحاصيلها، وكثير من هذه الأسواق تسيطر عليها قريش، هذا فضلاً عن ارتباط أهل يثرب بمكة من حيث إنها مقصد حج بيت الله الحرام.

ثم هناك حسابات متعلقة بالتوازنات الداخلية في يثرب، لأن النبي لن يهاجر وحده، وسيصطحب جماعة المسلمين من قريش، وسيشكلون طبقة اجتماعية جديدة، وعصبة سياسية مؤثرة، وسوف يكونون الأقرب من النبي القائد، وهذا سيؤثر في توازنات القوى، لا سيما للطامعين في السلطة بيثرب، مثل عبد الله بن أُبي بن سلول الخزرجي، أبرز من تبقّى من الشيوخ الكبار على قيد الحياة؛ إذ لم يشارك في حرب بُعاث، فكان المستفيد الأهم من الحرب، وقدّم نفسه مرشح إجماع وأوشكوا أن ينصبّوه ملكاً على يثرب، فجاءت هجرة النبي لتضع حداً لطموحاته.

إضافة إلى ذلك هناك حسابات القبائل اليهودية التي ستتعامل مع حالة فريدة: رجلٌ يقول بإلهٍ واحد كما يقولون هم أنفسهم، ومعه كتابٌ مصدقٌ لما بين يديه بما في ذلك توراة موسى، إلا أنه ليس من أبنائهم، ولا ينتمي إلى دينهم، وسيشكل حالة إجماع نادرة بين الأوس والخزرج، ويؤسس لواقع سياسي لم تعتده يثرب من قبل، فكيف سيتعاملون معه؟

يوم الزحمة

نعود الآن إلى مكة، فقد أدركت قريش أن محمداً على وشك الهجرة، فقد بدأ عددٌ من أصحابه بالتسلل سراً إلى يثرب، ولن يمر وقت طويل قبل أن

يهاجر. هنا ارتبكت حسابات قريش، وخافت من عواقب الهجرة، لقد استطاعت محاصرة دعوته ثلاثة عشر عاماً، وها هو على وشك أن يُفلت من قبضة حصارهم، ومن دائرة نفوذهم، وسينطلق بعيداً عن عيونهم، فيفقدون القدرة على معرفة ما يخطط له، ويخافون من عاقبة استقلاله بأرضٍ تمنعه وتناصره، لا سيما أنها تقع على طرق قوافلهم، شريان حياة الاقتصاد القرشي، ففزعت من عواقب هجرته، وقررت أن تمنعه مهما كلف الثمن، حتى إن اقتضى الأمر تصفيته جسدياً.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ صَارَتْ لَهُ شِيعَةٌ وَأَصْحَابٌ مِنْ غَيْرِهِمْ بِغَيْرِ بَلَدِهِمْ، وَرَأَوْا خُرُوجَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِمْ، عَرَفُوا أَنَّهُمْ قَدْ نَزَلُوا دَاراً، وَأَصَابُوا مِنْهُمْ مَنَعَةً، فَحَذِرُوا خُرُوجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ أَجْمَعَ لِحَرْبِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ النَّدْوَةِ - وَهِيَ دَارُ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ الَّتِي كَانَتْ قُرَيْشٌ لَا تَقْضِي أَمْراً إِلَّا فِيهَا - يَتَشَاوَرُونَ فِيهَا مَا يَصْنَعُونَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْنَ خَافُوهُ»(٥).

عُرِفَ هذا اليوم في كتب السيرة بيوم الزحمة، إذ احتشدت دار الندوة بشيوخ قريش، فتداولوا في أمر الرسول ﷺ، وقد فهموا أن الهجرة إلى يثرب ستكون بغرض (الجمع لحربهم)، عندها قادهم خوفهم إلى أن تجاوزوا عرفاً قرشياً راسخاً في الابتعاد عن قتل رجلٍ منهم، فوافقوا على أن يكون اغتياله جماعياً، فيتفرّق دمه بين القبائل، ولا يستطيع بنو هاشم الثأر من قاتله. إلا أن الله سبحانه حمى النبي من مؤامرتهم هذه، وخرج من بيته سالماً، لينطلق مع صاحبه أبي بكر في رحلة تم الإعداد لها بشكل محكم، واتُّخِذَت فيها كل الاحتياطات الأمنية، حتى لا تستطيع فرق المطاردة والتتبع القرشية أن تلحق بهما.

التخطيط المسبق والإعداد المحكم من السمات البارزة في الفعل النبويّ، لقد كان النبي ﷺ مدركاً أنه في حفظ الله، واثقاً بنصر الله، ومع ذلك كان يعمل بجدٍّ واجتهاد على سدّ كل ثغرة، والتحسُّب لكل أمر، فلا يمنعه توكُّله ولا ثقته بنصر الله من أن يرسم الخطط ويهيئ الأمور ويأخذ بالأسباب.

---

(٥) المصدر السابق.

قرار النبي في الهجرة إلى يثرب نقطة تحول جوهري في مسار الدعوة، وقد احتاج منه إلى إعدادٍ مسبق كثيف، استمر هذا الإعداد المتدرج سراً ثلاث سنين وثلاثة أشهر، بدأ بالاتصال بأشخاصٍ مختلفين من يثرب كانوا يأتون إلى مكة للحج والتجارة، لكنّ هذه الاتصالات لم تثمر عملياً إلا بعدما التقى النبي بستة من الخزرج في موسم الحج. هذا الاجتماع لم يحدث مصادفةً، بل عن سابق معرفة وتواصل؛ فالستة جميعاً من الخزرج، وهم أخوال جدّ النبي عبد المطلب، فالعلاقة معهم موجودة مسبقاً، ولا شك أنّ النبي استفاد من هذا النسب في توثيق العلاقة مع هؤلاء الستة، كما أن انتماءهم للخزرج يعني أنهم من فئة الطرف الخاسر في حرب بُعاث، وهم عملياً بحاجة ماسّة إلى تعديل موازين القوّة في يثرب، واستعادة قدرٍ من السِّلم الأهلي، ولعل دعوة قادمة من الخارج تحمل قيم الأخوة والمساواة والسلم، تكون حجر الزاوية في يثرب ما بعد الصراع.

أسلم الخزرجيّون الستّة، وكلفهم النبي بتوسيع دائرة الإسلام في يثرب عدداً ونوعاً، وقد نجحوا في ذلك؛ فبعد عامٍ واحد اجتمع النبي بوفدٍ أكبر مكوَّن من اثني عشر رجلاً، هذه المرة ليسوا خزرجيين فحسب، بل ممثلين عن الكتلتين الأهمّ في المدينة، الأوس والخزرج، فيما عُرِف ببيعة العقبة الأولى. وبعد أن توثّق النبي من قدرة هذه المجموعة على التحضير المنظّم لهجرته وأصحابه، أوفد معهم مصعب بن عُمَير سفيراً ومبعوثاً خاصاً لتهيئة الظروف للحدث العظيم، ولتقييم الواقع في يثرب، وكلّفه بنشر الدعوة على أوسع نطاق، ونجح مصعب في أن يوصل الإسلام إلى معظم بيوت يثرب، لا سيما زعماء الأوس والخزرج. ولمّا عاد مُصعب بأخبارٍ طيبة بعد عام، انعقد المؤتمر الكبير الذي ضمّ ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين بحضور الرسول ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب في العقبة الثانية، وتباحث الطرفان، وانعقد الاتفاق، واتضحت بنوده وأبعاده. بعدها باشر الرسول ﷺ بالإجراءات العملية للهجرة، فبدأ الصحابة بالهجرة سراً، واتفق مع صاحبه أبي بكر على خطة الهجرة ومسارها واحتياجاتها، إلى أن حانت اللحظة، فانطلقا وفق ما قد أُعد مسبقاً من إجراءات، وكان ذلك بعد ثلاثة أشهر من العقبة الثانية.

في الجهة المقابلة كان قرار أهل يثرب استضافة النبي استراتيجياً بامتياز،

واحتاج هو أيضاً إلى مداولاتٍ وبحث، ولا شكّ أن المسلمين الأوائل من الأنصار قد تدارسوا إمكانية الهجرة وآفاقها وتداعياتها، ويبدو واضحاً من الحوار الذي تمّ في ليلة العقبة الثانية أن هذه التساؤلات كانت حاضرة بالفعل، وتمّت مناقشتها بوضوح، فانحسم الأمر وتقرر بالإجماع المضيّ في البيعة وما تتضمّنه من نصرة.

صحيح أن الدافع الأول لاستقبال النبي في يثرب متعلقٌ بالدين الجديد الذي استقبله كثيرٌ من الأنصار بالقبول، لكنّ هذا القرار كان عقلانياً ومفيداً من وجهٍ آخر، يخدم مصلحة الأوس والخزرج الباحثين عن عهدٍ جديدٍ لمدينتهم، وساعدت في اتخاذ القرار ظروف الانتقال التي كانت تعيشها يثرب، وحالة الفراغ السياسيّ والاجتماعي التي أعقبت حرب بُعاث، والقيادات الشابة، وانفتاح المجتمع على كل الخيارات التي تنتقل بيثرب من الفرقة والنزاع إلى الأمن والاستقرار.

والخلاصة أن الهجرة إلى يثرب كانت مكسباً للطرفين: نبيٌّ يبحث عن وطن لرسالته، ووطنٌ يبحث عن قائد لبدايةٍ جديدة.

العالم من حول العرب: قديمٌ ينهار وجديدٌ ينبعث

هاجر النبي ﷺ إلى يثرب على الأرجح يوم الإثنين ٢٦ من شهر تموز/ يوليو عام ٦٢٢م. وهنا نقف برهة أمام الواقع الدولي في هذه الفترة لكي نضع حدث الهجرة في سياقه الاستراتيجي العالمي، وهو ما سيعيننا على فهم دلالات الهجرة وأهميتها في ظل الموازين الإقليمية والعالمية في تلك المرحلة.

يمثّل عام ٦٢٢م نقطة تحوُّل رئيسة في موازين القوى العالمية، فالحرب المستعرة بين الفرس والروم على وشك أن تأخذ منحًى جديداً يعيد تشكل موازين القوى الدولية.

في عام ٦٢٢م كانت الغلبة لا تزال للفرس، فهم يسيطرون الآن على أهم ولايات الدولة البيزنطية: سوريا، ومصر، وأرمينيا، ومساحات شاسعة من الأناضول، كما أنّ سفنهم تحاصر القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية.

كانت الحرب الرومية الفارسية تدور على عدّة جبهات، وكان الروم قد خسروا في كل هذه الجبهات، وإضافة إلى قتال الفرس، فإنّ البيزنطيين يقاتلون

عدواً آخر في البلقان، قبائل السلاف التي تتحين الفرصة للهجوم على القسطنطينية منفردة أو بالتنسيق مع الفرس.

كان الروم البيزنطيون بحاجة إلى معجزة عسكرية لكي يُفلتوا من الانهيار التام، وبالفعل فقد تحقّقت هذه المعجزة على يد الإمبراطور البيزنطي هرقل. لقد تسلّم هرقل السلطة في القسطنطينية عام ٦١٠م، وهو قبيل البعثة النبوية عام ٦١١م، وكانت الحرب الفارسية الرومية في عامها الثامن، ولا يزال الجيش البيزنطي متراجعاً على كل الجبهات، وسيُمنى عمّا قريب بهزيمةٍ مدوّية باحتلال الفرس لبيت المقدس رمز الشرعية الدينية للدولة البيزنطية، ثم احتلال مصر سلة غذاء الإمبراطورية. ولما أدرك هرقل أنّ جيشه غير قادر على هزيمة الفرس وقّع اتفاق صلح معهم دفع بموجبه جزية ضخمة للفرس. مكّنته الهدنة من إعادة بناء جيشه وترتيب شؤون مملكته، وبث روح قتالية جديدة في المجتمع تقوم على الحرب المقدسة لتحرير بيت المقدس من الاحتلال الفارسي، واتخذ من صورة المسيح لواءً يرفعه المقاتلون على كل الجبهات، وانخرطت الكنيسة مالياً ومعنوياً في التعبئة العامة. ومع مطلع عام ٦٢٢م شعر هرقل أنه قادر الآن على المقاومة، فهجم بجيشٍ صغير، لكنّه عالي التدريب، على القوات الفارسية في آسيا الصغرى وأرمينيا، فحقق انتصارات معنوية مهمة، أعادت للروم ثقتهم بأنفسهم، ثم عاد إلى القسطنطينية ليستأنف هجماته في ربيع العام المقبل ٦٢٣م، فيهاجم أذربيجان ويدخل تبريز عاصمة الساسانيين، ويحرق المعبد المجوسيّ الكبير فيها، في ردٍّ على إحراق الفرس لكنيسة القيامة ببيت المقدس. وهذه المعركة تحديداً تمثل نهاية الانكسار البيزنطي وبداية الانهيار الفارسي، وبعد هذه المعركة عاد هرقل إلى آسيا الصغرى، وبدأ استعداداته للجولة الحاسمة التي انطلقت في ٢٥ آذار/ مارس عام ٦٢٤م ـ قريباً من اليوم الذي وقعت فيه معركة بدر ـ بحركةٍ عسكريةٍ التفافية وخاطفة، اخترقت عمق الدولة الساسانية انطلاقاً من القوقاز، بعدما تحالف مع قبائل الخزر التركية شديدة العداء للفرس.

الشاهد هنا أنّ عام الهجرة كان عاماً مميزاً عالمياً، انقلبت فيه موازين الحرب العالمية، ومعها اهتزت خارطة العالم القديم. وبينما ينقضُّ الروم على الفرس ليجهزوا على إمبراطوريتهم العجوز، يُنهك الروم أنفسهم بالقتال على جبهات متعددة. سيحققون نصراً مؤزراً في معركة نينوى نهاية عام ٦٢٧م،

وسوف يدخلون المدائن، وتنتهي الحرب بمقتل كسرى الثاني على يد ابنه قُباد، الذي سارع للصلح مع الروم، فاستعادوا السيطرة على كل الأراضي التي احتلها الفرس، وأهمها سوريا ومصر، واستعادوا الصليب المقدّس من المدائن ونصبوه في احتفالية مهيبة يتقدمه هرقل في كنيسة القيامة بالقدس. إلا أن الروم سيخرجون من هذه المعركة بخسائر اقتصادية وبشرية هائلة، ولن يكون لديهم الوقت الكافي لإعادة بناء إمبراطوريتهم المرهقة، لأن عدواً جديداً ممتلئاً حيوية سينبعث من جوف الصحراء، لم يحسب له من قبل حساب، سوف ينقضّ على ما تبقى من إمبراطورية فارس فيجتثّها من الجذور، ثم يباغت الروم ويبتر أعز ولاياتهم وأغناها: الشام ومصر، ولكنها هذه المرة لن تعود إلى الإمبراطورية البيزنطية أبداً.

إذاً مع وصول النبي عليه الصلاة والسلام إلى يثرب، كان الفصل الأخير من الصدام التاريخي بين الإمبراطوريتين على وشك أن ينتهي، وسيرافق ذلك اهتزاز عنيف في موازين القوى، وسيسود العالم حالة من الارتباك وعدم اليقين، وهذه مميزات تصاحب عادة فترات التحوُّل الاستراتيجي العالمي، وتمثّل أفضل فرصة للكيانات الأضعف، الأبعد عن فوضى الصدام وتداعياته الكارثية، لكي تستغل الفرصة فتنتقل من الهامش إلى المركز. وهذا بالضبط ما فعله المسلمون؛ فما إن وصلت الحرب إلى نهايتها عام ٦٢٨م، حتى كانت دولة الإسلام في المدينة قد أكملت بنيانها، وحازت على الاعتراف القرشيّ بعد صلح الحديبية، ثم أجهزت الدولة المسلمة الفتية على الكيان الهرم لقريش. وبما أن كل الكيانات الإقليمية الثلاثة في الجزيرة: اليمن والمناذرة والغساسنة، قد بدأت هي الأخرى تذوي بسبب ارتباطها العضوي بالقطبين الدوليين المتنازعين الفرس والروم، فإن دولة المدينة صارت في يسير من الزمن القوة الإقليمية الأهم في عموم بلاد العرب، وما هي إلا سنوات قليلة حتى ينطلق المسلمون من الزعامة الإقليمية إلى القطبية العالمية.

لقد رأى المسلمون الفرصة الماثلة أمامهم عقب انتهاء الحرب، واغتنموا حالة الفراغ الاستراتيجي الناجم عنها، وبدؤوا يطرقون الجدار المتصدّع للقطبية الثنائية الهرمة، لينهار نظامٌ دوليٌّ هيمن على العالم القديم سبعة قرون، ويندفع المسلمون بقوة رسالة التوحيد وبرؤية أخلاقية عالمية، ليقدموا ملامح نظام جديد، يحل التدافع فيه محل الصراع الدموي القاتل.

من يثرب إلى المدينة

استراتيجية النبي ﷺ كانت واضحة فيما يتعلق بالغرض من الهجرة إلى يثرب، اختصرتها الآيات الأخيرة من سورة الإسراء [٨٠ ـ ٨١]: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ۞ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

الهجرة إلى يثرب، وهي أرض صدق، كانت بحثاً عن سلطان نصير، والسلطان هنا اسم جامع لكل عوامل القوة، والنصير محضن اجتماعي وسياسي يسمح للسلطان أن يتطور ويترسخ، فالسلطان يحتاج إلى أنصار. كان محمد عليه الصلاة والسلام يدرك أنه حامل رسالة عالمية مستمرة في الزمان إلى آخر الدهر، فهي إذاً لا تقف عند حدود مكة ولن تنحصر في يثرب ولا بلاد العرب، بل ستخترق حجب المكان والزمان، وإذا كانت مكة قد استنكفت أن تكون نصيراً له في أداء رسالته، فالهجرة عنها تكون خياراً مفتوحاً وضرورياً.

الهجرة إذاً ليست للنزوح الإنساني ولا لتوفير الراحة للمهاجرين، بل لبناء السلطان القادر على تأدية الرسالة ببعدها العالمي المستمر، أي إنّها ستقدّم للنبي والمسلمين نقطة انطلاق نحو إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وهذا يقتضي بنياناً صلباً، ومجتمعاً متماسكاً، وقيادة مُطاعة، تُسدد وتخطط، ثم تنفذ وتتابع. القائد موجود، والرسالة جاهزة، والفريق المؤسس الملتفّ حول النبي منذ السنوات الأولى للبعثة على أهبة الاستعداد، فريق متنوع الكفاءات، متعدد المشارب، صهرت التجربة المكية قدراته، وزودته الهجرة بدافعية هائلة للعمل والابتكار، وهذا شأن البدايات الجديدة، تفجّر في النفوس العزائم، وتشحذ الهمم.

المتطلّبات من ناحية القيادة والرسالة والفريق جاهزة، ويبقى أن ينتقل هذا الوعي وهذه الإيجابية إلى واقع الوطن الجديد، ليكون محضناً ومنطلقاً للدعوة.

يثرب لا تزال مدينة قبلية، ورثت صراعات فتتت بنيتها، تتقاسم النفوذ فيها مراكز قوى متعددة، طموحاتها متناقضة، وإذا كانت يثرب منطلقاً للعالمية الجديدة، فينبغي أن تُعاد صياغتها بشكل يؤهلها للقيام بهذه المهمة.

منذ الأيام الأولى التي حط فيها النبي رحاله في يثرب، بدا واضحاً لأهلها أنهم أمام قائد من نوع جديد، ليس طالب سيادة وجاه، ولا باحثاً عن سلطة

ولا مال، سيدٌ من نوع خاص، جمع سمات الرشد والفطنة مع علو الهمة وعظيم الخُلق، رفيقٌ بكل من زاره، يبشر ولا ينفر، لا يفرق بين سيد وعبد.

لفت نظرهم أنّه يقبل الهدية تواضعاً ولا يقبل الصدقة تعففاً، لم يتبع سَنَنَ من كان قبله من الزعماء، فنأى عن العصبيات القبلية، لم يحاب أخواله من بني النجار، ولا أحداً من بطون يثرب من ذوي العدَّة والعدد، على الرغم من حرص بيوت يثرب على شرف استضافته. وعندما دخل مركز يثرب أطلق ناقته، وقال لهم «إنها مأمورة»، وأعرض عن قبول الدعوات المتكررة من أحياء يثرب للنزول في جوارهم، لم يشأ أن يصطفي عصبة محددة من بطن ولا قبيلة، وعندما بركت الناقة في الأرض التي ستصبح مسجداً ودار إقامة له ولآل بيته، رفض إلا أن يشتريها بالمال، ذلك أنها ستكون قلب النظام الجديد، وهي بذلك أرض محايدة، مفتوحة للناس جميعاً من دون تفريق، ولا يصلح أن يدّعي أحد أثرة فيها أو مُلكاً لها.

ولما باشر المسلمون بناء المسجد كان واحداً منهم يحمل الطين والحجارة ويبني بيديه، فيقدم لهم درساً لم يعهدوه من السادة. لقد انطبع في أذهان أهل يثرب جميعاً، مسلمهم ومشركهم، أنهم أمام قائد فريد، وأنه لن يكون كغيره من القادة، ولا يتوقع منه أن يأتي بقرارات مألوفة، ولا مبادرات مكررة، كتلك التي يتبناها زعماؤهم بدافع العصبية القبلية، وبقصد السؤدد والتفاخر بالأنساب والأحساب؛ فكما أيقنوا أن النبي فريد في قيادته، فعلى أهل يثرب أن يتوقعوا منه قرارات جديدة وغير مألوفة؛ وهو بالفعل ما وقع.

لقد كان النبي الكريم على وشك أن يعيد بناء يثرب من أساسها، ويبنيها سياسياً واجتماعياً بنياناً لم يعهده العرب من قبل، بل سوف يمنح يثرب الجديدة اسماً جديداً، فبدلاً من «يثرب» التي عهدها الناس، ولدت «المدينة». نهى النبي عن استخدام الاسم القديم، وفي ذلك إشارة إلى بداية جديدة، فالأسماء تحمل في طياتها شخصيات اعتبارية، وتصبح مع الزمن محملة بالمعاني والذكريات. لقد آن ليثرب بميراثها القبلي وذاكرتها الأليمة أن تذوي، وآن للمدينة بأفقها الرحيب ومستقبلها الواعد أن تنبعث. لقد منح الاسم الجديد فرصة للجميع أن ينتقلوا من وعي موروث إلى وعي جديد، وعي ينعتق من أسر الماضي وعُقَده واضطراب معاييره وبُناه، وينفتح على المبادرة والتجديد والابتكار.

المؤسسة الأولى التي باشر النبي عليه الصلاة والسلام تأسيسها كانت المسجد، وسيكون المسجد عبر السنوات القادمة قلب المدينة ومركز حياتها الروحية والسياسية والاجتماعية. قلنا إن يثرب لم تكن فيها مؤسسة حُكم كدار الندوة في مكة، بل توزعتها مراكز قوة متعددة تنتمي إلى القبائل المختلفة. مسجد المدينة سيضطلع مركزياً بهذه المهمة لأول مرة في المدينة، سيصبح مجمع الناس وملتقاهم اليومي، وسيكون مركز اتخاذ القرار في شؤون الحياة العامة. وهو من هذه الناحية يؤدي دور دار الندوة في مكة، إلا أنه يختلف اختلافاً جوهرياً في مبادئه ومنطلقاته؛ فهو أكثر انفتاحاً وأصدق تمثيلاً. كانت دار الندوة مركز اجتماع سادة قريش وشيوخها، أما عامة الناس فلم يكونوا شركاء في القرار القرشي، فضلاً عن الموالي والعبيد ممن لم يكن لهم ممثلون ولا مندوبون في دار الندوة، كما أن الدافع الرئيس لاجتماع دار الندوة هو الحفاظ على تقاليد قريش ومصالحها وتسيّدها للعرب، وهي مصالح الأغنياء والأقوياء، ودار الندوة مركز نفوذهم ومجمع أمرهم.

أمّا المسجد النبوي فقد حقَّق مصالح الناس في اللقاء والتشاور في الشأن العام، إلا أنه لم يقتصر على السادة والشيوخ من بطون المدينة، بل كان مفتوحاً للمواطنين كافة، فتحقق بذلك مبدأٌ لم يكن معمولاً به في مكة، وهو مبدأ المساواة في المواطنة بين كل من سكن المدينة.

الفرق الثاني كان في العلاقة بين الدين والدنيا، فقد رأينا كيف استطاعت قريش توظيف الدين من أجل مصالحها الدنيوية، فابتدعت مبدأ الحُمس، وتفردت عن بقية العرب معتدّة بسدانتها للبيت. استفادت من الحرم والأشهر الحُرم ومواسم الحج والعمرة لكي تراكم ثرواتها وتمارس تجارتها، وبالمقابل فلم يكن تديُّنها عن عميق اتصالٍ روحي ولا اعتقادٍ علويّ، بل عصبية قبلية وتشدداً للتقاليد وتراث الآباء. لقد سخّرت قريش الدين وكيّفته لمنفعة الدنيا.

أما النموذج الجديد في المدينة، فقد انطلق من منبع واحد، هو الإيمان بالله الواحد الأحد، ويقدم المسجد فضاءً يتجلى فيه هذا التوحيد في بُعديه الديني والدنيوي بانسجام تام، ينعقد فيه الشأن العام سياسةً وشورى وعقوداً وأحلافاً، وينعقد فيه الشأن الديني صلاةً ودعاءً ونوافلَ وأذكاراً. وهذا مزج غير

معهود في المدينة، فقد اعتاد العرب جعل شؤونهم الدنيوية في قمة أولوياتهم، أما الدين فمهمته وظيفية لاحقة على مصالح الدنيا.

صحيح أن المسجد مثّل نقطة التقاء مكاني، لكن المنهج المنبثق عنه سيقدم رؤية تجمع مقاصد الدين ومصالح الدنيا في رؤية متحدة، فلا انفصال ولا ازدواجية؛ فالمسجد بيت الله بالمفهوم التعبدي، وهو بيت الناس بالمفهوم الدنيوي. وإنّ أمراً دنيوياً يُبرم في مسجد تقام فيه الصلوات وتُرفع فيه الدعوات لن يكون منفصماً في مقصده ولا مآلاته. لقد أعاد الإسلام بوصلة المجتمع إلى حيث ينبغي أن تكون: التسابق في الخيرات والتنافس في رضوان الله سبحانه، وذلك يتم في آنٍ معاً: تقربٌ إلى الحق من خلال التدبير الدنيوي، وتعبدٌ له من خلال التدبير الديني.

الفرق الثالث بين دار الندوة القرشية والمسجد النبوي يتعلق بوظيفة المسجد التربوية والفكرية، فقد كان المسجد جامعة تصاغ فيها العقلية الإسلامية بشكلها الجديد، فالمدينة على وشك أن تتبنى رؤية وجودية جديدة، تنطلق من عقائد إيمانية راسخة ثم تتجلى في تعاليم أخلاقية ومعاملات تجارية واجتماعية وتشريعات قانونية ورؤى سياسية واستراتيجية. إعادة بناء شخصية الإنسان العربي عملية تربوية مستمرة في بعديها النظري والعملي، وقد قدّم المسجد هذه الوظيفة، وبذلك اكتملت وظائف المؤسسة المركزية الأهم في المدينة، وباشرت دورها بعد شهور قليلة من وصول النبي ﷺ.

من الموالاة إلى المؤاخاة

كانت المؤاخاة أسلوباً فريداً قدّمه النبي عليه الصلاة والسلام لحل مشكلةٍ ذات بعدين رئيسين الأول اقتصادي، والثاني قبلي. فالمهاجرون ممن تتابعت وفودهم إلى المدينة خسروا كثيراً من ممتلكاتهم وأموالهم، وها قد جاؤوا إلى وطنٍ جديد هم فيه غرباء، وليس لهم سابق خبرة بضروب الكسب في المدينة، فبنيتها الاقتصادية مختلفة عن مكة، لأن اقتصادها قائم على الزراعة أولاً ثم التجارة والحرف، والمكيّون تجار مهرة، لكنهم يحتاجون إلى رؤوس أموال وخبرة بالأسواق الجديدة.

المشكلة الثانية تتلخّص في أن العصبية القبلية في المدينة ـ وإن كانت أقل من مكة ـ موجودةٌ؛ الأنصار حديثو عهد بالإسلام، كما أن مجموعات ليست

قليلة من سكان المدينة لا يزالون على شركهم، إضافة إلى القبائل اليهودية ذات الرابطة القبلية الدينية، أما المهاجرون فهم كتلة وافدة على مجتمع مستقر قبلياً، وينبغي التفكير في كيفية اندماجهم بهذا المجتمع.

النظام المتبع في العرف القبلي العربي هو نظام (الموالاة)، يلتحق فيه الوافد بقبيلة أو بطن محدد، ويصبح مولى لهذا البطن، له ما لهم وعليه ما عليهم، لكن هذا النظام يرسّخ مبدأ العصبية القبلية، والإسلام يسعى لمجتمع من نوع جديد، قوامه روابط إيمانية لا عصبية، على اعتبار أن المؤمنين أخوةً وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

وهكذا كان لا بد من نظام جديد يعكس هذه الرؤية، فكان أن شرَّع النبي مبدأ المؤاخاة.

يقوم مبدأ المؤاخاة على أن يؤاخي النبي بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فيقتسمان الموارد والإمكانات، ويتبادلان التجارب، ويعين أحدهما الآخر على التأقلم مع الواقع الجديد؛ الأنصار بمالهم وخبرتهم، والمهاجرون بتجربتهم مع النبي وسابقتهم في الإسلام.

لقد كان عقد المؤاخاة وثيقاً لدرجةٍ كان الرجل يرث فيه أخاه، إلى أن ألغي ذلك بنزول آيات الميراث.

الأبعاد المتحققة من المؤاخاة كانت تتعدى تحقيق الاندماج الاقتصادي والاجتماعي للمهاجرين في مجتمع المدينة؛ إذ جعلت من رابطة الإيمان رابطة لا تقل عن رابطة النسب، وأبرزت ملمحاً جديداً لسكان المدينة، قوامه أنّ الوطن الجديد سيكون له عقد مواطنة جديد، هذه المرة سيمثل الدين فيه جوهر الهوية والانتماء.

دستور سياسي وعقد اجتماعي

المبادرة الأهم للنبي في المدينة كانت الصحيفة، لقد شكلت إعلاناً بالغ الأهمية في أنّ يثرب القديمة قد انتهت من غير رجعة، وأن المدينة الجديدة قد ولدت على أسس دستورية محددة.

تُعتبر الصحيفة القانون الأساسي للمدينة، لأنها تعاملت مع التعريفات الأساسية وتنظيم السلطات وقواعد التحاكم، كما أنها عقد اجتماعي، وقد

عكست وعياً عميقاً بالواقع القبلي والسكاني للمدينة، ولكننا للأسف لا نعلم كثيراً عن آلية صياغتها وكيفية إشهارها، إلا أن النظر في بنودها يحيل إلى جهد جماعي، شارك فيه عدد من أهل المدينة، ممن لهم خبرة عميقة ببطونها وتحالفاتها، وأنها حازت على رضى الكتل الاجتماعية في المدينة، وبذلك حققت شرعيتها، وصارت دستوراً لازم التطبيق والاتباع.

تضمّنت الصحيفة، كما أوردها ابن إسحاق، الملامح السياسية للكيان الجديد: المرجعية النبوية، تعريف المواطنة، ترتيب التحالفات، الواجبات الاجتماعية والسياسية، قواعد التحاكم، إضافة إلى توحيد البوصلة فيما يخص الموقف من قريش.

أوضحت الصحيفة في مقدمتها مصدر شرعيتها، وهو النبي نفسه، ثم الغرض الرئيس منها، وهو إعلان تأسيس أمة واحدة من دون الناس تضم المؤمنين والمسلمين ومن معهم.. «بسم اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلَحِقَ بِهِمْ، وَجَاهَدَ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ، الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ بينهم، وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ»(٦).

يستوقفنا استخدام عبارة: «المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب»، لا سيما وصف «قريش»، وهو ذو دلالة مهمة. الصحيفة أبرزت الانتماء القرشي للمهاجرين حتى لا يبقى اسم قريش وما تمثله من مكانة بين العرب حكراً على مشركي مكة، واسم قريش ذو وزنٍ كبير، النبي والمهاجرون أحق بهذا الاسم من المشركين، فالعرب تقدر عالياً قريشاً، وتدين لها بالتقدير، فهم «أهل الله وسدنة البيت»، وها هو الفرع المسلم من قريش بقيادة نبي ينتمي إلى بني هاشم، عمود النسب القرشي الأكثر رفعة، يُعلن عن نفسه كياناً اجتماعياً منظماً، كياناً من نوع جديد لم تعهده قريش المشركة، ولم يعهده العرب عن قريش، هو النموذج الصحيح لما ينبغي أن تكون عليه قريش، كياناً ينتمي إلى التراث الإبراهيمي الحنيف الذي حرَّفته قريش، ويؤسس لدعوة تنفتح على آفاق واسعة، مخلفةً وراءها القرشية المنغلقة على الماضي الموروث.

---

(٦) سيرة ابن هشام.

إن أسوأ مخاوف قريش المشركة سيصبح واقعاً عما قريب، فمحمد عليه الصلاة والسلام لم يهاجر إلى يثرب متحصناً من أذاهم، بل هو الآن ينازعهم تمثيل القبيلة، ويقدم نفسه وأنصاره ممثلاً أصيلاً للشرعية القرشية، ويعود بها إلى جذورها الإبراهيمية الأولى، مبشراً بوعي أخلاقي رفيع، يتعالى فوق التوظيف المصلحي الضيق للدين؛ هذه بالنسبة إلى قريش دعوة خطيرة، تضرب أساسات الشرعية القرشية التليدة.

ثم تواصل الصحيفة سرد بطون يثرب جميعاً، على اعتبارها وحدات اجتماعية، عليها واجبات نحو أفرادها فهم «على رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُم الْأُولَى، كُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ». والمعاقل هنا هي الديات، والعاني هو الأسير، فوظيفة بطون يثرب القيام بكفاية شؤون أبنائها، فمسؤولية سداد ديات القتلى جماعية، تقع على عاتق أبناء البطن كلهم، وفداء الأسير مسؤولية جماعية كذلك. وهاتان الوظيفتان نصاً متعلقتان بالبطون التي ينتمي إليها القاتل أو الأسير، أما فيما يتعلق بسداد دين الغارمين أو توفير العيش الكريم للمحتاجين، فقد جعلت الصحيفة ذلك شأناً تكافلياً عاماً بين جميع المؤمنين، فبعد أن انتهى سرد بطون يثرب وردت العبارة التالية: «وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحاً بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ»، والمُفرَح هو المُثقَل بالدين كثير العيال، وبهذا يكون نظام الرعاية الاجتماعية لسكان يثرب قد أُقرّ بشكل محكم، تحددت فيه الواجبات والحقوق، وشملت احتياجات المواطن كافة في مجتمع كريم.

تنتقل الصحيفة بعدها لإقرار مبدأ تشريعي هو الأهم في بناء منظومة قانونية لمواطنة رشيدة، بعيداً عن تراثٍ عصبيٍّ جلب الويلات والثارات والحروب على أهل يثرب. العصبية القبلية تقتضي الوقوف إلى جانب ابن القبيلة، ظالماً كان أم مظلوماً، أما المنهج الجديد فيحدد الموقف من الفرد بناءً على ميزان العدل والحق. . : «وأنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَو ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ، أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جميعاً، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ، وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِناً فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِراً عَلَى مُؤْمِنٍ، وَإِنَّ ذِمَّةَ اللهِ وَاحِدَةٌ، يُجِيرُ عَلَيْهِم أَدْنَاهُمْ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ».

هذه نقلة نوعية تضع العدل في مركز المعاملات اليومية، فقد ولّى العهد

الذي يكون فيه الظالم محمياً بغطاء قبيلته أو أبناء عمومته. الظلم والعدوان والإثم معانٍ قبيحة، وواجب جميع المواطنين الوقوف صفاً واحداً ضدها، إحقاقاً للقسط والعدل ودرءاً للفتنة والفساد.

المادة التالية في الصحيفة تقرر مبدأ الولاء السياسي، وتحدد تعريف الواجبات السياسية والعلاقات الاستراتيجية لبطون يثرب، بمن فيهم اليهود. وتشمل الولاء لمجموع الأمة وعدم التحالف المنفرد، والنصرة والدفاع المشترك. . : «وإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَإِن الْمُؤمنِينَ يبيء بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ».

ثم تنتقل الصحيفة من العموم إلى الخصوص، فتنص صراحة على موقف حاسم من قريش، مؤكدة على ضرورة التزام موقف جماعي حيال التعامل معها، لا سيما من قبل المشركين من أهل يثرب ممن تشملهم الصحيفة ولم يدخلوا في الإسلام بعد: «وَإِنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالاً لقريش وَلَا نفساً، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ».

ثم يواصل السياق تنظيم قوانين التقاضي بين الناس، لا سيما في مسألة كانت على الدوام سبباً لجر الثارات والصراعات، وهي جريمة القتل، فالقاتل من الآن فصاعداً مسؤول شخصياً عن جريمته، وهو الذي سيواجه القصاص جراء فعلته، أما بطون يثرب فلا يحل لهم أن يؤووا أو يناصروا أو يساندوا مرتكب جريمة، فقد حُسم الأمر بأن دور القبيلة هو في فعل الجوانب الخيرة التي تحفظ استقرار المجتمع، أما الجوانب المتعلقة بالعصبية فقد حرِّمت، وصارت مخالفة صريحة لبنود هذا الميثاق تستجلب لعنة الله وغضبه في الدنيا والآخرة: «وَإِنَّهُ مَن اعْتَبَطَ مُؤْمِناً قَتْلاً عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ بِهِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّة، وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ، ولا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَآمَنَ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثاً وَلَا يُؤْوِيهِ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ، فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ».

وبما أن التنازع يستلزم التحاكم، فقد أقرت الصحيفة أن مؤسسة التحاكم ستكون من الآن وصاعداً ذات مرجعية تشريعية واحدة، وهي شرع الله سبحانه، وذات مرجعية قضائية واحدة، هي النبي عليه الصلاة والسلام: «وإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إلى اللهِ ﷻ، وَإلى مُحَمَّدٍ ﷺ». وهذا يستدعي إيقاف العمل بكل إجراءات التقاضي الموروثة، مثل تحكيم الكهان والمنافرة والضرب بالأقداح وغيرها من وسائل كانت مألوفة لدى الجاهليين.

تُقرر الصحيفة مسؤولية مالية مشتركة في حالة الحرب، وتخص بالذكر اليهود، على اعتبار أنهم قد لا يشتركون في القتال ـ إلا إن كانت المدينة تتعرّض لغزوٍ خارجيّ، فهذا واجبٌ ملزم ـ وفي كل الأحوال فاليهود مكلّفون بالإنفاق من أموالهم دعماً للجهد الحربي: «وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ». ثم تستفيض الصحيفة في علاقة المؤمنين باليهود: «وإنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِيْنِ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ»، فالصحيفة تعترف بأن لليهود مرجعيتهم الدينية القائمة، وأن اليهود هم أمة مع المؤمنين، أي المتعاقدين على هذه الصحيفة، والانتماء المشترك لأمة المدينة لا يُلغي حق اليهود في انتمائهم الديني، فللمسلمين دينهم ولليهود دينهم، ومن حق كل طرف اتخاذ دينه مرجعاً في شؤونه الخاصة، وعلى أنفسهم ومواليهم، وفي حالة ارتكب فرد جريمة معينة، فإن ذنبه لا يقع على أصحاب الدين جميعاً ولا على البطن القبلي كله، تأكيداً من جديد على أن ميزان المواطنة هو العدل والمساواة بغض النظر عن الدين أو الانتماء القبلي. وهذا النص الذي ذكر بني عوف تحديداً، ينطبق على كافة قبائل اليهود التي تسهب الصحيفة بعد ذلك في تعدادها، ثم تنتقل لتفصيل العلاقة مع اليهود، فتقر الصحيفة أنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد ﷺ، والخروج هنا لا يعني التجول أو السفر، بل المقصود فيه التحول من موقع إلى آخر والانتقال الدائم إليه. وتقر الصحيفة المسؤولية الجماعية في الدفاع المشترك عن المدينة: «وَإِنَّ بَيْنَهُم النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ».

في ختام الصحيفة تعيد التأكيد بشكلٍ ملخَّص ومركّز على البنود الرئيسة: «وِإنَّ بَيْنَهُم النُّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَم امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ، وَإِنَّ

النَّصْرَ لِلْمَظْلُوم، وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ، وَإِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٍ، وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا، وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوِ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ، فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلى اللهِ ﷻ، وَإِلى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ، وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا، وَإِنَّ بَيْنَهُم النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، وَإِذَا دُعُوا إِلى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ، وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ، عَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِم الَّذِي قِبَلَهُمْ، وَإِنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ، عَلَى مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، مَعَ الْبِرِّ الْمَحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ، لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنَّ اللهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ، وَإِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَآثِمٍ، وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ، وَإِنَّ اللهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَى، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

وببناء المسجد وسنّ المؤاخاة وإعلان الصحيفة تكون المدينة قد أكملت بناها التأسيسية؛ تشريعية واجتماعية وتنظيمية. لقد علق ابن إسحاق بعد الحديث عن هذه الخطوات تعليقاً يعكس فيه الروح التي كانت تسود المدينة في تلك اللحظة، فقال: «فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاجْتَمَعَ أَمْرُ الْأَنْصَارِ، اسْتَحْكَمَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ، فَقَامَت الصَّلَاةُ، وَفُرِضَت الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ، وَقَامَت الْحُدُودُ، وَفُرِضَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَتَبَوَّأَ الْإِسْلَامُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِن الْأَنْصَارِ هُم الَّذِينَ تبوؤوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ».

لقد تمكّن النبي في فترة قصيرة لا تتجاوز عشرة أشهر من بناء قواعد المجتمع الجديد، وبسرعة لم يتوقعها أحد بدأ المجتمع الجديد يتبلور، فدخل خيرة أبناء المدينة في الإسلام، واكتملت هجرة المسلمين من مكة، وسادت روح جديدة، وانبثقت وحدة دينية وفكرية واجتماعية لم يسبق للعرب أن عاشوها، واستطاع النبي أن يحول هذه الطاقة الفتية إلى إنجازات حقيقية؛ فبعد

أن كانت المدينة قرى منتشرة في سهل المدينة مثل قُباء ويثرب وراتح والسُّنح وحُسيكة، ربط الإسلام بينها ودفع الناس إلى تعمير الغامر من الأرض، وهو كان أغلب أرض سهل المدينة، فتزايد عمران البلد وتزايد سكانها بالهجرة إليها[٧].

ووجَّه النبي المسلمين لتأسيس أسواقٍ جديدة، وشجعهم على التجارة وامتلاك مقومات القوة الاقتصادية، ودفعهم إلى التعلُّم والكتابة، وتعلموا الدقة والإحسان، وزودتهم الصلاة والجماعات بحسٍّ منضبط، ووعيٍ مشترك، وصار التنافس فيما بينهم قائماً على خدمة الشأن العام، فتبلورت في نفوسهم معاني التضحية والفداء، والنبيّ في كل ذلك يعلِّم ويوجه ويقود، والقرآن يتوالى نزوله، فيمنح المجتمع الجديد طاقة متجددة، يفتح فيها الأذهان، ويغير ما استقر في الأفهام، ويربطهم برسالة عليا، ويدفعهم للتأمل في ملكوت السماوات والأرض.

---

(٧) انظر: **تاريخ قريش**، مصدر سابق، ص٣٢٤.

الفصل السابع

الاستراتيجية النبوية في المدينة

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]

كان النبي يعلم أن إسلام جزيرة العرب يقتضي إسلام قريش؛ وعلى هذا تأسست استراتيجيته في المدينة.

صحيح أن قريشاً قبيلة ضغيرة بمقاييس بقية القبائل، إلا أنها الأكثر تأثيراً في جزيرة العرب، والأبعد صيتاً، ورجالها أوسع نفوذاً وأكثر اتصالاً بالعالم الخارجي، وقد تحصلت لهم من المعارف والخبرات ومن المهارات الدبلوماسية ما لم يتحصل لبقية قبائل العرب، ونفوذها المعنوي هذا جعل منها خصماً عنيداً، وعقبة حقيقية في وجه انتشار الإسلام.

ثم إن قريشاً تسيطر على مكة، وفيها بيت الله الحرام، الذي يجتمع على تقديسه العرب كافة، وهي حرم الله، ومقصد الحج، وفيها تنعقد المواسم والأسواق، ومنها تنطلق القوافل شمالاً وجنوباً، فتنقل البضائع والرسائل والأخبار، فهي مركز جزيرة العرب اقتصادياً ودينياً، ولا مناص من أن يكون التعاطي معها هو المنطلق الاستراتيجي الأول للكيان الجديد في المدينة، ومن دون سيطرة المسلمين على مكة فإنّ إسلام جزيرة العرب لن يكتمل.

ويعلم النبي أن قريشاً تستند إلى ركنين رئيسين: التجارة والبيت. وقد لفت القرآن انتباه المسلمين إلى ذلك منذ بداية البعثة، واستقرّت سورة قريش في ذهن النبي، وصارت موجهاً استراتيجياً مهماً في فهم مصادر قوة قريش، ففهم النبي أن إيلاف قريش وقوافل تجارتها هي شريان ازدهارها، أما البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فهو المرجع الأهم للشرعية القرشية.

توجهات البوصلة النبوية بشأن قريش كانت واضحة في المدينة منذ البداية،

رأينا كيف أنه وهو يضع اللبنات الأولى لمجتمع المدينة يبني قريشاً المسلمة من المهاجرين، ثم يجعل من قريش المشركة خصماً مشتركاً للمدينة، فمنعت الصحيفة أمة المدينة من التعاطي مع قريش أو مع قوافلها، مشددة على التناصر والموالاة في وجهها.

الهدف الاستراتيجي للنبي كان واضحاً: دفعُ قريش إلى الإسلام أو الاستسلام.

أما تطبيق هذا الهدف فتم عبر مرحلتين: **الأولى** تعاملت مع الركن الأول للقوة القرشية: التجارة، وكانت أدواتها المشاغلة ثم الإرباك الاقتصادي من خلال عرقلة طرق القوافل التجارية؛ أما **المرحلة الثانية** فتعاملت مع الركن الثاني من أركان القوة القرشية، وهو البيت الحرام، فجاءت الحديبية بعد الخندق لتنتزع من قريش هدنةً يُصبح المسلمون فيها طرفاً معترفاً به قائماً بذاته.

في دراستنا للخطوات القادمة التي سيتخذها النبي ﷺ منذ وصوله إلى المدينة وحتى انتهاء معركة الخندق، فإننا نصل إلى نتيجة مفادها أن كل سرية أو غزوة أو معاهدة تمت قبل الخندق كانت تنسجم مع استراتيجية مشاغلة قريش وإرهاقها ومحاصرتها، ومن هنا ننظر إلى السرايا والغزوات والتحالفات على أنها حلقات في سلسلة متصلة، يوصل بعضها إلى بعض، وتصب جميعاً في استراتيجية واحدة.

بداية إيلاف المدينة

مبادرات النبي الاستراتيجية كانت على الدوام حاسمة، مفاجئة ومحسوبة بدقة؛ لقد أطلق بعد هجرته بستة أشهر ولمدة عام واحد ثماني سرايا وغزوات، ابتداءً من سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سِيف البحر، وانتهاءً بسرية عبد الله بن جحش إلى نخلة على أبواب مكة. وكل هذه السرايا كانت تعلن رسالة واحدة، أنّ المدينة قد غدت كياناً ذا سيادة، وأنّ لهذه السيادة شوكة تفرضها وتحميها، وأنها من اليوم وصاعداً لاعب لا ينبغي الاستخفاف به، وسوف تعيد تعريف موازين القوى في الحجاز، والسبيل إلى ذلك هو إعادة تعريف المجال السيادي للمدينة نفسها؛ فبدلاً من أن تكون يثرب تلك البلدة المنعزلة، المنشغلة بخصوماتها، صارت من اليوم وصاعداً كياناً متماسكاً صلباً، لديه مجاله السيادي وأمنه الإقليمي، وسيمتدّ هذا المجال ليشمل المناطق المجاورة ليثرب وصولاً إلى ساحل البحر الأحمر.

السرايا التي بعثها النبي بعد شهورٍ قليلة على الهجرة كانت تؤكد هذه الاستراتيجية، فسرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر في ثلاثين رجلاً انطلقت في صفر سنة ٢ للهجرة، الموافق لحزيران/يونيو سنة ٦٢٣م، وهدفها اعتراض قافلة لقريش: «جاءت من الشام تريد مكة، وكانت القافلة بقيادة أبي جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فالتقوا حتى اصطفوا للقتال، فمشى بينهم مجدي بن عمرو، وكان حليفاً للفريقين جميعاً، فلم يزل يمشي إلى هؤلاء وهؤلاء حتى أنصت القوم وانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة في أصحابه، وتوجه أبو جهل في عِيرِه وأصحابه إلى مكة»[(١)].

هذه السرية تحديداً كان الهدف منها إرسال رسالة عملية إلى قريش. وقد وصلت الرسالة واضحة قوية، ويعرف أبو جهل تحديداً من هو حمزة وقوة شكيمته، ولعله لا يزال يتحسس تلك الشجة التي شجها حمزة في وجهه عندما علم بسبّه لابن أخيه محمد.

يعلم أبو جهل أنه لم يستطع فعل شيء لحمزة سوى أن قال لرجال بني مخزوم: «دعوا أبا عُمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً»[(٢)]. وكانت حماقة أبي جهل تلك هي السبب المباشر الذي دفع حمزة إلى إعلان إسلامه.

رسالة سرية حمزة لم تصل إلى قريش وحدها، بل وصلت كذلك إلى القبائل الساحلية التي تعبر منها قوافل قريش؛ في هذه الحالة: جُهينة، فقد علم زعماء جُهينة أنهم سيواجهون عما قريب خيارات صعبة، فجهينة يربطها بقريش إيلاف، وهو اتفاق تجاري، تدفع فيه قريش رسوم حماية لقوافلها، وتتعهد القبيلة بكف أيدي قطاع الطرق عنها، فتعبر أرض القبيلة إلى حمى قبيلة أخرى إلى أن تصل إلى مقصدها.

كما أن جُهينة كانت في حلفٍ مع يثرب، وتقع في المجال الإقليمي لها، ونعرف كيف أن بعض بطونها شاركت في حرب بُعاث إلى جانب الخزرج وبني قينقاع، فهي على صلة مباشرة بأهل يثرب، يتّجرون معها، لا سيما أنّ ينبع[(٣)] ميناء أهل المدينة، ومن هنا نفهم موقف مجدي بن عامر، وكان من سادة جهينة، عندما حجز بين الطرفين ومنع اقتتالهما.

---

(١) **مغازي الواقدي**، مصدر سابق، ج ١، ص٩.
(٢) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق، ج ١، ص٢٩٢.
(٣) الميناء الرئيسي للمدينة المنورة.

لكنّ النبي عما قريب سيدفع باتجاه توثيق حِلفِه مع جهينة، فيدعو سادتها لزيارة المدينة، ويكافئهم، ويُثني على زعيمهم مجدي بن عمرو، وسنرى بعد قليل كيف أن المسلمين سيخترقون البيوت القيادية في جُهينة، مستفيدين ممن أسلم منها، ويستميلون جهينة إلى درجةٍ تفقد قريش ثقتها بها، وتزداد مخاوفها المتعلقة بحركة القوافل عبر الطريق الساحلي؛ فبدأ النبي باستمالة مجدي بن عمرو من خلال رسائل التطمين والإشادة: «فلمّا رَجَعَ حَمْزَةُ إلى النّبيّ ﷺ خَبَّرَهُ بِمَا حَجَزَ بَيْنَهُمْ مَجْدِي، وَأَنّهُمْ رَأَوْا مِنْهُ نَصَفَةً لَهُمْ، فَقَدِمَ رَهْطُ مَجْدِي عَلَى النّبِيّ ﷺ فَكَسَاهُمْ وَصَنَعَ إلَيْهِمْ خَيْراً، وَذَكَرَ مَجْدِي بْن عَمْرٍو فَقَالَ: إنّهُ مَا عَلِمْت مَيْمُونُ النّقِيبَةِ مُبَارَكُ الأَمْرِ. أَوْ قَالَ: رَشِيدُ الأَمْرِ»(٤).

واستمال النبي زعيماً آخر هو كَشد الجُهني بأن أقطع أحد أبنائه ينبع. وسيأتي ذكر كشد الجهني في الحديث عن بدر، فقد كانت استضافته لإثنين من أصحاب النبي مهمة في تتبع أخبار قافلة أبي سفيان.

بعد سرية سِيف البحر بأقل من شهرٍ واحد سيّر النبي سرية ثانية، هذه المرة بقيادة عبيدة بن الحارث، إلى رابغ في ستين راكباً، فلقي أبا سفيان بن حرب في قافلة من مئتين، فتناوشوا بالسهام، ورمى فيها سعد بن أبي وقاص بأول سهم في الإسلام، ثم انصرفوا من دون قتال. وواضح من هذه السرية أنها كانتْ تسير في ذات الهدف الذي كانت فيه سابقتها، وأن الرسالة التي تلقاها أبو جهل لم تكن حدثاً عابراً، فها هو أبو سفيان يتلقّى مثلها بعد شهرٍ واحد. ولم يكن الغرض من السرية القتال، فقد ذكر الواقدي أن سعد بن أبي وقاص قال لعبيدة قائد السرية: «لو اتبعناهم لأصبناهم، فقد ولوا مذعورين»(٥). غير أن عبيدة لم يستمع له، وعادوا إلى المدينة.

السرية الثالثة كانت بقيادة سعد بن أبي وقاص بعد أقل من شهرٍ واحد من السرية السابقة، وهدفها اعتراض عير لقريش في الخرّار قريباً من الجُحفة، والجحفة قريبة من رابغ، وهي أرض تسكنها قبيلة خُزاعة، وكان لخزاعة حلف قديم مع عبد المطلب جد النبي، وحلفهم مع النبي استمرار لحلفهم القديم مع عبد المطلب.

---

(٤) **مغازي الواقدي**، مصدر سابق.

(٥) المصدر السابق.

المهمة الرابعة قادها النبي ﷺ بنفسه في ربيع الأوّل عام ٢ للهجرة، وتعتبر الغزوة الأولى له ـ وقد اعتاد رواة السير أن يطلقوا وصف غزوة على البعثة التي يقودها النبي بنفسه، ووصف سرية على التي يقودها غيره ـ وكانت هذه المرة إلى الأبواء شمالي رابغ، وكان نتيجتها أن «وادع بني ضَمرة من كنانة على ألا يُكثروا عليه، ولا يُعينوا عليه أحداً، ثم كتب بينهم كتاباً، ثم رجع»(٦).

نرى في الاتفاق الذي وقّعه النبي مع بني ضمرة، وتعزيزه للحلف مع جُهينة وخزاعة، أن النبي كان يؤسس لإيلافٍ جديد مع قبائل الساحل وبشكلٍ مدروس، وأن هذا الإيلاف يقتضي علاقات متبادلة، وفوائد تعود على الطرفين. المسلمون من جانبهم يريدون تأمين جوارهم من أن يكون عوناً لقريش، ويأملون أن تقوم هذه التحالفات بدورٍ في عرقلة طرق التجارة القرشية؛ أما هذه القبائل فسيكون لها مصالحها من مثل هذه الاتفاقيات، كأن تأمن قوة المدينة التي بدأت تقوم بدورٍ متعاظم في محيطها الحيوي، وأن تكون علاقاتها التجارية مع أسواق المدينة آمنة وسالكة.

بعد شهرين قاد النبي مرة ثانية مجموعة من أصحابه لمطاردة عيرٍ لقريش فيها أمية بن خلف ومئة رجل معه، وألفان وخمسون بعيراً، ثم رجع «ولم يلقَ كيداً».

وما إن رجع إلى المدينة حتى تجهز ليطارد كُرز بن جابر الفهري(٧)، وكان قد أغار على حي من سرْح المدينة، فطارده النبي وأصحابه، وتعقبوه حتى وصلوا بدراً. وتسمّى هذه الغزوة بدراً الأولى.

أما غزوة العُشيرة فكانت في ربيع الأول في السنة الأولى من الهجرة، وفيها كان عدد المسلمين كبيراً نسبياً، إذ يضعهم الواقدي بين مئة وخمسين ومئتين، وحاولتْ أيضاً اعتراض قافلة أبي سفيان في طريقها إلى الشام، ولم يدرك المسلمون القافلة، وهي القافلة ذاتها التي سيعود المسلمون لاعتراضها في طريق عودتها من الشام، وبسببها سوف تقع معركة بدر كما سنرى. ويبدو أن النبي قد أقام في الساحل زمناً تواصل فيه مع القبائل، لا سيما جهينة، ونفهم ذلك من سياق ما أورده الواقدي عن مخرمة بن نَوْفَلٍ، وكان حينها مع قافلة أبي

---

(٦) المصدر السابق.

(٧) أسلم وحَسُن إسلامه فيما بعد، وقاد سريّةً للنبي ﷺ. قتله المشركون يوم فتح مكّة.

سفيان: «قَالَ: لَمّا لَحِقْنَا بِالشّام أَدْرَكَنَا رَجُلٌ مِنْ جُذَام، فَأَخْبَرَنَا أَنّ مُحَمّداً كَانَ عَرَضَ لِعِيرِنَا فِي بَدْأَتِنا، وَأَنّهُ تَرَكَهُ مُقِيماً يَنْتَظِرُ رَجْعَتَنا، قَدْ حَالَفَ عَلَيْنَا أَهْلَ الطّرِيقِ وَوَادَعَهُمْ. قَالَ مَخْرَمَةُ: فَخَرَجْنَا خَائِفِينَ نَخَافُ الرّصَدَ، فَبَعَثْنَا ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرو حِينَ فَصَلْنَا مِنَ الشّامِ»[8].

وقد رأينا أن استراتيجية النبي في بناء التحالفات مع أهل الطريق الساحلي كانت مستمرة منذ السرية الأولى التي حمل رايتها حمزة بن عبد المطلب، إلا أن تحركاته العسكرية والدبلوماسية كانت تتسم بالهدوء، تحقيقاً لعنصر المباغتة، وهو ما نفهمه من الرواية التي رواها عمرو بن العاص، وكان هو أيضاً ممن رافق القافلة فقال: «لَمّا كُنّا بِالزّرْقَاءِ ـ وَالزّرْقَاءُ بِالشّام بِنَاحِيَةِ مَعَانَ مِنْ أَذْرِعَاتٍ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ ـ وَنَحْنُ مُنْحَدِرُونَ إلى مَكّةَ، لقينا رجلاً مِنْ جُذَام، فَقَالَ: قَدْ كَانَ عَرَضَ مُحَمّدٌ لَكُمْ فِي بَدْأَتِكُمْ فِي أَصْحَابِهِ. فَقُلْنَا: مَا شَعَرْنَا. قَالَ: بَلَى، فَأَقَامَ شَهْراً ثُمّ رَجَعَ إلى يَثْرِبَ، وَأَنْتُمْ يَوْمَ عَرَضَ مُحَمّدٌ لَكُمْ مُخْفُونَ، فَهُوَ الْآنَ أَحْرَى أَنْ يَعْرِضَ لَكُمْ، إنّمَا يَعُدّ لَكُم الْأَيّامَ عَدّاً، فَاحْذَرُوا عَلَى عيركم وارتأوا آراءكم، فوالله مَا أَرَى مِنْ عَدَدٍ، وَلَا كُرَاع (الخيل والسلاح)، وَلَا حَلْقَة. فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، فَبَعَثُوا ضَمْضَماً (الغفاري)، وَكَانَ فِي الْعِيرِ، وَقَدْ كَانَتْ قُرَيْشٌ مَرّتْ بِهِ وَهُوَ بِالسّاحِلِ مَعَ بكْرَان لَهُ (إبل فتية)، فَاسْتَأْجَرُوهُ بِعِشْرِينَ مِثْقَالاً»[9].

نخلة تفتتح عهداً جديداً

ونترك أبا سفيان وقافلته تستعد للعودة بينما نرجع إلى المدينة، فنجد أن النبي ﷺ قد جهز سرية ستكون الأخيرة قبل بدر، سُميت سرية نخلة، وهي فريدة في شكلها ومقصدها، ومن خلال الاطلاع على تفاصيلها نفهم أن الهدف منها هو الاقتراب إلى أقرب نقطة ممكنة من مكة، جساً لنبض الجاهزية القرشية، وفهماً لاستعداداتها، فكانت في أصلها بعثة استخبارية وليست ذات مهمة قتالية. وبسبب حساسية هذه السرية، قام النبي بإجراءٍ أمنيّ غير مسبوق، إذ لم يُعلِم أحداً من أفراد السرية بوجهتهم، بل جمع ثمانية أفراد من المهاجرين

(٨) مغازي الواقدي.

(٩) المصدر السابق.

وأمّر عليهم عبد الله بن جحش، وزوّده بكتابٍ وأمره أن يسير بالسرية في الطريق النجدية وأن يفتح الكتاب بعد يومين من مسيره، فلما فتحه وجد فيه أمراً من النبي بأن يأتي بطن نخلة، على الطريق بين الطائف ومكة.

هذا الموقع الذي استهدفته السرية كان قريباً من مكة، ولم يكن على طرق قوافل قريش إلى الشام، بل يقع على طريق الطائف، وكان من المفترض أن تعتبر قريش هذا الطريق آمناً، وهو طريق مألوف وعامر بالحركة، لأنّ العلاقات بين مكة والطائف كانت متينة، فالطائف مصيف سادة مكة، وبين الطرفين تفاهمات تجارية وصلات عميقة، والتعرض لهذه الطريق تصعيد خطير؛ إذ ستفهم قريش أنها لم تعد آمنة في عقر دارها، ولا في جوارها الحيوي، وقطعاً سترتفع مؤشرات الخطر عندها إلى الحد الأقصى.

لم يكن النبي قد أمر أفراد السرية بأن يقاتلوا، إلا أنّ تتابع الأحداث أدى إلى وقوع قتالٍ هو الأول من نوعه بين المسلمين والمشركين؛ إذ التقت السرية بأربعة من المشركين في عيرٍ لهم، استطاع الصحابة في البداية أن يُخفوا هويتهم بأن حلق بعضهم شعره موهمين المشركين بأنهم في الطريق إلى العمرة، فلما اطمأن المشركون هجم المسلمون عليهم، فقُتل عمرو بن الحضرمي من المشركين بسهم، ووقع اثنان منهم في الأسر، وفَرَّ الرابع، وصادر المسلمون العير، وكان فيها خمرٌ وأدم وزبيب جاؤوا به من الطائف.

ليس هذا فحسب، بل إنّ هذه المواجهة وقعت في آخر يوم من شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم، ولا يُجيز العرب ولا المسلمون القتال فيه. بعض أفراد السرية قدَّروا أن المشركين على وشك دخول منطقة الحرم، والأولى مهاجمتهم قبل ذلك، فقال بعضهم: «لو تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجّعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم»[١٠].

مقتل ابن الحضرمي على يد المسلمين، ومصادرة أموال المجموعة، كان خرقاً صريحاً لحرمة الشهر الحرام، الذي كان النبي يحرّمه، فاستغلت قريش الفرصة وشنت حملة إعلامية شديدة على النبي فقالوا: «قد استحل محمد الشهر

---

(١٠) ابن هشام، مصدر سابق.

الحرام، فقد أصاب الدم والمال، وقد كان يحرِّم ذلك ويعظِّمه»[١١].

الثابت أن النبي ﷺ لم يكن قد أمر السرية بالقتال في الشهر الحرام ولا في غيره، إنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش، فلما عادوا إلى المدينة استفظع المسلمون فعلتهم، ولاموهم على ما قاموا به، «وأمست المدينة تغلي كالمرجل»، أما النبي ﷺ فقد استنكر فعلتهم، ورفض أن يأخذ من ذلك شيئاً، واغتمّ المسلمون غمّاً شديداً، إلى أن نزل قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ أي إن كنتم قتلتم من المشركين في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وأخرجوكم منه وأنتم أهله، فقد خرقوا مبدأ الحرمة المتمثل في المسجد الحرام وحق الناس جميعاً في الإيواء إليه بأمنٍ وسلام، وهذه أفعال لا تقل عن القتال في الشهر الحرام، لأن الفتنة أكبر من القتل.

نزول هذه الآيات وضع حداً للجدل المحتدم في المدينة؛ صحيح أن الشهر الحرام له حرمته ولا ينبغي القتال فيه، ولكن للمسجد الحرام كذلك حرمته، وقد انتهكت قريش هذه الحرمة أولاً.

عندها تنفس المسلمون الصعداء، وقبض الرسولُ العير والأسيرين، وأرسلت قريش من يفتديهما، فأما أحدهما، وهو الحكم بن كيسان، فأسلم وحسن إسلامه وبقي في المدينة، وعاد الآخر، وهو عثمان بن عبد الله إلى مكة ومات بها كافراً.

نستطيع أن نقول إنّ هذه السرية كانت البداية الفعلية للعمليات القتالية، وستكون مقدمة لمعركة بدر الكبرى، فغنيمة هذه السرية أول غنيمة يغنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر من قبل المسلمين.

خلاصة هذه المرحلة من أربع سرايا وأربع غزوات إضافة إلى تحالفات النبي مع جُهينة وضَمرة، أن عهداً جديداً قد بدأ؛ فسرايا المسلمين ذات العدد

(١١) **مغازي الواقدي**، مصدر سابق.

الصغير والسرعة الفائقة والانضباط المحكم أسست منطقة أمنية جديدة، وإيلافاً سياسياً جديداً، يمتد من المدينة إلى البحر الأحمر، ثم نزولاً على الساحل من ينبع شمالاً إلى رابغ جنوباً، وكذلك من المدينة وحتى مشارف مكة، هذه المنطقة الجديدة حققت الغرض منها، وهو إعلام الجميع قريش وخزاعة وجهينة وضمرة وغفار وغيرها من قبائل كنانة وقضاعة وغطفان بأنّ المدينة هي سيدة الموقف، وهي اللاعب الأهم، وعلى الجميع أن يتعامل معها وفقاً لهذا الترتيب.

إيلاف قريش اهتز وإيلاف المدينة بدأ يتشكّل. لم تعد الصيغة التقليدية الحاكمة للعلاقات في هذه المنطقة حكراً على قريش، فقد اهتزت منظومتها وارتبكت، ولا أمن لقوافل قريش بعد اليوم، والأهم من ذلك أنّ هيبة قريش واستعلاءها قد اهتزّا في أعين القبائل، وهي كياناتٌ مصلحية، وستبدأ بمراجعة حسابها، والتعامل مع اللاعب الجديد بشكل زاد في هلع قريش.

فوجئت قريش بسرعة انطلاق الواقع الجديد في المدينة؛ ففي زمن قياسي لا يزيد على عام ونصف أصبحت المدينة لاعباً رئيساً يمتلك زمام المبادرة، إنها مفاجأة باغتت الرتابة القرشية وسكونها الخامل. وقفت قريش مضطربة إزاء الواقع الجديد ومفاهيمه الأمنية المبتكرة، ولكنها لم تفهم الرسالة، فقريش بمؤسساتها الهرمة ووعيها المتحجر وقادتها المعتدِّين بأنفسهم ظنت أنها قادرة على اقتلاع اللاعب الجديد أو ردعه بنفس الأساليب القديمة من بطش وعنجهيّة، وسيقودها زعماؤها بالفعل إلى خطوةٍ متهورة، وستدفع مكة ثمناً باهظاً؛ ذلك أنّ جديد المدينة سيهزم قديم مكة، وسيقف العرب أمام معجزة استراتيجية غير مسبوقة، تنبعث فيها من رمال جزيرتهم قوة فتية مدهشة وذات وعي إيماني خلاق.

الفصل الثامن

أزمة قيادة في مكة

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۞ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۞ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٤]

بينما كانت المدينة تبني إجماعها السياسي والاجتماعي ونظامها القيادي، وتنطلق سراياها تجوب الحجاز بعزيمة وشجاعة، كانت مكة تمر بأزمة قيادية خانقة، سببها الأهم ذلك الانتقال العسير للقيادة من الأحلاف إلى المطيبين، وتحديداً من بني مخزوم إلى بني عبد شمس، والبطنان لم يكونا على وفاق، وكانت الحساسيات بينهما قديمة. أما السبب المباشر لانفجار الأزمة القيادية بعد الهجرة النبوية بقليل فهو موت الوليد بن المغيرة، زعيم بني مخزوم، وسيد دار الندوة، وأكبر قادة قريش سناً.

أغدق المكيون على الوليد صفات كثيرة، منها «العدل»، لأنه بنى ركناً كاملاً من أركان الكعبة وبنت قريش الباقي، وكان يذبح في موسم الحج كل يوم عشرة من الإبل، وكان عظيم الثراء.

من جهة أخرى كان العقل المدبر لحملة العداء للنبي، فهو الذي اقترح أن تُطلق صفة (ساحر) على النبي عندما أرادت قريش وصفاً تستخدمه في موسم الحج ضده.

وهو الذي نزل فيه قول الله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۞ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۞ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۞ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۞ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۞ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۞ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۞ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٨].

يروي الأخباريون أن الوليد مات عن ٩٥ سنة، بعد ثلاثة أشهر من الهجرة، لكن وفاته أحدثت مشكلة كبيرة في قريش؛ إذ أوصى، وهو على فراش الموت، أبناءه الثلاثة: خالداً وهشاماً والوليد، فقال: «أوصيكم بثلاث فلا

تضيِّعوهن: دمي في خزاعة فلا تطلُّنه (تهدروه)، والله إني لأعلم أنهم منه براء ولكن أخشى أن تُسَبُّوا به بعد اليوم، ورِباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه، وعقري عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم به»(١).

تعتبر وصية الوليد هذه شؤماً كبيراً على قريش في وقتٍ كانت تحتاج فيه إلى علاقات جوار حسنة مع القبائل الثلاث: خزاعة وثقيف ودوس. وتفصيل القضية مع خزاعة أنه كان يسير في أحد الأسواق يجر رداءه، فعلق بسهم لصانع سهام خُزاعي، فخدشه السهم في ساقه، ويبدو أن الجرح القديم قد ثار عليه فتقيّحت قدمه، وكان سبب موته، فاعتبر الوليد أن خزاعة قتلته، ويريد من أبنائه أن يأخذوا ديته من خُزاعة. ومشكلته مع دوس تتلخص في أنه تزوج ابنة أبي أُزَيْهِر، زعيم قبيلة دوس، وعندما دخل عليها سألها: «من أشرف أنا أم أبوك؟ فقالت: لا بل أبي، لأن أبي سيد أهل السراة وأن العرب يصدرون عن رأيه، وإنما أنت سيد بني أبيك وفيهم من ينازعك الشرف»(٢)، فرفع يده ولطمها، فصاحت، فدخل أهلها واستنقذوها منه وعادوا بها إلى دوس، فطالبهم الوليد بمهرها الذي كان قد دفعه، فرفضوا، ويريد من بنيه أن يستعيدوا المهر. ومشكلته مع ثقيف أنه كان أقرضهم بعض المال ربا، فدفعوا له رأس المال ولم يسددوا الربا الزائد، ويريد من بنيه أن يحصّلوا الربا من ثقيف.

هذه الوصية مثال على العقلية الجاهلية المسكونة بالثأر والمتخمة بالتفاخر، ولكنها كانت فرصة ممتازة للمسلمين؛ فعندما بادر بنو مخزوم لتنفيذها وجدت قريش نفسها في مأزق مع ثلاث قبائل مجاورة، في فترة كان النبي ﷺ يعدُّ العدّة لمشاغلة قريش وضرب طرق تجارتها.

رفضت خزاعة دفع دية الوليد، وتوترت الأجواء بين الطرفين، وتبارزوا بأشعارٍ في ذمٍّ بعضهم بعضاً، إلى أن وقع الاتفاق على دفع الدية أقساطاً، فهدأت الفتنة بين الطرفين. لكننا نلاحظ عند استعراض أبيات الشعر التي قيلت من الطرفين، وكان الشعر في مقام البيانات الصحفية، أن شعراء خزاعة كانوا يشتمون بني مخزوم بينما يُشيدون ببني عبد المطلب، ويعود ذلك بالطبع إلى الحلف القديم بين عبد المطلب بن هاشم جد الرسول وخزاعة.

---

(١) ابن حبيب، **المنمق في أخبار قريش**، مصدر سابق: ج ١، ص١٩٢.

(٢) المصدر السابق.

أما فيما يتعلق بمشكلة المهر المطلوب من دوس فقد استمر يتصاعد بين الطرفين شهوراً من دون حل، ثم تفجر عن صراعٍ دمويّ.

يرتبط أبو أزيهر، زعيم دوس، مع بني عبد شمس بصلات تحالفٍ ومصاهرة، وكان أبو سفيان قد تزوج عاتكة بنت أبي أزيهر، كما تزوج عتبة بن ربيعة أختها زينب، أي إن لأبي أزيهر مصاهرة مع رجلين من زعماء عبد شمس، فلما كان سوق ذي المجاز، وفد أبو أزيهر على أبي سفيان ونزل عنده، فجاء أبناء الوليد وقتلوه وهو في ضيافة أبي سفيان، مما اعتبر إهانة بالغة لبني عبد شمس، فتوترت الأجواء بينهم وبين بني مخزوم، لكنّ أبا سفيان، الذي كان معروفاً بالتوازن وتفضيل التهدئة على التصعيد، أوقف الصدام، وشعر أن نتيجته ستكون كارثية على قريش، لا سيما أنه وقع بُعَيد بدر، وقد قُتل قادة قريش الكبار، وآلت إليه الزعامة، فلو سمح للوضع الداخلي بمكة أن ينحدر إلى صدامٍ بين البيتين القياديين: بني عبد شمس وبني مخزوم، فإن زعامته ستكون فيً مهب الريح، وسينفرط عقد قريش.

كان المسلمون يتابعون باهتمامٍ هذه الحوادث، وسعوا إلى تعميقها؛ فقد طلب النبي ﷺ من حسّان بن ثابتٍ، الناطق الإعلامي باسم المدينة، أن يقول شعراً يُحرِّض فيه المطيبين على الأحلاف في مكة. والمطيبون خمسة بطون: بنو عبد مناف (بمن فيهم بنو عبد شمس) وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث؛ أما الأحلاف فهم: بنو مخزوم وبنو عبد الدار وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي.

فانطلق حسان يحرض على الأخذ بدم أبي أزيهر ويعيِّر أبا سفيان متهماً إياه بالجبن والعجز:

غدا أهل حضني ذي المجاز بسحرة ... وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو
كساك هشام بن الوليد ثيابه ... فَأَبْلِ وأخلق مثلها جدداً بعدُ
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً ... وأصبحت رخواً ما تخبُّ وما تعدو
فلو أن أشياخاً ببدر شهوده ... لبلّ نحور القوم معتبطٌ وِرْدُ
وما منع العير الضروط ذمامها ... وما منعت مخزاة والدها هندُ

هذه الأبيات أثارت يزيد بن أبي سفيان، وكان والده غائباً عن مكة،

...

فجمع شباب بني عبد مناف واستنفر المطيبين فاجتمعوا وتجهزوا، ولما رأت الأحلاف ذلك اجتمعوا هم أيضاً واستعدُّوا للقتال، فاستُدعي أبو سفيان على عجل، فلما وصل إلى مكة وقف بين الجمعين وقد تهيّؤوا للقتال «فنظر فإذا اللواء مع ابنه يزيد، وهو في الحديد مع قومه المطيّبين، فنزع اللواء من يده وضرب به بيضته ضربة هدّه منها، ثم قال: قبحك الله! أتريد أن تضرب قريشاً بعضها ببعض في رجل من الأزد؟ سنؤتيهم العَقل ـ أي الدية ـ إن قبلوه، ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس إن خلفنا عدونا شامت ـ يعني النبي ﷺ ـ ومتى نفرغ مما بيننا وبينه ننظر فيما بيننا وبينكم، فلينصرف كل إنسان منكم إلى منزله، فتفرقوا وأصلح ذلك الأمر، وبلغ أبا سفيان قول حسان فقال: يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجلٍ من دوس، فبئس والله ما ظن»(٣).

التهدئة التي وقعت في مكة لم تُنهِ مشكلة دوس التي أُهينت بمقتل زعيمها، واستمر حسان في قول الشعر يحرّض فيه دوساً على الأخذ بالثأر، وأغارت دوس على قريش فقتلت منهم أربعين رجلاً، وباتت دوس تترصد قوافل قريش وتغير عليها، ذلك أن دوساً كانت تقع على طريق تجارة قريش إلى اليمن، إلى أن خضعت قريش لدوس واضطرت إلى أن تدفع ديناراً واحداً ضريبة مرور عن كل حمل بعير دخل أو خرج من أراضي دوس، واستمرت هذه الضريبة تُدفع إلى أن انتصر الإسلام وأنهى النبي سنن الجاهلية.

وإذا رجعنا إلى الوراء قليلاً لنصف المشهد القيادي بمكة بعد وفاة الوليد وحتى معركة بدر، فسنجد أن زعامة دار الندوة لم تستقر لعتبة، سيد بني عبد شمس؛ ذلك أن أجندة بني مخزوم في إنفاذ وصية الوليد كانت هي المهيمنة على مسرح الأحداث في مكة، وهذا يعني استمرار بني مخزوم في تصدُّر قريش، على اعتبار أنهم الأوصياء على إنفاذ وصية زعيم قريش الراحل. وبالطبع كان المستفيد الأول من ذلك هو أبو جهل، عمرو بن هشام ابن أخي الوليد وخليفته على بني مخزوم، يسنده في ذلك بقية بطون الأحلاف، وهذا متوقع من الأحلاف؛ إذ إن انتقال السيادة إلى عتبة يعني انتقالاً للزعامة إلى المطيبين، وهو ما لا يريده الأحلاف، لا سيما بنو مخزوم وزعيمهم أبو جهل.

لم تكن العلاقات بين أبي جهل وعتبة بن ربيعة حسنة، بل على العكس

---

(٣) المصدر السابق.

من ذلك؛ إذ نعرف من نصوصٍ كثيرة أنّ الرجلين كانا على طرفي نقيض، ففضلاً عن العصبية القبلية الموروثة بين بني عبد مناف وبني مخزوم، وكراهية بني مخزوم القديمة لبني قصي جميعاً، فإن طبيعة الرجلين كانتا متنافرتين، فعتبةُ بن ربيعة كان مشهوداً له بالدهاء والهدوء والابتعاد عن الإثارة، أما أبو جهل فكان حادّ اللسان، شرس الأخلاق، عصبيّ المزاج، وسوف يختلفان دوماً على تسيير شؤون قريش، وسيتبدّى أكثر مظهر للخلاف وضوحاً بينهما في معركة بدر.

الفصل التاسع

الفرقـــان

﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]

الاستراتيجية النبوية في بناء الدولة ونشر الدعوة اقتضت أن يكون التعامل مع قريش في المركز منها، لأنّ إسلام جزيرة العرب لن يكتمل من دون إسلام قريش وفتح مكة. وعندما ننظر إلى التصرفات الاستراتيجية التي صدرت عن النبي ﷺ منذ الشهور الأولى لوصوله إلى المدينة وحتى يوم الفتح في العام الثامن من الهجرة، سنجد أنها جميعاً سلسلة واحدة يتصل بعضها ببعض، ويعزز بعضها بعضاً باتجاه هذه الأولوية المركزية.

نقصد بالتصرفات الاستراتيجية كل فعل أو قول تم في سياق العلاقات السياسية والعسكرية للمدينة مع جوارها، ويشمل ذلك البعثات العسكرية، من سرايا وغزوات، والعلاقات بين المدينة والكيانات السياسية والقبلية المختلفة من تحالفات ومخاصمات، ويشمل الخطاب الإعلامي الصادر عن المدينة، سواء أكان مقولات مباشرة للنبي نفسه أم حَمَلة رسائله أم قادة جنده أم مواقف عبّر عنها الناطقون باسم المدينة شعراً مثل حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

إذاً فمن أجل فهم أعمق لجوهر الاستراتيجية النبوية فإننا ننظر إلى الأحداث الاستراتيجية في الفترة الممتدة من الهجرة وحتى فتح مكة على أنها وحدة واحدة، حلقات في سلسلة متصلة؛ فالسرايا والبعثات والغزوات ليست ردود فعل آنية، بل هي تحركات مدروسة سلفاً لخدمة الأولوية المركزية، أولوية إسلام قريش وفتح مكة. تحالفات النبي مع القبائل التي تقع على طرق تجارة

قريش مثل جُهينة وضمرة وخزاعة ضرورة لتطوير النطاق الأمني للمدينة، ولإحكام الحصار على مكة، وتحريضُ شعراء النبي دَوساً على قريش للثأر لمقتل زعيمها توريط لقريش واستمالة دوس لحلف النبي، كما أن البعثات العسكرية ذات الأهداف المحدودة باتجاه أعراب نجد وقبائل الصحراء مثل غطفان وتميم وسُليم ليست سوى مساعٍ لتفادي تهديدها الأمني ودرء شرّها عن المدينة بينما ينشغل المسلمون بالأولوية المركزية، كما أن استبقاء نخبة من صحابة النبي في بلاد الحبشة على الرغم من توفر مهجر آمن لهم في المدينة يصب هو أيضاً في توثيق العلاقات الإقليمية من أجل التضييق على قريش وترسيخ الحصار عليها. بل نستطيع أن نقرأ الشأن الداخلي في المدينة نفسها ضمن سياق الأولوية المركزية هذه؛ فقد تبنّى النبي استراتيجية داخلية تقوم على وحدة الصف وإظهار التماسك بين مكونات المدينة المختلفة، فقد صبر المسلمون على أذى المنافقين حتى لا يقول الناس: «إن محمداً يقتل أصحابه»، وحتى لا ينفرط عقد التماسك الداخلي وينشغل المسلمون بمعارك جانبية. أما عن تعامل المسلمين مع اليهود، سواء داخل المدينة أو في مركزهم التجاري الكبير خيبر، فكان يتم هو الآخر في سياق متدرج محسوب له علاقة مباشرة بموازين القوة المرتبطة بالتعامل مع الأولوية المركزية.

الطريق إلى بدر الكبرى

الطريق إلى بدر بدأت بسرية سيف البحر التي قادها حمزة بن عبد المطلب بعد نحو سنة من الهجرة في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، وكان الهدف من هذه السرية اعتراض قافلة لقريش على الطريق التجاري الساحلي الواصل بين مكة والشام. ثم توالت البعثات العسكرية تستهدف قوافل قريش، وتتواصل مع قبائل الساحل لعقد اتفاقاتٍ معها؛ وصولاً إلى سرية نخلة على مقربة من مكة، بقيادة عبد الله بن جحش، وأثارت هذه السرية تحديداً مخاوف كبيرة لقريش، فقد وقعت على أبواب مكة، واستهدفت قافلة صغيرة لقريش كانت في طريقها من الطائف، وقُتل فيها ابن الحضرمي وأُسر رجلان قرشيان، وكان ذلك في اليوم الأخير من شهر رجب، وهو من الأشهر الحرم.

وبذلك تكون الفترة الممتدة من رمضان في العام الأول للهجرة إلى رجب من العام الثاني قد شهدت تصعيداً متدرجاً، عبر ثماني بعثات عسكرية، بمهام

واضحة محددة، لم يكن القتال فيها هو الغاية، لكنها حققت عدة إنجازات، أهمها إرباك تجارة قريش، فالتجارة لا تحب المخاطر، واعتراض القوافل تباعاً يهز ثقة تجار قريش باقتصادهم العابر للصحراء، ويدخل الفزع عليهم، كما أنه يرسل رسالة صارخة للقبائل المحاذية للساحل في أن المدينة صارت صاحبة القرار الأمني في هذه الأرجاء، والأفضل أن تتفاهم هذه القبائل مع المسلمين، وأن تحذر في تعاملها مع قريش، لأن ذلك سيغضب محمداً والمسلمين؛ فتجارة قريش لن تتعرّض للإرباك الأمني المباشر من سرايا المسلمين فحسب، ولكنها ستعبر أراضيَ يُشك في إخلاص أهلها وتوفير ما يلزم من الحماية لقوافلها. هنا يكون الإيلاف الذي ميز علاقات قريش بغيرها من القبائل قد اهتز، بينما بدأ إيلاف المدينة يتشكل بديلاً عن إيلاف قريش.

حققت السرايا الثماني هدفاً آخر للمسلمين، إذ بدأت صياغة المجتمع المدني الجديد صياغة استراتيجية: كتائب تتحرك وسرايا تتجهز ومهام عسكرية يُخطط لها، بما يتطلبه ذلك من تدريبٍ وانضباطٍ وتخطيطٍ واستطلاع لأحوال الطرق ونظر في العواقب وقدرة على اتخاذ القرار المناسب. لقد بُذرت في المدينة بذرة سترتقي باهتمامات أهلها على اختلاف انتماءاتهم من النظر في شقوق الداخل إلى التحديق في آفاق الخارج. البيئة الجديدة في المدينة تجاوزت عقلية حرب بُعاث وثاراتها؛ لم تعد صراعاً بين الأوس والخزرج، ولا مكايدة بين القيادات القبلية، ولا خوفاً من غارات الأعراب على مزارعهم ومواشيهم؛ لقد وُلدت المدينة ومعها منهج جديد، وشخصية واثقة، فبدلاً من العيش تحت ظلال الخوف والقلق، يتمدد نفوذ المدينة وهيبتها ليشمل مناطق شاسعة، وتتأسس قوة ضاربة جاهزة للتحرك على الفور، تجوب الفيافي وتلقي في قلوب الخصوم والأعداء الرعب.

المدينة الجديدة لا تشبه يثرب القديمة في تقوقعها وعزلتها، بل هي مركز انطلاق وتواصل، ومقر تدريب وتنظيم، فالعام السابق على بدر كان حافلاً بالإعداد العسكري والتهيئة النفسية، لقد عبر جند المسلمين في عامٍ واحد ثماني دورات عسكرية متعددة الأهداف، مما رفع من لياقتهم القتالية، وزوّدهم بخبرةٍ واسعةٍ في المناورة والاستطلاع، فلا غرو إذاً أن يُفاجأ المشركون يوم بدر بجيشٍ نظاميٍّ شديد الانضباط يتحرّك ككتلة واحدة منسجمة، بينما لا يزال جيشٌ قريش على عهده السابق، مجموعاتٍ متفرقة ممتلئة كبراً وبطراً، تلتفُّ حول قادة مغرورين، وتهرع للقتال فوضى من دون انتظام.

تشير كتب السيرة جميعاً إلى أن السبب المباشر لمعركة بدر كان رسالة استنجاد مثيرة بعثها أبو سفيان عندما خشي تعرّض المسلمين له في طريق عودة قافلته من الشام إلى مكة. لقد علم أبو سفيان أن النبي كان قد خرج في مئتي مقاتل لاعتراض القافلة في طريق ذهابها إلى الشام، وهي الغزوة المعروفة بذي العُشيرة، فلم يدركوه، فخمّن أن المسلمين سيعيدون الكرة في طريق عودته، فبدأ يتحسس الأخبار، فوجد شواهد زادت من تخوفه، لا سيما عندما وصل مضارب جهينة، وهو يعلم أن جُهينة كانت على صلة حسنة بالمدينة. وبالفعل فقد صدق حدس أبي سفيان؛ إذ كان النبي قد ابتعث رجلين من أصحابه هما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى أن نزلا على كشد الجهني في النَّخْبار وأقاما عنده يتحسسان خبر القافلة. أحس أبو سفيان بوجودهما، فسأل كشد الجهني عما إذا كان قد رأى عيوناً لمحمد، فقال: «أعوذ بالله وأنّى عيون محمد في النخبار؟». لم يقتنع أبو سفيان برد كشد، لا سيما أنه سمع سابقاً عن محاولة المسلمين اعتراض قافلته في طريقها إلى الشام، وقد أوردنا رواية الواقدي عن مخرمة بن نوفل وما أخبرهم به الرجل من جذام، وحالة الخوف التي دبت في صفوف القافلة قبل مغادرتها الشام، وهذا ما دفع أبا سفيان إلى اتخاذ الحيطة والحذر، وأدرك أن الوقت اللازم لاستنفار قريش يقتضي إرسال صيحة استغاثة على الفور، حتى لا يُفاجأ بجيش المسلمين حيث لا مهرب، ومن هنا كلّف ضَمضَم بن عمرو أن يُسرِع إلى مكة طلباً للنجدة، فدخلها ضمضم بشكل درامي، فشق قميصه قُبُلاً ودُبُراً وجدع أذني بعيره وصاح: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، يَا آلَ لُؤَيّ بْنِ غَالِبٍ، اللّطِيمَةَ اللطيمة (وهي القافلة)، قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمّدٌ فِي أَصْحَابِهِ! الْغَوْثَ، الْغَوْثَ! وَاللهِ مَا أَرَى أَنْ تُدْرِكُوهَا!»[1].

الأجواء النفسية في مكة كانت محتقنة على إثر سرية نخلة، وبعدما كان المسلمون قد اعترضوا عدداً من القوافل خلال العام الفائت، وقافلة أبي سفيان هذه كانت أهم قوافل قريش السنوية، فيها ألف جمل، وتقدّر قيمتها بخمسين ألف دينار ذهباً، ويشترك فيها معظم القرشيين، فلن يجازفوا بخسارتها. ومع

---

(١) راجع القصة كاملة في **السيرة النبوية** لابن هشام.

استغاثات ضمضم وأدائه المسرحي، استُنفرت قريش عن آخرها، وثارت إلى السلاح، وأزمعت المسير لإنقاذ القافلة.

لم ينتظر أبو سفيان الوقوع في قبضة المسلمين، بل خطط هو الآخر لتفادي المواجهة من خلال تغيير الطريق المعتاد بأن سلك طريقاً آخر يتجاوز فيه المناطق التي قد يوجد فيها المسلمون، ثم إنه أمر القافلة بسرعة السير من دون إبطاء، فتمكّن بالفعل من الإفلات من جيش المسلمين.

في هذه الأثناء كانت قريش قد أكملت تعبئتها في ثلاثة أيام وخرجت بحشدٍ قوامه ألف أو يزيد من رجالها. وعندما تجاوز أبو سفيان منطقة الخطر أرسل رسالة أخرى يُعلم قريشاً بنجاة القافلة، ويطلب منهم العودة إلى مكة: «وَيَقُولُ: قَدْ نَجَتْ عِيرُكُمْ، فَلَا تُجْزِرُوا أنفسكم أَهْلَ يَثْرِبَ (لا تعرضوا أنفسكم للقتل على يد أهل يثرب)، فَلَا حَاجَةَ لَكُمْ فِيمَا وَرَاءَ ذَلِكَ، إنّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، وَقَدْ نَجّاهَا اللهُ».

لكنّ رسالة أبي سفيان لم تفلح في رد المشركين إلى مكة، وسبب ذلك يعود إلى شخصية أبي جهل وأزمته النفسية والقيادية. كان أبو جهل لا يزال منصّباً نفسه زعيماً لقريش بعد وفاة عمه الوليد، وها قد جاءت الفرصة المناسبة لإثبات صلابته وعزيمته وشدّة بأسه، فاتخذ موقفاً متشدداً فيه قدر كبير من العنجهية والتصلب، فاستمر يحشد الناس ويؤلبهم على المسير.

نشأ نزاع في قيادة الجيش بين أبي جهل وعتبة بن ربيعة؛ فعتبة، سيد بني شمس، هو الأكبر سناً ومكانةً في قريش بعد موت الوليد بن المغيرة، وهو بذلك يستحق أن يكون سيد قريش، إلا أن أبا جهل زعيم بني المغيرة لم يكن يسمع لعتبة ولا يطيع، بل مضى في نهجه المتشدد من دون رادع.

أراد عتبة، وهو عم أبي سفيان ووالد زوجته هند، أن يأخذ برسالة أبي سفيان ويرجع بقريش إلى مكة، وذكر من مبررات العودة أن قريشاً في مسيرها هذا تُخلي مكة من المقاتلين، وأن بني بكر ـ وكان بينهم وبين قريش ثارات ـ قد يستغلون الفرصة وينقضُّون على مكة، وليس فيها سوى النساء والغلمان، فرفض ذلك أبو جهل، وشن هجوماً لاذعاً على عتبة، متهماً إياه بالجبن والضعف، وأنه لا يريد قتال محمد لأن ابن عتبة كان قد أسلم وهو الآن في جيش المسلمين. هذه الاتهامات أثارت حفيظة عتبة، وكعهد الجاهليين استُفِزّ وقرر المسير حتى يُثبت خلاف ما اتهمه به أبو جهل.

تشير المصادر إلى أن عدداً كبيراً من قادة قريش كانوا مترددين في الخروج من مكة لقتال المسلمين، على رأسهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، ومعهم قائمة طويلة شملت: أمية بن خلف وحكيم بن حزام، وأبا البختري، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه، وأبا لهب. لكنهم جميعاً انساقوا وراء تحريض أبي جهل ومعه النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، وثلاثتهم من صقور قريش وشرارها.

هكذا كان جيش المشركين يعاني من التردد واختلال البنية القيادية، ومن ثَمّ غابت الرؤية الواضحة لهدف الجيش، إذ إن العبارة الرئيسة التي يذكرها المؤرخون وتحمل هدفاً محدداً هي ما ورد على لسان أبي جهل، وتجعل من هدف المسير الدعاية والإعلام، لا التخطيط المحكم والفعل الاستراتيجي: «لا والله لا نرجع حتى نَرِدَ بَدْراً تَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا، فَنُقِيمُ ثَلاثاً عَلَى بَدْرٍ نَنْحَرُ الْجُزُرَ، وَنُطْعِمُ الطّعَامَ، وَنَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَتَعْزِفُ الْقِيَانُ عَلَيْنَا، فَلَنْ تَزَالَ الْعَرَبُ تَهَابُنَا أَبَداً»(٢).

دفعت هذه الحالة من الفوضى بطنين من قريش إلى الانسحاب والعودة إلى مكة: بنو زهرة، وبنو عدي. رواية انسحاب بني زهرة من الجيش تعيننا على إدراك الحالة النفسية لقريش، فقد نصحهم حليفهم وسيدهم الأخنس بن شريق أن ينسحبوا لانتفاء السبب المقنع لمواصلة المسير، فقال: «يَا بَنِي زُهْرَةَ، قَدْ نَجّى اللهُ عِيرَكُمْ، وَخَلّصَ أَمْوَالَكُمْ، وَنَجّى صَاحِبَكُمْ مَخْرَمَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، وَإِنّمَا خَرَجْتُمْ لِتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ، وَإِنّمَا مُحَمّدٌ رَجُلٌ مِنْكُمْ، ابْنُ أُخْتِكُمْ، فَإِنْ يَكُ نَبِيّاً فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ بِهِ، وَإِنْ يَكُ كَاذِباً يَلِي قَتْلَهُ غَيْرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَلُوا قَتْلَ ابْنِ أُخْتِكُمْ، فَارْجِعُوا وَاجْعَلُوا جُبْنَهَا بِي، فَلَا حَاجَةَ لَكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ مَنْفَعَةٍ، لَا مَا يَقُولُ هَذَا الرّجُلُ - يقصد أبا جهل - فَإِنّهُ مُهْلِكٌ قَوْمَهُ، سَرِيعٌ فِي فَسَادِهِمْ! فَأَطَاعُوهُ، وكان فيهم مطاعاً».

أما لماذا توصّل الأخنس إلى هذه النتيجة، فتكشف ذلك محادثة سابقة بينه وبين أبي جهل؛ فقد ذهب الأخنس إلى أبي جهل يسأله عن رأيه فيما كانوا يسمعون من تلاوة النبي للقرآن: «قال ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل

---

(٢) تابع التفاصيل كاملةً في **مغازي الواقدي**، مصدر سابق، ج ١، ص٤٤.

فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد، فقال ماذا سمعت: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه. قال فقام عنه الأخنس وتركه».

فقد كان الأخنس مدركاً أن خلاف أبي جهل مع النبي هو نتاج تنافس عميق بين بني مخزوم وبني عبد مناف، وأنّ قراره مواصلة المسير إلى يثرب ليس سوى انعكاسٍ لهذا التنافس المحموم على رئاسة قريش. وفعلاً فإن بني زُهرة من الناحية القبلية لا ناقة لهم ولا جمل في هذا الخصام، بل هم أقرب إلى النبي، فأمّه منهم، فلماذا يكونون شركاء في معارك الآخرين؟ فمن هنا كانت نصيحة الأخنس لهم وجيهة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن رسم لهم حُجة الانسحاب حتى لا يمنعهم أبو جهل، فقال لهم إنه سوف يقع عن بعيره، متظاهراً بالمرض، عندها يقولون إنه قد لدغته أفعى، فإذا ما مضى الجيش تأخروا وجلسوا إلى جانبه بحجة أنهم لا يستطيعون مفارقته حتى يعلموا هل سيعيش أم لا، وبعد أن يغادر الجيش يعودون إلى مكة؛ وهذا ما كان بالفعل.

رجع بنو زهرة، ولم يكن عددهم كبيراً، فهم على الأرجح قريبون من مئة مقاتل، ورجع كذلك بنو عدي، البطن الذي ينتمي إليه عمر بن الخطاب، إذ عادوا إلى مكة بعد قدوم رسالة أبي سفيان بنجاة القافلة.

شورى الحرب

نعود الآن إلى معسكر المسلمين، فقد خرج النبي ومعه ثلاثمئة وبضعة عشر من أصحابه، ومعهم سبعون بعيراً وفرَسان، وساروا يطلبون القافلة، فلما انفلت أبو سفيان بلغ النبي أن قريشاً قد خرجت للقائه، فدعا إلى اجتماع تشاوري، وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من استشارة أصحابه في الشأن العام، لا سيما الحرب، إلا أن هذا الاجتماع له أهمية استثنائية، إذ أراد النبي أن يستوثق من وقوف الأنصار إلى جانبه في المعركة إن وقعت؛ ذلك أن بيعة العقبة الثانية التي انعقدت قُبيل هجرة النبي إلى المدينة تضمنت عهداً من الأنصار بحماية النبي في المدينة بما يمنعون منه نساءهم وأموالهم، أمّا هذه المواجهة فستقع خارج المدينة، فأحب النبي أن يطمئن إلى أن الأنصار سيقاتلون معه فيها.

في مجلس الشورى ذاك، وقف أبو بكر فأحسن الكلام، ثم وقف عمر فقال: «يا رسول الله إنها والله قريش وعزّها، والله ما ذلت منذ عزّت، ولا آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته»(٣).

ثم قام آخرون جميعهم من المهاجرين، إلا أن النبي أراد أن يستمع من الأنصار، فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس، عندها قام سعد بن معاذ سيد الأوس، «فَقَالَ: أَنَا أُجِيبُ عَنِ الْأَنْصَارِ، كَأَنّك يَا رَسُولَ اللهِ تُرِيدُنَا! قَالَ: أَجَلْ. قَالَ: إنّك عَسَى أَنْ تَكُونَ خَرَجْت عَنْ أَمْرٍ قَدْ أُوحِيَ إلَيْك فِي غَيْرِهِ، وَإِنّا قَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك، وَشَهِدْنَا أَنّ كُلّ مَا جِئْت بِهِ حَقّ، وَأَعْطَيْنَاك مَوَاثِيقَنَا وَعُهُودَنَا عَلَى السّمْعِ والطاعة، فامضِ يا نبيّ الله، فوالذي بَعَثَك بِالْحَقّ لَو اسْتَعْرَضْتَ بنا هذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا بَقِيَ مِنّا رَجُلٌ، وَصِلْ مَنْ شِئْت، وَاقْطَعْ مَنْ شِئْت، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْت، وَمَا أَخَذْتَ مِنْ أَمْوَالِنَا أَحَبّ إلَيْنَا مِمّا تَرَكْت. وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا سَلَكْت هَذَا الطّرِيقَ قَطّ، وَمَا لِي بِهَا مِنْ عِلْمٍ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ يَلْقَانَا عَدُوّنَا غَداً، إنّا لَصُبُرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللّقَاءِ، لَعَلّ اللهَ يُرِيك مِنّا مَا تَقرّ بِهِ عَيْنُك». عندها قال النبي: «سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين. والله، لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

هنا نسأل التالي: لو أنّ النبي ﷺ قرر، عندما سمع بمسير قريش إلى بدر، أن ينسحب إلى المدينة، فهل سيواصل المشركون مسيرهم لمواجهته؟

الظاهر من روايات أهل السير أن الهدف الذي أرادته قريش من المسير هو وصول بدر، وكانت موسماً للعرب، فيها أسواقهم، والأسواق هذه يؤمها الناس من مختلف القبائل، وهي أفضل المواقع لنشر الأخبار ونقلها عبر الصحراء، وهدف أبي جهل دِعائي؛ أن يصل بدراً فيقيم احتفالاً مهرجانياً كبيراً يوصل من خلاله رسالة إلى العرب أن قريشاً لا تزال بخير، ولذلك سيستمر العرب في احترام هيبتها. هذا ما أراده أبو جهل، أما قتال المسلمين فلم يكن هدفاً واضحاً بالنظر إلى مجريات الأحداث في المعسكر القرشيّ المضطرب.

---

(٣) المصدر السابق.

أما النبي فكان قد عزم على مواجهتهم، وهذا واضح من مداولات مجلس الشورى، ومن تعليقات الصحابة، وكلها مؤشرات تدل على أن المسلمين كانوا يعدون أنفسهم لمواجهة عسكرية، وليس لاستعراض دعائي.

ومما يعزز هذا الاستنتاج، المفاجأة التي أصابت المشركين عندما علموا بوصول جيش النبي. وهنا نعود إلى معسكر المشركين لننقل نصاً، وإن كان طويلاً، لكنه مهم حيث يضعنا في الأجواء النفسية حالما علمت قريش بوصول جيش المسلمين: «وَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَادِيَ بَدْرٍ عِشَاءَ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ، فَبَعَثَ عَلِيّاً وَالزُّبَيْرَ وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وقّاص وبسبس بن عَمْرٍو يَتَحَسّسُونَ عَلَى الْمَاءِ، وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى ظُرَيْبٍ فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَجِدُوا الْخَبَرَ عِنْدَ هَذَا الْقَلِيبِ الّذِي يَلِي الظرَيْبَ - وَالْقَلِيبُ بِئْرٌ بِأَصْلِ الظّرَيْبِ، وَالظّرَيْبُ جَبَلٌ صَغِيرٌ. فَانْدَفَعُوا تِلْقَاءَ الظّرَيْبِ فَيَجِدُونَ عَلَى تِلْكَ الْقَلِيبِ الّتِي قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَوَايَا قُرَيْشٍ فِيهَا سُقّاؤُهُمْ. وَلَقِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَأَفْلَتَ عَامّتُهُمْ. وَكَانَ مِمّنْ عُرِفَ أَنّهُ أَفْلَتَ عُجَيْرٌ، وَكَانَ أَوّلَ مَنْ جَاءَ قُرَيْشاً بِخَبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَنَادَى فَقَالَ: يَا آلَ غَالِبٍ، هَذَا ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَخَذُوا سُقّاءَكُمْ! فَمَاجَ الْعَسْكَرُ، وَكَرِهُوا مَا جَاءَ به.

قَالَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ: وَكُنّا فِي خِبَاءٍ لَنَا عَلَى جَزُورٍ نَشْوِي مِنْ لَحْمِهَا، فَمَا هُوَ إلّا أَنْ سَمِعْنَا الْخَبَرَ، فَامْتَنَعَ الطّعَامُ مِنّا، وَلَقِيَ بَعْضُنَا بَعْضاً، وَلَقِيَنِي عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا خَالِدٍ، مَا أَعْلَمُ أَحَداً يَسِيرُ أَعْجَبَ مِنْ مَسِيرِنَا، إنّ عِيرَنَا قَدْ نَجَتْ، وَإِنّا جِئْنَا إلى قَوْمٍ فِي بِلَادِهِمْ بَغْياً عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عُتْبَةُ: لِأَمْرٍ حُمّ: وَلَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ، هَذَا شُؤْمُ ابْنِ الْحَنْظَلِيّةِ! (يقصد أبا جهل) يَا أَبَا خَالِدٍ، أَتَخَافُ أَنْ يُبَيّتَنَا الْقَوْمُ؟ قُلْت: لَا آمَنُ ذَلِكَ. قَالَ: فَمَا الرّأْيُ يَا أَبَا خَالِدٍ؟ قَالَ: نَتَحَارَسُ حَتّى نُصْبِحَ وَتَرَوْنَ مَنْ وَرَاءَكُمْ. قَالَ عُتْبَةُ: هَذَا الرّأْيُ! قَالَ: فَتَحَارَسْنَا حَتّى أَصْبَحْنَا. قَالَ أَبُو جَهْلٍ: مَا هَذَا؟ هَذَا عَنْ أَمْرِ عُتْبَةَ، قَدْ كَرِهَ قِتَالَ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ! إنّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ، أَتَظُنّونَ أَنّ مُحَمّداً وَأَصْحَابَهُ يَعْتَرِضُونَ لِجَمْعِكُمْ؟ وَاللهِ لَأَنْتَحِيَن نَاحِيَةً بِقَوْمِي، فَلَا يَحْرُسُنَا أَحَدٌ. فَتَنَحّى نَاحِيَةً، وَالسّمَاءُ تُمْطِرُ عَلَيْهِ، يَقُولُ عُتْبَةُ: إنّ هَذَا لَهُوَ النّكَدُ»[٤].

(٤) المصدر السابق.

نفهم من النص أن قريشاً فوجئت بوصول المسلمين، بل كانت في حالة ذهول، فغصّت في مطعمها، واضطربت في أمنها، ولجأت إلى تدابير احترازية، بينما واصل القائد المغرور تكذيب الخبر: «أتظنون أن محمداً وأصحابه يعترضون لجمعكم؟»؛ معتقداً أن الكثرة والجَلَبَة هي التي ستدخل في قلوب المسلمين الهلع فتصرفهم بعيداً عن المواجهة. وهنا تتجلى بوضوح حقيقة أن مسير النبي إلى بدر إنما كان عن مبادرة مدروسة منه، وعن قرارٍ اتخذه ثم عززه مجلس الشورى، لا سيما رأي عمر في أن قريشاً سوف تقاتل المسلمين- إن عاجلاً أم آجلاً، فلماذا لا نبادرهم نحن بالمواجهة.

ونلحظ من النص كيف أن الصدام بين عتبة وأبي جهل كان قد تفاقم ووصل حد التنابز بالألقاب والاتهامات المتبادلة، فالجيش إذاً من دون قيادة موحدة، وزعامة أبي جهل للجيش لم تكن لها صفة شرعية، بل هي تنصيب ذاتي من دون إجماع. ونرى كيف أن غرور أبي جهل منعه من أن يصدق الأخبار، ومن ثَمّ لم يتمكن من تقدير الموقف تقديراً سليماً، بل هو سادرٌ في غيه، متّبعٌ هواه؛ أما عتبة بن ربيعة فكان مهمشاً لا يملك من أمره شيئاً، إذ «لا رأي لمن لا يطاع» كما قال.

الانعتاق في مواجهة الانغلاق

التخاصم والتنابز وغلظة القيادة وغياب الهدف واحتقان أجواء معسكر قريش، يقابله انسجامٌ واحترامٌ واحتفاءٌ بالرأي وشراكة حقيقية بين كل المقاتلين في معسكر المسلمين؛ ففي الوقت الذي لا يستطيع سيدٌ مثل عتبة بن ربيعة أن يبدي رأيه في مواجهة قائد فظ شديد التعنت، يقف شاب أنصاري هو الحباب بن المنذر أمام النبي، القائد الأعلى للجيش، ويسأله بأدبٍ واحترام عن سبب اختيار مكان المعسكر، أهو تقدير شخصي من النبي أم هو وحي من الله لا تجوز مخالفته؟ فيرد النبي أنه الرأي والحرب والمكيدة، عندها يُعلِّق الحُباب الذي لم يتجاوز بعد الرابعة والعشرين من عمره، ولم يكن سيداً بارزاً في قومه، يعلق تعليقاً صريحاً فيقول: فإن هذا ليس بمنزل! ولما كان الحباب عليماً بطبيعة بدر وآبارها، فيقدم اقتراحاً له علاقة بمسرح المعركة، ويقترح أن يتقدم المسلمون إلى الأمام لكي تكون آبار الماء ضمن حدود معسكرهم، فيمتازون بذلك عن المشركين بالوصول إلى الماء كلما أرادوا، بينما يحرمون العدو من

الوصول إليه، ويقترح أن يتم دفن بقية الآبار التي لا تقع ضمن حماية المعسكر حتى لا تستقي قريشٌ منها. يستمع القائد لاقتراح الجندي، فيقبله ويأمر بتنفيذه، هكذا ببساطة ومن دون جدل ولا حديث عن التراتبية العسكرية ولا عن الصلاحيات.

وفي واقعةٍ أخرى يقف الجند صفوفاً ويقوم النبي باستعراضهم، فلما وقعت عينه على مقاتل قد تقدم على موقعه في الصف، دفعه بعودٍ كان في يده ليرجع إلى مكانه، فيقول الجندي الأنصاري الشاب، وهو سوّاد بن غزية، ولم يكن كذلك من السادة ولا الشيوخ المقدمين في قومهم، يقول للنبي القائد قبيل المعركة بقليل: أوجعتني، والذي بعثك بالحق، أقدني، مطالباً بحقه في القصاص، فيكشف النبي عن بطنه ويسمح له بأن يقتصَّ، فيكب سواد على بطن النبي مقبلاً إياه، ولما سألهِ النبي عن سبب فعلته تلك، قال إني قد حضرت هذه المعركة، ولا أدري إن كنت سأبقى حياً بعدها أم لا، فأردت أن يكون آخر العهد بالدنيا أن يلامس جلدي جلدك.

تمرُّ بنا هذه الرواية عادة في مقام استحضار الجانب الأخلاقي في شخص النبي وحب أصحابه له، وهذا صحيح، لكننا هنا نستخرج منها معاني أخرى تضيف إلينا معرفة بالواقع العسكري والطبيعة النفسية للجيش المسلم. نحن في حالة استنفارٍ قصوى، يستعد فيها الجيش لملاقاة العدو عما قريب، يزاول القائد دوره في تفتيش الصفوف، فيجد جندياً قد خرج عن مكانه المرسوم، فيدفعه لكي يقف في مكانه، هذه ممارسة طبيعية معتادة في الحياة العسكرية، والقائد إذ يفعل ذلك فعن واجب تمليه وظيفة القيادة، لكنّ الجندي يقولُ إنّه قد توجّع من تلك الدفعة، ويطالب بالقصاص.

لنتوقف هنا عند هذه اللقطة تحديداً من دون أن نكمل القصة، وننظر إلى هذه المشهد الذي وقف فيه جنديٌّ مخالف للانضباط العسكري أمام قائد الجيش محتجاً أنه قد عانى ألماً بسبب قيام القائد بدوره، فنتأمل في دلالاته؛ ذلك أن الجندي وجد الشجاعة لكي يتكلم، وأن القائد وجد في شكوى الجندي وجاهة تقتضي منحه فرصة القصاص، بل لم نسمع أنّ بقية الجند ممن شهدوا الواقعة اعترضوا على سواد وزجروه، كان الأمر طبيعياً. هناك ألم وقع على رجل يطالب على إثره بالعدل، وهناك قائدٌ وجد وجاهة في الطلب فأقرّه، وهناك جمهور يسمع ويرى ولا يجد في ذلك غضاضة.

هذه الواقعة، وتلك التي دفعت الحباب بن المنذر إلى اقتراح تعديل مسرح المعركة، ولم تمنعه هيبة المثول أمام النبي القائد من أن يقول له: إن هذا ليس بمنزل، يدفعنا للاستنتاج أن محمداً القائد قد زرع في نفوس أصحابه الحرية، وزودهم بالثقة اللازمة للتعبير عن رأيهم، وجعل منهم شركاء في الشأن العام، فلا يترددون ولا يجبنون، بل إن رأى أحدٌ من عامتهم مصلحة للمسلمين جاء إلى قائده فنصحه، والقائد لا يأنف من الإصغاء إلى النصيحة، ويأخذ بها إن وجد فيها مصلحة. هذا بالطبع يفتح آفاقاً واسعة للتجديد والابتكار، فلا انحباس في أطر جامدة ولا جمود على أساليب قديمة.

صحيح أنّ جند المسلمين كانوا أكثر من ثلاثمئة بقليل، وأنّ جند المشركين زادوا على ثلاثة أضعافهم، إلا أنَّ المسافة الفارقة بين الجيشين المتقابلين هائلة، إنّها مواجهة بين قديم مضطرب وجديدٍ متماسك، بين ماضٍ قد آن زواله وحديثٍ قد حانت ساعة ولأدته.

لا غرو إذاً أن تكون نتيجة المواجهة بين الطرفين نصراً مؤزراً للجديد المنضبط المبدع على القديم المتردد الجامد.

ميلاد الجديد واندحار القديم

في عصر يوم السابع عشر من رمضان في السنة الثانية للهجرة، الموافق للثالث عشر من آذار/مارس عام ٦٢٤م؛ كانت المعركة قد انتهت، وكانت نتيجتها هزيمة ساحقة للمشركين.

قائمة قتلى قريش كانت مذهلة، بلغت سبعين، على رأسهم صناديد قريش: أبو جهل وأخوه العاص بن هشام، وعتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف وابنه علي، وأبو البختري بن هشام، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج وولداه: العاص والحارث إضافة إلى أخيه نبيه بن الحجاج، وحنظلة بن أبي سفيان، ونوفل بن خويلد وهو شقيق السيدة خديجة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة شقيق خالد بن الوليد.

هذه القائمة شملت سادة البطون الرئيسة في قريش، المعركة أطاحت بقيادة قريش وأفرغت دار الندوة من أعضائها، وكان أكثر البطون خسارة بنو مخزوم، فقد قُتل لهم أربعةٌ وعشرون على رأسهم زعيمهم المغترّ بنفسِه أبو جهل،

عمرو بن هشام بن المغيرة، كما أطاحت بزعيم بني جمح أمية بن خلف، وبزعيم بني عبد شمس عتبة بن ربيعة.

أمّا الأسرى فكانوا سبعين أو يزيد، على رأسهم: سُهيل بن عمرو، وعقيل بن أبي طالب ابن عم النبي، وعم النبي العباس بن عبد المطلب، وأبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي، وأبو عزيز بن عُمير شقيق مصعب بن عمير، وخالد بن هشام بن المغيرة شقيق أبي جهل، والوليد بن الوليد بن المغيرة شقيق خالد بن الوليد، وعبد الله بن أبيّ بن خلف.

لقد كانت بدر في ذاتها معركة صغيرة بالمعايير العسكرية للمعارك التي كانت تدور على أطراف الجزيرة بين الفرس والروم، لكنها ذات دلالات استراتيجية فاقت المعارك الضخمة تلك، فهذه هي المواجهة العسكرية الأولى التي يخوضها المسلمون كفئة واحدة. والمسلمون هنا يمثلون مجتمع المدينة الموحّد، بعضهم قرشيون مهاجرون وآخرون أنصار من الأوس والخزرج. كانت الأمة قد ولدت رسمياً قبل ذلك بعام، عندما أقر النبي صحيفة المدينة، معتبراً أنّ المسلمين من المهاجرين والأنصار أمّةٌ واحدة من دون الناس، أما في بدر فقد اتحدت هذه الأمة وارتبطت برابطة الدم والجهاد المشترك. لقد التقى الجميع على صعيدٍ واحد في مواجهة عدوٍّ مشترك، قاتلت قريش المسلمة قريشاً الكافرة، وقاتل الأوس والخزرج إلى جانب إخوانهم، كانت بدر لحظة الميلاد الفعلي للكيان المسلم ببعده العابر للقبائل.

كانت بدر إعلاناً عن ولادة الكيان المسلم لكل من يهمه الأمر، فقريباً ستدوّي أخبار الانتصار على قريش في أرجاء الجزيرة، فإذا الذين كانوا يستصغرون شأن عشرات من المهاجرين الفارين من مكة، ينتبهون إلى أن للقصة أبعاداً أخرى تستحق النظر.

أما قريش الكافرة فواجهت أصعب لحظة في حياتها أمام الهزيمة الساحقة والإهانة البالغة التي لحقت بها، فإذا الهدف الذي وضعه الهالك أبو جهل من المسير إلى بدر قد أدى إلى النقيض؛ نعم لقد سمعت العرب بالفعل بمسيرهم كما أراد، ولكنها سمعت أيضاً بهزيمتهم وقتل ساداتهم وأسر وجوههم، لقد أصيبت سمعة قريش في مقتل.

خرج المسلمون من المعركة بخسائر قليلة، فقد استشهد منهم أربعة عشر

مقاتلاً، لكنهم رجعوا بسبعين من الأسرى إلى المدينة، وسيضطرُّ القرشيون أن يسافروا إلى المدينة واحداً بعد الآخر لفداء أسراهم، فيعود ذلك بالخير والثراء على المسلمين، بينما يستمر نزيف قريش دماً ومالاً.

لقد فرح المؤمنون بنصر الله في بدر، تماماً كما أخبر القرآن قبل بضع سنين في مطلع سورة الروم، وقد كان انتصار الروم في أول معركة مهمة ضد الفرس بعد شهرين من انتصار المسلمين: فقد كان انتصار المسلمين في بدر ١: رمضان، ١٥ كانون الثاني/يناير ٦٢٤م، وفي ٢٤ من الشهر ذاته عام ٦٢٤ بدأت انتصارات هرقل على الفرس، التي ستتوّج في غضون ثلاث سنين بانتصارٍ حاسم في نينوى.

تحولان رئيسان ومتزامنان في موازين القوى، مثّل الأول بداية انهيار القديم، والثاني بداية ولادة الجديد. انتصارات الروم على الفرس ستتوالى، ولكنّهما إمبراطوريتان هرِمَتَان، أضعف كلٌّ منهما الآخر؛ سينتصر الروم، ولكنهم سيخرجون من الحرب في غاية الإنهاك.

في الجزيرة القصّة مختلفة، فقد بدأت هزيمة قريش في بدر، وسيكتمل فتح مكة في بضع سنين، والقوة الفاتحة شابّة قوية، ستندفع من جوف الصحراء باتجاه الإمبراطوريتين المنهكتين، فترثهما وتنطلق إلى ما وراءهما بسرعة مذهلة.

كانت بدر من هذا المنطلق بداية النهاية لقريش وللقوى الدولية على حد سواء، وهي بداية الانطلاق للقوة للعالمية الإسلامية، لذلك سمى اللهُ بدراً يوم الفرقان.

استثمار بدر

صنع انتصار المسلمين في بدر واقعاً استراتيجياً جديداً في الحجاز، فالحضور الإسلامي صار من الآن فصاعداً رقماً صعباً لا يمكن تجاهله، فأخبار انتصار بدر طارت في آفاق الجزيرة، ومعها خبر القوة الجديدة المنطلقة من المدينة.

لم تكن قريش قبل بدر في أفضل حالاتها من حيث تحالفاتها وعلاقاتها مع جوارها القبليّ، وقد رأينا كيف أن أهل الساحل مثل جهينة وضمرة قد بدؤوا يوادعون النبي، ويمكننا أن نقدِّر رد فعل هذه القبائل على خبر انتصار

المسلمين في بدر، فقد شعرت أن تفاهماتها مع النبي كانت خياراً صائباً، ومن ثَمّ هم في مأمن؛ أمّا خزاعة فقد وقع الخبر فيها موقعاً حسناً، إذ إنها على غير وفاق مع قريش، وخصومتها التاريخية معها حول الحرم لا تزال تتوارثها أجيال بني خزاعة كابراً عن كابر، كما أن لخزاعة حلفاً قديماً مع عبد المطلب احترمه وأنفذه حفيدُه محمد رسول الله؛ أما هوازن، أكبر قبائل قيس عيلان عدداً، فلا تحتفظ بعظيم وُدٍّ مع قريش، وحروب الفجار بينها وبين قريش لا تزال ماثلة في الأذهان؛ وبنو بكر بن وائل لهم مع قريش ثارات، ودوس لا تزال تتحيَّن الفرصة للثأر من مقتل سيدها على يد بني مخزوم، وبكر كان لها ثأر لا تزال تتحين الفرصة هي الأخرى للأخذ به، وثقيف، وإن حافظت على حسن العلاقات مع مكة لمصالحها التجارية، لم تكن على وفاقٍ تامٍ معها؛ لقد وقفت قريش وحيدة في مواجهة النبي.

من جهة أخرى فإن قبائل البادية، مثل سُليم وغطفان وتميم وغيرها من القبائل الضاربة في نجد، كانت بعيدة عن التفاعل المباشر مع الصراع بين مكة والمدينة، همّها محصور في الغزو واغتنام الفرص العابرة، ليس لديها تحالفات استراتيجية دائمة، ولا علاقات ثابتة، إلا ما يعود عليها بالمغنم. وهذه القبائل تحديداً كانت تُغير على أطراف المدينة فتنهب وتهرب، وسوف نرى طوال السنوات القادمة كيف سيسيّر النبي سرايا وغزوات لمعاقبتها وتتبُّعها وصرفها عن المدينة، وهو ما سيبدأ بالفعل بُعيد بدر.

الذي احتاج إلى اهتمام النبي وحاز على أولوية التعامل المباشر معه بعد بدر كان الشأن الداخلي في المدينة؛ فنحن نعرف أن المدينة لم تكن كلها قد أسلمت، فهناك كتلة سكانية لا تزال على شركها، وبعض أفراد هذه الكتلة مستمر في أذى المسلمين من خلال التحريض المباشر عبر الدعاية والتهجم ونشر الأكاذيب، ونعلم أن بعضهم قد انضم إلى مكة عملياً، مثل تلك المجموعة التي تنتمي إلى الأوس بزعامة أبي عامر الراهب، وكان المسلمون يسمُّونه الفاسق، فقد هاجر مع خمسين من أتباعه إلى مكة وسوف يقاتلون مع المشركين في أحد.

أمّا المنافقون فكانوا أشدّ خطراً من المشركين، ذلك أنهم كانوا يُظهرون الإسلام، ويشاركون المسلمين في صلاتهم، ويُظهرون الود لنبيّهم، لكنهم عاكفون في الخفاء على المكر والكيد للمسلمين، وهم أيضاً حلفاء لقريش، لن يتوانوا عن إمدادها بالمعلومات، فهم خطر أمني، ينبغي الحذر منه.

الكتلة الثالثة هي القبائل اليهودية. كان في المدينة عدد من القبائل اليهودية، ذكرت صحيفة المدينة عشراً منها، لكن ثلاث قبائل تبرز على أنها الأهم والأكثر تأثيراً في مسار الأحداث: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة. وكانوا شركاء في حلف الصحيفة، ويقضي الحلف بأن لليهود الحق في ممارسة دينهم، إلا أن هناك واجبات مشتركة تفرضها المواطنة، أهمها أنهم يدافعون عن المدينة مع بقية سكانها إن وقع عليها اعتداء، وأنه لا يجوز لهم ولا لغيرهم من سكان المدينة موالاة قريش أو إعانتها، وأن يلتزموا بالنظام القانوني الذي حددته الصحيفة، بما في ذلك مرجعية النبي في حال أي خلاف يقع في المدينة. ومع أن نظرة اليهود للمسلمين لم تكن ودية، إلا أنهم التزموا ببنود الصحيفة، إلا ما كان من بني قينقاع.

كان النبي في غاية الانتباه في اختيار أولوياته الأمنية والاستراتيجية، وكان يعلم أن القبائل الثلاث مجتمعة ذات عدد وعدة، تتجاوز قوتها جيش المسلمين بأضعاف، فالأرقام التي ذكرها المؤرخون عن أعداد مقاتلي هذه القبائل كانت تقترب من سبعمئة محارب لكل منهما، هذا إضافة إلى امتلاكها قلاعاً حصينة، كما أنها واسعة الثراء مقارنة بغيرها من الأوس والخزرج، فإمكاناتها المالية والبشرية والتقنية تشكل الخطر الأكبر على الوجود الإسلامي في المدينة، وينبغي وضع خطة محكمة للتعامل معها.

تمردٌ في المدينة

عندما ندرس القبائل اليهودية الثلاث نجد أن بني قينقاع كانوا أغنى هذه القبائل وأقواها، فقد كانوا تجاراً وصاغة ذهب، ولديهم قلعتهم الخاصة، وفيها سوقهم، ومنازلهم في داخل المدينة، كما أنهم القبيلة اليهودية الوحيدة التي لها حلف مع الخزرج، بينما تحالفت كلٌّ من بني النضير وبني قريظة مع الأوس.

حلف بني قينقاع مع الخزرج ينبغي أن يستوقفنا ويثير قدراً عالياً من الحذر، لأن حليف بني قينقاع الأهم من الخزرج هو عبد الله بن أبي بن سلول، وكان زعيم المنافقين، وأشد أعداء النبي خطراً في المدينة. إذاً فنحن نقف أمام التقاء بين طرفين، لكلٍّ منهما دوافعه في معاداة المسلمين، فإذا ما اجتمعوا واتحدوا فإنهم قادرون على قلب موازين القوى الداخلية في المدينة.

كان المسلمون يتابعون هذا التحالف بقلقٍ بالغ، فالكتلة العسكرية المالية

المتمثلة ببني قينقاع مع الكتلة السكانية المتمثلة في المنافقين، ستمثّل أكبر تحدٍّ يواجهه المسلمون في المدينة. أمّا فيما يتعلق ببني النضير وبني قريظة، فحلفهما مع الأوس لا يثير الشبهات، ذلك أن معظم قادة الأوس كانوا شباباً وكانوا قد أسلموا، وولاؤهم للنبي ليس عليه غبار، لذلك اقتضت المصلحة الاستراتيجية المبادرة لتفكيك هذا الخطر ومواجهته في أسرع وقت ممكن.

شعر بنو قينقاع أنّ لديهم القدرة على إظهار العداء للنبي وللمسلمين، خلافاً لبنود صحيفة المدينة وروحها، وقد تفاقم عداؤهم بعد بدر، مؤيَّدين بمساندة ابن سلول وتحريضه، ووعده لهم بالمساندة.

وفي محاولةٍ أخيرة لتدارك الموقف عقد النبي عليه الصلاة والسلام اجتماعاً مع سادتهم، وثَّقته كتب السيرة، وننقله هنا بنصِّه لكي نطَّلع على أجواء هذا اللقاء: «وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَمَعَهُمْ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، احْذَرُوا مِن اللهِ مِثْلَ مَا نَزَلَ بِقُرَيْشٍ مِن النِّقْمَةِ، وَأَسْلِمُوا، فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ وَعَهْدِ اللهِ إِلَيْكُمْ. قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَرَى أَنَّا قَوْمُكَ! لَا يَغُرَّنَّكَ أَنَّكَ لَقِيتَ قَوْماً لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا وَاللهِ لَئِنْ حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاس»(٥).

بالطبع فإنّ ما وصل إلينا من اللقاء أقل مما دار فيه بالفعل، لكنّ العبارات هذه تكفي لفهم أجواء الأزمة، فالنبي حذرهم بشكل واضح أن يوقفوا استفزازهم للمسلمين، وأن يحترموا عهدهم مع المسلمين، وإلا فإنهم سيواجهون ما واجهته قريش من النقمة، أما دعوته لهم لكي يسلموا فليست إكراهاً لهم على الإسلام، بل هي نصيحةٌ، لهم الحق في رفضها، فصحيفة المدينة تعطيهم حق التدين باليهودية من دون أدنى غضاضة.

رد بني قينقاع على النبي كان مشحوناً وعدوانياً، يشي بأن نيتهم ليست في احتواء الأزمة بل في تصعيدها، فإذا بهم يتحدَّثون عن الحرب، وأنهم قادرون على هزيمة المسلمين، ذلك أنهم أشد قوة من قريش، على اعتبار أن قريشاً لا علم لها بالحرب.

---

(٥) راجع: **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق.

عندما تصل الحال إلى مستوى التصريح بالحرب من قِبل مكوّن داخلي في المدينة ضدَّ السلطة الشرعية، فأنت أمام أزمة كبرى لا يمكن السكوت عنها؛ ذلك لو أن النبي غضّ الطرف عن وعيدهم لكان قد سلَّم بأن لهم الحق في تشكيل واقع عسكريٍّ معارض في داخل المنظومة المشتركة للمدينة، وهذا هدم صريح لأركانَ البناء السياسي والأمني ونزع للشرعية عنه شخصياً كقائد أعلى تؤول إليه الخلافات كما نصَّت صحيفة المدينة بقولها: «وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجار يُخاف فساده فإن مردَّه إلى الله ـ ﷻ ـ وإلى محمد رسول الله ـ ﷺ ـ.

في هذه الأجواء المشحونة وقعت حادثة استفزاز جديدة كانت هي السبب المباشر في حصار النبي لهم، فقد كان لهم سوقُ ذهبٍ داخل قلعتهم، دخلته سيدة مسلمة للتسوق، وبينما كانت تجلس إلى أحد الصاغة، راودوها عن نفسها، فأبت، فعمد أحدهم إلى ثوبها فربط طرفه، حتى إذا وقفت انكشفت عورتها، فاستغاثت، فهبَّ رجلٌ مسلم لنجدتها وقتل اليهودي، ثم اجتمع نفرٌ من اليهود فقتلوا المسلم، وأغلقوا القلعة على أنفسهم.

لو كان الوضع طبيعياً لكانت هذه الحادثة مسألة ينظر فيها القضاء، ذلك أن الصحيفة تجعل جريرة أيّة جريمة على مرتكبها شخصياً دون غيره، ولا تجيز لأي طرف مناصرة مجرم انطلاقاً من انتمائه القبلي: (وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٦] ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم).

من الواضح أن بني قينقاع قد اتفقوا على أن يقفوا مع القاتل من طرفهم دون العودة إلى ما قرَّرته الصحيفة، ومن ثمّ فإننا أمام فئة تهدد باستخدام السلاح وتخرج عن السلطة القضائية للمركز، فهي بذلك مخالفة لبنود الصحيفة، أو الدستور المؤسِّس للمدينة، وهنا تعاملت السلطة المركزية معها كفئة متمردة، تنبغي معاقبتها، ومن ثمّ ردع من تسوّل له نفسه مستقبلاً أن يحذوا حذوها.

حاصرهم المسلمون في قلعتهم بجيشٍ قوامه سبعمئة مقاتل، وكان عدد مقاتلي بني قينقاع سبعمئة كذلك على أرجح التقديرات؛ حاصرهم المسلمون خمسة عشر يوماً، حتى تم الاتفاق على جلائهم عن المدينة مقابل أن يُسلّموا أموالهم وأسلحتهم ويخرجوا بأنفسهم وذراريهم.

---

(٦) أي طلب مناصرةً على سبيل الظلم.

حلف بني قينقاع مع الخزرج لم ينفعهم، فقد تعامل النبي ﷺ مع الأمر بغاية الفطنة والحكمة، إذ نعلم أن عبد الله بن أبي ابن سلول كان يعتبر نفسه القائم بهذا الحلف كونه سيداً من سادات الخزرج، لذلك أوكل النبي أمر تصفية وجود بني قينقاع إلى سيد آخر من سادات الخزرج، هو عبادة بن الصامت، وكان من أوائل من أسلم من الأنصار. والرسالة هنا واضحة، فإن كان ابن سلول سيتذرّع بحلف بني قينقاع مع الخزرج، فها هو سيد آخر من الخزرج سيقوم بإنفاذ ما تمّ الانفاق عليه من إجلائهم، وبذلك تم تحييد إمكانية تحوُّل قضية بني قينقاع إلى مسألة كرامة قبلية، يتمكّن من خلالها ابن سلول من إثارة الخزرج وحشدهم من خلفه.

ولنستمع إلى حوارٍ تم بين ابن سلول وعبادة بن الصامت، لننظر كيف اصطدم العقل القبلي القديم مع الوعي الإيماني الجديد: «فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ: تَبَرَّأْت مِنْ حِلْفِ مَوَالِيك؟ مَا هَذِهِ بِيَدِهِمْ عِنْدَك! فَذَكّرَهُ مَوَاطِنَ قَدْ أَبْلَوْا فِيهَا، فَقَالَ عُبَادَةُ: أَبَا الْحُبَابِ، تَغَيّرَت الْقُلُوبُ وَمَحَا الْإِسْلَامُ الْعُهُودَ، أَمَا وَاللهِ إنّك لَمُعْصِمٌ بِأَمْرٍ سَتَرَى غِبّهُ غَداً!»(٧).

خرج بنو قينقاع من المدينة إلى أذرعات في الشام، ولم يتحرك أحد لنصرتهم؛ لا من الخزرج ولا من القبائل اليهودية الأخرى، وكان ذلك درساً في الحزم مهماً للتعامل مع وحدة الكيان السياسي الفتيّ في المدينة.

حدثان مهمّان بينهما شهرٌ واحد، الأول انتصارٌ مدوٌّ في بدر أرسل رسالة للإقليم أن موازين القوة قد تغيرت، وحزم في إنفاذ صحيفة المدينة أرسل رسالة للداخل أن السلطة المركزية لن تتسامح مع التمرد.

رسائل إلى الأعراب

الاستثمار الثاني للانتصار ببدر كان في اتجاه أعراب نجد ممن كانوا يتحيّنون الفرص للانقضاض على المدينة، فقد قاد النبي ضدّهم ثلاث حملاتٍ عسكرية: الأولى باتجاه بني سُليم وغطفان، فيما يُعرف بغزوة قرارة الكُدر، في مئتين من أصحابه، فطاردهم وغنم خمسمئة من الإبل، ولم يقع في هذه الغزوة

(٧) **الواقدي**، ويقصد أنّ ابن سلول مستمسكٌ بأمرٍ سيرى نتيجته وعاقبته قريباً.

قتال؛ والثانية ضد جموع من بني ثعلبة ومحارب من غطفان في ذي أمر، وكان جيش المسلمين فيها أربعمئة وخمسين مقاتلاً، داهم المسلمون هذه المجموعات في بيوتهم فتفرقوا في الجبال ولم يقع قتال؛ والثالثة عندما حاولت بنو سُليم حشد قواتها لغزو المدينة، فقاد النبي جيشاً من ثلاثمئة مقاتل إلى مكان يُسمى الفُرع، وكسابقاتها دخل الرعب في قلوب الأعراب فتفرقوا في الجبال.

العامل المشترك في الحملات العسكرية الثلاث أنها تمّت بقيادة النبي نفسه، أي إنه أولاها أهمية فائقة، على اعتبار أن خطر هذه القبائل كان حقيقيّاً ويقتضي حزماً، ثم إن عدد المقاتلين لم يكن صغيراً، فقد وصل في غزوة ذي أمر إلى أربعمئة وخمسين، أي أكبر من الجيش الذي قاتل ببدر، ثم إن هذه الغزوات الثلاث لم يقع فيها قتال، وهو دليل على حالة الفزع التي انتشرت في أوساط الأعراب بعد بدر، فما إن يسمعوا بمسير النبي إليهم حتى يهربوا ويتفرقوا في الجبال.

لقد حققت استراتيجية النبي في الضربات الاستباقية السريعة هدفها في كفِّ أذى هذه القبائل عن المدينة، وهو بالفعل ما سيحدث وصولاً إلى الخندق، عندما ستشترك غطفان مع قريش في المحاولة الأخيرة لضرب المسلمين.

الفصل العاشر

عهد أبي سفيان

«لَسْتُ أُخَالِفُ قُرَيْشاً، أَنَا رَجُلٌ مِنْهَا، مَا فَعَلَتْ فَعَلْتُ»

معركة بدر هي التحوُّل الأهم في تاريخ قريش منذ حرب الفِجار، إلا أنّ وقعها كان أشد، وتأثيرها أعمق؛ ذلك أن حرب الفِجار كانت محدودة وانتصرت فيها قريش، أما معركة بدر فكانت هزيمة كاملة، وأخطر ما فيها ثلاث نتائج: **الأولى** مقتل معظم قيادات دار الندوة، **والثانية** الإهانة التي لحقت بقريش وسمعتها بين العرب، **والثالثة** أن الحصار التجاري المضروب على مكة سيشتد.

قُتل في بدر معظم شيوخ قريش وساداتها، وعلى رأسهم الثلاثة الكبار: أبو جهل زعيم بني مخزوم، وعتبة بن ربيعة زعيم بني عبد شمس، وأمية بن خلف زعيم بني جمح. هذه الزعامات الثلاث هي التي أدارت المشهد القرشي في السنوات السابقة؛ أبو جهل المعروف بتسرعه واندفاعه، عُتبة النقيض المعادل لأبي جهل، وأمية بن خلف الحليف الأهم لأبي جهل.

الإشكال هنا أيضاً أنّ الحلفين الرئيسين قد أصيبا بخسارةٍ قياديةٍ فادحة.. حلف الأحلاف الذي منه أبو جهل وأمية، وحلف المطيبين الذي يتزعمه عتبة بن ربيعة. هذا إضافة إلى أن القتل كان قد أصاب قيادات أخرى عديدة من بطون قريش المختلفة، لم ينجُ في قريش بطنٌ من دون قتيل إلا بنو زهرة وبنو عَدي اللذان انسحبا قبيل المعركة.

الرابح الأكبر

في هذه الأجواء اتجهت الأنظار إلى أبي سفيان.

صحيح أنه كان قد أصيب شخصياً في ابنه البكر حنظلة، إلا أن الميدان القيادي قد خلا له تماماً، في هذه المرحلة على الأقل.

تحققت لأبي سفيان في بدر ثلاث نقاط لمصلحته: **الأولى** أنه استطاع النجاة بالقافلة، **والثانية** أنه نصح قريشاً بالعودة وعدم المسير إلى بدر فلم يستمع له أبو جهل، **والثالثة** أنّ بني مخزوم، الخصم الأكبر لبني عبد مناف، قد ضعفوا بمقتل عدد كبير منهم، إذ كان قتلاهم أربعة وعشرين رجلاً.

كان واضحاً أن أبا سفيان هو الخيار الطبيعي لقيادة قريش في هذه المرحلة، أما الطريقة التي تسلّم من خلالها القيادة فكانت سلسة.

تسلم صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس قيادة قريش وكنانة بشكلٍ تلقائيّ، ذلك أن الأنظار اتجهت إليه بعد بدر على اعتبار أنه قائد القافلة التي بسببها كانت الحرب، ورأى كثير من القرشيين أن أموال هذه القافلة يمكن أن تشكل بداية الإعداد للثأر واسترداد الكرامة.

ورد في **عيون الأثر** أنه «لَمَّا أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ، وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إلى مَكَّةَ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ بِعِيرِهِ، مَشَى عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ، فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: إنَّ مُحَمَّداً قَدْ وَتَرَكُمْ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ لَعَلَّنَا نُدْرِكُ مِنْهُ ثَأْراً بِمَنْ أَصَابَ مِنَّا، ففعلوا»[1].

نلاحظ هنا الأسماء الثلاثة التي قادت الوفد إلى أبي سفيان: عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة وهو ابن عم أبي جهل، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، وكلاهما من شباب بني مخزوم، والثالث صفوان بن أمية بن خلف من القيادة الشابة لبني جُمح، وهذان هما البطنان الرئيسان في حلف الأحلاف، وسنرى بعد قليل كيف أن صفوان بن أمية سيبدأ بالتشكيك في قدرات أبي سفيان القيادية، لينشأ بعد الخندق صراع على السلطة، وسيكون له أكبر الأثر في انهيارها أمام القيادة النبوية.

على كل حال، فإن اعتماد أموال القافلة كرأسمال لتجهيز جيش قريش القادم وضع أبا سفيان تلقائياً في مركز القيادة، ولذلك أبدى هو شخصياً حماسة

---

(١) ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، مصدر سابق.

لهذه الفكرة: «وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ: لَمَّا رَجَعَ مَنْ حَضَرَ بَدْراً مِنَ الْمُشْرِكِينَ إلى مَكَّةَ وَجَدُوا الْعِيرَ الَّتِي قَدِمَ بِهَا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ مَوْقُوفَةً فِي دَارِ النَّدْوَةِ، فَمَشَتْ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ إلى أبي سفيان فقالوا: نحن طيبو أَنْفُسٍ أَنْ تُجَهِّزُوا بِرِبْحِ هَذِهِ الْعِيرِ جَيْشاً إلى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ أَجَابَ إلى ذَاكَ، وَبَنُو عَبْدِ مَنَاف معي، فَبَاعُوهَا، فَصَارَتْ ذَهَباً، وَكَانَتْ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَالْمَالُ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَلَّمَ إلى أَهْلِ الْعِيرِ رؤوس أَمْوَالِهِمْ، وَأَخْرَجُوا أَرْبَاحَهُمْ، وَكَانُوا يَرْبَحُونَ فِي تِجَارَاتِهِمْ لكل دينار ديناراً»(٢).

مؤكد أن مهمة قيادة مجتمع مكلوم تضطرم فيه مشاعر الحنق والغضب ونداءات الثأر لم تكن أمراً هيناً. وما زاد الأمر سوءاً أنّ منزلة قريش بين العرب كانت قد تراجعت، فأن يتعرّض جيشها إلى هزيمة نكراء على أيدي جيش يقل عدده عن ثلث جيشها، فتلك مهانة كبيرة لقريش أمام قبائل العرب. وفي مجتمع كان يُقدِّر الشجاعة ويقدس القوة، تعرضت صورة قريش لأسوأ هزة في تاريخها؛ قُتل سادتها، وفرّ مقاتلوها، وتزعزعت أركان هيبتها، وارتبكت تجارتها. فكان على أبي سفيان أن يقوم بخطوات عاجلة تخفف وقع الهزيمة، فاتخذ ثلاثة إجراءات تخدم مكانته القيادية الجديدة: **الأول** دعائي معنوي، قوامه التصبر وعدم إظهار الجزع وإشاعة روح التحدي، إذ «أقسم على ألا يَمَسّ رأسَه الماء حتى يغزو محمداً في المدينة»(٣).

والإجراء **الثاني** الظهور بمظهر الحزم، فقرر معاقبة بني زهرة على انسحابهم من جيش بدر؛ فقد أعاد أبو سفيان للناس رؤوس أموالهم من القافلة كما وقع الاتفاق بين سادة قريش، إلا أنه أوقف إعطاء بني زهرة نصيبهم ذلك على الرغم من أن أبا سفيان كان هو صاحب الرأي في رجوع قريش، لكنه بتأخير منح بني زهرة رؤوس أموالهم من القافلة أراد أن يقول إنه ملتزم بالإجماع القرشي حتى لو خالف رأيه، وكان كثيراً ما يقول: «لَسْتُ أُخَالِفُ قُرَيْشاً، أَنَا رَجُلٌ مِنْهَا، مَا فَعَلَتْ فَعَلْت»(٤).

أما **الثالث**، فتمثّل في فعلٍ عسكريٍّ سريع يمنحه ما كان في مسيس

---

(٢) المصدر السابق.

(٣) **مغازي الواقدي**، ج ١، ص١٨١.

(٤) المصدر السابق.

الحاجة إليه؛ أي صورة القائد العسكري الحازم، فكانت غزوة السويق. ونورد هنا ما ذكره كلٌّ من ابن هشام والواقدي، واللفظ للواقدي، لكي نلقي الضوء على هذه المهمة العسكرية الأولى لأبي سفيان:

يقول الواقدي: «لَمّا رَجَعَ الْمُشْرِكُونَ إلى مَكّةَ مِنْ بَدْرٍ حَرّمَ أَبُو سُفْيَانَ الدّهْنَ حَتّى يَثْأَرَ مِنْ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ بِمَنْ أُصِيبَ مِنْ قَوْمِهِ، فَخَرَجَ فِي مِائَتَيْ رَاكِبٍ - فِي حَدِيثِ الزّهْرِيّ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ كَعْبٍ فِي أَرْبَعِينَ رَاكِباً - حَتّى سَلَكُوا النّجْدِيّةَ (الطريق الصحراوي)، فَجَاءُوا بَنِي النّضير لَيْلاً، فَطَرَقُوا حُيَيّ بْنَ أَخْطَبَ لِيَسْتَخْبِرُوهُ مِنْ أَخْبَارِ النّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ، وَطَرَقُوا سَلّامَ بْنَ مِشْكَمٍ فَفَتَحَ لَهُمْ فَقَرَاهُمْ، وَسَقَى أَبَا سُفْيَانَ خَمْراً، وَأَخْبَرَهُ مِنْ أَخْبَارِ النّبِيّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ. فَلَمّا كَانَ بِالسّحَرِ خَرَجَ فَمَرّ بِالْعُرَيْضِ، فَوجد رَجُلاً مِن الْأَنْصَارِ مَعَ أَجِيرٍ لَهُ فِي حَرْثِهِ فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَجِيرَهُ، وَحَرّقَ بَيْتَيْنِ بِالْعُرَيْضِ وَحَرّق حَرْثاً لَهُمْ، وَرَأَى أَنّ يَمِينَهُ قَدْ حُلّتْ، ثُمّ ذَهَبَ هَارِباً، وَخَافَ الطّلَبَ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَنَدَبَ أَصْحَابَهُ فَخَرَجُوا فِي أَثَرِهِ، وَجَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ يَتَخَفّفُونَ فَيُلْقُونَ جُرُبَ السّوِيقِ - وَهِيَ عَامّةُ زَادِهِمْ - فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَمُرّونَ بِهَا فَيَأْخُذُونَهَا، فَسُمّيَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزْوَةَ السّوِيقِ لِهَذَا الشّأْنِ، حَتّى انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى الْمَدِينَةِ»(٥).

إن حملةً عسكرية من مئتي رجل (أو أربعين) لم يكن من أهدافها استئصال المسلمين ولا كسر شوكتهم، فهذا يحتاج إلى جهدٍ عسكريٍّ أوسع؛ بل كان الهدف ترسيخ فكرة الجدية في الثأر وتعزيز قيادة أبي سفيان لقريش في تحقيق هذا الثأر، فأبو سفيان رجل الأعمال شاءت له الأقدار أن يحتل مرتبة القيادة الأولى في أجواء متوترة، فكان العمل العسكري الخاطف مناسباً لإعطاء صورة جديدة للقائد الجديد؛ صورة الحزم والقوة والمضاء في مقابل ليونة التاجر، وما في التاجر من ميل للاستقرار وإيثار للتفاوض والبعد عن الفعل العسكري.

وبالنظر إلى النتائج البائسة لهذه الحملة، أو (العدوان) كما وصفها ابن هشام، فمن المؤكد أن كثيرين من أهل مكة، لا سيما الشباب منهم، لم يجدوا فيها ما يبشر بقيادة عسكرية حاسمة، بل على العكس من ذلك، فإن السرية لم

---

(٥) المصدر السابق.

تفعل سوى أن قامت بأعمال هامشية عشوائية، فقتلت رجلين من الأنصار وحرقت بيتين وبعض الزروع، وهي أفعال تخريب لا تصل في أي حال إلى درجة الفعل العسكري الحاسم، الذي يمكن لأبي سفيان أن يُفاخر به. وسنرى لاحقاً كيف أن صفوان بن أمية سيقود جبهة مناوئة لأبي سفيان، وسوف يستحضر غزوة السويق هذه دليلاً على عدم كفاءة أبي سفيان القيادية.

قد لا تكون المغامرة العسكرية لأبي سفيان ناجحة عسكرياً، إلا أنه ينبغي لنا أن نقرأ التواصل مع اليهود على أنه مؤشر مهم لفهم التوجهات الاستراتيجية لأبي سفيان؛ فأبو سفيان تاجر، مهارته في بناء التحالفات أوسع من مهارته في قيادة الجيوش، وتوجهه صوب بني النضير ولقاؤه سلام بن مشكم (كان سيد بني النضير وصاحب كنزهم، أي إنه كان رجلاً ثرياً وغالباً ما كانت تربطه بأبي سفيان علاقات ومصالح تجارية) دليل على أنه مدرك لأهمية اليهود في معركته مع المسلمين، للحصول على المعلومات أولاً، ولاستكشاف آفاق التعاون ثانياً، ولزعزعة التحالف الذي أسسه الرسول مع اليهود في صحيفة المدينة ثالثاً. ومع أن محاولة أبي سفيان فشلت هذه المرة بسبب خوف بني النضير من المصير الذي وقع لبني قينقاع قبل شهرين من هذه الزيارة، فلا شك أن توجه أبي سفيان الاستراتيجي صوب اليهود سيثمر فيما بعد عن تحالفٍ في الخندق.

صفوان يناور

طوال السنوات القادمة، سوف نلحظ نفوذاً متزايداً لصفوان بن أمية، وسيزداد نفوذه كلّما وقع أبو سفيان في خطأ أو تقصير، وسوف يتصاعد الخلاف بين الرجلين وصولاً إلى انقلاب على زعامة أبي سفيان بعد الخندق وتسلُّم صفوان ومعه عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو زعامة قريش، وثلاثتهم من الشباب المتحمسين.

أول ما ظهر من بروز أمر صفوان ما كان من محاولته الفاشلة لحل مشكلة الحصار الاقتصادي على مكة، ذلك أنها مشكلة مُلحّة تطال جميع سكان مكة، وإذا تمكَّن صفوان من حلها فسيكون له نفوذٌ واسع في قريش.

الطرق التجارية المعهودة من مكة إلى الشام لم تعد آمنة، وكانت معظم تجارة قريش إلى غزة تحديداً، لا يعدونها إلى غيرها[٦]. والطرق إلى الشام

(٦) **مغازي الواقدي**، ج١، ص٢٠٠.

ثلاثة(٧): الأول الطريق التهامي المحاذي لساحل البحر، وهذا الطريق منقطع بسبب تحالف قبائل الساحل مع النبي؛ والثاني العابر من مكة إلى المدينة شمالاً إلى خيبر؛ والثالث الطريق التبوكي، من مكة إلى المدينة ثم تبوك، وهذان الطريقان منقطعان لعبورهما في المدينة؛ ومن ثمّ لم يبقَ إلا أن يسلك المشركون طريقاً غير مألوف، ومن هنا جاءت فكرة صفوان في أن يسلكوا الطريق التبوكي على أن ينحرفوا شرقاً عن المدينة قبل الوصول إليها ليعبروا الطريق النجدي، الذي يمر في فيافي نجد وصحاريها، وهذا لم يكن مألوفاً لهم ويحتاج إلى دليل خاص.

هذه المحاولة جاءت بعد أن أصاب قريشاً الضرر الشديد بسبب انقطاع تجارتها. ولكي نفهم أجواء قريش في هذه المرحلة ننقل رواية الواقدي لما سيُعرف عما قريب بسرية القَرَدَة، فيقول: «حَدّثَنِي مُحَمّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَهْلِهِ، قَالُوا: كَانَتْ قُرَيْشٌ قَدْ حَذِرَتْ طَرِيقَ الشّامِ أَنْ يَسْلُكُوهَا، وَخَافُوا من رسول الله ﷺ وَأَصْحَابِهِ، وَكَانُوا قَوْماً تُجّاراً، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ: إنّ مُحَمّداً وَأَصْحَابَهُ قَدْ عَوّرُوا عَلَيْنَا مَتْجَرَنَا، فَمَا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ بِأَصْحَابِهِ، لَا يَبْرَحُونَ السّاحِلَ، وَأَهْلُ السّاحِلِ قَدْ وَادَعَهُمْ وَدَخَلَ عَامّتُهُمْ مَعَهُ، فَمَا نَدْرِي أَيْنَ نَسْلُك، وَإِنْ أَقَمْنَا نَأْكُلُ رُءُوسَ أَمْوَالِنَا وَنَحْنُ فِي دَارِنَا هَذِهِ، مَا لَنَا بِهَا نِفَاقٌ، إنّمَا نَزَلْنَاهَا عَلَى التّجَارَةِ، إلى الشّامِ فِي الصّيْفِ وَفِي الشّتَاءِ إلى أَرْضِ الْحَبَشَةِ. قَالَ لَهُ الْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطّلِبِ: فَنَكّبْ (انحرف) عَنِ السّاحِلِ، وَخُذْ طَرِيقَ الْعِرَاقِ. قَالَ صَفْوَانُ: لَسْت بِهَا عَارِفاً. قَالَ أَبُو زَمْعَةَ: فَأَنَا أَدُلّك عَلَى أَخْبَرِ دَلِيلٍ بِهَا يَسْلُكُهَا وَهُوَ مُغْمَضُ الْعَينِ إنْ شَاءَ اللهُ. قال: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: فُرَاتُ بْنُ حَيّانَ الْعِجْلِيّ، قَدْ دَوّخَهَا وَسَلَكَهَا. قَالَ صَفْوَانُ: فَذَلِكَ وَاللهِ! فَأَرْسَلَ إلى فُرَاتٍ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ: إنّي أُرِيدُ الشّامَ وَقَدْ عَوّرَ عَلَيْنَا مُحَمّدٌ مَتْجَرَنَا لأَنّ طَرِيقَ عِيرَانِنَا عَلَيْهِ، فَأَرَدْتُ طَرِيقَ الْعِرَاقِ. قَالَ فُرَاتٌ: فَأَنَا أَسْلُكُ بِك فِي طَرِيقِ الْعِرَاقِ، ليس يطأها أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمّدٍ ـ إنّمَا هِيَ أَرْضُ نَجْدٍ وَفَيَافٍ. قَالَ صَفْوَانُ: فَهَذِهِ حَاجَتِي، أَمّا الْفَيَافِي فَنَحْنُ شَاتُونَ وَحَاجَتُنَا إلى الْمَاءِ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

---

(٧) سامي المغلوث، **الأطلس التاريخي لسيرة الرسول**، ط٣ (الرياض؛ السعودية: دار العبيكان، ٢٠٠٤)، ص١٢٦.

فَتَجَهَّزَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَبُو زَمْعَةَ بِثَلَاثِمِئَةِ مِثْقَالِ ذَهَبٍ وَنُقَرِ فِضَّةٍ، وَبَعَثَ مَعَهُ رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ بِبَضَائِعَ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ. وَخَرَجَ صَفْوَانُ بِمَالٍ كَثِيرٍ ـ نُقَرِ فِضَّةٍ وَآنِيَةِ فِضَّةٍ وَزْنِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَخَرَجُوا عَلَى ذَاتِ عِرْقٍ»[٨].

هذا النص واضح في تقدير الموقف الذي قدمه صفوان بن أمية حول الواقع الاستراتيجي بعد بدر، فتجارة قريش قد أصيبت بالشلل، والسبب أن معظم أهل الساحل قد دخلوا في حلف محمد، ولعيون المسلمين وجود دائم على الطريق الساحلية: «فَمَا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ بِأَصْحَابِهِ، لَا يَبْرَحُونَ السّاحِلَ، وَأَهْلُ السّاحِلِ قَدْ وَادَعَهُمْ وَدَخَلَ عَامّتُهُمْ مَعَهُ، فَمَا نَدْرِي أَيْنَ نَسْلُك»، وأن قريشاً كانت قد اعتادت سلوك هذا الطريق تحديداً ولم يكن الطريق النجدي مألوفاً إلا لعددٍ قليلٍ منهم، وكان تقدير صفوان صحيحاً في أن قريشاً إن مكثت على هذه الحال من دون تجارة فسوف تستهلك رؤوس أموالها وتبدأ بالانهيار اقتصادياً، وستفقد مكانتها، وسينصرف من بقي من العرب إلى حلف المدينة، فلا بد من حلٍّ يتفادى به القرشيون طريق الساحل، ومن هنا جاءت فكرة إحياء الطريق النجدي، الذي يعبر الصحراء من مكة باتجاه الشمال الشرقي متجاوزاً المدينة عابراً فيافي نجد، معتبرين ـ وهذا خطأ في التقدير ـ أنّ نجداً بعيدة كل البعد عن عيون النبي، ولم يعلموا أنه كان في هذه الأثناء يجوب تلك النواحي من خلال بعثاته العسكرية الثلاث، وأن هذه القبائل هي الأخرى في حالة خوف وفزع، وأنّ عيونه منتشرة ترصد تحركات الأعراب وتجمعاتهم، ومعها الطرق والشعاب.

إذاً فلم يكن لقريش أي خيار سوى إحياء الطريق النجدي، فانطلقت قافلةٌ فيها كمية كبيرة من الفضة لصفوان، وبضاعة لتجار آخرين.

علم النبي بمسير القافلة، فأمر زيد بن حارثة بقيادة مجموعة من مئة مقاتل، فهاجمتها عند منطقة تسمى القَرَدَة، في الشمال الشرقي من المدينة، بعد ستة أشهر من بدر، فهرب من فيها وغنم المسلمون القافلة، وعندما قُسِّمت غنائمها كان الخُمس عشرين ألف درهم، أي إن مجموع قيمة القافلة مئة ألف

(٨) مغازي الواقدي.

درهم. لقد ذهبت أموال قريش ومعها أملهم الأخير في أن يكسروا الحصار الذي فرضه المسلمون على تجارتهم، لذلك كان على قريش أن تقوم بعملٍ ما حيال المدينة، ثأراً لهزيمة بدر، ومحاولة لفك الحصار عن تجارتها، فبدأت تستعد لأُحُد.

الفصل الحادي عشر

أُحد: دروس في إدارة الأزمات

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

كانت استعدادات قريش لمعركة أُحد أفضل بكثير من استعداداتها لبدر، فقد تعلمت مجموعة دروس، أهمها أنها لم تقاتل وحيدة، بل سعت إلى حلفٍ أشمل يضم الأحابيش وبطون القبيلة الأم؛ كنانة، وكذلك قبيلة ثقيف، فبدأت تتواصل مع محيطها الموالي لها في تهامة، ومن أجل ذلك أرسلت شعراء ورسلاً يجوبون تهامة، ويحرّضون على الانضمام إلى المجهود العسكري القادم. وممن أرسلتهم من الشعراء أبو عزة عمرو بن عبد الله، ومسافع بن عبد مناف، وكلاهما من جُمَح، وعمرو بن العاص، وهبيرة بن أبي وهب، ويبدو أن نجاحاً جزئياً قد تحقق على يد هؤلاء، فقد استمرت جهود التعبئة حتى «خرجت قريش بحدها وجدها وحديدها وأحابيشها ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة»[1]، حتى وصل مجموع الجيش ثلاثة آلاف، منهم مئة من ثقيف، ومعهم سلاحٌ كثير ومئتا فرس وثلاثة آلاف بعير. وإمعاناً في التعبئة المعنوية أخرجوا معهم النساء، تشجيعاً وتثبيتاً لهم على القتال، وكان ممن خرجن زوجة أبي سفيان هند بنت عتبة، طلباً للثأر من مقتل أبيها وعمها وأخيها، وغايتها قتل المحارب الأبرز صاحب الرمزية الفائقة والمكانة العليا في جيش المسلمين وفي نفس رسول الله؛ عم النبي حمزة بن عبد المطلب. ولم يكن رأس حمزة مطلوباً من هند فحسب، بل إنّ جبير بن مطعم كان هو الآخر يطلب ثأره من حمزة الذي قتل أخاه طعيمة بن عدي، لذلك وعد غلاماً حبشياً له اسمه حبشي بالعتق من العبودية إن هو قتل حمزة.

(١) ابن هشام، ج ٢، ص٦١.

يذكر الواقدي أنّ الخبر وصل إلى النبي في رسالة أرسلها العباس بن عبد المطلب سراً، وكان حامل الرسالة رجلاً من غفار، ونعلم أن غفاراً كانت متعاطفة مع المسلمين، لا سيما أن جهود أبي ذر الغفاري في نشر الإسلام كانت قد بدأت منذ سنوات، كما أن وفداً لخزاعة بقيادة عمرو بن سالم الخزاعي كان في طريقه إلى المدينة، وخزاعة حليف للنبي، فمر بجيش قريش على مسير أربعة أيام من مكة، فأخبر النبي بذلك. وسواء أكان العباس هو من أخبر النبي بمسير قريش، أم أن النبي علم من وفد خزاعة أو من خلال العيون والأعراب المتنقلين في البوادي، فإن النبي لم يفاجأ بخروج قريش، إذ لم يكن سراً أن مكة تستعد منذ عدة شهور للحرب، لكن بما أن الجيش قد سار بالفعل، فقد سارع النبي إلى ما يفعله دائماً في هذه المناسبات، أي التشاور مع أصحابه.

انعقد اللقاء التشاوري مع عامة المسلمين في المسجد، وتمحور الجدل حول استراتيجية مواجهة العدو، فالمسلمون يعلمون أن الجيش سيكون هذه المرة أكثر عدداً وأحكم تنظيماً من جيش المشركين ببدر، وكانوا يعلمون أيضاً أن وازع الثأر سيجعل من المشركين أشد لحمة وأكثر حماساً في قتالهم، ولذلك طُرح في اللقاء خياران: **الأول** أن يقيم المسلمون في المدينة ويتحصنوا فيها، فالمدينة جغرافياً محاطة بساتر طبيعي يحميها من جهتين، وهو ما يعرف بالحرّة، وهي أرض بركانية شديدة الوعورة يتعذّر على الجيوش التحرُّك خلالها، كما أن بني قريظة لديهم حصون متشابكة من الجهة الثالثة، ولا يتبقى سوى جانب واحد للمدينة يمكن للعدو أن يقتحمها من خلاله. وتقضي استراتيجية التحصُّن بالمدينة اتخاذ تدابير دفاعية في أحيائها، فيصعب على المهاجمين اقتحامها، لأن حملة النَّبْل وكل سكان المدينة يمكنهم استهداف العدو من أسطح المنازل، فتكون تكلفة الاقتحام باهظة على المهاجمين. أما الخِيار **الثاني** فيتلخص في الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة، وذلك لسببين رئيسين: الأول معنوي، فلو تحصن المسلمون في المدينة ولم يخرجوا لظنت قريش ومعها قبائل نجد أنهم قد جبنوا وضعفوا، وهو ما سيُغري العدو بهم، ويجعلهم عرضة لهجمات مستقبلية؛ والسبب الثاني أن كثيرين ممن لم يتمكنوا من المشاركة في بدر رأوا أن هذه هي الفرصة المناسبة لتعويض ما فاتهم من خير.

كان رأي النبي أن يقيم المسلمون في المدينة، ويضطر المشركون للإقامة خارجها، فإن اقتحموها قاتلهم المسلمون من فوق المباني والبيوت، ومن ثمّ يصعب عليهم اقتحامها، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول من رأي النبي في عدم الخروج من المدينة؛ أما رأي شباب الصحابة، وثلة ممن لم يشهدوا بدراً، فكان أن يخرج المسلمون لقتال المشركين خارج المدينة، لكي تتاح لهم فرصة القتال كما أتيحت لغيرهم في بدر؛ وأما بعض كبار الصحابة مثل حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عبادة فرأوا الخروج أيضاً على اعتبار أن الإقامة في المدينة سترسل رسالة ضعف، مما سيمنح العدو جرأة على المسلمين، وهو رأيٌ أصر عبد الله بن أبي ابن سلول على رفضه، وكان مما قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، كُنّا نقاتل في الجاهليّة فيها، ونجعل النّسَاءَ وَالذّرَارِيّ فِي هَذِهِ الصّيَاصِي[٢]، وَنَجْعَلُ مَعَهُم الْحِجَارَةَ، وَاللهِ، لَرُبّمَا مَكَثَ الْوِلْدَانُ شَهْراً يَنْقُلُونَ الْحِجَارَةَ إعْدَاداً لِعَدُوّنَا، وَنَشْبِكُ الْمَدِينَةَ بِالْبُنْيَانِ فَتَكُونُ كَالْحِصْنِ مِنْ كُلّ نَاحِيَةٍ، وَتَرْمِي الْمَرْأَةُ وَالصّبِيّ مِنْ فَوْقِ الصّيَاصِي وَالْآطَام[٣]، وَنُقَاتِلُ بِأَسْيَافِنَا فِي السّكَكِ. يَا رَسُولَ اللهِ، إنّ مَدِينَتَنَا عَذْرَاءُ، مَا فُضّتْ عَلَيْنَا قَطّ، وَمَا خَرَجْنَا إلى عَدُوّ قَطّ إلّا أَصَابَ مِنّا، وَمَا دَخَلَ عَلَيْنَا قَطّ إلّا أَصَبْنَاهُ، فَدَعْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنّهُمْ إنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مَحْبِسٍ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ مَغْلُوبِينَ، لَمْ يَنَالُوا خَيْراً. يَا رَسُولَ اللهِ، أَطِعْنِي فِي هَذَا الْأَمْرِ وَاعْلَمْ أَنّي وَرِثْت هَذَا الرّأْيَ مِنْ أَكَابِرِ قَوْمِي وَأَهْلِ الرّأْيِ مِنْهُمْ، فَهُمْ كَانُوا أَهْلَ الْحَرْبِ وَالتّجْرِبَةِ»[٤].

واحتدم النقاش في المجلس وتعالت حجج الشباب، واشتد إلحاحهم. وقد ذكر الواقدي روايات طويلة عمّا وقع في هذا اللقاء، واستعرض أقوال عدد كبير من الصحابة، منها قول لخيثمة أبي سعد بن خيثمة يستعرض فيه مجمل حجج المطالبين بالخروج، ويمزج ذلك بخطاب عاطفي، يتوسل فيه ملاقاة العدو والشهادة في سبيل الله فيقول: «يَا رَسُولَ اللهِ، إنّ قُرَيْشاً مَكَثَتْ حَوْلاً تَجْمَعُ الْجُمُوعَ وَتَسْتَجْلِبُ الْعَرَبَ فِي بَوَادِيهَا وَمَنْ تبعَهَا مِنْ أَحَابِيشِهَا، ثُمّ جَاءُونَا قَدْ قَادُوا الْخَيْلَ وَامْتَطَوْا الْإِبِلَ حَتّى نَزَلُوا بِسَاحَتِنَا فَيَحْصُرُونَنَا فِي بُيُوتِنَا

(٢) الحصون.
(٣) الحصن أو البيت المرتفع.
(٤) **الواقدي**.

وَصَيَاصِينَا، ثُمّ يَرْجِعُونَ وَافِرِينَ لَمْ يُكْلَمُوا، فَيُجَرّئُهُمْ ذَلِكَ عَلَيْنَا حَتّى يَشُنّوا الْغَارَاتِ عَلَيْنَا، وَيُصِيبُوا أَطْرَافَنَا، وَيَضَعُوا الْعُيُونَ وَالْأَرْصَادَ عَلَيْنَا، مَعَ مَا قَدْ صَنَعُوا بِحُرُوثِنَا، وَيَجْتَرِئُ عَلَيْنَا الْعَرَبُ حَوْلَنَا حَتّى يَطْمَعُوا فِينَا إذَا رَأَوْنَا لَمْ نَخْرُجْ إلَيْهِمْ، فَنَذُبّهُمْ عَنْ جِوَارِنَا وَعَسَى اللهُ أَنْ يُظَفّرَنَا بِهِمْ فَتِلْكَ عَادَةُ اللهِ عِنْدَنَا، أَوْ تَكُونَ الْأُخْرَى فَهِيَ الشّهَادَةُ. لَقَدْ أَخْطَأَتْنِي وَقْعَةُ بَدْرٍ وَقَدْ كُنْت عَلَيْهَا حَرِيصاً، لَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِي أَنْ سَاهَمْت بِابْنِي فِي الْخُرُوجِ فَخَرَجَ سَهْمُهُ فَرُزِقَ الشّهَادَةَ، وَقَدْ كُنْت حَرِيصاً عَلَى الشّهَادَةِ. وَقَدْ رَأَيْت ابْنِي الْبَارِحَةَ فِي النّوْمِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، يَسْرَحُ فِي ثِمَارِ الْجَنّةِ وَأَنْهَارِهَا وَهُوَ يَقُولُ: الْحَقْ بِنَا تُرَافِقْنَا في الجنّة، فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبّي حَقّاً! وَقَدْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ أَصْبَحْت مُشْتَاقاً إلى مُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنّةِ، وَقَدْ كَبِرَتْ سِنّي، وَرَقّ عَظْمِي، وَأَحْبَبْتُ لِقَاءَ رَبّي، فَادْعُ اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَرْزُقَنِي الشّهَادَةَ وَمُرَافَقَةَ سَعْدٍ فِي الْجَنّةِ». وقد رُزق الشهادة بالفعل في أُحد.

ويبدو من الروايات أن رأي الخروج كان هو رأي الأغلبية الشابة ذات الحماسة، فأخذ الرسول برأيهم، مع أنه شخصياً لم يكن مع هذا الرأي، لا سيما أنه كان قد رأى في المنام أنه يُدخل يده في درع حصينة، فأوّلَها المدينة، لكنه التزم بنتيجة الشورى، حتى بعد أن ندم بعضهم على الإصرار على الخروج، وعادوا إليه يجعلون الأمر بين يديه، إن شاء خرج وإن شاء أقام، لكنه كان قد عزم أمره، ولبس ملابس الحرب، وبشّرهم بالنصر إن هم صبروا، وهذه من سمات القيادة النبوية، أنه إن عزم فإنه يتوكل على الله ويتجه لتنفيذ القرار بكل ثقة وعزيمة ومن دون تردد.

الحوار الذي تم في المدينة حول الإقامة أو الخروج كان حاضراً كذلك في خطط قيادة جيش المشركين، فقد أشار أبو سفيان إلى أن المسلمين سوف يتحصّنون بصياصيهم، أي في قلاعهم وبيوتهم المبنية من الحجر، وعندها سيكون عسيراً اقتحام المدينة، ويخشى إن هم أقاموا أن يواجه المشركون معضلة كبيرة في كيفية محاربة المسلمين، فرد صفوان بن أمية بأن الخيار المناسب في هذه الحالة سيكون تخريب اقتصاد المدينة من خلال قطع نخيلهم وحرقه، أما إذا خرجوا من المدينة فإن جيش قريش أكبر عدداً وأفضل عدة وله ثأر دافع للقتال.

أرسل النبي عيوناً لتقصّي مسار جيش قريش، وكان ممن أرسل الحُباب بن المنذر، وهو الصحابيّ الذي كان قد أشار على النبي ببدر بضم الآبار لمعسكر المسلمين، فطلب منه النبي أن يستطلع قوة الجيش وأحواله بتكتّم شديد، وأن يعود إليه، فإن كان عدد الجيش قليلاً تحدث معه علانية ليسمع الناس، وإن كان الجيش كبيراً تحدث إليه سراً حتى لا يضطرب المسلمون، فلما عاد الحباب انتحى بالنبي وأخبره بأن عدد الجيش قريب من ثلاثة آلاف، وأن معهم مئتي فرس وسبعمئة درع، فسأله النبي ما إذا كان هناك نساء في المعسكر، فأكد الحباب الخبر، فقال النبي إنهنّ خرجن لتحريض المقاتلين، لأن هذه المعلومة كانت قد وصلته مسبقاً، فأحب أن يتأكد منها، وطلب من الحباب ألا يذكر من شأنهم حرفاً، ثم قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل، اللّهُمَّ بك أجول وبك أصول»[٥].

استنفر النبي المسلمين للقتال ونودي بالتعبئة العامة، ولبس لباسه الحربي، وكان درعاً ومغفراً وبيضة ولأمة[٦]، وهي جميعاً مما يرتديه المقاتل فتغطي رأسه وجانباً من وجهه ورقبته وصدره وذراعيه، وسار بالمسلمين إلى منطقة تُسمى الشيخين خارج المدينة فعسكر فيها، وهناك استعرض المقاتلين، وأجاز الشباب منهم وردَّ من ظنَّ أنه صغير السن أو غير جاهز للقتال، ووزّع المهام القتالية بين كتائب الجيش، ووضع على كل كتيبة أميراً، وبات فيها تلك الليلة، ثم سار صبيحة اليوم التالي إلى أحد، ومعه قرابة ألفٍ من المسلمين، إلا أنّ عبد الله بن أبي ابن سلول انسحب بثلث الجيش عائداً إلى المدينة، وكان غاضباً من أنَّ الرسول لم يأخذ برأيه في المكوث بالمدينة، وكان يقول: أطاع الغلمان وعصاني. وبانسحاب ابن سلول يكون عدد من بقي مع النبي قرابة سبعمئة فقط. لكن المسلمين تجاهلوا انسحاب ابن سلول، ولعلّ في ذلك خيراً، إذ إنّ انسحابهم قبل المعركة أفضل من إرباكهم للمعسكر لو أنهم شاركوا ثم انهزموا.

رتّب النبي الصفوف للقتال وفقاً للتقسيم المعتاد من ميمنة وميسرة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وهو من بني عبد الدار، حَمَلَة لواء قريش التقليديين، ومهمة حامل اللواء رمزية، تقضي أن يبقي اللواء مرفوعاً لحث الجند على القتال.

---

(٥) المصدر السابق.

(٦) اللأمة هي: أداة الحرب، من رمحٍ وسيفٍ ودرعٍ وخوذة.

وقد كان لواء قريش هو الآخر بيد بني عبد الدار، وقد حاول أبو سفيان تحريضهم على القتال بأن اقترح أن يأخذه منهم خوفاً من أن يسقط في المعركة، فأبوا بشدة، وتعالت أصواتهم للدفاع عن اللواء وحمايته، وذلك ما أراد أبو سفيان بالفعل.

جيش المشركين كان أكثر تنظيماً مما كان عليه في بدر، هنا نجد أنّ الجيش له قائد واحد هو أبو سفيان، بينما كان جيش بدر من غير قيادة موحدة، واليوم ليس هناك اختلاف على الهدف، فجيش المشركين مدفوع بدافع الثأر لهزيمة بدر، فقريش اليوم على قلب رجل واحد. ومن حيث التنظيم نرى أن للجيش تشكيلات عسكرية، وقادة ميدانيين، وأهم كتائب الجيش كتيبة الفرسان، وعددهم مئتا فارس بقيادة خالد بن الوليد، والخيول أسلحة هجومية، تصلح للكر والفر والتدخل السريع، وسيكون لهذه الفرقة دور حاسم في المعركة، ولم يكن لدى المسلمين أي خيول تذكر.

عندما درس النبي ساحة المعركة اختار أن يجعل جبل أحد إلى ظهر المسلمين، وأن يعزز الجيش بدفاعات مناسبة، بأن طلب من خمسين من الرماة أن يعسكروا على جبل صغير مشرف على المعركة، وأن يدافعوا عنه ولا يغادروه مهما حدث، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا، فقد قدر النبي أن نقطة تميز جيش العدو هي في كتيبة الفرسان، وهذه يمكن احتواء خطرها بالنبل، أما إذا زال هذا الغطاء فإن ظهر المسلمين سينكشف، وسيطبق العدو عليهم من جهتين.

بداية المعركة كانت لمصلحة المسلمين، فقد استطاع هجوم المسلمين خلخلة صفوف المشركين وأوقع فيهم فوضى، ونجح الرماة في تحييد خيول المشركين وإبلهم، ذلك أن موقعهم المشرف على ميدان المعركة جعلها في مرمى سهامهم، مما أدى إلى اضطراب جيش المشركين، فبدؤوا ينهزمون من ساحة المعركة، واندفع المسلمون خلفهم.

الخلل في الصف

في هذه اللحظة تحديداً حدث خلل كبير كانت له عواقب وخيمة على جيش المسلمين؛ إذ رأى كثير من الرماة أن المعركة قد حُسِمت لمصلحة المسلمين فقرروا النزول إلى ميدان المعركة طمعاً في جمع الغنائم، وعلى الرغم

من إلحاح قائد السرية وتذكيرهم بتعليمات النبي، إلا أن معظمهم نزلوا من الجبل، عندها لاحظ خالد بن الوليد، وهو في جيش قريش، وكان يقظاً يراقب الميدان بعين الخبير، أن اللحظة المناسبة لدخول المعركة قد حانت، فقرر اقتحام جبل الرماة وقتل من تبقى منهم، وعددهم عشرة فقط، ثم هاجم المسلمين من الخلف.

هذه الحركة المفاجئة أوقعت اضطراباً وفزعاً شديداً في قلوب المسلمين، فولّى كثير منهم هاربين، واختلطت عليهم الأمور، وانهارت التشكيلات الميدانية، ولم يعد بالإمكان التحكُّم بجيش فقد بنيته تماماً: «وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ لِوَاءٌ قَائِمٌ، وَلَا فِئَةٌ، وَلَا جَمْعٌ، وَإِنّ كَتَائِبَ الْمُشْرِكِينَ لَتَحُوشُهُمْ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً فِي الْوَادِي، يَلْتَقُونَ وَيَفْتَرِقُونَ، مَا يَرَوْنَ أَحَداً مِن النّاسِ يَرُدّهُم»[7]. وبينما الأمر على ذلك من اضطراب، نادى منادٍ أن مُحمداً قد قُتل، فازدادت حالة الفوضى، ودخل على المسلمين غمٌّ شديد، وانهارت روحهم المعنوية، وتفرقوا في الشعاب، ومنهم من عاد إلى المدينة.

إشاعة مقتل النبي أدت إلى انتهاء المعركة عملياً؛ فمن ناحية انفض المسلمون، ومن ناحية أخرى انصب جهد أبي سفيان على التأكد من مقتل النبي بأن بدأ يجول بصحبة أبي عامر الفاسق لينظر أين هو محمد في القتلى. في هذه الأثناء انحاز النبي ومعه نفر قليل من الصحابة إلى جبل أُحد، فصعدوا في سفحه باتجاه شقٍّ فيه، لكي يبتعدوا عن هجمات المشركين ويتحصنوا بالجبل، عندها فقط بدأ بعض المسلمين يلتحق به. كانت المجموعة صغيرة، عددها أربعة عشر صحابياً، هي التي قاتلت دفاعاً عن النبي بعدما وقع وأصيب في وجهه وناصيته، فنجحت المجموعة في الصعود إلى الشق الذي بجبل أحد، وتحصنت فيه، ولم يستطع بعد ذلك أحد من المشركين اللحاق بهم، عندها نودي أن النبي لم يُقتل وبدأ أفراد من المسلمين بالالتحاق بالمجموعة حتى تجاوز عددهم الثلاثين.

المشهد الذي تلا تحصُّن النبي وامتناعه في الجبل سيختم أحداث اليوم الأول من المعركة، هذه المرة من خلال حوار مهم، جرى بين أبي سفيان وعمر بن الخطاب؛ فعندما لم يعثر أبو سفيان على دليل على ما زعمه رجل

---

(٧) الواقدي.

اسمه ابن قَمِئَة من أنه قتل محمداً، ونظر فرأى جماعة من المسلمين في الجبل، اقترب منهم بحيث يسمعونه ثم تحدّث معهم، والرواية بتمامها تقول لنا الكثير عن أبي سفيان وعن المعركة: «ثم إن أبا سفيان بن حرب، حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته فقال: أنعمتَ فعالاً، وإن الحرب سجال يوم بيوم، اعلُ هبل! فقال رسول الله ﷺ: قم يا عمر فأجبه، فقال: الله أعلى وأجلّ! لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار!

فلما أجاب عمر أبا سفيان، قال له أبو سفيان: هلم إليّ يا عمر؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه؛ فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللَّهُمَّ لا، وإنه ليسمع كلامك الآن؛ قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبرّ؛ لقول ابن قمئة لهم: إني قد قتلت محمداً... ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مُثل (تمثيل بالقتلى)، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت. ولما انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى: إن موعدكم بدراً للعام القابل؛ فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد»(٨).

هنا نلحظ أن أبا سفيان، الذي وصفه الإمام الذهبي في سفره العظيم **(سير أعلام النبلاء)** بأنه «كان من دهاة العرب ومن أهل الرأي والشرف فيهم»(٩)، كان متأنياً، تغلب رويَّتُه شجاعته، خلافاً للاندفاع والغرور الذي اتصف به أبو جهل وأورد قريشاً المهالك في بدر؛ إلا أنه سيدفع ثمناً غالياً جراء اقتراحه أن يواجه المسلمين العام القادم في بدر، ولذلك وافق النبي على العرض فوراً. ولعل أبا سفيان احتاج أن يقول ذلك لكي يقنع جيش المشركين بأنه سيحقق لهم نصراً ثانياً أكثر حسماً، فأبو سفيان يعلم أن نتائج معركة أُحد لن تغير موازين القوة، فما دام النبي حياً يرزق، وما دامت المدينة بيده، فما وقع في أُحد ليس سوى انتكاسة عابرة.

ولكن لماذا لم يهاجم أبو سفيان المدينة بينما كان جيش المسلمين قد تفرّق؟ وما الذي دفعه للقبول بانتصار جزئي يعود من بعده إلى مكة؟

تشير كتب السيرة إلى أنّ احتمالية اقتحام المدينة من قِبل المشركين كان

---

(٨) ابن هشام.

(٩) الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (القاهرة؛ مصر: دار الحديث، ط١، ٢٠٠٦)، ج ٣، ص٤٠٦.

حاضراً في أذهان المسلمين، ولذلك أمر النبي أن يتم التوثق من الجهة التي سيسلكها جيش قريش، فإن هي قررت اقتحام المدينة فسوف يقاتلها، وإن هي قررت الانسحاب إلى مكة فذلك خير: «انصرف أبو سفيان إلى أَصْحَابِهِ وَأَخَذُوا فِي الرّحِيلِ، فَأَشْفَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ، فَاشْتَدّتْ شَفَقَتُهُمْ مِنْ أَنْ يُغِيرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَتَهْلِك الذّرَارِيّ وَالنّسَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لسعد بن أبي وقاص: ائْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ، إنْ رَكِبُوا الْإِبِلَ وَجَنّبُوا الْخَيْلَ فَهُوَ الظّعْنُ(١٠)، وَإِنْ رَكِبُوا الْخَيْلَ وَجَنّبُوا الْإِبِلَ فَهِيَ الْغَارَةُ عَلَى الْمَدِينَةِ؛ وَالّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ سَارُوا إلَيْهَا لَأَسِيرَن إلَيْهِمْ ثُمّ لَأُنَاجِزَنهُمْ. قَالَ سَعْدٌ: فَوَجّهْت أَسْعَى، وَأَرْصَدْتُ فِي نَفْسِي إنْ أَفْزَعَنِي شَيْءٌ رَجَعَتْ إلى النّبِيّ ﷺ، فَأَنَا أَسْعَى، فَبَدَأْت بِالسّعْيِ حِينَ ابْتَدَأْت، فَخَرَجْت فِي آثَارِهِمْ حَتّى إذَا كَانُوا بِالْعَقِيقِ، وَكُنْت حَيْثُ أَرَاهُمْ وَأَتَأَمّلُهُمْ، فَإِذَا هُمْ قَدْ رَكِبُوا الْإِبِلَ وَجَنّبُوا الْخَيْلَ، فَقُلْت: إنّهُ الظّعْنُ إلى بِلَادِهِمْ. فَوَقَفُوا وَقْفَةً بِالْعَقِيقِ وَتَشَاوَرُوا فِي دُخُولِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ: قَدْ أَصَبْتُم الْقَوْمَ، فَانْصَرِفُوا فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ كَالّونَ، وَلَكُم الظّفَرُ، فَإِنّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا يَغْشَاكُمْ، قَدْ وَلّيْتُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَاللهِ مَا تَبِعُوكُمْ وَالظّفَرُ لَهُم؛ فقال رسول الله ﷺ: «**نَهَاهُمْ صَفْوَان**»»(١١).

ولقد أصاب صفوان بالفعل، لأن قرار الانسحاب المبكر وعدم اقتحام المدينة وجيه من عدة جوانب؛ ذلك أن قريشاً تستطيع القول الآن إنها قد ربحت المعركة وقتلت من المسلمين ما يحقق ثأرها في بدر، ولو أنها بادرت إلى اقتحام المدينة لنقلت الصراع إلى مستوى آخر لا يمكن التنبؤ بنتائجه.

صحيح أن ابن سلول قد انسحب مع أنصاره وعاد إلى المدينة قبل المعركة، وأن اليهود لم يكونوا متحمسين للدفاع عن النبي وأصحابه، بل كانوا يتمنون هزيمتهم، ولكن ارتباطاتهم القبلية وعلاقاتهم ببقية مكونات المجتمع المدني كانت لا تزال قائمة، فبنو النضير وبنو قريظة حلفاء للأوس، كما أن بقية سكان يثرب من المنافقين والمشركين لن يوافقوا على احتلال مدينتهم، لما في ذلك من الإهانة البالغة، وخوفاً على الذراري والأعراض، كما أن صحيفة

(١٠) أي الرحيل إلى مكة.

(١١) **الواقدي**.

المدينة تُلزم اليهود وكل قبائل المدينة بالدفاع عنها إن هي هوجمت «وأن بينهم النصر على من دهم يثرب»، بينما لا تلزمهم بالقتال مع المسلمين خارج المدينة، لذلك لم يشتركوا في أُحد، ولكن لو أن قريشاً اجتاحت المدينة بعد أحد، لوضعت قبائل اليهود ومن انسحب من أتباع عبد الله بن أبي ابن سلول أمام واجب الدفاع عنها، وبالطبع فإنّ المسلمين ممن كانوا قد تفرقوا سوف يهبّون جميعاً للدفاع عن مدينتهم؛ هذا إضافة إلى أن القتال في تلك الحال سيكون في أحياء المدينة وعلى مداخلها، وسيكون مُكلفاً لقريش. لقد آثرت قريش الانسحاب مكتفية بما تحقق لها من انتصار.

انسحب جيش المشركين، ونزل المسلمون إلى مسرح المعركة، ليبدأ فصل جديد من الأسى؛ فُجِع المسلمون بالقتلى الذين بلغوا السبعين، وكانت الفجيعة أشد لما رأوا حجم التمثيل الذي تعرضت له أجساد الشهداء، فقد أطلقت قريش لوحشيتها العنان، فانطلقت تجدع أنوف القتلى وتقطع آذانهم وتبقر بطونهم، وكان أبشع ما وقعت عليه عيون المسلمين ما حل بجسد حمزة بن عبد المطلب، الذي كان قد قُتل بحربةٍ أطلقها وحشي طمعاً في العتق، لكن هند بنت عتبة أعملت خنجرها في جسد حمزة فبقرت بطنه واقتطعت شيئاً من كبده تلوكها تشفياً وغيظاً.

لقد كان حمزة هدفاً لكثيرين، إلا أن هنداً تجاوزت كل خُلُق وعرف وتقليد بفعلتها تلك، ومن اللافت للنظر أن زوجها، «أبو سفيان»، كان قبل قليل يخاطب المسلمين ويقول: «إنه قد كان في قتلاكم مُثل، والله ما رضيت، وما سخطت، وما نهيت، وما أمرت»، فهل كان يريد النأي بنفسه عن تلك الفعلة الشنيعة؟ فإن فعلة قريش تلك لا تتفق مع ما اعتاده العرب في حروبهم، ويمكن أن تعود عليهم مستقبلاً بالعواقب نفسها، لو قرر المسلمون وغيرهم أن يمثلوا بجثث قتلى قريش.

الخروج من ضيق اللحظة

وقعت أُحد في السابع من شوال في العام الثالث للهجرة، الموافق لآذار/ مارس من عام ٦٢٥م، ويكفي أن نطلع على مرويات أحداث ذلك اليوم في أي من كتب السيرة لنقف أمام تفاصيل كثيرة لا يتسع المجال لسردها، لكنها تصور يوم شدة وتمحيص، وترسم أحداث يوم حزن شديد، تعرّض فيه المسلمون

لأول اختبارٍ من نوعه، وسيكون له تداعيات مستقبلية. في هذه اللحظة كان لا بد للقائد أن يمارس القيادة بأروع تجلياتها، وأن يقوم بمبادرة لتجاوز هذه الحالة وتجنُّب الغرق في تفاصيلها. كان النبي كما عرفناه دوماً مبادراً لا يقبل أن يحدد العدو له مسار الأحداث. صحيح أنه بشر، يعتريه ما يعتري البشر من حزن وتعب، وكان يوم أُحد ثقيلاً عليه، فقد أصيب بسبعة جروح في وجهه ورأسه وركبتيه وكتفه، كما أنه حزن حزناً شديداً على مقتل عمه حمزة، لكنه قرر بعد ليلةٍ عسيرة قضاها في المدينة أن يخرج هو ويُخرج المدينة كلها من أجواء اليوم السابق، لكي يستأنف المعركة، وليكتب فصلها الأخير.

ففي فجر اليوم التالي نادى المنادون أن يستعد المسلمون للخروج، وأن لا يشترك في التعبئة إلا من كان قاتل بالأمس؛ وكثير من المقاتلين كانوا قد أصيبوا بجراحٍ في اليوم السابق، لكنّهم جميعاً لبوا النداء، وسار الجيش مرة أخرى خلف قائده متتبعاً قريشاً، ليحرمها الزهو والنصر المعنوي الذي كانت ستعود به إلى مكة.

قرار النبي ملاحقة المشركين كان استراتيجياً وضرورياً لسببين: **الأول** أن الخطر لا يزال قائماً في أن تعاود قريش الكرة على المدينة مستغلة ما أصاب المسلمين في أحد؛ و**الثاني** أنه لو بقي المشهد الختامي لأحد قاتماً، فسيكون تحولاً سلبياً مهماً في مكانة المسلمين، فانتهاء المشهد على هذا النحو سوف يُشمّت بهم خصومهم في المدينة، وسوف يُضعف مكانتهم بين قبائل الجزيرة، لذلك قرر النبي ملاحقة قريش ليرسم خاتمة جديدة للمشهد.

خرج النبي بالمسلمين إلى حمراء الأسد على بعد عشرين كيلومتراً جنوب المدينة وعسكر فيها، بينما كان المشركون غير بعيد، في منطقة تسمى الروحاء، وقد بدأ ينتشر بينهم رأي في معاودة الكرة على المسلمين، بعدما أدركوا أنهم، وإن قتلوا سبعين من المسلمين، لم ينتصروا انتصاراً فاصلاً، فلا يزال النبي وكبار صحابته أحياء، ولا تزال المدينة تحت سيطرتهم، وسيستمر الحصار الاقتصادي، ولذلك تشكل رأي عام بأن الفرصة لا تزال قائمة لعملية استئصالية أخرى.

وسيقوم رجل من خزاعة، هو معبد بن أبي معبد الخزاعي، بمهمة جليلة في تخذيلهم؛ وخزاعة نراها في كل أحداث السيرة ناصحة أمينة وحليفة مخلصة للنبي. لم يكن معبد مسلماً، ولكنه من خزاعة، لذلك لم يكن انتصار قريش

يروقه، وكان معبد في طريقه من المدينة إلى مكة، فمر بالنبي في حمراء الأسد، وتحدث إليه، فطلب منه النبي تخذيل قريش، بأن يُدخل في قلوبهم الفزع من جيش المسلمين، فلما أدرك قريشاً في الروحاء، سأله أبو سفيان عما وراءه، فقال معبد: «مُحَمَّدٌ قَدْ خَرَجَ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقاً، قَد اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، فِيهِمْ مِن الْحَنَقِ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: وَيْحكَ! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أَرَى أَنْ تَرْتَحِلَ حَتَّى أَرَى نَوَاصِيَ الْخَيل. قَالَ: فواللهِ لَقَدْ أَجْمَعْنَا الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ، لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ. قَالَ: فَإِنِّي أَنْهَاكَ عَنْ ذَلِكَ»(١٢).

ما فعله معبد الخزاعي هو أنه زرع الهلع في نفوس القرشيين، فقد رسم لهم أكثر السيناريوهات خطراً، وهو أن أهل المدينة كلهم، من شارك في أحد من المسلمين ومن تخلّف عنهم، قد خرجوا خلفهم يتحرقون للثأر لقتلاهم. وتعرف قريش أهمية الثأر وقدرته الهائلة على التحشيد، والثأر التزام قبلي، حتى مع اختلاف الدين، وتعلم قريش أن أكثر من قُتل في أحد كان من الأنصار، فلم يُقتل من المهاجرين إلا ستة، والأنصار، أوساً كانوا أم خزرجاً، مسلمين أم منافقين، لن يُسلّموا لقريش بدماء أبنائهم، فالدم في عرف القبيلة يعلو على كل قيمة. عندها قررت قريش أن تواصل المسير، مكتفية بما حققت من انتصارٍ معنويّ، كما أن النبي أمر المقاتلين بأن يوقدوا نيراناً كثيرة في الليل، قيل إنها بلغت خمسمئة(١٣)، وأن يحدثوا جلبة وحراكاً دائبين، فكان معسكرهم يُرى من أماكن بعيدة، ويُسمع له ضجيجٌ هائل، فتأكد لقريش وقتها أن كلام الخزاعي صحيح، وأن هذا الجيش هو أضعاف ما واجهوه في أُحد، فقرروا الإسراع في اللحاق بمكة قبل أن يدركهم جيش المسلمين. فلما انسحبوا بعث الخزاعي رسالة للنبي أنّ قريشاً قد انسحبت، فانتظر النبي ثلاثة أيام في حمراء الأسد ليتأكد من انصراف قريش ثم عاد إلى المدينة.

دروس العسر واليسر

لكل حدث تداعيات ومآلات، إذ ليس هناك عسرٌ محض، بل إن هناك

---

(١٢) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق: ج ٢، ص١٠٢.

(١٣) **عيون الأثر**، مصدر سابق. ج ٢، ص٥٤.

عسراً مصحوباً بيسرين كما في كتاب الله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، ومتبوعاً بيسر ثالث إن أحسن المرء تدبُّر العسر الذي أصابه واستخلص منه الدروس والعبر: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ففي الابتلاء ما هو إيجابي وما هو سلبي، والقائد الفذ هو الذي يستطيع تعظيم ما هو إيجابي وتقليل ما هو سلبي.

الإيجابي في تداعيات أُحد أن المسلمين قد اعتبروا ما وقع درساً بليغاً، اتعظوا به، واستفادوا منه، فقد علموا أن السنن الإلهية لا تحابي أحداً، فإذا أرادوا النصر فعليهم بأسبابه، ومن أسبابه القراءة الموضوعية والإعداد الكامل والتخطيط المحكم والانضباط الصارم.

يعلم المسلمون أن ما أصابهم في أُحد كان لثلاثة أسباب:

الأول له علاقة بالبنية النفسية، و**الثاني** بالانضباط الميداني، و**الثالث** بالجبهة الداخلية للمدينة.

الانفعال النفسي لا يصلح أن يكون العامل الأهم في تقرير مسائل الحرب، فقرار المواجهة خارج المدينة اتُّخذ في أجواء انفعالية وحسابات غير موضوعية، وليس نتيجة تفكير استراتيجي. كثير من الصحابة ممن لم يشهدوا بدراً قدّروا أنهم يريدون الحصول على ذات المنزلة والأجر الذي حصل عليه أترابهم ممن شهدوا بدراً، وقد استمعنا للخطاب العاطفي الذي دار في مجلس الشورى، وكيف أن العاطفة غلبت فيه الحسابات.

وسبب نفسي آخر متعلق ببنية المقاتل العربي المسكونة بإظهار الشجاعة والبطولة الفردية حتى إن كانت مخالفة لحسابات الميدان الموضوعية؛ إذ رأى كثير من الصحابة أن لقاء العدو خارج المدينة يعطي انطباعاً بأن المسلمين لا يخافون ولا يجبنون عن المواجهة المباشرة، وأن البقاء داخل المدينة سيرسل رسالة مفادها أنهم قد وهنوا، وهو ما لا يليق بشهامة العربي المقاتل وشجاعته.

صحيح أن البقاء داخل المدينة كان سيعطي مثل ذلك الانطباع للمشركين، لكنه انطباع مؤقت، فالانتصار في الحرب وصد العدوان سيزيل هذا الانطباع، وسيورث العدو مرارة وحسرة وسوء عاقبة، وهذا أثر أبقى وأدوم من الانطباعات النفسية العابرة.

الحسابات النفسية والمعنوية، وفي مقدمتها الإيمان بطبيعة الحال، مهمة في تقدير موازين القوة، لما تمنحه من قوة للمقاتل، ولكنها لا تحتل المرتبة الأولى في ترتيب شؤون المواجهة، فهذه لها فنونها المتعلقة بالعدة والعدد والموازين العسكرية وجغرافية الميدان، وهو ما سيتعلمه المسلمون سريعاً وما سيتفادونه بعد أُحد، وسنلحظ كيف أن حسابات اتخاذ القرار ستتغير في المعركة التالية.

المدهش هنا أن آلية اتخاذ القرار المتمثلة بالشورى لم تتغير ولم تهتز، بل ثبتت واستقرت، ولم يقل القائد إن نتيجة الشورى لم تكن إيجابية، ولا نعرف واقعة عيَّر بها النبي أصحابه ممن اقترحوا القتال خارج المدينة، ولم يقرر أنه من الآن وصاعداً سيتفرد بالأمر هو بنفسه أو مع قلة من مساعديه في اتخاذ قرارات الحرب القادمة؛ على العكس من ذلك، الذي حدث أن القرآن أثبت بعد أُحد آلية الشورى، وطلب من النبي أن يستمر فيها: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا سيتعلم المسلمون بشكل جماعي من أخطاء الماضي، وسيرتقي المجتمع بكليته، ولن ينكفئ إلى الفردية في اتخاذ القرار، بل سيبني مؤسسة شورية أكثر احتفاءً بالإبداع والخروج عن المألوف؛ وسنرى كيف ستكون مداولات الشورى في الخندق سبب الانتصار الكبير الذي وقع، إذ سيتبنى النبيّ خطة عسكرية مبتكرة، وهي حفر الخندق، وقد ولدت في داخل مجلس الشورى، وباقتراح من أحد المسلمين، هو سلمان الفارسي، لم يكن من وجهاء العرب نسباً، لكنه قدَّم الفكرة الأفضل، فتبناها المسلمون، وحققت انقلاباً عسكرياً واستراتيجياً سيؤسس لمرحلة جديدة من النصر والفتح.

الخلل الثاني في أُحد كان متعلقاً بالهيكلية التنظيمية للجيش والانضباط الميداني للمقاتلين في ساحة المعركة، ويُرجِع كثير من رواة السير الهزيمة التي وقعت في أحد إلى عامل واحد وهو عدم التزام الرماة الحرفي بالأوامر الصارمة الصادرة من القائد العام، فمغادرة الرماة للجبل أحدثت ثغرة هائلة في جبهة المسلمين، ومنحت المشركين الفرصة اللازمة لتغيير مسار المعركة من نصر إلى هزيمة؛ وهذا صحيح، لكنه ليس كل شيء، فالمشكلة كانت قد بدأت ميدانياً قبل مغادرة الرماة للجبل؛ إذ تشير المصادر إلى أن المسلمين عندما رأوا أن

العدو قد انهزم في مقتبل المعركة سارعوا يجمعون الغنائم؛ لا بقرارٍ من القائد العام ولا عن تقدير موقف ميداني، بل عن اختيارٍ وتصرُّفٍ فردي، وعندما رأى الرماة أن إخوانهم بدؤوا يجمعون الغنائم، سارعوا هم أيضاً إلى الالتحاق بهم كي يظفروا بحظهم منها، ما يعني أن الانضباط لم يتحقق في معظم تشكيلات الجيش، والسبب هو الغنيمة. وموضوع الغنائم هذا ستتم معالجته جذرياً، إذ ستؤول الغنائم بعد ذلك للقائد العام وهو الذي سيتولى تقسيمها وفق أسلوب نظامي مركزي.

نعم، إن مغادرة الرماة للجبل كانت حاسمة في انكشاف ظهر المسلمين، وانهيار ما تبقى من تشكيلات الجيش، وانفراط عقده التنظيمي، إذ أصبح كل فرد في حلٍّ من شأنه، منهم من ولّى باتجاه المدينة، ومنهم من قعد ينتظر، ومنهم من قاتل منفرداً؛ لكن انهيار جبهة الرماة منفردة لم تكن لتؤدي إلى هزيمة المسلمين لو أن التشكيلات العسكرية بقيت منضبطة. والانضباط العسكري الهرمي لم يكن شديد الوضوح للمقاتل العربي في الميدان، فالعرب أمة تقدس الشجاعة والحمية والنخوة والثأر، وتُعلي من شأن البطولة الفردية، أما التنظيم العسكري في كتائب وفرق منضبطة بقيادة واحدة، والقتال المنظم من دون اضطراب ولا اجتهاد فردي، والانضباط الكابح للاندفاع النفسي، فلم يكن النمط السائد في المعارك. صحيح أن للجيش تشكيلات رئيسة من ميمنة وميسرة وقلب، وهناك رايات للقبائل تقاتل تحتها، لكن هذه التشكيلات لم تكن صارمة، فتحتها يقاتل المقاتل منفرداً، ويمارس الكر والفر وفق تقديره الشخصي، وهذه مشكلة سوف يتجاوزها التنظيم العسكري القادم للجيش الإسلامي بعد أُحد، وسنلحظ أن البنية التنظيمية للجيش ستتغير تماماً في الخندق؛ إذ لن تكون مبنية على المساهمة الفردية للمقاتلين، بل على الانضباط القيادي والتسلسل الهرمي للكتائب والتشكيلات ذات المهام الواضحة والفعل الجماعي المنضبط، وسيتجلى ذلك بشكل باهر في فتح مكة عندما يقف أبو سفيان مندهشاً أمام جيش لم تعرف له العرب مثيلاً في حسن النظام والانضباط.

السبب الثالث له علاقة بانفضاض عبد الله بن أبي ابن سلول بثلث الجيش قبل أحد، وهذا له تأثير استراتيجي ونفسي على الجيش، وهو خلل سيسعى النبي إلى إصلاحه فور الفراغ من المعركة، من خلال تعامل جديد وصارم مع

الأطراف المخالفة لصحيفة المدينة، لا سيما المنافقين وقبائل اليهود كما سنرى.

احتواء التداعيات

درس أُحد كان مريراً، ولكنه كان ثرياً، وستبقى عِبَرُه مزروعة في أذهان المسلمين طوال السنوات القادمة.

لكل معركة تداعيات، وتداعيات معركة بدر كانت إيجابية لأنها كانت انتصاراً ساحقاً، ورأينا كيف استثمرها النبي في تثبيت أركان الدولة ونطاقها الأمني وإنفاذ صحيفة المدينة، أما أحد فكانت تداعياتها الاستراتيجية خطيرة، وسيحتاج المسلمون إلى عامٍ كامل لاحتواء هذه التداعيات وإدارة الأزمات المترتبة عليها.

التحديات الاستراتيجية التي أعقبت أُحداً كانت خارجية وداخلية؛ فالخارجية تمثلت بتزايد مخاطر الأعراب، وجرأتهم على المدينة، لا سيما قبائل نجد وغيرها ممن كانوا يتربصون بالمسلمين، وظنوا أن ما أصاب المسلمين في أُحد فرصة سانحة للانقضاض على المدينة، نهباً وسلباً واعتداءً؛ وسيتعامل النبي مع هذا الخطر مبكراً وبشكل سريع، فيبادر بضربات استباقية عاجلة في أرض العدو قبل أن يصل الخطر إلى المدينة نفسها. أما التداعي السلبي الثاني فمتعلق بالشأن الداخلي، إذ يعلم النبي أن المنافقين ومعهم قبيلتا قريظة والنضير قد سرَّهم ما وقع للمسلمين، وأنهم في حالة انتشاء، ولذلك ينبغي أخذ الحيطة والحذر كي لا تسوِّل لهم أنفسهم فعل أمر يتجاوز حدود المشاعر النفسية. هذان البعدان سوف يهيمنان على الفترة بين أُحد والخندق.

فشرِّد بهم من خلفهم

بعد ثلاثة أشهر من أُحد، وصل إلى النبي خبر بأن عدداً من بطون بني أسد بن خزيمة يخططون للانقضاض على المدينة، وممارسة العادة الذميمة التي كانوا يحسنونها من نهب وسلب وسبي، وكان مما نُقِل إلى النبي حوار دار بينهم، عندما ندرسه تتأكد لنا الأسباب والأجواء التي واكبت تلك المرحلة العصيبة؛ فقد قال قائلهم: «نَسِيرُ إلى مُحَمّدٍ فِي عُقْرِ دَارِهِ، وَنُصِيبُ مِنْ أَطْرَافِهِ، فإنّ لهم سرحاً يرعى جوانب المدينة، ونخرج عَلَى مُتُونِ الْخَيْلِ، فَقَدْ أَرْبَعْنَا

خَيْلَنَا، وَنَخْرُجُ عَلَى النَّجَائِبِ الْمَخْبُورَةِ، فَإِنْ أَصَبْنَا نَهْباً لَمْ نُدْرَك، وَإِنْ لَاقَيْنَا جَمْعَهُمْ كُنّا قَدْ أَخَذْنَا لِلْحَرْبِ عُدّتَهَا، مَعَنَا خَيْلٌ وَلَا خَيْلَ مَعَهُمْ، وَمَعَنَا نَجَائِبُ (إبل) أَمْثَالُ الْخَيْلِ، وَالْقَوْمُ مَنْكُوبُونَ قَدْ أَوْقَعَتْ بِهِمْ قُرَيْشٌ حَدِيثاً، فَهُمْ لَا يَسْتَبِلّونَ دَهْراً»[١٤]. يكشف هذا النص أنهم كانوا يرغبون في مداهمة أطراف المدينة، لا سيما مراعي الإبل والمزارع، وأنهم مدركون لحقيقة صحيحة وهي افتقار جيش المسلمين للخيول، وهي ضرورية للكر والفر، وكذلك افتقارهم للإبل المدربة على الجري السريع، وأن وجود هذه الأدوات في أيدي بني أسد سيمكنهم من الإغارة السريعة، وإن اضطروا لمواجهة جيش من المسلمين فيمكنهم التعامل معه. غير أن تقديرهم للحالة النفسية للمسلمين كان خاطئاً، إذ ظنوا أن المسلمين قد أصيبوا مصاباً جللاً لن يستفيقوا من آثاره لمدة طويلة، وهذا لم يكن صحيحاً، فقد استعاد المسلمون الروح القتالية بسرعةٍ فائقة، وتجاوزوا آلام أحد وأحزانه.

عندما علم النبي بالخبر أرسل بعثة عسكرية بقيادة أبي سلمة بن عبد الأسد في قرابة مئة وخمسين مقاتلاً لمهاجمة الجمع قبل أن يتحرك، وفعلاً نجح أبو سلمة في أن يباغتهم، وأن يشتت جمعهم، وأن يعود بغنائم للمدينة. وأرسل النبي سرية أخرى في اليوم الخامس من الشهر نفسه لمّا علم بأن مجموعةً من هُذيل تستعد لمهاجمة المدينة بقيادة خالد بن سفيان الهذلي، فابتعث عبد الله بن أُنيس لاغتياله، فغاب ثماني عشرة ليلة ورجع وقد أنجز مهمته.

هذه التحركات السريعة أَرسلت رسائل لمن يعنيهم الأمر بأن المدينة في عافية، وأن قدراتها العسكرية لم تهتز، وهي قادرة على حماية نطاقها الأمني بكفاءة، وهو ما كف أذى قبائل نجد وغيرها عن التفكير بمهاجمة المدينة، لكنهم بدؤوا يفكرون بالاعتداء على المسلمين من خلال الغدر والتحايل.

غدرٌ مؤلم

كان من عادة النبي أن يلتقي وفوداً من القبائل المختلفة ويحسن استقبالها ويدعوها للإسلام، وكان ممن وفد عليه بعد أُحد سيد من سادات بني عامر هو أبو البراء عامر بن مالك، ويلقب بملاعب الأسنّة، فعرض النبي عليه الإسلام

---

(١٤) الواقدي.

فلم يسلم، ولكنه أبدى ليونة، واقترح على النبي أن يُرسل معه وفداً من المسلمين لكي يعلِّموا بني عامر الإسلام، وهذا مقبول لدى النبي، لا سيما أنه يعرف مكانة أبي البراء في قومه، وأنه سوف يؤمِّن الحماية اللازمة للمسلمين، وكانت العرب تحترم الجوار، لا سيما أن الرجل كان سيداً كبيراً في السن، ورفيع المنزلة.

طلب النبي من أربعين من شباب الصحابة، ممن كانوا عاكفين على حفظ القرآن ودراسته، أن يسيروا مع أبي البراء إلى مضارب بني عامر في نجد. ومضت الأمور على ما يرام، ووفى أبو البراء بجواره في أن أعلن لبني عامر أن لا يتعرضوا بالسوء لضيوفه، إلا أن ابن أخ له، هو عامر بن الطُّفَيل، وكان معروفاً بفظاظته وفُحشه، حاول الانقلاب علّى جوار عمِّه أبي البراء، فاستعدى بني عامر وحرضهم على قتل المسلمين، لكن بني عامر رفضوا الانسياق وراءه، فاستعان ببطون من سُلَيم هم عُصيَّة ورِعل وذكوان، فأجابوه، وأحاطوا بالمسلمين غيلة وغدراً وكانوا قريباً من مئة وقتلوهم على بئر يقال لها معونة.

وفي الوقت ذاته كان وفدٌ دعويّ آخر من ستة مسلمين قد ذهب إلى قبيلتي عُضَل والقارّة، بناء على طلبهم، لتعليمهم الإسلام، لكنهم غدروا بهم في جمع من قبيلة هُذيل على بئر يسمى الرجيع على طريق الحجاز، وأحاطوا بهم قائلين إنهم لا يريدون قتلهم ولكن سوف يبيعونهم لأهل مكة، لكن الصحابة رفضوا الاستسلام، فقُتل أربعة منهم، وأُسر اثنان، هما زيد بن الدثنّة وخبيب بن عدي، فبيعا لقريش، فابتاع الأول صفوان بن أمية وقتله ثأراً لأبيه أمية بن خلف، بينما ابتاع خُبيب بن عدي حليفٌ لبني نوفل ليقتله في أبيه. وكان لحادثتي قتل زيد وخبيب أصداء واسعة، لا سيما في أوساط عامة الناس في مكة، لما رأوا من شجاعتهما وثباتهما، وحبهما للنبي عليه الصلاة والسلام؛ فقد سأل أبو سفيان زيداً عندما حان موعد قتله: «أَنْشُدُكَ اللهَ يَا زَيْدُ، أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً عِنْدَنَا الْآنَ فِي مَكَانِكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَأَنَّكَ فِي أَهْلِكَ؟ قَالَ: وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّداً الآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ تُصِيبُهُ شَوْكَة تؤذيه، وأنّي جَالِسٌ فِي أَهْلِي. قَالَ: يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ: مَا رَأَيْتُ مِن النَّاسِ أَحَداً يُحِبُّ أَحَداً كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً»(١٥).

---

(١٥) ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص١٧٢.

أما خُبيب فقد قدّم مثالاً آخر في الشجاعة، فقد طلب منهم السماح له بصلاة ركعتين، لكنه أسرع في تأديتهما، وذكر لهم أنه فعل ذلك حتى لا يقولوا إنه فزع من الموت، ولما رفعوه ليصلبوه، نظر إليهم وقال: «اللَّهُمَّ إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يُصنع بنا، اللَّهُمَّ أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً». وبلغ من قوة عباراته ووقعها أن أبا سفيان دفع ابنه معاوية أرضاً حتى لا تصيبه دعوة خُبَيب.

هاتان الواقعتان أحزنتا المسلمين حزناً شديداً، وصارت بئر معونة والرجيع نموذجين ماثلين أمام المسلمين لكي يأخذوا الحيطة والحذر، وأن يستعدوا بكل ما لديهم من طاقة لمواجهة غدر الأعراب، فالبيئة الجاهلية لا تحترم إلا القوي، فإن شعروا بضعف استأسدوا وغدروا، فلا بديل عن الثبات وبناء الإمكانات وسد الثغرات، وأهم هذه الثغرات ما يؤثر على الصف الداخلي في المدينة ذاتها.

جلاء بني النضير

كان بنو النضير ممن حرّض على المسلمين، وكان لديهم علاقاتٌ وثيقة مع قريش، وكنا قد رأينا كيف نزل أبو سفيان بن حرب عند سلام بن مشكم، وهو من زعماء النضير، وأقام عنده بعد بدر، في مخالفةٍ صريحة لبنود الصحيفة. واستمر بنو النضير في تواصلهم الاستخباراتي مع قريش وتحريضهم على المسلمين، وأرسلوا إليهم معلومات عن المسلمين وعن الثغرات التي يمكن للمشركين استغلالها[١٦]. فبنو النضير وقعوا فيما وقع فيه بنو قينقاع من قبل، وغرّهم ما حدث في «أُحد» للمسلمين، فزاد نشاطهم الاستخباراتي، وصاروا هم أيضاً فئة تتحين فرصة الانقضاض على النبي.

السبب المباشر لجلاء بني النضير عن المدينة أنهم حاولوا اغتيال النبي. والقصة التي ترويها كتب السيرة تذكر أن النبي جاءهم ليعينوه في سداد دية قتيلين من بني عامر، قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وكان الناجي الوحيد من مذبحة بئر معونة، لقيهما في طريق عودته إلى المدينة، فأخبراه أنهما من بني عامر فقتلهما، لكن ما لم يعرفه عمرو أن هذين القتيلين كانا قد مرا بالمدينة،

(١٦) **عيون الأثر**، ج ٢، ص٧٠.

فأجارهما النبي وكساهما، فلما جاء عمرو المدينة وأخبر النبي بمقتلهما، عزم النبي على دفع ديتهما. وكان بنو النضير حلفاء لبني عامر، فكان من الطبيعي أن يستعين بهم لسداد دية القتيلين، فخرج مع بعض أصحابه إليهم، فأظهروا موافقتهم على ذلك، وجلس النبي إلى جدار لهم منتظراً ما وعدوا به، لكنهم خططوا لقتله بأن يلقي أحدهم صخرة على رأسه من الأعلى، وشرعوا في تنفيذ ذلك، لولا أن النبي علم بالخطة، فغادر مسرعاً إلى المدينة.

أرسل الرسول إليهم أنهم قد نقضوا الحلف، وبذلك فهم مطالبون بمغادرة المدينة، ولهم الحق في أخذ أموالهم من دون السلاح، فأبوا وتحصنوا في قلاعهم، أملاً في أن ينصرهم عبد الله بن أبي ابن سلول وبنو قريظة، لكن انتظارهم كان من دون طائل. وبعد حصار استمر ثلاثة عشر يوماً انصاعوا لحكم النبي، فغادروا المدينة إلى خيبر. لكن خطرهم لم يزل، ذلك أنهم سيقومون بدورٍ محوريٍّ في الإعداد للمواجهة القادمة في الخندق كما سنرى.

أما ما كان من أمر ابن سلول، فإنه بعد خروج بني قينقاع وبني النضير يكون قد خسر حليفين مهمين، ويكون نشاطه المعادي مجرد كلام لا فعل فيه. لقد كان ظاهرة صوتية، يبث الإشاعات، ويقطع الوعود، لكنه لم يكن بأي حال قادراً على فعل عملي، ولذلك تعامل معه النبي ومع المنافقين الآخرين بأسلوب الاحتواء، كسباً لمن يسانده من أنصار، وحفاظاً على الوحدة في المدينة، وهذا مختلف عن استراتيجيته حيال بني قينقاع وبني النضير، ذلك أنهم باشروا بالفعل أعمالاً عدائية، وتورطوا في أفعال أمنية شديدة الضرر، فخرقوا بذلك عهدهم مع النبي، واستحقوا بذلك أن يعاقبوا بصرامة.

بدر الثانية وورطة أبي سفيان

نعود إلى مكة بعد عام على «أحد» لنتابع كيف كانت الأجواء في مكة. صحيح أن قريشاً شفت غليلَها بقتل سبعين من أصحاب النبي ثأراً لقتلاها في بدر، وقتلت زيداً وخُبيباً صلباً على أبواب مكة، لكن القرشيين يعلمون أن ذلك لا يغير من الحقائق على الأرض، فلا يزال النبي والمسلمون بخير، ولا يزال نفوذهم في الساحل قائماً، وقد توقف الطريق النجدي تماماً، وتجارة قريش قد تعطلت، وهم الآن في ضيق وانحسار.

وبعد عام على أحد، ومع اقتراب موعد المواجهة المتفق عليها، بدأت الأجواء في مكة تضطرب.

نذكر أن أبا سفيان خاطب المسلمين في نهاية معركة أُحد، وقال لهم: «إن موعدكم العام القابل»، فرد عمر بن الخطاب على لسان النبي: «إنها بيننا موعد». لقد قبل المسلمون التحدي، وها هو العام قد أوشك على الانتهاء، وقد حان استحقاق بدر، فماذا ستفعل قريش حينها؟ قريش الآن لا تشعر بحماس شديد للقتال، فبدأت أجواء مكة تنقلب على أبي سفيان، وتشعر أنه ورّطها في وعدٍ لم يكن له ما يبرره.

كان الموعد خطأً فادحاً وقع فيه أبو سفيان، ويبدو أن حماسته قد غلبت حصافته حينها، إذ ألزم نفسه بموعد بعد عام من الزمن، وهي مدة طويلة، يمكن للمسلمين فيها أن يستعدوا خير استعداد، لكن الأمر قد حصل، وها قد اقترب الموعد وقريش ليست جاهزة.

أدرك أبو سفيان أنه قد وقع في ورطة، واحتاج أن يخرج منها من دون أن يُتهم بالجبن، وأراد أن يكون الطرف الآخر هو من يُخلف الموعد، عندها حاول استخدام وسيلة تضليل إعلامي، ليخيف المسلمين ويدفعهم إلى عدم القدوم، فوقع اختياره على نعيم بن مسعود من قبيلة أشجع الغطفانية؛ كان يمارس التجارة على نطاقٍ صغير، فينقل البضائع بين مكة والمدينة، ومع البضاعة ينقل الأخبار، وهو مألوف لدى الطرفين لكثرة تردده على مكة والمدينة، فقرر أبو سفيان أن يوظفه للقيام بمهمة التضليل ونشر الأخبار الكاذبة، فبعث أبو سفيان نعيم بن مسعود ليخيف المسلمين في المدينة من كثرة أعداد قريش وقوتها، وجعل له عشرين بعيراً إن أدّى هذه المهمة ولم يخرج محمد، وقال له: «إنه بدا لي أن لا أخرج، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا، فيزداد المسلمون جرأة، فلئن يكون الخُلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي، فالحقْ بالمدينة وأعلمهم أنّا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا، ولك عندي من الإبل عشرون أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو»(١٧).

(١٧) الواقدي.

وصل نُعيم إلى المدينة وبدأ يبث إشاعاته وساعده في ذلك المنافقون، وقالوا لا يُفلت محمد من هذا الجمع، ولعبت هذه الإشاعات دورها في نفوس المسلمين، فانتشر رأي لدى البعض يقول بعدم الذهاب، إلا أن أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب أتيا رسول الله ﷺ وقالا: «يا رسول الله، إن الله مُظهر نبيه ومُعزّ دينه، وقد وعدنا القوم موعداً لا نحب أن نتخلف عنه، فيرون أن هذا جبن، فسر لموعدهم، فوالله إن في ذلك لخيراً»، فسُرَّ النبي مما قاله صاحباه وأعلن أنه في طريقه إلى بدر، وقال: «والذي نفسي بيده، لأخرجن وإن لم يخرج معي أحد». وهكذا لم يفلح نعيم بن مسعود في مهمته، وخسر الإبل التي وعده إياها أبو سفيان. وفعلاً تجهّز النبي وأصحابه وساروا إلى بدر ينتظرون العدو.

محاولة أبي سفيان تفادي المعركة من خلال تخذيل المسلمين فشلت، ولم يكن لديه خيار ـ لحماية صورة قريش وصورته القيادية ـ إلا المسير لملاقاة المسلمين، فطلب من الناس الخروج، فخرجوا على ملل، ومعظمهم ساخط على الرجل الذي أوقعهم في هذه الورطة، فلما رأى أبو سفيان أن التململ قد يقود إلى العصيان، أو الهزيمة المنكرة للجيش، قرر العودة إلى مكة، متعذراً بالجَدب وقلة الأمطار والجفاف. «قال ابن إسحاق: فأقام النبي ثماني ليالٍ ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنّة، من ناحية الظهران؛ وبعض الناس يقول: قد بلغ عُسفان، ثم بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عامٌ خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنّي راجعٌ، فارجعوا، فرجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق».

وفي الحقيقة فإن سبب تردد أبي سفيان لم يكن الجدب ونقص الموارد فحسب، بل إن تقدير الموقف السليم في ذلك الوقت يقتضي إلغاء المعركة. وفي حديثه مع نعيم بن مسعود الوارد آنفاً قال: «إنه بدا لي ألا أخرج»، وتقديره وقتها أنه لا يريد التضحية بما أنجزته قريش من انتصارٍ رمزيّ في أُحد، ويعلم أبو سفيان أن الانتصار في أُحد كان مكلفاً؛ فعلى الرغم من أن قريشاً وقتها كانت على قلب رجل واحد لتثأر من هزيمتها في بدر، إلا أنها هُزمت في بادئ الأمر، ولولا تدخل خالد بن الوليد وفرقة الفرسان ممن أغاروا على المسلمين

من جانب جبل الرماة لتأكدت هزيمة قريش. فإذا كان الحماس للثأر هو الدافع الرئيس لمقاتلي قريش في أحد، فماذا سيكون دافع قريش القتالي في بدر الآخرة؟

وعلى العكس من حال المشركين، فإن لدى المسلمين الآن دافعاً إضافياً للقتال، فهم متشوقون لمواجهة جديدة يثأرون فيها مما أصابهم في أحد، فستكون المعركة بين طرفين، الأول مسترخٍ ينقصه الدافع القتالي والحماس، والثاني مستعد للمواجهة ينتظرها بفارغ الصبر منذ عام، فإمكانية أن يُهزم جيش قريش كبيرة، لهذا أدرك أبو سفيان أنه لا ينبغي أن يغامر بمواجهة أخرى تعيده إلى ما قبل أُحد.

من ناحية أخرى ماذا سيكون الهدف الاستراتيجي للمواجهة الموعودة في بدر؟ فإذا كانت مواجهة بدر الأولى قد تمت للدفاع عن مصالح قريش التجارية، وكانت مواجهة أحد لاستعادة كرامة قريش بعد هزيمة بدر، فماذا يكون هدف بدر الآخرة؟

إذا كان الهدف هو استئصال شأفة المسلمين، فهذا غير واقعي، ولا تستطيعه قريش منفردة، لا سيما بعدما اختبرت قوتهم وشجاعتهم القتالية. وإذا كان الهدف هو ضرب قدرة المسلمين على اعتراض قوافل قريش التجارية، فهو هدف غير واقعي كذلك، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى عدد من السرايا وقليل من الجند لاعتراض القوافل، وربما تُذكي مواجهة عسكرية جديدة نشاط المسلمين في تشديد الحصار الاقتصادي على مكة.

وبسبب ذلك كله فمن المبرر أن يتراخى أبو سفيان في المسير إلى بدر، وأن يتذرع بالجدب ونقص الموارد ليعود إلى مكة، حتى إن كان في ذلك انتصار معنوي جديد للمسلمين، وضربة قوية لمكانته القيادية في مكة.

صفوان يستغل الفرصة

كان تخاذل قريش عن ملاقاة المسلمين في بدر الموعد، أو «بدر الصفراء» كما سُميت، مؤشراً على الحالة العامة التي تعاني منها قريش، وعلى اضطراب منظومتها القيادية، فقد كان خلاف صفوان وعصبته من الشباب مع أبي سفيان يتصاعد.

شخصية أبي سفيان كانت تنزع إلى تفادي المواجهة المباشرة، مع ميله نحو الرويّة والدبلوماسية، بحكم تجربته التجارية العابرة للحدود، وحسابات الربح والخسارة التي اعتاد عليها في تجارته، ومن الطبيعي أن يُفَسّر ذلك في أوساط قطاعات مكية أكثر حماساً على أنه تردد وضعف، لا سيما الجيل الشاب ممن ازداد نشاطهم وحضورهم بعدما قُتل صناديد قريش، وكان من أبرز هذا الجيل اثنان ممن قُتل آباؤهم في بدر: صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إضافة إلى سهيل بن عمرو، كما صعد نجم خالد بن الوليد بعد أُحد، فهو الرجل الذي حقق الانتصار، وهو ذو نسبٍ في قومه، أما عمرو بن العاص فكان أكثر هذا الجيل دهاء وحنكة، وكان قد برز على المسرح القرشي منذ عقد من الزمان، عندما أوفدته قريش إلى النجاشي لإقناعه بطرد المسلمين المهاجرين إلى الحبشة.

صفوان بن أمية كان أكثر هذه القيادات حضوراً وتأثيراً في القرار القرشي بعد أبي سفيان، وكان يمثل جبهة متشددة في مقابل أبي سفيان المتّهَم بالتردد والليونة. وهناك عامل نفسي مهم في موقف صفوان، فقد قُتل أبوه أمية بن خلف، سيد قومه بني جمح، في موقعة بدر، وفي اليوم نفسه قُتِل أخوه علي بن أمية، كما قُتل عمه أُبي بن خلف في أُحد. وقد كانت بين صفوان وأبي سفيان ملاسنات وخلافات ازدادت عمقاً بعد أُحد، وتفاقمت على إثر «بدر الموعد»؛ فقد لام صفوانُ أبا سفيان على وعده للمسلمين باللقاء في «بدر الموعد»، فقال: «قد والله نهيتك يومئذ أن تَعِدَ القوم، وقد اجترأوا علينا ورأوا أننا أخلفناهم، وإنما خلّفَنا الضعف عنهم». وسنرى فيما بعد أن صفوان كان فاعلاً في قرار معركة الأحزاب، ومرة أخرى عرّض برأي أبي سفيان وموقفه المشكك في جدوى المعركة يومئذ، فخاطب قريشاً حاثاً لها على قبول دعوة بني النضير عندما قال: «يا معشر قريش، إنكم قد وعدتم هؤلاء القوم لهذا الوقت وفارقوكم عليه، فَفُوا لهم به لا يكون هذا كما كان، وعدنا محمداً بدر الصفراء، فلم نفِ بموعده، واجترأ علينا بذلك، وقد كنتُ كارهاً لميعاد أبي سفيان يومئذ»(١٨).

---

(١٨) المصدر السابق.

هذا التنافس القيادي في مكة، والشعور العام بأنّ قريشاً تخسر المبادرة أمام المسلمين، إضافة إلى استشعار قريش للخطر المحدق بتجارتها، هو الذي غلّب كفة حماسة الشباب على رويّة الشيوخ، ودفع بقريش إلى أن تنساق وراء طبول الحرب وأوهام النصر، فحسمت خيارها باتجاه مواجهة كانت تريدها نهائية وفاصلة، وهنا بدأت قريش تفكر بالغزو من جديد.

الفصل الثاني عشر

الاستعداد للمواجهة الأخيرة

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]

يعلم النبي ﷺ أن قريشاً لا تزال تبحث عن حل لمعضلتها، ويقدر أن تحالفاً سينشأ بين كل المتضررين من تأسيس إيلاف المدينة ومجالها الأمني، وأن هذا التحالف سوف يضم قريشاً ومن ناصرها، إضافة إلى يهود خيبر والنضير، وطرفٍ ثالثٍ هم أعراب الصحراء؛ ويعلم كذلك أن قريشاً ويهود خيبر لهم هدف استراتيجي استئصالي، أما الطرف الثالث فأهدافه منفعية. ومن هنا فقد بدأ بالتحضير لهذه المواجهة من خلال تحرك مفاجئ نحو الشمال، يُضعف فيه خصمين اثنين: أعراب الصحراء ويهود خيبر.

الشمال لأول مرة

أرسل تلكؤ قريش عن اللقاء في «بدر الموعد» رسالةً للنبي أن قريشاً غير جاهزة أو غير قادرة بشكلٍ منفرد على مواجهته، مما شجعه على أن يستثمر هذه المرحلة في توسيع المجال الأمني للمدينة بعيداً باتجاه الشمال، وهذه هي المرة الأولى التي سيتجه فيها شمالاً وصولاً إلى أطراف الشام، وتحديداً إلى دومة الجندل.

كنا قد رأينا كيف توسّع المجال الأمني للمدينة تدريجياً في السنوات الخمس الماضية، ففي السنة الأولى ضم غربي المدينة باتجاه الساحل؛ من ينبع شمالاً وحتى رابغ جنوباً، ثم أقام نطاقاً أمنياً يحيط بالمدينة جنوباً وشرقاً عبر سرايا وغزوات استهدفت نجداً وقبائل جنوبي المدينة مثل سُليم.

بعد بدر الموعد، قرّر النبي التوسع نحو الشمال، مستفيداً من خمول قريش وعزوفها عن المواجهة، فقاد غزوة فريدة من نوعها في ربيع الأول في

العام السادس للهجرة، الموافق حزيران/ يونيو ٦٢٧م، أي بعد ستة أشهر على بدر الموعد، في ألف من أصحابه، وهذا عدد كبير نسبياً.

كان الهدف الجديد هو دومة الجندل، وكانت مركزاً تجارياً مهماً في شمال الجزيرة، وفيها سوق كبيرة، وهي منطقة زراعية، ومعظم سكانها من قبائل قُضاعة.

للوهلة الأولى تبدو هذه الغزوة خارج السياق؛ ذلك أن المسافة الفاصلة بين المدينة ودومة الجندل هي ٤٥٠ كيلومتراً، وتحتاج إلى خمسة عشر يوماً لاجتيازها، ثم إنها في أقصى الشمال، ولكي تصل إليها ستعبر أرضاً لا تزال تهيمن عليها بطون خزاعة وأسد، وهي معادية للمسلمين، ثم إن خيبر التي لا تبعد سوى تسعين كيلومتراً شمال المدينة معادية أيضاً، بل ازداد عداؤها للمسلمين بعدما أُجلي بنو النضير إليها. ولكن بعد شيء من التحليل والدراسة المتأنية لسياق هذه الغزوة تحديداً، لا يسع المتابع لاستراتيجية النبي إلا أن يقف مندهشاً أمام حكمة قراره وصواب تحركه باتجاه الشمال، وذلك لسببين: **الأول** له علاقة بتوجيه ضربة استباقية لقبائل الشمال، و**الثاني** لعزل خيبر عن محيطها الشمالي استعداداً لفتحها.

لماذا قبائل الشمال؟

إن نظرة فاحصة على استراتيجية النبي في ضرب حصار تجاري على مكة، تكشف لنا أن المتضرر من هذه الاستراتيجية لم يكن قريشاً فحسب، بل كثيراً من قبائل نجد وقضاعة الواقعة على الطرق التجارية، والتي تضررت هي الأخرى، لسببين: **الأول** أن إيلاف قريش كان يمنح بعض هذه القبائل بدل حماية، وقد انقطع بسبب الحصار؛ و**الثاني** أن قوافل قريش كانت ضرورية للحياة اليومية لهذه القبائل، إذ تبيع لها بعض منتجاتها، وأهمها الجلود، وتبتاع منها ما تحتاجه من أسلحة ومواعين وألبسة؛ فالطرق التجارية إذاً نظام متكامل مفيد للقبائل كفائدته لقريش. كان الطريق النجدي قد انقطع بسيطرة المسلمين على المدينة، ولما حاول صفوان بن أمية الالتفاف على المدينة داهمته سرية زيد بن حارثة وصادرت القافلة، فانقطع الطريق النجدي تماماً، وهذا ما جعل بعض القبائل، ومنها قضاعة في دومة الجندل، تفكر في رد فعلٍ ما، فبدأت باعتراض تجارة المسلمين (وكانوا بدؤوا التواصل تجارياً مع الشمال)، ثم بدأت تفكر بمهاجمة المدينة.

عندها جاء قرار النبي باستباق مثل هذه التحركات، والمبادرة إلى استئصال هذا الخطر، ثم اختراق المجال الأمني لخيبر وغطفان، وجسّ قدراتهما العسكرية، وإضعاف روحهم القتالية.

ولما كانت الطريق إلى دومة الجندل طويلة، وتعبر ديار قبائل معادية، فقد اتسمت المهمة العسكرية بقدرٍ عالٍ من السرية والانضباط، فلم تعلن عن وجهة الجيش مسبقاً، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً. وعندما وصل المسلمون إلى دومة الجندل كانت جموع القبائل قد انفضّت وانتشرت في رؤوس الجبال، فأقام النبي أياماً وبثّ الوحدات العسكرية الصغيرة في تلك الأرجاء لإدخال الخوف والرهبة في قلوب من تسوّل لهم أنفسهم التفكير بمهاجمة المدينة. وسيكون للمسلمين عودة إلى دومة الجندل في وقتٍ لاحق، وبسريَّة يقودها عبد الرحمن بن عوف.

في طريق عودتهم مرّ المسلمون بديار فزارة، وهي بطن كبير من بطون غطفان، فوادع عُيَينة بن حصن سيدَ فزارة.

وعيينة زعيم بدوي اعتاد الإغارة والنهب، إلا أن له أتباعاً يقدّرون بعدة آلاف، وكان المسلمون يلقّبونه بالأحمق المُطاع، ولم يمنع ذلك النبي من التفاهم معه في هذه المرحلة. وكان من بنود الاتفاق أن يسمح النبي للفزاريين برعي مواشيهم في منطقة تبعد ٣٦ ميلاً من المدينة، ذلك أن الصحراء كلما أجدبت يُغير الفزاريون وغيرهم من قبائل غطفان على نواحي المدينة ومزارعها، فنظم النبي العلاقة معهم وحدد النطاق الجغرافي الذي يمكنهم فيه الاقتراب من المدينة.

الهدف الثاني لغزوة دومة الجندل بعيد النظر، وهو متعلق بخيبر؛ فخيبر مدينة ثرية، هي الأغنى في جزيرة العرب، وهي مركز زراعي وتجاري وصناعي، وقدراتها العسكرية كبيرة، فلديها قلاع حصينة يصعب على أي مهاجم اقتحامها، كما أن قدرتها على الحشد كبيرة؛ إذ تذكر المصادر أن لديها أربعة آلاف مقاتل، وقيل عشرة آلاف، ولديها صناعات أسلحة ذات نوعية فائقة، وهي فوق كل ذلك حاضرة غطفان، وغطفان بطون، أهمها أشجع وأسلم وفزارة، وهم أعراب يَحِلّون ويرتحلون، لكنّ خيبر المركز الذي يتاجرون معه، فتطورت بينهم وبين خيبر علاقات منفعة وتواصل، وسنرى كيف أن هذه العلاقة ستتطور إلى حلف استراتيجي عما قريب في الخندق. كانت خيبر قد تحولت

إلى مركز معادٍ للمدينة، ومن الأسماء التي ذاع صيتها في تحفيز غطفان على حرب النبي: أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، وكان قد رصد لمن يقاتل المسلمين من غطفان وغيرهم أموالاً هائلة؛ ثم إن بني النضير كانوا قد وصلوا إلى خيبر، وباشروا هم أيضاً تواصلهم مع قريش وغطفان لتأسيس حلف لمحاربة المسلمين. ومن ثمّ فإن النبي يعلم أن المواجهة مع خيبر قادمة، إلا أنها في هذه المرحلة لن تكون مواجهة مباشرة، بل إن الأولوية ستبقى لمكة وبعدما يتم تحييد مكة سيأتي دور خيبر.

غزوة دومة الجندل قطعت الطريق على خيبر من أن تستعين بقبائل الشمال، وكرَّست عزلتها، وبعثت رسالة بأن محمداً قادر على الاقتراب من أطراف بلاد قيصر وكسرى، وهذا في أعين العرب كبير.

ثم إن توقيع اتفاقية مع فزارة يصبُّ في الهدف نفسه، أي تقريبها إلى المدينة وإبعادها عن خيبر، وهذه العلاقة بين المسلمين وعيينة بن حصن ستؤسس لتواصل سيستفيد منه النبي قريباً في الخندق، عندما يتفاوض النبي معه ومع الأقرع بن حابس على الانسحاب من حلف الأحزاب كما سنرى.

الحلف الثلاثي وأوهام القوة

عشرة آلاف مقاتل كانت حصيلة تحالف ثلاثي لم يسبق له مثيل في الجزيرة: قريش بزعامتها، وغطفان بعددها، إضافة إلى يهود خيبر بمالهم وتخطيطهم. تحالف هو الأول من نوعه في مسار المواجهة المسلحة بين المسلمين وأعدائهم، جمْعٌ لم يَرَ له العرب مثيلاً من قبل، لكنه أوهن مما يبدو عليه للوهلة الأولى.

كان التحالف الثلاثي الجامع لجبهات ثلاث خارقاً للمألوف، فالعرف القبلي الجاهلي لم يكن يسمح لقبيلة بالتحالف مع قبيلة أخرى ضد مجموعة تنتمي إلى القبيلة ذاتها، فكيف إذا كانت القبيلة هي قريش وكان الطرف الثاني هو محمد بن عبد الله سليل البيت الهاشمي العريق؟

فالنبي ﷺ وأتباعه من المهاجرين كلهم من قريش، ولكنهم أسسوا ما يمكن وصفه بقريش المسلمة، وها هي قريش الكافرة تخرج على العرف القبلي، فقد فشلت في بدر ثم لم تغير موازين القوة في أحد، وها هي تمدّ يدها للتحالف مع غطفان. وما كان لقريش أن تلجأ إلى هذا الحلف إلا لعلمها أن

شأن المسلمين قد علا وعظم، وأنها عاجزة بإمكاناتها الذاتية أن تضع حداً له.

ومع أن قريشاً وغطفان تلتقيان في أنهما مضريتان، إلا أن لكلٍّ منهما خصوصيته؛ فقريش شديدة الاعتداد بذاتها، ترى نفسها فوق قبائل العرب قاطبة، فهم أهل الحرم وسدنة الكعبة، وأصحاب الإيلاف وسادة مكة، أم القرى العربية يومئذ، وإليهم يرجع أمر الجزيرة الاعتباري، وقريش أغنى قبائل العرب وأكثرها انفتاحاً على الجوار وتواصلاً مع الأقاليم العربية والممالك المجاورة في فارس والروم والحبشة، تجوب قوافلها التجارية الصحراء صيفاً وشتاءً، فتعود على قريش بالثراء وبالعلاقات وبالمعرفة وحسن الاطلاع. فقريش تبعاً لذلك معتزة بذاتها ومكانتها، لا ترى لأحد من العرب منزلة فوقها.

أما غطفان فتتكون من بطون متعددة، وهم بدو رُحّل، يسكنون شرق الجزيرة، تراثهم القبلي بقي مغرقاً في البداوة، لم يتطور كما قريش، وليست لهم المنزلة ذاتها ولا قريباً منها، كما أنهم فقراء مقارنة بالقرشيين، ذلك أنهم يعتمدون على الرعي والغزو، وتراثهم القبلي عنيف، يقوم على الغزو والثأر. ولعل الحرب الكبرى التي دارت رحاها بين عبس وذبيان كانت من أكبر حروب العرب وأطولها، عندما تقاتل البطنان من غطفان نحواً من أربعين عاماً فيما عُرف بحرب داحس والغبراء، ثم تصالحت القبيلتان بوساطةٍ من هرم بن سنان والحارث بن عوف. هذه الحرب المدمرة انتهت قبل البعثة النبوية بقليل، وتركت غطفان ضعيفة منهكة، تحاول أن تتقوى بالغزو وجمع الغنائم.

هكذا كان التحالف بين قريش وغطفان فريداً، ولكنه تحالف مصلحي نفعي، تبحث فيه غطفان عن الغنائم، وتتقوى فيه قريش بجيش من المرتزقة، بعدما فشلت في مواجهة المسلمين بقوتها الذاتية.

الطرف الثالث في تحالف الأحزاب كان يهود خيبر، فبعد جلاء بني النضير عن المدينة إلى خيبر، بدؤوا في التواصل مع قريش لترتيب حملة عارمة كثيرة العدد حسنة العدة، وبالطبع صار يهود بني النضير شركاء في التمويل والتخطيط، كما أنهم أثبتوا أهمية استراتيجية فائقة، لعلاقتهم بأبناء عمومتهم من يهود بني قريظة ممن لا يزالون في المدينة.

عسكرياً كانت الأحزاب الثلاثة المكوِّنة للتحالف متفاوتة في وزنها، فقريش هي أصل هذا التحالف وعموده الفقري، وقد دفعت بأقصى طاقتها،

مستنفرة كنانة ومن حالفها من جوارها، ثلاثة آلاف مقاتل، وفي بعض الروايات أربعة، ما يدل على أنهم قد وضعوا كامل ثقلهم في معركة يريدونها حاسمة، وهو ما أقنع غطفان وسُليم وقبائل أخرى بسرعة الانضمام إلى التحالف.

هذا لا يقلل بالطبع من أهمية غطفان، فقد كانت أكثر عدداً، ساهمت بستة آلاف مقاتل، وهي ذات شأن عسكري رفيع، ولطالما اضطر المسلمون إلى مناوشتها عبر عدد من السرايا والبعثات خلال السنوات الماضية لدفع هجماتها عن المدينة، وبما أنها قبائل بدوية تعتمد الرعي وتربية الإبل، فقد مثّل الغزو بالنسبة إليها نمطاً مألوفاً، وهو ما أعطى مقاتلي غطفان مرونة عالية، وقدرة فائقة على الكر والفر؛ إلا أنها تتكون من مجموعة بطون، لكل منها قائدها ورأيها وغايتها.

أما بنو النضير فلم يكن لهم وزن عسكري يذكر، لكنهم ساهموا بنشاط في بناء هذا التحالف، وتحديداً حيي بن أخطب سيد بني النضير؛ إذ انطلق مع عشرين من قومه من خيبر إلى مكة لتحريض قريش، ومن ثم التقوا بقادة غطفان، وأقنعوهم بالانضمام إلى التحالف. وتشير المصادر كذلك إلى دور بني النضير ويهود خيبر في تمويل الحملة، وعما قليل سيسعى حيي بن أخطب إلى استمالة بني قريظة لكي ينقضوا حلفهم مع المسلمين وينضموا إلى التحالف.

دوافع متباينة

لكل طرف من الأطراف الثلاثة دوافعه وأهدافه، وهذا التباين كان عنصراً حاسماً فيما آلت إليه معركة الأحزاب من تفكّكٍ وهزيمة، ولذلك يحسن بنا أن ننظر بعمق إلى الدوافع الحقيقية التي تحرك كلاً من هذه الأطراف، لنرصد شقوقها ونفهم بنيتها النفسية والمنفعية.

قريش: رفع الحصار ورد الاعتبار

الدافع الرئيس وراء مشاركة قريش في غزوة الأحزاب وجودي ضاغط، وهو التخلّص من الحصار الاقتصادي الذي ضربه المسلمون على مكة بعد استهداف قوافلها التجارية، فقد عمد النبي ﷺ بعد شهور قليلة من قدومه المدينة إلى تسيير السرايا لمهاجمة القوافل القرشية على طريق الشام، ثم على طريق العراق فاليمن، ليحكم عبر استراتيجية استخباراتية وعسكرية الحصار على

قريش، ويضرب أساس قوتها ومصدر غناها وغطرستها، ويرفع عليها تكلفة الدور الذي تؤديه كناقل للبضائع بين الشام والعراق واليمن، وكنتيجة لذلك توقفت معظم قوافل قريش، وعندما اضطر بعضها إلى تغيير طرقها المعتادة، سواء في رحلاتها الشتوية إلى اليمن، أو في رحلاتها الصيفية إلى الشام، تمكّنت كتائب المسلمين من ملاحقتها، فدبَّ الذعر في صفوف تجار قريش. ومع طول الحصار أُنهِك الاقتصاد المكي، ومع العام الرابع للهجرة وصلت قريش إلى قناعة مفادها أنه إن لم يتم استئصال المسلمين، فإن مكة في طريقها إلى انهيار اقتصادي محتوم، وما يعنيه من انهيار في المكانة والمنزلة، وقد مر بنا حديث صفوان بن أمية عن الخطر الكبير المحدق بمكة جراء الحصار الاقتصادي بقوله: «إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجرنا، فما ندري ماذا نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم، ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا في ديارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء، وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء».

الدافع الاستراتيجي الثاني لقريش هو حفظ المكانة الاعتبارية بين العرب، فهم أهل الحرم، وإليهم يقصد الناس حجاً وزيارة، واحتفظت بطون قريش الكبرى لنفسها بمهام ذات شأن اجتماعي وسياسي كبير، كحجابة البيت وسقاية الحجيج ورفادتهم. ومع أن هذه الوظائف الكبرى ذات شأن ومكانة عالية، إلا أنها لم تكن مجردة من المصالح التجارية، فقد استطاعت قريش منذ زمن طويل تسخير مكانتها الرمزية في تحقيق مكاسب مالية واسعة.

مشروع قريش الاجتماعي وأيديولوجيتها السياسية كانت تدور حول القبيلة والنسب، وتعاظمها بالآباء والأجداد، وحميتها الجاهلية، وأوثانها المعبودة من دون الله، وتحالفاتها السياسية، وهذه جميعاً تصدر عن ولاء قبلي، لتشكل القبيلة مركز الهوية القرشية؛ ومن ثمّ فإن مشروع قريش الاجتماعي كان منغلقاً على النسب، لحماية الامتيازات التي يحدِّدها المجتمع لهذا الفخذ أو تلك العشيرة، فالفرد في مشروع كهذا يواجه تصنيفاً حتمياً وجودياً لا يملك له دفعاً، وكأيِّ تصنيف عنصري، فإنه كثيراً ما يكون جائراً، يصادر حق الفرد في إنسانية ذاتية مجردة.

هذه الهوية القرشية المنغلقة الهرمة بدأت تواجه تحدياً جدياً من هوية

جديدة منفتحة فتية. رواد الهوية الجديدة قرشيون كذلك، لا تستطيع قريش المشركة أن تنتقص من منزلتهم ولا من مكانتهم فيها من حيث النسب، فهم من أبناء بطونها الرئيسة ومن سادتها، لكنهم يزيدون على قريش المشركة فضلاً في أنهم ذوو رسالةٍ نبيلة وخلقٍ حسن وهمةٍ عالية وقدرةٍ هائلة على التواصل مع الآخرين بآصرة الأخوة الإيمانية، حتى إن كانوا موالي غير أولي شأن أو عبيداً ضعافاً أو أفراداً من شعوبٍ أخرى بعيدة.

لذلك فإن وجود قريش المسلمة في المدينة، وطرحها لمنظومة قيم جديدة، تؤاخي بين الناس، وتعتبرهم سواسية كأسنان المشط، وتتّسع بأفقها لتخرج من ضيق القبيلة وانغلاق حدودها إلى فسحة الأخوة الإيمانية العابرة للون والعرق والنسب، يمثل تهديداً جدياً خطيراً، لن تتسامح معه قريش المشركة. وبدلاً من أن تسعى الأخيرة إلى مساءلة موروثها، وتفحص مكامن قصورها، لجأت إلى ما تحسنه ممثلاً في القوة المغرورة المعتدّة بالميراث والنسب، وعنوانها هنا المواجهة الاستئصالية المسلحة.

قريش إذاً كانت تدافع عن منزلتها الاقتصادية وعن مكانتها المعنوية طوال سنواتٍ خمس من الصراع بين مكة والمدينة، ولكنها لم تفلح في القضاء على المسلمين ولا في إبطاء سرعة انتشار الإسلام؛ بل إن دور المسلمين في جوارهم القبلي من حيث قوتهم العسكرية ومكانتهم السياسية بدأ يتعاظم يوماً بعد يوم، وها هي سرايا المسلمين تجوب الجزيرة، وتتواصل وفودهم مع القبائل، فتعقد الاتفاقات، وتبشر بالقيم الجديدة، فتصغي لدعوتها وتدخل في حلفها مجموعات وقبائل، ويتغير دور يثرب الهامشيّ الساكن ليحل محله دور المدينة الفاعل، فتعجّ بحراك ديني سياسي اقتصادي جديد، ملحقة أعظم الأذى بصورة مكة أمام العرب وبمكانتها الاقتصادية الإقليمية، ولذا كان لا بد من عملٍ حاسم قاصم، يستأصل الخطر المحدق بأمن مكة الاقتصادي، وبمنزلتها القيادية.

إلا أن القراءة المتأملة في مسار الصراع بين قريش والمسلمين قبل الخندق تدل على أن قريشاً لم تكن متحمسة لمواجهة عسكرية حاسمة، إلا بالقدر الذي يحفظ مصالحها التجارية ومكانتها بين العرب؛ إذ كان ينقصها الدافع الرسالي، أو الحافز الأخلاقي، كما أنها كانت مسكونة بالزهو والتفاخر والسمعة، وهو مناخ سائد عادة في دوائر التجارة ومراكز المال؛ هذا إضافة إلى تحسبها من

شجاعة المسلمين وإقدامهم ومبادراتهم العسكرية المتجددة، فقريش ليست قبيلة محاربة، ولا تحب المفاجآت، إذ هيأت لها ظروف الوفرة الاقتصادية وأمن الحرم بيئة هادئة مستقرة، وكان أغلب نشاطها العسكري مناوشات مع هذه القبيلة أو تلك، وصراعات محدودة تنتهي عادة بتسويات قبلية، ولم تكن قريش بحاجة إلى تنظيم جيوش وشن حروب رئيسة بعيداً عن أرضها، لذلك فإن التحدي العسكري الإسلامي كان بالنسبة إليها خارقاً للمعتاد، ولذا مالت قيادات منها إلى سياسة احتواء النفوذ الإسلامي ومحاصرته.

غطفان: الغنيمة

قبيلة غطفان من القبائل العربية المضرية الشمالية الكبيرة العدد المعروفة في شبه الجزيرة العربية، استوطنت إلى الشمال من مدينة يثرب ممتدة في عمق نجد، وهم أصحاب قوة ومنعة، ترهبهم القبائل العربية. وكان من شأنهم أنهم أعلنوا ثمانية أشهر على أنها حُرُم؛ فانقادت القبائل العربية الأخرى في علاقاتها معهم والتزمت باحترام حرمة هذه الأشهر الثمانية، وكان أبناء غطفان يذرعون الصحراء آمنين فيها دون أن يعترضهم أحد.

إنّ استقرار قبيلة غطفان في الديار القريبة من مدينة الرسول ﷺ جعلها في احتكاكٍ دائم ومباشر بالمسلمين، فكانت يثرب مركزاً تجارياً مهماً لقبائل غطفان البدوية المتنقلة، كما أن تنافس بعض قبائلها مع رعاة المسلمين على مواضع الكلأ وآبار الماء، أدى إلى نزاعات ومناوشات متكررة. بجانب ذلك كان لقبيلة غطفان حلف مع قريش، فقد ناصرتها في حرب الفِجار قبيل الإسلام عندما كان زعيمها يومذاك عوف بن حارثة المري. هذه العوامل كلها أعطت بعض قبائل غطفان ذريعة في تربص الفرصة المناسبة للهجوم والإغارة على المسلمين في المدينة لنهب مواشيهم، فكان المسلمون لهم بالمرصاد في كبح جماحهم، فأرسلت إليهم السرايا، وقاد الرسول ﷺ غزوات وأرسل سرايا لردّ اعتداءاتهم.

كانت دوافع غطفان في المشاركة في التحالف ذات طابع نفعي خالص، طمعاً في إصابة بعض الغنائم، واستجابة لإغراءات حُيي بن أخطب، ولم تكن لديها مشكلة عميقة مع المسلمين، بل أثبتت التجربة أن المسلمين قادرون على التصالح معها، كما حدث مع عيينة بن حصن، تأميناً للمرعى، وسوف يستثمر النبي تلك العلاقة في التخذيل عن المسلمين في الخندق.

اليهود: الانتقام

من المفيد في هذه المرحلة أن نتوقّف عند موضوع اليهود، لنرى كيف وصلنا إلى هذه المرحلة، وما هي دوافعهم للانضمام إلى التحالف.

كانت اليهودية فاشية في جزيرة العرب قبل الإسلام، وتعددت مراكز وجود القبائل اليهودية، لكنها كانت متمركزة في المدن الواقعة على الطرق التجارية الرئيسة، فكانوا في يثرب وخيبر وتيماء وفدك ووادي القرى وغيرها.

اكتسب اليهود في يثرب مكانة اقتصادية وسياسية وثقافية كبيرة قبل الهجرة؛ إذ شكلوا بإمكاناتهم الاقتصادية، وقدراتهم الحرفية الصناعية، العصب الاقتصادي الرئيس في أسواق يثرب، وعُرفوا بأنهم أمهر الصنّاع والصاغة والتجار، واستفادوا من بيئة يثرب الزراعية، فكانوا الوسيط التجاري لتسويق منتجاتها وتوفير احتياجات أهلها، وكانوا مصدر الإقراض المالي الربوي للمواطنين، يستردون قروضهم وفوائدها في مواسم الحصاد أضعافاً مضاعفة؛ فهم بذلك جماعات وظيفية فاعلة، أثرت ثراءً كبيراً.

سياسياً؛ ارتبطت القبائل اليهودية الثلاث بعلاقات تحالف مع المجموعتين الرئيستين في يثرب: الأوس والخزرج؛ فتحالف يهود بني قينقاع مع الخزرج، وتحالف يهود بني النضير ويهود بني قريظة مع الأوس. ولم يكن هذا التحالف وفقاً لاصطفاف ديني أو أيديولوجي، بل نتيجة قرب مساكن هذه القبائل من هذا الطرف أو ذاك، فقد سكن الأوس منطقة العوالي وإلى جوراهم قريظة والنضير، وسكن الخزرج أسفل المدينة حيث جاوروا بني قينقاع.

ولما كانت العلاقة بين الأوس والخزرج قد مرت بمرحلة عصيبة قبيل الهجرة، لا سيما بعد الحرب الأهلية الطاحنة التي دارت بين الطرفين ـ حرب بعاث ـ فقد استفاد اليهود كأقلية وظيفية من حالة النزاع هذه، وصار لهم ثقل استراتيجي، مكّنهم من السعي في تتويج عبد الله بن أبي ابن سلول، وهو من الخزرج، ملكاً على المدينة، وكان قريباً من اليهود وحليفاً لهم.

القبائل اليهودية الثلاث لم تكن موحّدة سياسياً ولا عسكرياً، بل إن مصالح كل طرف منها كانت الدافع الأهم لتحالفات هذا الطرف أو ذاك؛ غير أنهم ما لبثوا أن اجتمعوا على العداء للدين الجديد، مستشعرين خطر القيادة النبوية الوافدة إلى المدينة، وما تحمله من مشروع وفاق مدني بين كل فئات المجتمع.

ابتداءً كان يُفترض في العلاقة بين اليهود والمسلمين الوافدين إلى المدينة أن تكون إيجابية، ذلك أنهم أهل كتاب، وأتباع شريعة سماوية في وسطٍ وثنيّ، وكانوا يبشرون بمقدم نبيٍّ في آخر الزمان، ويتوعدون أهل يثرب بمقدمه، غير أنهم حسموا أمر العلاقة مع النبي في الساعات الأولى لتعرفهم عليه؛ فقد روت السيدة صفية بنت حيي بن أخطب كيف قرر والدها ـ وكان سيد بني النضير ـ طبيعة العلاقة بين الرسول محمد ﷺ وبين اليهود منذ الوهلة الأولى، فقد حدّثت ـ رضي الله عنها ـ فقالت: «كنتُ أحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حُيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مُغلِسين، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغمّ. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حُيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله!»(1).

أما من جانب الرسول ﷺ، فقد بادرَ اليهود بحسن النية والتواصل؛ إذ وادعهم وكتب بينه وبينهم كتاباً، فأدخلهم في الصحيفة المنظمة للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين واليهود من سكان المدينة، والتي أشرنا إلى بنودها من قبل.

لقد أنزلت الصحيفة يهود المدينة بقبائلهم المختلفة منزلة الحليف للمسلمين، في السلم والحرب، في التعايش اليومي وفي الدفاع المشترك.

من وجهة نظر النبي، فإن بناء علاقة تحالفية مع اليهود وعرب المدينة ضرورية لاستقرار المجتمع الجديد؛ إذ نجحت الصحيفة في دمج المسلمين (أنصاراً ومهاجرين) في نسيج مجتمع المدينة، وتثبيت مكانتهم على قدم المساواة مع القوى المتجذرة التقليدية: الأوس والخزرج، وقبائل اليهود.

هذه البادرة المنفتحة من النبي عليه السلام، والشراكة الاستراتيجية التي مدَّ يده بها إلى اليهود، لم تنجح في إقناعهم بالإخلاص للوضع الجديد في المدينة، بل لم يكلفوا أنفسهم إخفاء نوازع العداء والتشكيك بالقيادة النبوية، ولم يكفوا عن افتعال الأزمات واختلاق المشكلات.

---

(1) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق.

نقطة ضعف اليهود في المدينة كانت في غياب تكتلهم العسكري وتضامنهم السياسي؛ إذ تشير المصادر إلى أن مجموع مقاتلة اليهود من الشباب زادت على ألفي مقاتل، وهو عدد لا بأس به إذا أخذنا بالاعتبار أن عدد جيش المسلمين في بدر بلغ ثلاثمئة ونيفاً، وفي أُحد ألف مقاتل، وفي الخندق ثلاثة آلاف؛ غير أن اليهود كانت تعوزهم القيادة الموحدة، وتعاملت كل عشيرة مع النبي على حدة، فلما أُجلي بنو قينقاع عن المدينة في العام الثاني للهجرة، بعد خرقهم لأحكام الصحيفة، لم ينصرهم من بني النضير وبني قريظة أحد، ولما أجلي بنو النضير إلى خيبر في السنة الرابعة للهجرة بقي بنو قريظة ـ حلفاء الأوس، سكان الحرّة الشرقية ـ وحدهم في المدينة.

وتشير المصادر إلى أن بني قريظة ترددوا في الانضمام إلى التحالف الثلاثي في غزوة الأحزاب في العام الخامس للهجرة، وخافوا من عاقبة نقضهم للعقد مع المسلمين، غير أن حيي بن أخطب زعيم بني النضير، المهندس الأول للتحالف الثلاثي، ألح على زعيم بني قريظة كعب بن أسد، ومنّاه بقرب زوال المسلمين، حتى نزلوا عند رأيه، ونقضوا العهد مع المسلمين: «فضرب عليه حيي الباب فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيي: إني قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طَامٍ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَي إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.. فقال له كعب: جئتني والله بذُلِّ الدهر وبجَهَام قد هَرَاق ماؤه، فهو يرْعِد ويبْرِق، ليس فيه شيء؛ ويحك يا حيي فدعني وما أنَا عليه، فإني لم أرَ من محمد إلا صدقاً ووفاء»(٢). وكان هذا الموقف هو الموقف الصحيح لو أن كعباً ثبت عليه، لكن حيياً لم يزل يحاوره حتى سوّلت له نفسه ولبني قريظة نقض العهد مع النبي.

---

(٢) **عيون الأثر**، مصدر سابق، ج ٢، ص٨٨.

الفصل الثالث عشر

الزلزلة

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]

سارع وفدٌ من خزاعة بإعلام النبي بتحرك قريش، فعقد النبي كعادته مجلساً للشورى، وثار نفس النقاش الذي أُثير قبيل أُحد، هل نخرج من المدينة أم نقاتل فيها؟ لكن المسلمين كانوا أكثر انفتاحاً هذه المرة على اقتراحاتٍ جديدة، فقد علّمتهم أُحد أن يخرجوا من الأنماط التقليدية المعتادة. هنا جاء سلمان الفارسي بفكرة جديدة، فاقترح حفر خندق حول المدينة، وهو ما تعلمه سلمان من أساليب الفرس إذا واجهوا عدواً غازياً، وجغرافية المدينة مناسبة لهذا التكتيك العسكري، فالمدينة محاطة بحرّات ثلاث، هي حرة[(١)] الوبرة وحرة واقم والحرة الجنوبية، وهي أراضٍ بركانية تحيط بالمدينة من الجنوب والشرق والغرب، ولا يمكن للجيوش اختراقها، ثم هناك منازل قريظة وحصونها تملأ الفرجة التي بين «حرة واقم» و«الحرة الجنوبية»، فإذا حفر المسلمون خندقاً من الشمال فستتحول المدينة إلى جزيرة حصينة لا يمكن للعدو اقتحامها.

تقبّل النبي والمسلمون هذه الفكرة، وعلى الفور سارعوا إلى تنفيذها، فلا وقت للتأخير، فحتى يكون الخندق ناجعاً سيصل طوله إلى قرابة خمسة كيلومترات ويبلغ عمقه ثلاثة أمتار وعرضه قريباً من أربعة، وبذلك يصعب على الخيل القفز فوقه، كما لن يتمكّن المشاة من اجتيازه، لا سيما أن نقاط الحراسة ستمتد على طول الخندق، وسيتدخل المسلمون لمنع أية محاولة اختراق. وانتهى المسلمون من حفر الخندق في خمسة عشر يوماً، واستعانوا بأدوات حفر من قريظة، ولا تزال حينها على عهدها مع النبي.

---

(١) الحرة: هي هضبة طويلة ممتدة، فيها مجموعة تلال، وفيها أراضٍ منبسطة، وسميت الحرة لأن جزءاً كبيراً من سطحها مغطّى بصخورٍ وحجارةٍ بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة في الصيف.

كانت عملية الحفر إنجازاً مدهشاً ينم على حسن تنظيم وعلى تفانٍ عظيم في العمل، ويحتاج مثل هذا الإنجاز إلى تنظيم محكم وتوزيع للأدوار وتكامل بين الفرق العاملة، وقبل ذلك يحتاج إلى تخطيط عسكري ميداني. وهذه العناصر جميعاً ليست مما تحسنه قبائل العرب التي اعتادت المواجهات المباشرة، والمبارزات الفردية. وفي هذا تكمن عبقرية فكرة الخندق، فقد تحقق فيها عنصرا الابتكار والمفاجأة.

شارك النبي بنفسه في الحفر، مشِيعاً روحاً من الأمل والاستبشار، وجعل المسلمون يرددون الأشعار ويرتجزون، وهم في غاية الانسجام والتنافس على إنجاز المهمة.

عندما انتهى المسلمون من الحفر كان لديهم خندق وساتر ترابي، ذلك أن التراب الذي أخرجوه من الخندق كان يوضع على جانب الخندق من طرف المدينة، فيعمل ساتراً يحتمي خلفه الجند، ثم جاؤوا بحجارة كثيرة وجعلوها على طول الخندق من جهتهم، ليستخدموها في إعاقة أية محاولة اختراق.

كما أن أهالي المدينة من نساء وأطفال شاركوا هم أيضاً في الجهد الحربيّ، فقاموا بنقل الحجارة وتشبيك المساكن وسد الثغرات حتى صارت المدينة كتلة واحدة، تحسباً لأي طارئ، واستعداداً لرد المعتدين فيما لو وصل بعضهم إلى داخلها، ثم تمّ تحديد بعض الحصون المنيعة كملاجئ جماعية لغير المقاتلين من النساء والأطفال وكبار السن، وتم تحصينها.

وكان المسلمون قد حصدوا الشعير والمحاصيل التي في العِرض، وهو سهل زراعي خارج المدينة، وأدخلوا المحاصيل والتبن حتى لا ترعاها إبل العدو ولا خيله.

بلغ عدد المقاتلين من المسلمين ثلاثة آلاف، وقد تم تقسيمهم إلى مجموعات عسكرية شديدة الانتظام، وبمهام محددة؛ فبعضها يقوم بالحراسة، وبعضها يتمركز في نقاط ثابتة على طول الخندق، وبعضها مجموعات فرسان صغيرة متحركة، تهب لسد محاولات اختراق الخندق ليلاً ونهاراً؛ ثم كلف النبي كتيبة من مئتي مقاتل أن تقوم بدور الدورية المتجولة، تجوب أنحاء المدينة لتتأكد من عدم اختراقها من جهات أخرى. كان التنظيم العسكري للجيش محكماً، تجاوز فيه المسلمون الأخطاء التي وقعوا بها في أُحد، وتعلموا الانضباط والعمل الجماعي والالتزام بالتراتبية القيادية.

مكرٌ لا تعرفه العرب

عندما وصل جيش قريش[2] ومن معها من سُليم في أربعة آلاف، ووصل جيش غطفان وأسد وفيه ستة آلاف مقاتل، فوجئوا بالخندق، وقالوا والله إن هذا مكرٌ لا تعرفه العرب، ولم يكن لهم من حيلةٍ سوى أن يعسكروا خارج الخندق لينظروا ماذا يفعلون، وكان معهم ألفٌ من الخيول وأكثر من ذلك إبلاً، وليس معهم من العلف إلا ما حملوه من ديارهم، ولم يكونوا يتوقعون أن تطول فترة إقامتهم، كما أنهم لم يجدوا في العِرض عوداً ترعاه ماشيتهم وأنعامهم، وهو ما سيصيبها بالهزال والضعف.

اللحظة الأشد خطراً في مسار أحداث غزوة الأحزاب كانت عندما بدأت أنباء غدر بني قريظة تصل إلى معسكر المسلمين، عندها أوفد الرسول ﷺ زعيمي الأوس والخزرج، سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، إلى بني قريظة لتبيُّن الأمر، وطلب منهما ألا يصرّحا أمام بقية المسلمين بالخبر إذا كان صحيحاً، وأن «يلحنوا له لحناً»، أي يتكلموا رمزاً يفهمه هو فقط. فلما جاء السعدان بني قريظة وتحدّثا معهم وجدا أنهم قد نقضوا العهد، فحاولا إقناعهم، لكنهم أبوا، وعرّضوا بالنبي وشتموا المسلمين، وهددوا بأنهم سيقاتلونهم، فعادا إلى معسكر المسلمين، وذكرا أمام النبي اسم القبيلتين اللتين قتلتا أصحابه في بئر معونة (عُضَل والقارة) كناية عن الغدر، فعرف الرسول ﷺ أن قريظة قد غدرت، «فتقنّع بثوبه حين أتاه غَدْر قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً، ويبدو أنه لم يرد أن يرى المسلمون على وجهه الغضب أو القلق، ثم نهض مبشراً يقول: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره»[3].

انتشر خبر غدر بني قريظة، واستغلّ المنافقون الفرصة، فبدؤوا حملة تشكيكٍ ودعاية، فأصاب المسلمين كربٌ شديد؛ إذ إن دخول بني قريظة في حلف الأحزاب يعني عملياً انكشاف المدينة من أسفلها، ويمكن للمشركين اقتحامها من خلال المنطقة التي تقيم فيها قريظة، وما يعنيه ذلك من تعريض النساء والأولاد للإبادة، دون مقدرة عسكرية للمسلمين على رد قوتين مهاجمتين من جانبين مختلفين.

---

(٢) بدأ الحصار يوم الثلاثاء ١٢ شوال من السنة الخامسة للهجرة، الموافق ٦ كانون الثاني/ يناير ٦٢٧م، وانتهى يوم السبت ١ ذو القعدة، الموافق ٢٤ كانون الثاني/يناير، وهو يوم غزو بني قريظة.

(٣) **السيرة النبوية لابن هشام**، ج٢، ص٢٢٢.

صوَّر القرآن الكريم أجواء هذه اللحظة بآياتٍ قوية الدلالةِ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وفعلاً باشرت قريظة عمليات الحرب، كمحاولة التجسس على نساء المسلمين وذراريهم في حصن فارع، ويبدو ذلك جلياً في الحادثة الشهيرة التي روتها صفية بنت عبد المطلب بقولها: «فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنّا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في غور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آتٍ. قالت: فقلت: يا حسان ـ حسان بن ثابت ـ إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا مِنْ يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله.

قال: والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا. قالت: فاحتجزت ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن وقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل، قال: ما لي بسلبه من حاجة»(٤).

ويبدو أن اليهود ظنوا عندما قُتل جاسوسهم ذاك أن هذه الحصون في منعة من الجيش الإسلامي ـ مع أنها كانت خالية منهم تماماً ـ فلم يجترئوا مرة ثانية على القيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون قوات التحالف بالمؤن، كدليلٍ عملي على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى صادر المسلمون من مؤنهم عشرين جملاً.

وزيادةً في تأمين المدينة، أمر النبي كتيبتين، واحدة من مئتي رجل والثانية فيها ثلاثمئة، أنّ تواصلا التجوال في المدينة ليلاً مظهرتين التكبير، تخويفاً لليهود من أن يقتحموا المدينة من جانبهم، لا سيما أنهم علموا بجهود حيي بن أخطب لتسهيل دخول ألفٍ من المشركين عبر حي بني قريظة.

---

(٤) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق.

شق صف العدو

تواصلت جهود النبي لتفريق شمل التحالف وزرع الشقاق بين صفوفه، فوظّف الرسول الدافع المنفعي لدى غطفان بأن اتصل بعيينة بن حصن، وعرض عليه صفقة رابحة، تحقق لغطفان ما أرادته من غنيمة، دون تكبد عناء المواجهة المسلحة، وتُحقق للمسلمين هدفاً استراتيجياً مهماً، يفرق وحدة التحالف الثلاثي: «فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة في ذلك. فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً نحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرًى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا»[٥].

التفاوض مع غطفان، وقبول رؤسائها بثلث ثمار المدينة، يعطي مؤشراً مهماً على أن غطفان قد بدأت تملّ من طول المقام، ومن ثمّ فهي على استعدادٍ للقبول بتسويةٍ تخرج فيها بأقلّ مما وعدهم به حيي بن أخطب، وهو كل تمر المدينة لعامٍ واحد. لكن الاتفاق مع النبي لم يتم. أما زرع الفرقة في التحالف فقد تحققٍ، فأخبار مفاوضات كهذه لا يمكن إخفاؤها، وتسري في مثل هذه الحالات كالنار في الهشيم، ومن مصلحة المسلمين تسريبها، فتُبدد ثقة الأحزاب بعضهم ببعض.

---

(٥) المصدر السابق

ويكشف حوار بين عيينة والحارث بعدما رجعا إلى معسكريهما أنّهما بدءا يدركان الورطة التي وضعا فيها نفسيهما: «فَرَجَعَ عُيَيْنَةُ وَالْحَارِثُ وَهُمَا يَقُولَانِ: وَاللهِ مَا نَرَى أَنْ نُدْرِكَ مِنْهُمْ شَيْئاً، وَلَقَدْ أُنْهِجَتْ لِلْقَوْمِ بَصَائِرُهُمْ! وَاللهِ مَا حَضَرْت إِلّا كُرْهاً لِقَوْمٍ غَلَبُونِي، وَمَا مَقَامُنَا بِشَيْءٍ، مَعَ أَنّ قُرَيْشاً إنْ عَلِمَتْ بِمَا عَرَضْنَا عَلَى مُحَمّدٍ عَرَفْت أَنّا قَدْ خَذَلْنَاهَا وَلَمْ نَنْصُرْهَا. قَالَ عُيَيْنَةُ: هُوَ وَاللهِ ذَلِكَ! قَالَ الْحَارِثُ: أَمَا إنّا لَمْ نُصِبْ بِتَعَرّضِنَا لِنَصْرِ قُرَيْشٍ عَلَى مُحَمّدٍ، وَاللهِ لَئِنْ ظَهَرَتْ قُرَيْشٌ عَلَى مُحَمّدٍ لَيَكُونَن الْأَمْرُ فِيهَا دُونَ سَائِرِ الْعَرَبِ، مَعَ أَنّي أَرَى أَمْرَ مُحَمّدٍ أَمْراً ظَاهِراً؛ وَاللهِ لَقَدْ كَانَ أَحْبَارُ يَهُودِ خَيْبَرَ وَإِنّهُمْ يُحَدّثُونَ أَنّهُمْ يَجِدُونَ فِي كُتُبِهِمْ أَنّهُ يُبْعَثُ نَبِيّ مِن الْحَرَمِ عَلَى صِفَتِهِ. قَالَ عُيَيْنَةُ: إنّا وَاللهِ مَا جِئْنَا نَنْصُرُ قُرَيْشاً، وَلَو اسْتَنْصَرْنَا قُرَيْشاً مَا نَصَرَتْنَا وَلَا خَرَجْت مَعَنَا مِنْ حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تَمْرَ الْمَدِينَةِ فَيَكُونُ لَنَا بِهِ ذِكْرٌ مَعَ مَا لَنَا فِيهِ مِنْ مَنْفَعَةِ الْغَنِيمَةِ، مَعَ أَنّا نَنْصُرُ حُلَفَاءَنَا مِن الْيَهُودِ فَهُمْ جَلَبُونَا إلى مَا هَهُنَا. قَالَ الْحَارِثُ: قَدْ وَاللهِ أَبَت الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ إلّا السّيْفَ، وَاللهِ لَتُقَاتِلُنّ عَنْ هَذَا السّعَفِ مَا بَقِيَ مِنْهَا رَجُلٌ مقيم، وقد أجدب الْجَنَابُ وَهَلَكَ الْخُفّ وَالْكُرَاعُ[6]. قَالَ عُيَيْنَةُ: لَا شَيْءَ. فَلَمّا أَتَيَا مَنْزِلَهُمَا جَاءَتْهُمَا غَطَفَانُ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكُمْ؟ قَالُوا: لَمْ يَتِمّ الْأَمْرُ، رَأَيْنَا قَوْماً عَلَى بَصِيرَةٍ وَبَذْلِ أَنْفُسِهِمْ دُونَ صَاحِبِهِمْ، وَقَدْ هَلَكْنَا وَهَلَكَتْ قُرَيْشٌ، وَقُرَيْشٌ تَنْصَرِفُ وَلَا تُكَلّمُ مُحَمّداً! وَإِنّمَا يَقَعُ حَرّ مُحَمّدٍ بِبَنِي قُرَيْظَةَ، إِذَا وَلّيْنَا جَثَمَ عَلَيْهِمْ فَحَصَرَهُمْ جُمُعَةً حَتّى يُعْطُوا بِأَيْدِيهِمْ. قَالَ الْحَارِثُ: بُعْداً وَسُحْقاً! مُحَمّدٌ أَحَبّ إلَيْنَا مِن الْيَهُود»[7].

في هذه الأثناء استمرت محاولات المشركين اقتحام الخندق عبر كرٍّ وفرٍّ تنفذه مجموعات من الخيالة ليلاً ونهاراً، لكن المسلمين يردونهم ويقاتلونهم بالحجارة والنبل، يتناوبون حراسة الخندق في أجواء بردٍ شديدٍ وجوع، واستمرت مجموعاتٌ من قريظة تحاول القيام بأعمالٍ عدائية، والمنافقون قد ازداد أذاهم، وطفقوا يبثون الإشاعات، وبلغ الخوف من الناس مبلغاً لم يعهدوه من قبل، فتقول أم سلمة: «قَدْ شَهِدْت مَعَهُ ـ أي النبي ـ مَشَاهِدَ فِيهَا قِتَالٌ

---

(٦) يقصد الإبل والخيل.

(٧) مغازي الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٨٠.

وَخَوْفٌ ـ الْمُرَيْسِيعَ، وَخَيْبَر، وَكُنّا بِالْحُدَيْبِيَةِ، وَفِي الْفَتْحِ، وَحُنَيْنٍ ـ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ أَتْعَبُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا أَخْوَفُ عِنْدَنَا مِنَ الْخَنْدَقِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِي مِثْلِ الْحَرَجَةِ ـ الشجرة كثيرة الأغصان ـ وَأَنّ قُرَيْظَةَ لَا نَأْمَنُهَا عَلَى الذّرَارِيّ، وَالْمَدِينَةُ تُحْرَسُ حَتّى الصّبَاحِ، يُسْمَعُ تَكْبِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا حتى يصبحوا»(٨). وقد صور القرآن الكريم الحالة التي وصلها المسلمون خير تصوير في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

حقيقة دور نعيم بن مسعود

تذكر كثير من كتب السيرة دوراً لنعيم بن مسعود الأشجعي، وتنقل على لسانه رواية تقول إنه هو من خالف بين الأحزاب، وإنه وضع لذلك حيلة ناجعة. وسوف ننقل الرواية التي نقلت على لسانه، ثم نخضعها للفحص والتحليل، لكي نفهم وبشكلٍ أدقّ كيف استطاع النبي تفكيك التحالف بين قريش وبني قريظة.

نص الرواية كما وردت في مغازي الواقدي يقول: «قَالَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ: كَانَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ أَهْلَ شَرَفٍ وَأَمْوَالٍ، وَكُنّا قَوْماً عَرَباً، لَا نَخْلَ لَنَا وَلَا كَرْمَ، وَإِنّمَا نَحْنُ أَهْلُ شَاةٍ وَبَعِيرٍ، فَكُنْت أَقْدَمُ عَلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، فَأُقِيمُ عِنْدَهُم الْأَيّامَ، أَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِمْ وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِمْ، ثُمّ يُحَمّلُونَنِي تَمْراً عَلَى رِكَابِي مَا كَانَتْ، فَأَرْجِعُ إلى أَهْلِي. فَلَمّا سَارَت الْأَحْزَابُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِرْت مَعَ قَوْمِي، وَأَنَا عَلَى دِينِي، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَارِفاً، فَأَقَامَت الْأَحْزَابُ مَا أَقَامَتْ حَتّى أَجْدَبَ الْجَنَابُ وَهَلَكَ الْخُفّ وَالْكُرَاعُ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قَلْبِي الْإِسْلَامَ. وَكَتَمْت قَوْمِي إسْلَامِي فَأَخْرُجُ حتى آتي رسول الله ﷺ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ وَأَجِدُهُ يُصَلّي، فَلَمّا رَآنِي جَلَسَ ثُمّ قَالَ: مَا جَاءَ بِك يَا نُعَيْمُ؟ قُلْت: إنّي جِئْت أُصَدّقُك وَأَشْهَدُ أَنّ مَا جِئْت بِهِ حَقّ، فَمُرْنِي بِمَا شئت يا رسول الله، فوالله لَا تَأْمُرُنِي بِأَمْرٍ إلّا مَضَيْت لَهُ، قَوْمِي لَا يَعْلَمُونَ بِإِسْلَامِي وَلَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: مَا اسْتَطَعْت أَنْ تُخَذّلَ النّاسَ فَخَذّلْ! قَالَ: قُلْت: أفعل، ولكن يَا

(٨) المصدر السابق.

رَسُولَ اللهِ أَقُولُ فأْذَنْ لِي. قَالَ: «**قُلْ مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلّ**»». وتذهب الرواية ـ وهي طويلة[٩] ـ إلى أن نعيماً تواصل مع بني قريظة مشككاً إياهم في صلابة موقف قريش، فزرع في نفوسهم الشك، ثم ذهب إلى أبي سفيان فشككه في موقف بني قريظة، وأنهم قد ندموا على نقضهم العهد مع النبي، ثم انهار التحالف على إثر طلب بني قريظة رهائن من قريش ليتوثقوا من صلابة موقفهم.

هذه الرواية فيها تضخيم لدور شخصٍ واحد بعينه، وأحداث الخندق كما أوردناها كانت أكثر تعقيداً من دور رجلٍ واحد، بل هي سلسلة من المفاجآت والتحصينات والإجراءات والمفاوضات، وإن كان هناك دور لشخص فيكون ضمن خطوات متعددة، وليس شخصاً بعينه، فكيف إن كان الشخص هو نُعيم بن مسعود الأشجعي، الذي قدم مع غطفان في جيشها؟

إلا أن رواية أخرى ذكرها الزُّهري تبدو أكثر دقة وأقوى إسناداً وأحسن وصفاً لما وقع من أمر نعيم بن مسعود، وسنذكرها هنا بتمامها كما وردت في **مصنّف عبد الرزاق الصنعاني** عن الزهري، وهو أكثر رواة السيرة ضبطاً:

«قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ: فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ، وَكَانَ يَأْمَنُهُ الْفَرِيقَانِ، كَانَ مُوادِعاً لَهُمَا، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ عِنْدَ عُيَيْنَةَ وَأَبِي سُفْيَانَ إِذْ جَاءَهُمْ رَسُولُ بَنِي قُرَيْظَةَ: أَنِ اثْبُتُوا، فَإِنَّا سَنُخَالِفُ الْمُسْلِمِينَ إلى بَيْضَتِهِمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ**». وَكَانَ نُعَيْمٌ رَجُلاً لَا يَكْتُمُ الْحَدِيثَ، فَقَامَ بِكَلِمَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجَاءَهُ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ مِنَ اللهِ فَأَمْضِهِ، وَإِنْ كَانَ رَأْياً مِنْكَ فَإِنَّ شَأْنَ قُرَيْشٍ وَبَنِي قُرَيْظَةَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْكَ فِيهِ مَقَالٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَيَّ الرَّجُلَ، رُدُّوهُ**»، فَرَدُّوهُ، فَقَالَ: «**انْظُرِ الَّذِي ذَكَرْنَا لَكَ، فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ**»، فَإِنَّمَا أَغْرَاهُ فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى عُيَيْنَةَ وَأَبَا سُفْيَانَ فَقَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ مِنْ مُحَمَّدٍ يَقُولُ قَوْلاً إِلَّا كَانَ حَقّاً؟ قَالَا: لَا. قَالَ: فَإِنِّي لَمَّا ذَكَرْتُ لَهُ شَأْنَ قُرَيْظَةَ قَالَ: فَلَعَلَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: سَنَعْلَمُ ذَلِكَ إِنْ كَانَ مَكْراً، فَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ أَنَّكُمْ قَدْ أَمَرْتُمُونَا أَنْ نَثْبُتَ، وَأَنَّكُمْ سَتُخَالِفُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيْضَتِهِمْ،

(٩) انظر: مغازي الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٨٠.

فَأَعْطُونا بِذَلِكَ رَهِينَةً، فَقَالُوا: إِنَّهَا قَدْ دَخلَتْ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَإِنَّا لَا نَقْضِي فِي السَّبْتِ شَيْئاً، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: إِنَّكُمْ فِي مَكْرٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَارْتَحِلُوا. وَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، فَأَطْفَأَتْ نِيرَانَهُمْ وَقَطَعَتْ أَرْسَانَ خُيُولِهِمْ، وَانْطَلَقُوا مُنْهَزِمِينَ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ. قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: «**وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**»[١٠].

وتعزز هذه الرواية رواية أخرى عن عائشة تقول فيها: «كان نعيم رجلاً نموماً (يسعى بالنميمة)، فدعاه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: إن يهود قد بعثتْ إليّ إن كان يرضيك عنّا أن تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك فتقتلهم، فخرج من عند رسول الله ـ ﷺ ـ فأتاهم فأخبرهم ذلك، فلما ولى نعيم قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**إنما الحرب خدعة**»»[١١].

التحليل الموضوعيّ للأحداث في الأيام الأخيرة التي سبقت انهيار التحالف يكشف لنا أن انهياره لم يكن جهد نعيم بن مسعود، بل هو حصيلة صمود المسلمين وتخطيط النبي المحكم. و«**الحرب خدعة**»[١٢] كما قال النبي. فقد كان واضحاً من حيث مجريات الأمور أنّ الثقة بين الأحزاب أخذت تتهاوى، وقد أراد النبي أن يعزز هذا الشك في حواره مع نعيم بن مسعود، وهو رجل ينقل الحديث، ونستنتج من رواية الزهري أنه لم يكن قد أسلم بعد، لكنه كان موادعاً للطرفين، فقد كان أعرابياً ذا تجارة صغيرة، تقتضي منه التجوال بين مكة والمدينة، وله صلاتٌ قوية بأبي سفيان، وقد أوردنا سابقاً كيف أرسله أبو سفيان في مهمّة تضليل لبث الخوف في نفوس المسلمين وصرفهم عن المسير إلى بدر الموعد، وقد ورد ذكره في عددٍ من المصادر التي تربطه باليهود، لا سيما بني النضير وبني قريظة، فعلى الأرجح أنّ نعيماً جاء إلى النبي ليتحسس رد فعل المسلمين على نقض بني قريظة للعهد، فجاء رد النبي ملغزاً وفي غاية الذكاء، فقال: «فلعلنا أمرناهم بذلك»، لعلم النبي أن نعيماً لا يكتم الحديث، بل سيشيعه على الفور، وهذا ما وقع بالضبط، فلما وصل الخبر إلى أبي سفيان، المتشكك أصلاً في إخلاص بني قريظة للأحزاب، أراد أن يختبر هذه

---

(١٠) عبد الرزاق الصنعاني، **المصنّف** (الهند، المجلس العلمي، ط٢، ١٩٨٣)، ج ٥، ص٣٦٧.

(١١) **دلائل النبوة**، مصدر سابق، ج ٣، ص٤٤٧.

(١٢) متفق عليه، رواه الشيخان في صحيحيهما.

المعلومة التي جاء بها نعيم، فأرسل من يطلب من بني قريظة رهينة دليلاً على صدقهم، لكنهم أبوا متعذرين بالسبت، فازدادت الفرقة بين الطرفين وانهار التحالف.

مَن يُحاصر مَن؟

كان لصمود المسلمين وثباتهم قرابة شهر من الزمان، والمناورات السياسية الرامية إلى تفكيك التحالف، كالتفاوض بين النبي عليه الصلاة والسلام وزعماء غطفان، وارتفاع تكاليف الحصار على الأحزاب، وتردد بني قريظة في فتح أبوابهم للمشركين، ثم الريح الشديدة والبرد.. كان ذلك كله بمكانة أسباب أدت إلى انهيار معنويات التحالف.

جيش كبير تعداده عشرة آلاف مقاتل، ظن قادته أن المعركة لن تكون إلا نزهة تطول أياماً قليلة، فاجأهم الخندق على غير إعدادٍ وتوقع، فأقاموا معسكرهم بأرضٍ قاحلة، قرابة شهر كامل، لا يستطيعون تقدماً بسبب الخندق، ولا تراجعاً خوفاً من الهزيمة، والفصل شتاء شديد البرودة، وأهل مكة قوم اعتادوا دفء بلدهم.

جيش يعاني انسداداً في الأفق الزمني، هو جيش لا يحاصر المسلمين، بل إنه هو المحاصر، فالمسلمون في مدينتهم ويقاتلون على أرضهم، ومهما طال الحصار ونقصت المؤن، فلا خيار لديهم إلا الصمود، لأنهم يعرفون أن عاقبة الهزيمة ماحقة.

الأمل الوحيد للأحزاب كان في إقناع بني قريظة بالدخول الفوري في المعركة، غير أن بني قريظة كانوا مترددين لأسباب وجيهة، فتعللوا بالسبت وما فيه عندهم من حرمة، وعدم قدرتهم ـ لأسباب شرعية ـ على القيام بأي عمل في السبت، عندها غضب أبو سفيان وأدرك أن تحالفه مع بني قريظة لا يُعوّل عليه، فلما بعث الله ﷻ الريح العاصفة على معسكر المشركين في تلك الليلة، حينها اتخذ أبو سفيان القرار الحاسم بتجرّع كأس الهزيمة، والعودة في التو إلى مكة قائلاً: «يا معشر قريش إنكم لستم بدار مقام، لقد هلك الخف والحافر وأجدب الجناب وأخلفتنا بنو قريظة، ولقد لقينا من الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل. وقام فجلس على بعيره وهو معقول ثم ضربه فوثب على ثلاث قوائم، فما أطلق عقاله إلا بعدما قام، وجعل الناس يرحلون وأبو سفيان قائم

حتى خف العسكر، فأقام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد في مئتي فارس ساقة للعسكر ورداءاً لهم مخافة الطلب»[١٣].

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

(١٣) **الطبقات الكبرى**، مصدر سابق.

الفصل الرابع عشر

انقلاب استراتيجي

«الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» (حديث شريف)

معركة الخندق كانت نقطة فاصلة بين عهدين في تاريخ الدعوة الإسلامية، ونتائجها غيرت خارطة موازين القوى في الجزيرة العربية، وأحدثت هزة كبيرة في النظام السياسي والتوازن الاستراتيجي الذي امتد منذ الهجرة وحتى الهزيمة المنكرة للأحزاب. فجيش الأحزاب الجرار كان الأضخم في تاريخ الصراع بين المسلمين وأعدائهم من الناحية العسكرية، والأهم سياسياً من حيث اجتماع القبائل وتحالفها ضد المسلمين، وفشلُ مثل هذا التحالف المدجج كان يعني هزيمةً عسكرية وسياسية لا تدانيها هزيمة.

قريش تستجدي

عادت قريش مهزومة منكسرة، ما يعني مشكلات سياسية واقتصادية وتنظيمية كبيرة ستواجهها مكة على الفور، وهي كالتالي:

سياسياً ضُربت هيبة قريش، وبدأت القبائل العربية تستعظم قوة المسلمين وتستصغر قوة قريش، كما أن التحالف مع غطفان واليهود لم يعد قائماً، ويبدو أن التحالف تصدّع في الحقيقة قبيل قرار الانسحاب الذي اتخذه أبو سفيان، ويبدو ذلك جلياً من العبارات الغاضبة التي تفوّه بها أبو سفيان ضد اليهود بعد أن تبين له تردد بني قريظة، كما أنّ تفاوض غطفان الأحادي مع الرسول ضرب الثقة بين قريش وغطفان. ومن الملاحظ أنّ المصادر قد أرجعت قرار الانسحاب إلى أبي سفيان دون غيره من زعماء غطفان وقادة اليهود، ما يشير إلى اضطراب العلاقة القيادية بين الأطراف الثلاثة.

أما **اقتصادياً** فلا أمل الآن في فتح طرق القوافل بين مكة وكلٍّ من الشام

واليمن، فجند المسلمين سيواصلون اعتراض القوافل على الفور، ويُحكمون الحصار الاقتصادي على مكة، لدرجة دفعت أهلها بعد شهورٍ قليلة إلى استجداء الرسول ﷺ ومناشدته بالأرحام، أن يفكّ ضائقتهم الاقتصادية بعد الغلاء الفاحش الذي أصاب القمح، فقد ورد في كتب السيرة ذكر حادثة معبّرة تدعو إلى التأمُّل فيما وصل إليه وضع أهل مكة بعد الخندق؛ لنقرأ ما أورده ابن إسحاق عن قصة سيد اليمامة ثُمامة بن أثال: «عن أبي هريرة قال: كان إسلام ثمامة بن أثال الحنفي أن رسول الله ﷺ دعا الله حين عرض لرسول الله ﷺ بما عرض أن يمكّنه منه، وكان عرض لرسول الله وهو مشرك فأراد قتله فأقبل ثمامة معتمراً، وهو على شِركِه حتى دخل المدينة فتحيّر فيها حتى أُخذ فأُتي به رسول الله ﷺ فأمر به فرُبِط إلى عمود من أعمدة المسجد، فخرج رسول الله ﷺ عليه فقال: ما لك يا ثمام، هل أمكن الله منك؟ فقال: قد كان ذلك يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر، وإن تسأل مالاً تعطه. فمضى رسول الله ﷺ وتركه حتى إذا كان من الغد مرّ به فقال: ما لك يا ثمام؟ قال: خيراً يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر، وإن تسأل مالاً تُعطه. ثم انصرف رسول الله ﷺ. قال أبو هريرة: فجعلنا المساكين نقول بيننا: ما نصنع بدم ثمامة، والله لأكلةٍ من جزورٍ سمينة من فدائه أحبّ إلينا من دم ثمامة، فلما كان من الغد مرّ به رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا ثمامة؟ قال: خيراً يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تعفُ تعفُ عن شاكر، وإن تسأل مالاً تعطه؛ فقال رسول الله ﷺ: أطلقوه قد عفوت عنك يا ثمامة.

فخرج ثمامة حتى أتى حائطاً من حيطان المدينة فاغتسل فيها وتطهّر وطهر ثيابه ثم جاء إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد فقال: يا محمد لقد كنت وما وجهٌ أبغض إلي من وجهك ولا دين أبغض إلي من دينك ولا بلد أبغض إلي من بلدك، ثم لقد أصبحت وما وجهٌ أحبَّ إليّ من وجهك، ولا دين أحب إلي من دينك، ولا بلد أحب إلي من بلدك؛ وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا رسول الله إني كنت خرجت معتمراً وأنا على دين قومي فأسرني أصحابك في عمرتي، فسيرني صلى الله عليك في عمرتي. فسيّره رسول الله ﷺ في عمرته وعلّمه، فخرج معتمراً، فلما قدم مكة وسمعته قريش يتكلم بأمر محمد قالوا: صبأ ثمامة، فقال: والله ما صبأت، ولكنني أسلمت وصدّقت محمداً وآمنت به، والذي نفس ثمامة بيده لا تأتيكم حبة من اليمامة ـ وكانت ريف أهل مكة ـ حتى يأذن بها رسول الله ﷺ.

وانصرف إلى بلده ومنع الحمل إلى مكة، فجهدت قريش.. كانت ميرة[1] قريش ومنافعهم من اليمامة. ثم خرج فحبس عنهم ما كان يأتيهم منها من ميرتهم ومنافعهم، فلما أضر بهم كتبوا إلى رسول الله ﷺ إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحض عليها، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضر بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل، فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن خلِّ بين قومي وبين ميرتهم»[2].

القصة بتفاصيلها تدل على أن قريشاً قد بلغت من الجهد والحاجة ما يدفعها للكتابة إلى الرسول ﷺ تناشده بالأرحام. هذا بعد شهورٍ قليلة من حصار قريش للمسلمين في المدينة دون مراعاة للأرحام. وفي استجابة النبي الكريم لطلب قريش رسالة إلى أهل مكة، فهو اليوم الآمر الناهي في أقواتهم، ولم يعد المسلمون قوة هامشية معزولة فرّ أفرادها من مكة مخلفين أموالهم وأملاكهم، ثم إنّ النبي بدا لأهل مكة القائد الجواد المتسامح الذي لم يذكّرهم بقطيعتهم هم للأرحام، وبما أقدموا عليه قبل شهورٍ قليلة من حشد للعرب لاستئصال المسلمين، وفيهم إخوانهم وأبناء عمومتهم من المهاجرين. لم يشأ النبي أن يرد القطيعة بالقطيعة، بل يأمر باستئناف تجارة القمح مع قريش، فالنبي في منطلقه يقوم بدوره الرسالي، فهو بشير ونذير، وهو رحمة للعالمين، كما أنه يؤسس في أوساط أهل مكة من الناس العاديين لمرحلة قادمة، يوضع له فيها القبول بديلاً عن القيادة القرشية الفاشلة. وسنرى بعد قليل كيف أن حادثة ثمامة لم تكن بمعزل عن نهج مستمر سيلتزم به الرسول ﷺ في التعامل مع قريش بعد الخندق.

على مستوى قيادة قريش، تعرّضت قيادة أبي سفيان لمزيدٍ من الاهتزاز، فهزيمة الخندق أضعفت أبا سفيان، الذي لم يفلح حتى الآن في الانتصار على المسلمين، بل لا يزال الصف الإسلامي يزداد قوة ومنعة عاماً بعد عام، والقيادة المكية عاجزة أمام المسلمين، يلاحقها الفشل بعد الفشل، وهو ما زاد من نفوذ قيادات الصف الثاني بمكة، وعلى رأسهم عكرمة بن أبي جهل، الذي آلت إليه زعامة بني مخزوم بعد مقتل أبيه في بدر، وصفوان بن أمية وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم.

---

(١) أي أطعمتهم، وهي القمح غالباً.

(٢) راجع: ابن هشام.

غير أن تلك القيادة الشابة لم يكن لديها برنامج حقيقي، فلم تقدم اقتراحات عملية لتغيير مجرى الصراع واستعادة زمام المبادرة ضد المسلمين، بل اكتفت بقدر من الخطاب التعبوي المتشدد.

غطفان تنكفئ

أما المكوّن الثاني في التحالف فكان غطفان، وبعودة قبائل غطفان إلى بواديها، فإن خطرها الاستراتيجي لم يعد ذا تأثير كبير في مجرى الصراع. قبائل بدوية متنقلة، يهمها المرعى والتحالفات القبلية اللازمة للحل والترحال، وهي قبائل تحترف الغزو بقصد الغنائم، وصراعها مع المسلمين لم يكن صراع وجود، ولكن زعماء خيبر سيعرضون بعد الخندق على غطفان صفقة مغرية من أجل حماية خيبر؛ فقد ورد أن اليهود عرضوا على غطفان نصف ثمار خيبر إن هم أمدوهم بالقوة اللازمة لرد المسلمين، ولكنهم سيترددون، وعندما يشاركون في نهاية المطاف تكون مشاركتهم ضعيفة ومتأخرة.

قريظة تدفع الثمن

بعد انفضاض الأحزاب عاد اليهود إلى خيبر ما عدا حيي بن أخطب، الذي دخل مع بني قريظة في حصونهم وفاء بوعد قطعه على نفسه. وخيبر ذات قوة اقتصادية كبيرة، وأدرك قادتها أنهم قد انكشفوا استراتيجياً في صراعهم مع المسلمين، فبدؤوا بترميم حصونهم، وباشروا الاتصال بقبائل غطفان لعقد تحالفات جديدة تؤمّن لهم قدراً من الحماية. أما بنو قريظة فقد أيقنوا بالهلاك بعد خيانتهم للعهد، وما لبث العقاب أن جاءهم على لسان سعد بن معاذ زعيم حلفائهم من الأوس، وكانوا قد ارتضوه حكماً بعد أن أطبق المسلمون الحصار عليهم، وقضى سعد بأن تُقتل مقاتلتهم وتُسبى ذراريهم وتُقسّم أموالهم، في عقوبةٍ غير مسبوقة، لكنها ترسل رسالة إلى القبائل العربية بأن عهداً جديداً من القوة والمبادرة والحزم قد انطلق في المدينة، وأن جزاء بني قريظة لن يكون بعيداً عمن تسول له نفسه الاستخفاف بالمسلمين وخيانة عهده معهم.

أما عن أعداد من قُتل من بني قريظة فلن نخوض فيها هنا، حتى لا نخرج عن السياق الاستراتيجي الذي قصدناه في هذا الكتاب، إلا أن الأمر يحتاج مزيداً من البحث، فقد أثبت القرآن الكريم القتل والأسر في قوله ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ

ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦]، أما رواة السيرة فقد اختلفوا في أعداد من قتل منهم، فمنهم من يقول ثلاثمئة، ومنهم من يوصل العدد إلى سبعمئة، وآخرون يقولون تسعمئة؛ بينما نقل ابن زنجويه صاحب كتاب **الأموال**[٣] بسنده عن ابن شهاب أنهم كانوا أربعين. وهذا تباين واسع. وعلى العموم يحتاج الأمر إلى بحثٍ وتدقيق، وكم في السيرة من مواقف وأحداث في مسيس الحاجة لبحوثٍ معمقة تنجلي فيها الحقائق والمواقف، وهذا مما ينبغي أن يخصص له الباحثون جهداً ووقتاً لأهميته، فالسيرة النبوية مصدر تشريع وإلهام، والمسلمون أمة تحب نبيها وتقتدي به، لكن الجهد المبذول في السيرة يغلّب النقل والتكرار، فما أحوجنا لمناهج ندرس فيها السيرة بعمق، فندقق في الحقائق ثم نضعها في سياقاتها.

استراتيجية جديدة

أدرك رسول الله ﷺ أن هزيمة الأحزاب قد خلقت واقعاً جديداً، وأنّ موازين القوى ـ العسكرية والسياسية ـ بدأت تميل لمصلحة المسلمين، فهم بذلك قد دخلوا عهداً جديداً، لخّصه الرسول ﷺ بقوله: «من اليوم نغزوهم ولا يغزوننا»، فهم ـ المشركين ـ غير قادرين على مواصلة مشروعهم الهجومي بعدما وصل أوج قوته العسكرية والسياسية في الخندق، فانهزم المشروع عسكرياً، وتفتت التحالف سياسياً، فنتج عن ذلك فراغ استراتيجي كبير ومفاجئ، لا تعرف قريش ولا غطفان كيف يُملأ.

وفي الحقيقة لم يكن لتحالفهما أن يعود إلى التماسك بعد الهزيمة المنكرة في الخندق، وسمعة قريش وغطفان تعرضت لضربة قاصمة في الجزيرة العربية، لا سيما بعدما أصاب بني قريظة. وأحسب أن قريشاً وغطفان قد عضّتا أصابع الندم بعدما وصلت أخبار مقتلة بني قريظة؛ إذ أدركوا حينها أن شكوكهم ببني قريظة لم تكن صحيحة، فلم يكن صحيحاً أنّ بني قريظة قد ندموا لنقضهم العهد مع النبي كما أخبرهم نعيم بن مسعود، لقد غُرر بهم وتم التلاعب بعقولهم، وفي ذلك إخفاق استخباري وسياسي كبيران، كما أن خذلان قريش وغطفان

---

(٣) ابن زنجويه، حمد بن مخلد بن قتيبة الخرساني، **كتاب الأموال** (الرياض؛ السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٦).

لبني قريظة وإسلامهم لسيوف المسلمين فيه انتقاصٌ لمكانة قريش وغطفان بين بقية القبائل العربية؛ فمن ذا الذي يمكن أن تسوّل له نفسه أن يغدر برسول الله بعد اليوم، ومن يمكنه أن يثق بتحالف مع المشركين بعدما أسلموا حلفاءهم لمصيرهم المحتوم؟

أدرك النبي حجم الهزيمة التي لحقت بالأحزاب، وحجم الفراغ الاستراتيجي الذي نشأ عن اندحار مشروعهم، وأدرك أن قادة المشركين واليهود غير قادرين على بلورة رؤية جديدة، فكلٌّ في شغلٍ يلهيه عن تجاوز تداعيات الهزيمة. عندها قرر الرسول أن يعاجلهم بملء الفراغ، وأن ينتقل من رد الفعل إلى الفعل، أو من الدفاع إلى المبادرة، فهو من يمكن أن يبدأهم بغزو عسكري، وهو من يمكن أن يبادرهم بمبادرة سياسية.

وهذا بالضبط ما كان.

الاجتياح الكبير

تعتبر الفترة بين ذي القعدة من العام الخامس للهجرة إلى ذي القعدة من العام السادس أكثر الأعوام انطلاقاً وحراكاً عسكرياً شهدته المدينة منذ قدم عليها النبي ﷺ. كانت المبادرة خلالها للمسلمين؛ تحقيقاً للاستراتيجية الجديدة التي أعلن عنها النبي بعد الخندق: «من اليوم نغزوهم ولا يغزوننا»، فهي استراتيجية هجومية بامتياز. فبعد انفضاض الأحزاب في الخندق، والقضاء على بني قريظة في المدينة، كان واضحاً للمسلمين أن الهدف القادم هو تعزيز النطاق الأمني للمدينة وتثبيت سيطرتها في محاور ثلاثة:

الأول باتجاه خيبر. صحيح أن خيبر سوف تُفتح بعد الحديبية، لكن رصد تحركاتها واتصالاتها بغطفان وغيرهم تدل على أنها بدأت تُعِدّ العدة لعمل عسكري ضد المدينة؛ إذاً خيبر هدفٌ استراتيجي رئيس في هذه المرحلة.

المحور الثاني يتمثل في نجد وأعرابها ممن لا يزالون يتجمعون هنا وهناك لغزو أطراف المدينة والاعتداء على مواشيها وزروعها.

والمحور الثالث تأمين الساحل وسد الثغرات التي حاولت قريش فتحها بعد الخندق من أجل الالتفاف على الحصار واستئناف تجارتها.

نظّم النبي في هذا العام خمس عشرة بعثة عسكرية وأمنية، غطت هذه

المحاور الثلاثة بشكل مكثف وغير مألوف، ولم يحدث له مثيل في الأعوام السابقة، ونشهد هذا العام ازدياداً كبيراً، ليس في العدد وحسب، بل وفي نوعية العمل العسكري أيضاً؛ فقد كان النقص الأهم في جيش المسلمين هو في عدد الخيول، أما وإن الاستراتيجية الهجومية تحتاج مباغتة وكراً وفراً، فالخيل ضرورة ملحة. وتذكر المصادر أن النبي أوفد عدداً من الصحابة بعد الخندق إلى نجد لشراء السلاح والخيول، فعادوا بكثيرٍ منها، وأطلقوها في المدينة، وانتظمت دورات الفروسية، وبدأ الصحابة يتقنون فنونها، ولذلك سنشهد هذا العام ولأول مرة سرايا كلها من الفرسان، وسوف يجوب قادة شباب مثل زيد بن حارثة ومحمد بن مسلمة أطراف الجزيرة بسرعة وكفاءة.

خيبر: هدف مؤجل

قلنا إن الخطر الاستراتيجي الأكبر على المدينة في هذه المرحلة مصدره خيبر، وقد تنوعت إجراءات احتواء هذا الخطر ومحاصرته، فرأينا تصعيداً محدوداً من النبي باتجاه خيبر بهدف إرباكها وإخافتها، فنُفذت عمليتان تم فيهما استهداف شخصيتين ممن كانوا يقودون التحشيد ضد المسلمين، وهما سلام بن أبي العقيق، الذي قتلته بعثة من ستة مسلمين تسللوا ليلاً وأجهزوا عليه في بيته ثم انسلُّوا عائدين، وكذلك يسير بن رزام، وقتلته سرية من ثلاثين شخصاً بقيادة عبد الله بن رواحة.

من ناحية ثانية، استهدف المسلمون كل حلفاء خيبر، لكي يعزلوها ويتركوها وحيدة جاهزة لكي تُفتح.

كانت خيبر تتواصل مع جهاتٍ متعددة طمعاً في التحالف والمدد؛ اثنتين في الشمال الشرقي هما فدك ودومة الجندل، ثم تيماء ووادي القرى، إضافة إلى الطرف التقليدي المعتاد غطفان. ونفهم من رواية نقلها لنا الواقدي أن أهل خيبر اجتمعوا بعدما وصلتهم أخبار ما وقع لبني قريظة من القتل، فخافوا وتباحثوا مع زعيمهم في أفضل الحلول. ويتضح لنا من النص كيف كانت خيبر تفكر في تلك المرحلة، لذلك سننقل الرواية بتمامها: «وَفَزِعَت الْيَهُودُ إلى سَلاّمِ بْنِ مِشْكَم فَقَالُوا: فَمَا الرّأْيُ أَبَا عَمْرٍو؟ وَيُقَالُ أَبَا الْحَكَم. قَالَ: وَمَا تَصْنَعُونَ بِرَأْيٍ لَا تَأْخُذُونَ مِنْهُ حَرْفاً؟ قَالَ كِنَانَةُ: لَيْسَ هَذَا بِحِينِ عِتَابٍ، قَدْ صَارَ الْأَمْرُ إلى مَا تَرَى. قَالَ: مُحَمّدٌ قَدْ فَرَغَ مِنْ يَهُودِ يَثْرِبَ، وَهُوَ سَائِرٌ إلَيْكُمْ،

فَنازِلٌ بِسَاحَتِكُمْ، وَصَانِعٌ بِكُمْ مَا صَنَعَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ. قَالُوا: فَمَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: نَسِيرُ إِلَيْهِ بِمَنْ مَعَنَا مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ، فَلَهُمْ عَدَدٌ، وَنَسْتَجْلِبُ يَهُودَ تَيْمَاءَ، وَفَدَكٍ، وَوَادِي الْقُرَى، وَلَا نَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ مَا صَنَعَتْ بِكُم الْعَرَبُ بَعْدَ أَنْ شَرَطْتُمْ لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرَ نَقَضُوا ذَلِكَ وَخَذَلُوكُمْ، وَطَلَبُوا مِنْ مُحَمّدٍ بَعْضَ تَمْرِ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ».

هنا نلاحظ انهيار ثقتهم بغطفان، ذلك أن غطفان كانت قد انخذلت في الخندق، وهي كما وصفها ابن مشكم مرتزقة يُشتَرَونَ بالمال والتمر، لا ولاء لهم ولا وفاء.

وقد استهدف النبيّ هذه المراكز التي ذكرها سلام بن مشكم كأطراف إسنادٍ محتملة، لذلك سيّر النبي سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى فدك في مئة رجل، وقامت بمهمتها في إدخال الرعب في قلوب أهلها، وانقطع بعد ذلك خطرهم، وخافوا أن يتواصلوا مع خيبر. وفي الشهر نفسه أرسل عبد الرحمن بن عوف على رأس جيشٍ بلغ سبعمئة رجل إلى دومة الجندل، وهذه المرة الثانية التي يستهدف فيها المسلمون دومة الجندل بعد الغزوة التي قادها النبيّ بنفسه قبل الخندق، لكننا نفهم من سياق سرية عبد الرحمن بن عوف أنها كانت لتطوير علاقة دائمة وودية مع قبيلة كلب التي تستوطن دومة الجندل، فقد أقام عبد الرحمن فيها أياماً يدعوهم إلى الإسلام فأسلم منهم ناس كثير، وأسلم ملكهم الأصبغ بن عمرو وكان نصرانياً، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنة الملك بناء على توجيه النبي له بذلك، وعاد بها إلى المدينة، وبذلك توثقت علاقات المسلمين مع دومة الجندل وانحسر خطرها.

وسيّر النبي سريتين إلى وادي القرى بقيادة زيد بن حارثة، الأولى استكشافية من عشرة أشخاص، أغار عليها سكان الوادي وقتلوا بعضهم؛ وكانت الثانية أكبر وأكثر عدداً، وتذكر المصادر أن السبب المباشر لهذه السرية يتمثّل في اعتراض بعض قبائل وادي القرى لقافلة فيها تجارة للمسلمين، وسنلاحظ هنا أن قوافل المسلمين بدأت تنشط بين المدينة والشام، مستفيدة من تعطل تجارة قريش، ومن المناخ الأمني الجديد الذي رسّخه المسلمون في الجزيرة.

أما فيما يتعلق بغطفان وقبائل نجد فقد استهدفها النبي بخمس سرايا دفعت

عن المدينة أطماعهم وأدخلت في قلوبهم الخوف، في الوقت الذي توسّعت فيه العمليات جنوباً لتشمل بني سُليم، وكانوا قد شاركوا في غزوة الأحزاب بسبعمئة مقاتل.

عُزلة قريش تتفاقم

ومن الأهداف الاستراتيجية التي عززها النبي في هذا العام تشديد الحصار التجاري على قريش، وتأكيد تحالفاته مع الساحل؛ ذلك أن محاولات كثيرة جرت من قِبل قريش لابتعاث قوافل إلى الشام، وعندما نجحت إحدى هذه القوافل في اختراق الحجاز عبوراً إلى الشام هاجمتها قوة من المسلمين بقيادة زيد بن حارثة في طريق عودتها في منطقة تسمى العيص، وأخذوا ما فيها، وكان مما فيها فضة لصفوان بن أمية، وأسروا رجالاً منهم أبو العاص بن الربيع، الذي كان زوج زينب بنت النبي، حتى فرّق الإسلام بينهما، فلما وصل إلى المدينة استجار بزينب فأجارته، فأقرّ النبي جوارها له.

وقاد النبي بنفسه جيشاً من مئتي مقاتل إلى بني لُحيان، وهم من هُذيل، وهي القبيلة التي غدرت بستة من المسلمين عند ماء الرجيع، فأغار عليهم وتفرقوا في الجبال، ثم واصل المسير إلى عُسفان، على بعد خمسة وسبعين كيلومتراً من مكة، وأوفد فارسين من أصحابه إلى «كُراع الغميم»(٤)، في أقرب نقطة يصلها المسلمون من مكة، لكي تسمع به قريش فتهابه وترتدع.

بعد عام من الفاعلية العسكرية المتميزة، يمكننا أن نقول إنّ النبي قد استثمر هزيمة الأحزاب خير استثمار، وها هو يؤمِّن المدينة ويوسع مجالها الأمني في كل الاتجاهات. صحيح أن خيبر لم تُفتح، لكنها منقطعة عن عمقها الاستراتيجي، وحيدة تنتظر أن تفتحها جيوش المسلمين. لكن أولويات النبي لا تزال متمحورة حول مكة وإسلام قريش، وهي الأولوية الاستراتيجية المركزية التي نظمت مسار الفعل الاستراتيجي للنبي منذ أن قدم المدينة، وها هي قريش وحيدة معزولة ضعيفة، فقدت المبادرة وفشلت في استراتيجية الاستئصال، وليس معها حليف ولا في يدها خيار، عندها قرر النبي أن يأتيها، ليس فاتحاً ولكن معتمراً، في خطوةٍ أدهشت المسلمين وفاجأت قريشاً. وهذا من سمات الفعل

---

(٤) تبعد نحو ٦٤ كم من مكّة.

الاستراتيجي النبوي؛ إذ إنه كان يقوم بالخطوة المفاجئة فيرسم من خلالها للعدو خياراته، ثم يدفعه إلى الخيار الأصلح.

لم يكن النبي كأيّ قائد عسكري أو فاتح يرتجي الغلبة والهيمنة وكسر الخصم بأي ثمن، بل هو نبي أولاً، رسالته رحمة للعالمين، ولا يعرف التشفي والثأر، ولم يُرد تدمير قريش ولا سحق وجودها، بل أراد لها العزة والشرف والانعتاق تحت راية التوحيد، الراية ذاتها التي بَنى عليها إبراهيم قواعد البيت.

الفصل الخامس عشر

انبعاث أمة الإسلام

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]

بنت قريش مكانتها بين العرب بسبب البيت الحرام، ولولاه لكانت قبيلة هامشية لا يُؤبه بها، فالكعبة والحرم هما عماد الوجود القرشي؛ الكعبة منحت قريشاً شرف السدانة، والحرم منحها الأمن المفقود في جزيرة العرب، وذلك كله ارتبط بوظيفة مكة كمركز تجارة عابرة للصحراء و«إيلافها» الذي نسجته مع القوى الإقليمية المجاورة. ولولا البيت والحرم لبقيت مكة وادياً من غير زرعٍ ولا ضرعٍ ولا تجارة.

هذا ما نبّه القرآن إليه في الأيام الأولى للتنزيل الحكيم في سورة قريش [١ ـ ٤]: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

هذه السورة بآياتها القليلة، وكلماتها الموجزة، من أكثر الموجّهات القرآنية الاستراتيجية للنبي في تعامله مع قريش، فهي تلفت نظره إلى أن ثراء قريش والأمن الذي تتمتع فيه يعود إلى عمودين اثنين: الأول هو الإيلاف وما نتج عنه من انفتاح طرق التجارة أمام قوافل قريش، والثاني هو البيت الذي منح قريشاً مكانة جعلتها في منأى عن الأخطار الأمنية التي كانت تحدق ببقية القبائل. فسورة قريش كانت هادياً للنبي في استراتيجيته التي بناها في تعامله مع قريش منذ الهجرة وحتى الفتح؛ ففي المرحلة الأولى التي امتدت من الهجرة إلى الحديبية استهدف المسلمون إيلاف قريش عبر تأسيس إيلاف المدينة، واستهداف تحالفات قريش مع كل قبائل الساحل، ومطاردة قوافلها عبر نجد، فاضطربت رحلتي الشتاء والصيف، وحوصرت مكة اقتصادياً، فاهتز العمود الأول من أعمدة التميز القرشي؛ وفي المرحلة الثانية، من الحديبية إلى فتح

مكة، سوف نرى أن استراتيجية النبي سوف تركز على العمود الثاني للتميز القرشي، وهو البيت، وسوف يجعل النبي من سدانة قريش للكعبة غطاء ذكياً لمواجهة ذكية مع العناد القرشي، ستنتهي بكسره واضطرار قريش للاعتراف بالكيان الإسلامي في أعقاب الحديبية.

مبدأ حرية دخول الحرم

يعترف العرب للقرشيين بأنهم «أهل الله وسدنة الحرم»، لكنّ ذلك يأتي مع ثمن، فلا يجوز لقريش أن تصد عن البيت حاجاً أو معتمراً، سواء أكان حليفاً لها أم مُعادياً. الإخلال بهذا التعاقد الضمني يهز مشروعية قريش في سدانتها للبيت، ويُرسل للعرب رسالة مفادها أن الحرم قد أصبح أداة في يد قريش تستخدمه لتكافؤ وتعاقب، وهو ما لا يقبله أحدٌ من العرب. فقريش لها أعداء كثر، ولها خصوم تاريخيون، مثل خزاعة الذين كانوا يوماً سدنة البيت قبل أن يطردهم قصي من مكة، ويؤسس لسيطرة قريش عليه، ومثل قبائل قيس عيلان ومنها هوازن وثقيف وغطفان وسُلَيم التي قاتلت قريشاً في حروب الفِجار. وهكذا فإن مبدأ حرية زيارة البيت للعمرة والحج لم يكن خياراً قرشياً تتفضّل فيه على الناس، بل هو عقدٌ ملزم، استقر بعد حروب ونزاعات، ولن تُسَلِّم قبائل العرب بسيادة قريش على مكة إلا إن احترمت هذا العقد وصانته، فهو بذلك شبيه بالقوانين العالمية المتعارف عليها في زمننا الحاضر.

في المرحلة الثانية من استراتيجية النبي حيال قريش، سوف يوظف مبدأ حرية زيارة البيت، في مبادرة ستضع قريشاً في مأزق كبير.

سيقرر النبي في شهر ذي القعدة من العام السادس الهجري أن يسير إلى مكة معتمراً من دون سلاح، سوى سلاح المسافر، وسيصحبه قريبٌ من ألف وأربعمئة من أصحابه، وسوف يُقوم بكل ما تقتضيه الرحلة من شعائر ومظاهر؛ يسوقون الهدي من إبلٍ وشياه لتقدَّم كأضاحِي في العمرة، ويلبسون ملابس الإحرام ويرفعون أصواتهم بالتلبية؛ فماذا ستفعل قريش؟ إن هي سمحت لهم بأداء مناسكهم فقد اعترفت عملياً بوجودهم ككيانٍ منظَّم، وتعاملت معهم ككتلة واحدة، وظهرت أمام الناس مكرهة ضعيفة لا تستطيع رد محمد، وهي معه في حالة حرب؛ وإن هي أبت ومنعتهم فسوف تخسر مشروعية سدانتها للحرم، وهو ما تعرفه قريش جيداً وتخشاه. المسير إلى الحديبية يضع قريشاً بين خيارين

عسيرين، الخيار الأول سيأباه كبرهم وغرورهم، والخيار الثاني ستأباه العرب جميعاً؛ فماذا هم صانعون؟

لقد وضعهم النبي في مأزق لا يستطيعون تجاوزه، وهو يعلم ذلك، ويعلم أنه الوحيد القادر على إنقاذهم من ذلك المأزق، لأنه سيقدم لهم الحل.

الأجواء النفسية التي صاحبت مسير المسلمين للعمرة كانت احتفالية، لقد شعر المسلمون وهم ينطلقون إلى مكة أنهم يلتحقون بمركزهم الروحي وقبلتهم في الصلاة.

كان قد مضى خمسة أعوام على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فإذا كان الله سبحانه قد اختار لهم قبلة يرضونها ويحبونها ويتطلعون إليها ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فهم الآن في طريقهم للالتحاق بها، متطلعين لتحريرها من وثنية قريش، وإعادتها للحنيفية الإبراهيمية، وكان القرآن قد أثبت أحقيتهم بالتراث الإبراهيمي بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

فعندما يسير النبي إلى مكة، فإنّه يتواصل مع تراث إبراهيم المؤسس، لا مع الوثنية القرشية.

اقترح عليه بعض الصحابة أن يأخذ السلاح، والمقصود بالسلاح هنا الدروع والرماح والتروس والزرد الذي يلبسه المحارب والخوذ التي تحمي الرؤوس، أما السيوف والخناجر فهي مما يحمله المسافر عادة، ولا تعتبر من عُدَّة الحرب؛ لكنه رفض أن يأخذ إلا سلاح المسافر، واستغرب المسلمون من ذلك، لأنهم كانوا يعتقدون أن النبي عازم على فتح مكة، ولمَ لا؟ فمكة ضعيفة يمكن بالفعل مهاجمتها. لكن استراتيجيته لم تكن فتح مكة بالقوة، حتى إن كانت له الغلبة وبيده المقدرة على ذلك. كان الصحابة يتوقعون أن يدخل النبي مكة فاتحاً، لكنّه كان يحاول طاقته أن يجد حلاً مقبولاً للطرفين، لاعتباراتٍ حكيمة وبعيدة النظر، ذلك أنه نبي، وهو رحمة للعالمين، لا يبتغي النصر بأي ثمن، وهدفه هو أن يُسلم العرب ومن بعدهم العالم أجمع، والعرب ينظرون إلى قريش نظرة تقدير، فقريش المسلمة سيكون لها شأن في دخول العرب كافة

في الإسلام؛ كما أن للبيت حرمته، وأن ديناً وارثاً لحنيفية إبراهيم لن يبدأ عهده في مكة بالدم والعنف.

كان النبي ينظر إلى أبعد من فتح مكة، فالفتح بالنسبة إليه خطوة مهمة في مسيرة نشر الدعوة للعرب جميعاً ثم للعالمين، ومن هنا ينبغي أن يدشن الفتح عهداً جديداً، وأن يكون الفتح مُحمَّلاً بكل الرمزيات اللازمة للعهد الجديد، فهو ليس انتصاراً على قريش وهزيمةً ساحقة لها، بل هو انتصارٌ للجديد المنفتح على القديم المنغلق، وهو باب يدخله كل من أحبَّ حتى ولو كان ممن قاتل النبي وأخرجه من مكة؛ الفتح في استراتيجية النبي هو العنوان العريض لعالم يخرج من دوامة الصراع الماحق إلى دائرة التدافع الرفيق، ولذلك لن يستعجل في فتح مكة، فلم تكن عوامل الفتح بمعناه النبوي قد اكتملت. وسنرى في وقتٍ لاحق كيف نجحت استراتيجيته نجاحاً باهراً، أما الآن فقد أصرّ على أنه معتمر، وأنه لا يحب حمل السلاح للمعتمر.

كل ما فعله النبي بعدها كان بقصد إرسال رسالة إعلامية للعرب ولقريش أنه ليس قاصداً إلا العمرة؛ أحرم النبي من المسجد النبوي، وركب ناقته القصواء، وأمر بالهدي أن يُشعَر، أي توضع على الإبل علامة تدل على أنها موسومة لتُقَدم كأضاحي ضمن شعائر العمرة؛ وكل ذلك مما اعتاده العرب وعرفوه من شعائر العمرة والحج، فلا يخفى على أحدٍ إذا رأى جمع المسلمين أنهم في طريقهم للعمرة، فهم محرمون من دون سلاح يسوقون الهدي. لقد أراد النبي أن يرسل رسالة للجميع أن لا نية لديه مطلقاً في حربٍ أو قتال.

في إجراء احترازي سيّر النبي أمام الجمع كتيبة من عشرين فارساً يستطلعون الطريق ويؤمنونها من أي كمين أو اعتداء، ثم بعث «بسر بن سفيان الخزاعي» إلى مكة عيناً ليتحسَّس الأخبار، فيستطلع رد فعل قريش عندما يصلهم خبر مسير المسلمين.

ويمر جمع المسلمين بديار عدد من القبائل، منها بنو بكر وجهينة ومزينة، ولم يكونوا جميعهم مسلمين، فيدعونهم أن يلتحقوا بهم فيعتذرون بانشغالاتهم، بعدها يقولون: «أَيُرِيدُ مُحَمّدٌ أن يَغْزُو بِنَا إلى قَوْم مُعِدّينَ مُؤَيّدِينَ فِي الْكُرَاعِ وَالسّلَاحِ؟ وَإِنّمَا مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ أَكَلَةُ جَزُورٍ! لَنْ يَرْجِعَ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ من

سفرهم هذا أبداً!»[1].

وبالطبع سوف يكتشفون عما قريب سوء تقديرهم وفجاجة رأيهم، إذ إن النبي وأصحابه سيعودون مُعززين بفتح مبين، حتى إن كانوا أكلة جزور!.

قيادة جديدة في مكة

نذهب الآن إلى مكة لنرى كيف ستتعامل قريش مع خبر مسير النبي للعمرة، ذلك أنهم لما وصلهم الخبر اجتمعوا في دار الندوة، وفعلاً حدث ما توقعته الاستراتيجية النبوية، فقريش ستضع نفسها في ورطة، فلن تسمح له بدخول مكة للعمرة، وسيأبى كبرها أن تتنازل عن ذلك مهما كلف الثمن، «فَقَالُوا: يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْنَا فِي جُنُودِهِ مُعْتَمِراً، فَتَسْمَعَ بِهِ الْعَرَبُ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا عنْوَةً وَبَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِن الْحَرْبِ مَا بَيْنَنَا! وَاللهِ لَا كان هذا أبداً ومنّا عين تطرف، فارتأوا رَأْيَكُمْ! فَأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ، وَجَعَلُوهُ إلى نَفَرٍ مِنْ ذَوِي رَأْيِهِمْ - صَفْوَانَ بْنِ أُمَيّةَ، وَسُهيل بْنِ عَمْرٍو، وَعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ - فَقَالَ صَفْوَانُ: مَا كُنّا لِنَقْطَعَ أَمْراً حَتّى نُشَاوِرَكُمْ، نَرَى أَنْ نُقَدّمَ مِئَتَيْ فَارِسٍ إلى كُرَاعِ الْغَمِيمِ وَنَسْتَعْمِلَ عَلَيْهَا رَجُلاً جَلْداً. فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: نِعْمَ ما رأيت! فقدّموا على خيلهم عكرمة بن أَبِي جَهْلٍ - وَيُقَالُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَاسْتَنْفَرَتْ قريش من أطاعها من الأحابيش، وأجلبت ثقيف مَعَهُمْ، وَقَدّمُوا خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فِي الْخَيْلِ، وَوَضَعُوا الْعُيُونَ عَلَى الْجِبَالِ حَتّى انْتَهَوْا إلى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ وَزَرٌ وَزَعٌ كَانَتْ عُيُونُهُم عَشَرَةَ رِجَالٍ قَامَ عَلَيْهِم الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الصّوْتَ الْخَفِيّ: فَعَلَ مُحَمّدٌ كَذَا وَكَذَا! حَتّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إلىٰ قُرَيْشٍ بِبَلْدَح[2]. وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ إلى بَلْدَح فَضَرَبُوا بِهَا الْقِبَابَ وَالْأَبْنِيَةَ، وَخَرَجُوا بِالنّسَاءِ وَالصّبْيَانِ فَعَسْكَرُوا هُنَاكَ»[3].

نلاحظ هنا أمرين مهمين، أولهما أن مشكلة قريش الأساسية هي في السماح للنبي بدخول مكة، لما في ذلك من ضررٍ على سمعتهم واعتراف ضمني

---

(١) مغازي الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص٥٧٤.

(٢) أحد أودية مكّة.

(٣) مغازي الواقدي.

بعجزهم عن منعه، وهو أمر متوقع، وسيقود من ثمّ إلى مأزق تضع قريش نفسها فيه؛ الثاني أن قيادة قريش قد انتقلت إلى الجيل الثاني من الأحلاف، ولذلك لم يُذكَر أبو سفيان في قائمة القيادة المصغرة ممن تم تفويضهم بتدارس الأمر واتخاذ ما يلزم من تدابير، فالأسماء الثلاثة ـ صفوان وعكرمة وسهيل ـ هم خصوم أبي سفيان الذين اتهموه بالتقصير، لا سيما بعد الهزيمة المنكرة في الخندق. من المحتمل أن أبا سفيان أدرك أن هؤلاء الثلاثة يديرون معركة خاسرة، فانسحب طوعاً، ولكن الأرجح أنه قد استُبعِد من قِبَل هذه المجموعة بعد سلسلة من الانتقادات التي وجهت إلى قيادة أبي سفيان واتهامه بالتردد والإخفاق، لا سيما بعد هزيمة الخندق.

على كل حال فالثابت أنه لم يكن على رأس قريش، مع أنه كان في مكة كما سيأتي لاحقاً، لأن المرة الوحيدة التي ذُكر فيها كانت عندما زاره عثمان بن عفان في بيته بمكة، بينما نجد هؤلاء الثلاثة، وكانوا من شباب قريش المتحمسين، هم الذي يسيّرون دفة الأحداث، ويتخذون القرارات الحاسمة فيها.

ولنقترب قليلاً من القيادة الثلاثية المصغرة، ونلاحظ أنهم جميعاً من الأحلاف، حزب السلطة والمال بمكة؛ فصفوان كان أبرزهم وأكثرهم حضوراً، وقد رأينا له مواقف عديدة في السنوات الماضية، معظمها كانت مخالفة لأبي سفيان، فقد كان انتقد أبا سفيان في أُحد عندما ضرب موعد بدر الآخرة، وفشل في أن يفي بالوعد عندما حان، وكذلك انتقد عجز أبي سفيان في الخندق وتسرُّعه في الرحيل، وكان صفوان يبحث دوماً عن مواجهة استئصالية للمسلمين، فهو الوجه المتشدِّد للقيادة القرشية، هذا إضافة إلى أنه وارث أبيه أمية بن خلف، سيد جمح، الذي قتله المسلمون في بدر؛ أما عكرمة بن أبي جهل المخزومي فكان هو الآخر وفياً لتراث أبيه، فيه شيء من نزقه وتسرعه، وشكّل مع صفوان ثنائياً متشدداً؛ أما سهيل بن عمرو فهو أكثرهم حصافة، وأفصحهم لساناً، وفيه من دهاء السياسة ما ليس في صاحبيه، وسهيل كان قد أُسر في بدر، واقترح وقتها عمر بن الخطاب على النبي أن ينزع ثنيتيه فيدلع لسانه ولا يقوم خطيباً بعدها، فرفض النبي، ذلك أنه لا يُمَثِّل بأحد، ثم عقب قائلاً لعمر: «لعل سُهيلاً يقف غداً موقفاً يسرُّك»، وسوف يتحقق ما قاله النبي

في سنواتٍ قليلة، عندما يقف بمكة خطيباً بعد وفاة النبي[٤] فيثبّت أهلها على الإسلام في وقتٍ ارتدّت فيه معظم قبائل العرب.

استراتيجية القادة الثلاثة لخلية الأزمة لم تكن مبتكرة، بل هي رد الفعل التقليدي المعتاد، استعراض قوة أهوج وحسب، رد فعل متوقع يعلمه النبي؛ وعندما يكون تصرف عدوك متوقعاً فستكون لك الكلمة العليا في التخطيط لاحتوائه، وهذا بالضبط ما كان. جهزت قريش كتيبة فرسان بقيادة خالد بن الوليد وساروا ليعسكروا على مشارف مكة من دون هدف عسكري واضح. لقد كانت قريش منهكة ضعيفة تخلّى عنها حلفاؤها وباتت وحيدة في مواجهة قوة شابة منظمة ومنضبطة، ذات منهج منفتح على المستقبل، فالعمل العسكري في هذه الحالة هو رد فعل انفعالي، ليس خياراً استراتيجياً، والنبي يعلم ذلك جيداً.

فرض الأمر الواقع

كان بُسر بن سفيان، الذي بعثه النبي لاستطلاع موقف قريش، قد جاء مكة وسمع رد فعل قريش ورأى استعداداتهم، فعاد مسرعاً إلى النبي والتقاه قريباً من عُسفان وأعلمه بما جرى. وكعادته، جمع النبي المسلمين للشورى، فأعلمهم بما فعلته قريش من حشدٍ وتسيير لكتيبة خالد بن الوليد، وكان مما قال: «أَمّا بَعْدُ، فكيف ترون يا معشر المسلمين في هؤلاء الّذِينَ اسْتَنْفَرُوا إلَيّ مَنْ أَطَاعَهُمْ لِيَصُدّونَا عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ؟ أَتَرَوْنَ أَنْ نَمْضِيَ لِوَجْهِنَا إلى الْبَيْتِ فَمَنْ صَدّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، أَمْ تَرَوْنَ أَنْ نُخَلّفَ هَؤُلَاءِ الّذِينَ اسْتُنْفِرُوا لَنَا إلى أَهْلِيهِمْ فَنُصِيبَهُمْ؟ فَإِن اتّبَعُونَا اتّبَعْنَا مِنْهُمْ عُنُقٌ يَقْطَعُهَا اللهُ، وَإِنْ قَعَدُوا قَعَدُوا مَحْزُونِينَ مَوْتُورِينَ! فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! نَرَى يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ نَمْضِيَ لِوَجْهِنَا فَمَنْ صَدّنَا عَنِ الْبَيْتِ قَاتَلْنَاهُ»[٥]. والحقيقة التي نود الإشارة لها هنا أنّ أبا بكر كان دوماً أكثر أصحاب النبي فهماً لاستراتيجيته ومراميها البعيدة، وسنرى ذلك عما قريب في مفاوضات الحديبية، أما هنا فكان الخيار بين أن يهاجم المسلمون كتيبة خالد أو أن يواصلوا مسيرهم إلى مكة معتمرين من دون الانشغال بأمر

---

(٤) وقعت وفاة النبي يوم الإثنين ١٤ ربيع الأول، عام ١١ للهجرة، الموافق ٨ حزيران/ يونيو ٦٣٢م.

(٥) المصدر السابق.

خالد، وهذا ما أشار به أبو بكر، وهو ما ينسجم بالفعل مع استراتيجية النبي التي رسمها منذ خروجه من مكة: المضيّ إلى العمرة من دون نية قتال مسبقة. ثم قام آخرون مؤيدون لكلام أبي بكر، فقرر النبي مواصلة المسير، لكنه اتخذ تدابير احترازية لتلافي مواجهة خيل قريش، فأمر بالمسير في طريقٍ غير معتاد، وهدفه الوصول إلى أطراف الحرم بسرعة، فإن وصل الحرم فإنّه في مأمن، وسيضع قريشاً أمام أمر واقع لن تستطيع له رداً، فسيكون من المحرج لقريش أن تقاتل رجالاً محرمين قاصدين العمرة في داخل أرض الحرم. كانت هذه الخطوة استراتيجية بامتياز، أحرجت قريش وقللت خياراتها ووضعتها في مأزق.

وبالفعل وصل المسلمون إلى الحديبية، وهي منطقة تبعد عن مكة مسيرة يوم، لكن بعضها في الحرم وبعضها في الحلّ.

عندما اقتربوا من حدود الحرم بركت ناقة النبي وامتنعت عن المسير، «فقال الناس لقد خلأت القصواء، أي حَرَنت[٦]، فرد عليهم أنها لم تحرن بل حبسها حابسُ الفيل، تعظيماً للحرم، ثم عقَّب قائلاً: والله لا تدعوني قريشٌ اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»[٧]. وهذا هو التعليق الأول للنبي باتجاه إمكانية قبوله خطة تحقن الدماء وتحقق صلة الرحم. ولكنّ سادة قريش لن يعرضوا مثل تلك الخطة، وسوف يقوم هو بالمهمة ويحملهم عليها حملاً.

إخراج قريش من مأزقها

لمّا عسكر النبي في الحديبية أُسقِط في يد قيادة قريش، فلا تدري ما تصنع، لقد علموا أنهم في مأزق وهم الآن بحاجةٍ لحلّ. هنا بادر زعيم خزاعي مرموق للتواصل مع الطرفين، ونعلم أن خزاعة حليف قديم للنبي، فجاء بُديل بن ورقاء في وفد من خزاعة إلى النبي، وكان بُديل قريباً من قريش وله دار في مكة، وكان شيخاً طاعناً في السن، كما أن لبُديل ابناً، هو رافع بن بديل، كان قد أسلم واستشهد في أحداث بئر معونة.

جاء بُديل إلى معسكر المسلمين وتحدث مع النبي حديثاً طويلاً، حاول أن

---

(٦) أي امتنعت عن السير.

(٧) سيرة ابن هشام.

يستطلع هدف المهمة التي جاءت بالنبي والمسلمين إلى مكة، فرد النبي بعباراتٍ في غاية الأهمية، وهي التصريح الأول الذي يحمل رسائل مهمة لقريش فقال:

«إنا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، إنّمَا جِئْنَا لِنَطُوفَ بِهَذَا الْبَيْتِ، فَمَنْ صَدّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ، وَقُرَيْشٌ قَوْمٌ قَدْ أَضَرّتْ بِهِم الْحَرْبُ وَنَهكَتْهُمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتهمْ مُدّةً يَأْمَنُونَ فِيهَا، وَيُخَلّونَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ النّاسِ، وَالنّاسُ أَكْثَرُ مِنْهُمْ، فَإِنْ ظَهَرَ أَمْرِي عَلَى النّاسِ كَانُوا بَيْنَ أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النّاسُ، أَوْ يُقَاتِلُوا وَقَدْ جَمَعُوا! وَاللهِ لَأَجْهَدَنّ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي أَوْ يُنْفِذَ اللهُ أَمْرَهُ!»(٨).

النبي هنا بكلماتٍ موجزة دقيقة يرسل رسالة بالغة الأهمية لقريش من خلال بُديل، فيها المعاني التالية:

أولاً: أنّه لم يأتِ لقتال، بل جاء ليمارس حقّه الطبيعي في العمرة.

ثانياً: أنهم لا يستطيعون تخويفه بالحشد وبالإجراءات التي قاموا بها، فهو يعلم واقعهم المتردِّي، وانقطاع تجارتهم، وعزلتهم، فقريش قد أنهكتها الحرب وأضرّت بها، وهي بذلك لا تستطيع فعل شيء حيالهم.

ثالثاً: قدّم لهم مشروعَ حلٍّ منطقي، وهو أن يَمُدوا بينه وبينهم مُدة؛ والمقصود أن يتفقوا على هدنة تتوقف فيها العمليات العسكرية من الطرفين ولفترة معينة، يتاح فيها للنبي التبليغ بدعوته بين الناس، ويتاح لقريش فيها استعادة عافيتها. وحاول إقناعهم بمنطق تحليلي، فقال لهم إن الهدنة هي أفضل الخيارات بالنسبة إليكم، فالهدنة عملياً ستنهي الحرب مؤقتاً بين المسلمين وقريش، وفي ذلك مصلحة للطرفين؛ ستفتح لقريش أبواب التجارة وتعيد لها ازدهارها، وسوف تمكّن النبي من مزاولة دعوته بين العرب، وفي هذه الحالة إمّا أن يحارب العرب النبي أو أن يسلموا، فإن انهزم النبي أمام العرب فذلك ما تريده قريش، وإن انتصر المسلمون ودخل العرب في الإسلام فقريش حينها أمام خيارين: إما أن تُسلم، وستكون عند ذلك مُقدَمة على العرب على اعتبار أنها قبيلة النبي؛ أو ألا تسلم بل تواجه النبي، وستكون لديها فرصة أفضل في ذلك الوقت بعدما تستعيد عافيتها وتبني تحالفاتها.

---

(٨) مغازي الواقدي.

رابعاً: اختتم رسالته بالتأكيد التام على أنه لم يأتِ بنيّة القتال، إلا أنّ خيار القتال لا يزال قائماً إن هم أصروا على عنادهم فمنعوه من العمرة ولم يقبلوا عرض الهدنة.

حديث النبي منطقيّ متوازن، يضع الأمر في سياقٍ عمليّ ومقنع، ويراوح بين العرض المقنع والوعيد الحازم، ويأتي مثالاً آخر على مبدأ المبادرة الذي ميز تصرفات النبي طوال هذه السنوات. لقد بادر إلى قريش بالعمرة فوضعها في مأزق، فلا هي قوية بما فيه الكفاية لرده عن الحرم، ولا هي قادرة أن تسمح له بالدخول. لقد صنع لهم المأزق ثم قدم لهم الحل في الوقت نفسه.

لقد قدم لهم النبي عرضاً مفصلاً من العسير على عاقل ألا يرى فيه الوجاهة.

الرسالة هذه بشروحها المنطقية لم تكن موجهة لقادة دار الندوة فحسب، بل إلى عامة أهل مكة الذين أرهقهم الحصار أكثر مما أرهق السادة، وسنرى أن رسائل النبي كانت في هذه المرحلة تتعدى مخاطبة زعماء قريش المتخندقين في مواقفهم المتصلبة، بل تتواصل مع الضمير الشعبي، وتقدم لعموم الناس خيارات مقنعة.

ذهب بُديل إلى المجتمعين في دار الندوة، لكن غرور زعماء قريش منعهم من أن يبدوا اهتمامهم بزيارة بديل، فلم يبادروه بالسؤال عما حدث معه في زيارته للمسلمين، ذلك أنهم لم يكونوا قد كلفوه بالمهمة، وبما أنه خزاعي فهو ليس محلاً للثقة ابتداءً؛ غير أن عُروة بن مسعود الثقفي، من زعماء ثقيف، وكان حاضراً في مكة، استهجن امتناعهم عن سماع تقرير بُديل، وأنكر عليهم ذلك، وكان عروة ذا مكانة بين قومه في الطائف، وله سابقة في نصرة قريش، ولا يتهمه أحد بمداهنة محمد، لذلك وافق زعماء قريش تحت إلحاح عروة أن يستمعوا لبُديل، فسرد عليهم ما سمعه، وعرض عليهم اقتراح النبي بأن تنعقد هدنة بين الطرفين، وما في ذلك من منافع لقريش، لكنهم أبوا واستخفوا بذلك الاقتراح.

عندها اقترح عروة أن تبتعثه قريش إلى النبيّ ليتأكد من فحوى العرض، ولينظر في واقع معسكر المسلمين ويدرس إمكاناتهم عن قرب، ولأنه أكثر قبولاً لدى قريش من بُديل وافق المجتمعون بدار الندوة على ابتعاث عروة، وهذا هو

الزائر الثاني لمعسكر المسلمين من غير قريش، ولكنه الآن يحمل تفويضاً رسمياً من قريش بالتواصل مع النبي.

بدأ عروة حديثه برسالة تهديد، فذكر كيف أن قريشاً قد استعدّت وجمعت لقتاله، وأن النبي أمام خيارين، الأول أن يُصر على الدخول إلى مكة فيضطر لاجتياح قومه، وهو عارٌ لم يُسمع به من قبل، أو أن أصحاب النبي سيخذلونه ويهربون منه، وعلق عروة أنه لا يرى مع النبي إلا أوباشاً من الناس لا يعرف وجوههم ولا أنسابهم!

عندها تدخَّل أبو بكر، وهو رجلٌ هادئ غير فحّاش ولا لعّان، لكنه في هذا الموقف شتم عروة، وقال له: «امصص بظر اللات، أنحن نخذله؟»، وبالطبع لم يستطع عروة الانتقاص من قدر أبي بكر، وهو الذي يعرف مكانته وفضله، فقد احتاج قبلها بسنوات أن يدفع ديات ثلاثة عشر قتيلاً، وساهم أبو بكر مساهمة كريمة في سداد هذه الديات، ولا يمكن لعروة نسيانها.

استمر الجدل وحمي النقاش، وكان عروة يُحاور ويناور، والنبي لا يزيد على ما قاله لبُديل بن ورقاء.

رجع عروة إلى قريش، فقدَّم لهم تقديراً للموقف بدأه بأن أبدى ملاحظات مهمة حول أجواء معسكر المسلمين، فذكر لهم اندهاشه من انضباط الصحابة وتقديرهم للنبي وطاعتهم له، قال لهم إنه قد زار بلاط كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس، وما رأى قوماً يحبون صاحبهم كحب أصحاب محمد لمحمد، وإن مثل هؤلاء سيبذلون أنفسهم فداءً له إن التقوا مع قريش في ميدان القتال، فهم - خلافاً لما كان قد وصفهم هو نفسه - شبابٌ يتسابقون لمرضاة النبي، وهم على قلب رجلٍ واحد. هنا اقترح عليهم أن يقبلوا بما عرضه عليهم النبي من هدنة، ذلك أنهم لن ينتصروا عليه لو قاتلوه، ثم إنه قد جاء بالفعل معتمراً، معه الهَدي لينحره، وسوف يعتمر ثم ينصرف.

استاء زعماء قريش من كلام عروة، وقالوا له لو أن غيرك قاله لعتبنا عليه ولمناه.

كان عروة بن مسعود عاقلاً، حاول أن يمحّض قريشاً النصح، لكن غرورهم وطيش قادتهم حال بينهم وبين قبول نصيحة عروة، وسيسلم عروة في وقتٍ لاحق بعد فتح مكة، وسيأتي الطائف مبشراً بالدين الجديد، لكنه سيُقتل شهيداً على يدي قومه.

ثم بعثوا رسولاً آخر منهم، هو مكرز بن حفص، وكان رجلاً فظاً غادراً معروفاً بكراهيته للنبي، لكنه عاد من عند النبي بنفس ما عاد به بُديل وعروة.

الزائر الرابع لمعسكر المسلمين كان متميزاً، فهو زعيم الأحابيش، الحُلّيس بن علقمة. والأحابيش هم تحالف المجموعات التي ليست من قريش، فهو حلف المهمشين والضعفاء من عامة سكان مكة؛ أما لماذا سمي الحلف بالأحابيش ففي ذلك روايات كثيرة، ربما لأنهم أخذوا الاسم من الحبش، وهم سكان مكة من أصول حبشية، أو نسبة إلى جبل في مكة، أو لأنهم تحبشوا أي تجمعوا؛ لكن المؤكد أن هذه المجموعات لم تكن قليلة العدد، بل يقدر عددهم بنصف سكان مكة، وكان سادة قريش لا ينظرون إليهم بعين المساواة، فهم مواطنون من الدرجة الثانية، وهذا ما جعلهم أقل عداء للنبي من قريش، لا سيما بعدما وردت إليهم أنباء كثيرة عن عدله وسماحته ومساواته بين أصحابه من دون اعتبار للأصول ولا الألوان.

أما الحُليس فكان مسيحياً على الأرجح، وعندما سمع النبي بمقدمه، قال لأصحابه إنه من قوم يتألّهون، أي يُعظمون شعائر الدين، ويتقرّبون إلى الله بالتعبُّد، فأمرهم النبيّ أن يجمعوا الهدي وأن يسوقوه باتجاه الحُليس وهو قادم إلى المعسكر، استثارةً لعاطفة التدين لديه، وإثباتاً لجدية النبي في أمر العمرة، فلما رأى الحليس هذا المشهد، ولاحظ أن الهدي قد أصابه الهزال والضعف من طول الحبس وقلة العلف، لم يواصل مسيره لملاقاة النبي، بل رجع عائداً إلى مكة، وقد تملّكه الغضب مما تفعله قريش، فهؤلاء المسلمون في ملابس إحرامهم، مقيمون على تخوم مكة منذ نصف شهر، وها هي الإبل قد هزلت وأكلت أوبارها من طول الحبس، فبأي حق يمنعون قوماً عمّاراً من دخول البيت والطواف به؟ رد سادة قريش باستهانة وازدراء، فقالوا: «اجلس فإنما أنت أعرابيّ ولا علم لك»، استهتاراً به وإمعاناً في الانتقاص من مكانته. عندها غضب الحليس وهددهم باستخدام القوة وقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَالله مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلَا عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ، أَيُصَدُّ عَنْ بَيْتِ الله مَنْ جَاءَ مُعَظِّماً لَهُ؟! وَالَّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ، لَتُخَلُّنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ، أَوْ لَأَنْفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ». وهذا تهديد صريح من أقرب الناس إلى قريش ومن شركائها في مكة.

حكمة النبي في كسب الحليس إلى صفه سيكون لها تأثير حاسم على نتائج الحديبية، ذلك أن الحليس خلافاً، لرسل قريش ممن سبقوه، هو مندوب شعبي، له شرعية بين عامة الناس، وهو حامل لبوصلة أخلاقية، أي ذو مصداقية بين أتباعه، وليس من أهل الأهواء ولا السؤدد، وتفهُّمه لطبيعة المهمة التي جاء من أجلها المسلمون سينتقل فوراً إلى عموم سكان مكة، وستشيع فيهم مطالبات بالسماح للمسلمين بدخول مكة، وسينحازون إلى العرض السخي الذي قدمه النبي لقيادة قريش بهدنة تخفف معاناة الناس في مكة.

سفارة عثمان

نجحت استراتيجية النبي في إحداث شق في الصف المكي على المستويين القيادي والشعبي، فها هي قريش لا تدري ما تصنع، وها هم الأحابيش يهددون بحربٍ أهلية. لقد اشتد مأزق قريش ووقفت حائرة، ولم تجد أمامها إلا ما قد اقترحه النبي من حل: توقيع هدنة بين الطرفين.

في هذه الأثناء جاء دور المبادرة النبوية لكسر حالة الانغلاق، فابتعث النبي للمرة الأولى مندوباً من طرفه، وكان خُزاعياً هو الآخر، اسمه خراش بن أمية(٩)، والنسب هنا ذو أهمية بالغة، فخزاعة حلفاء النبي، وبينهم وبين قريش جوار وعهد، ولن تقتل قريش خزاعياً. بعثه النبي على جملٍ له، ليخبرهم رسمياً بأنهم جاؤوا للعمرة ولا يريدون قتالاً، لكن قيادة قريش كانت متهورة، فاعتدوا عليه وعقر عكرمة بن أبي جهل جمل النبي، وأرادوا قتل الخزاعي، فتدخّل الأحابيش وحموه من قريش. وهنا يظهر الأحابيش، من بسطاء الناس وعامتهم، طرفاً فاعلاً له موقف ونفوذ، ولم يعد بإمكان قريش اعتبارهم حليفاً مضموناً في حرب محمد.

علم النبي بما صنع المشركون مع خراش، وكيف صنع الأحابيش، فعرف أن قريشاً تواجه بالفعل انشقاقاً كبيراً، وقد حان الوقت لكي يبدأهم بتفاوضٍ جاد، فقرر أن يُرسل إليهم رجلاً من أشراف قريش، بل من عمود النسب القرشي، من بني عبد مناف، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وهو أموي قرشي له مكانة لا يمكن تجاهلها.

---

(٩) وكان حليفاً لبني مخزوم، عاش بالمدينة وحضر مع النبي الحديبية وخيبر وما بعدها، وتوفي في آخر خلافة معاوية بن أبي سفيان.

دخل عثمان مكة في حماية ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص، أردفه خلفه على فرس، واستقبله زعماء مكة استقبالاً حسناً، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض أن يفعل قبل أن يطوف به النبي والمسلمون، ثم بدأ جولته بأن زار أبا سفيان بن حرب، وهذه هي المرة الأولى التي يرد فيها اسم أبي سفيان في الحديث عن الحديبية، ذلك أن أبا سفيان ابن عم عثمان، وهو أموي، فمن الطبيعي أن يزوره عثمان ويحدثه، حتى إن كان قد استُبِعد من قِبل الثلاثي: صفوان وعكرمة وسُهيل؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هناك إشارة سياسية بالغة الأهمية في زيارة عثمان لأبي سفيان، وهي رد الاعتبار للقيادة التقليدية لقريش في مواجهة القيادة الشابة المتهورة، لا سيما بعدما فشلت في تقديم حلٍّ للأزمة التي تعصف بمكة، وأن المسلمين يقدرون مكانة أبي سفيان أكثر من تقديرهم لغيره، وهذه الإشارة سوف تصل إلى عموم الناس بالفعل، وفي لاحق الأيام سوف نرى أنّ مكانة أبي سفيان ستعود لتتعزّز كلما احتاجت قريش للتواصل مع المسلمين.

ثم طاف عثمان على بقية زعماء قريش، شارحاً لهم هدف المسلمين، محاولاً إقناعهم بالهدنة التي اقترحها النبي، واستمرت سفارته ثلاثة أيام يحاور فيها ويفاوض.

خلية الأزمة المشكّلة من صفوان بن أمية وعكرمة ومعهم سهيل بن عمرو لم يقتنعوا بموضوع الهدنة، لذلك حاولوا أن يدرسوا خيار الحرب بالفعل، ولكي يتأكدوا من قوة معسكر المسلمين واستعداداتهم، بعثوا مجموعة من أربعين رجلاً للاقتراب من المعسكر والاعتداء عليه بالنبل والحجارة، لكنّ حراس المعسكر اليقظين ألقوا عليهم القبض جميعاً، وجاؤوا بهم إلى النبي، فأمر باحتجازهم، فجاءت مجموعات أخرى من المشركين يعتدون على المعسكر فألقي عليهم القبض كذلك.

عندما بلغ قريشاً حبس أصحابهم، قرروا أن يحتجزوا عشرة من المسلمين كانوا قد دخلوا مكة لزيارة أقاربهم، ليبادلوهم بأصحابهم ممن أسرهم المسلمون.

تصعيدٌ من أجل الحل

في هذه المرحلة كان واضحاً للنبي أن الخلافات داخل مكة قد وصلت

مرحلة عطّلت قرار قريش وشلت قدرتها على حسم الموقف من الهدنة؛ فصفوان وعكرمة يؤلبون ويمانعون، بينما يدفع الأحابيش وآخرون باتجاه الهدنة، وبدأ ينتشر رأيٌ في دار الندوة بقبول اقتراح النبي، على شرط أن يعود في هذا العام ولا يدخل مكة. لكن حسم الأمر لم يكن سهلاً على قريش المتفرقة المشلولة، فكان لا بد من مبادرة نبوية جديدة لتحريك المياه الراكدة والخروج من حالة الجمود، فليس من مصلحة المسلمين طول الإقامة في الحديبية، ولا الغياب الطويل عن المدينة، لاحتمالات تعرضها لهجمات الأعراب أو اعتداءات من خيبر. مصلحة المسلمين في الحسم السريع لا في المماطلة.

عندها قام النبيّ بخطوةٍ أفزعت قريش ودفعتها للقبول بالهدنة؛ إذ دعا النبي ﷺ المسلمين إلى بيعة على القتال وعدم الفرار. اصطف المسلمون صفوفاً منضبطة في مشهد مهيب، تقدموا نحو النبي رجلاً بعد رجل، صافحوه وبايعوه، وكل ذلك أمام أنظار عيون قريش ممن ينقلون الأخبار أولاً بأول.

هنا فهمت قريش أن النبي قد حزم أمره، وأنه على أتم الاستعداد لمواجهتهم، عندها قرروا أن يفاوضوا على الصلح، فأرسلوا أكثر أعضاء القيادة المصغرة ديبلوماسية: سُهيل بن عمرو، فلما أقبل على معسكر المسلمين، فهم النبي أن قريشاً قد قررت الصلح، فعلق قائلاً: لقد سهّل الله أمركم.

تعزو كثير من كتب السيرة بيعة الرضوان إلى إشاعة مفادها أن عثمان قد قُتل، صحيح أن الإشاعات في مثل هذه الأجواء قد تنتشر، لكن النبي كان شديد التوثق من الأخبار، لا يتخذ قرارات الحرب والصلح وفقاً لإشاعة، وكان يمتلك شبكة عيون بمكة تزوده بالمعلومات أولاً بأول، وكان الناس يتداخلون ويختلط بعضهم ببعض، ورأينا كيف أن عدداً من المسلمين استأذنوا النبي ودخلوا مكة لزيارة أقاربهم، فإشاعة مقتل عثمان يمكن التأكد منها بسهولة، ومن المستبعد أن تكون هي السبب في بيعة الرضوان.

ثم إن هناك رواية ينقلها «الواقدي» تقول إن البيعة انعقدت بينما كان سهيل ورفيقاه في معسكر المسلمين، وأنهم فزعوا من حماس المسلمين وإقدامهم على البيعة، وبالطبع فإن سهيلاً سيكون قد نفى مقتل عثمان. وفي رواية أخرى نقلتها كثير من المصادر، أن النبي بعدما بايعه المسلمون وضع يمينه على شماله وقال إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله وأنا أبايع له، فالنبي مدرك أثناء البيعة أن عثمان لا يزال حياً يقوم بمهمته.

أما لماذا تأخر عثمان ثلاثة أيام، فهذه فيها احتمالان: الأول أن عثمان قد تم احتجازه من قِبل قريش مع العشرة الذين احتجزوا بعدما ألقى المسلمون القبض على الأربعين مشركاً ممن اعتدوا على معسكرهم، فاحتجزته قريش لمبادلته بالأربعين؛ وهذا احتمال ضعيف، ذلك أن عثمان كان قد دخل بصحبة ابن عمه أبان بن سعيد بن العاص وجواره، ولم يكن العرف القرشي يسمح بانتهاك مثل هذه الحماية. وهناك احتمال آخر، هو الأقرب إلى الصواب، فقد روت المصادر أن مهمة عثمان لم تكن مقتصرة على التفاوض مع زعماء قريش، بل كانت لديه مهمة سرية، احتاجت وقتاً طويلاً، قام بها بكفاءة بالغة بعيداً عن أعين قريش.

قالَ عُثْمَانُ ﷺ: «ثُمّ كُنْت أَدْخُلُ عَلَى قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ مُسْتَضْعَفِينَ فَأَقُولُ: إنّ رَسُولَ اللهِ يُبَشّرُكُمْ بِالْفَتْحِ وَيَقُولُ: «أُظِلّكُمْ حَتّى لَا يَسْتَخْفِي بِمَكّةَ الْإِيمَانُ»، فَقَدْ كُنْت أَرَى الرّجُلَ مِنْهُمْ وَالْمَرْأَةَ تَنْتَحِبُ حَتّى أَظُنّ أَنّهُ يَمُوتُ فَرَحاً بِمَا خَبّرْته، فَيَسْأَلُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيُخْفِي الْمَسْأَلَةَ، وَيَشْتَدّ ذَلِك عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيَقُولُونَ: اقْرَأْ عَلَى رَسُولِ اللهِ مِنّا السّلَامَ، إنّ الّذِي أَنْزَلَهُ بِالْحُدَيْبِيَة لَقَادِرٌ أَنْ يُدْخِلَهُ بَطْنَ مَكّةَ!»(١٠).

إذاً كانت هناك مجموعات من المسلمين سراً في مكة، وقد كلف عثمان بالتواصل معهم سراً، وهؤلاء لم يكونوا قلّة، واحتاج التواصل معهم وقتاً ليس بقصير، فسنرى بعد قليل كيف أن سبعين رجلاً منهم خرجوا من مكة إلى ساحل البحر للالتحاق بالمجموعة العسكرية التي أسسها أبو بصير، فإذا كان عدد من قدر على المغادرة سبعين رجلاً، فكم كان عدد من لم يستطع أن يغادر، وكم كان عدد النساء وكبار السن وأصحاب الأعذار؟ نحن نتحدث عن جماعة للمسلمين ذات عدد وتنظيم، ولهم قدرة على التواصل مع المسلمين، وعندما يتواصل معهم عثمان، فإنه يبين لهم أن الإسلام سوف يظهر بمكة، مما زرع ثقة وحماساً شديدين في نفوسهم، ما يساهم في الحرب النفسية على قريش، ولعله تعرّف عن قرب على واقعهم، وعزز التواصل معهم، فهم قوة حقيقية ذات انتماء رسالي. وبذلك يكون واقع مكة قد ازداد اضطراباً: الأحابيش يهددون باستخدام القوة، والمسلمون بمكة ترتفع معنوياتهم، والقيادة القرشية متفرقة عاجزة، وبذلك لم يكن لها بديل عن قبول المبادرة النبوية للصلح.

---

(١٠) مغازي الواقدي.

جاء سُهيل إلى النبي معتذراً من أن المجموعة التي هاجمت معسكر المسلمين لم تكن قد فعلت ذلك بأوامر من قيادة قريش، إنما هم من السفهاء، وأن سادة قريش لم يرضوا عن فعلهم، وطالب أن يتم الإفراج عنهم وعن المجموعة الثانية التي ألقي عليها القبض. عندها طالب النبي بالإفراج عن المسلمين الذين احتُجزوا بمكة، فوافق سهيل، وكتب لقريش أن يبعثوا بالمسلمين، فانفرجت أجواء الاحتقان وزال التوتر الشديد الذي كان قائماً بين الطرفين.

مع العدو في خيمة واحدة

بعدما تم تبادل الأسرى، بدأت جلسات تفاوض مطوّلة بين النبي وبعض الصحابة من جهة، ووفد قريش من جهة أخرى. وكان وفد قريش مكوناً من ثلاثة أشخاص، يرأسه سُهيل وفيه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى[١١]. أما سهيلٌ فقد قَدّمنا له، وأما مكرز فهو الوجه المتشدد للوفد، وأما حويطب فكان شيخاً كبيراً عاقلاً، له مكانته بين بني قومه.

المشهد التالي سيكون من أكثر تجارب المسلمين فرادة وتميزاً، وستسجله المصادر بتفاصيله الدقيقة، بانفعالاته ومفاوضاته، بالغضب الذي اعتمل في النفوس، وبالحكمة التي تحلّى بها النبي. لقد كان الجلوس وجهاً لوجه مع قادة العدو امتحاناً عسيراً للمسلمين، إنها أجواء نفسية لم يعهدوها من قبل، لقد حاربوا قريشاً في غزواتٍ وسرايا كثيرة، وقبل أقل من عام كانت قريش تقود تحالفاً هو الأكبر في تاريخ الجزيرة لاستئصالهم، وها هم على مسافة ستة كيلومترات من الكعبة، ليس بينهم وبينها إلا أن يأمر قائدهم بالمسير فاتحين، وإن لم يكن فتحاً فعمرة، لكنهم يجدون أنفسهم بعد ثلاثة أسابيع من الإقامة في الصحراء يجلسون مع قريش يتفاوضون على العودة من عامهم هذا دون دخول مكة. لقد نزل بالمسلمين كربٌ شديد لم يستطيعوا إخفاءه.

المفاوضات بين الطرفين ستمر بلحظاتٍ صعبة تزيد غمّ المسلمين. لقد كان الهدف الرئيسي لقريش ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام، هذا هو الحد

---

(١١) أما سهيل وحويطب فقد أسلما لاحقاً، أمّا مكرز فقد اختلف رواة الأخبار فيه، والأكثر انتشاراً أنه لم يُسلم.

الذي لن يتنازلوا عنه، لكن سهيل بن عمرو سيتشدد في هذا الأمر من دون مهادنة. عندها سيثور الصحابة، وسترتفع الأصوات، ويتعالى رفضهم، لكن النبي يطلب منهم الهدوء، ويستمر التفاوض. ولكي يوافق النبي على شرط قريش وضع بالمقابل شروطه هو، أهمها أنه من أراد أن يدخل في عهد محمد من قبائل العرب فله الحق في ذلك، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش فله الحق في ذلك، وأن تتوقف الحرب بين المسلمين وقريش عشرة أعوام. هذان البندان استراتيجيان بامتياز؛ إذ في الأول اعتراف صريح ولأول مرة بمشروعية الكيان الإسلامي، وهو بمنزلة الاعتراف الرسمي باستقلال دولة الإسلام، وبقدرتها على منح ما يوازي «حق المواطنة» لمن يرغب. ويعلم النبي أن تحالفاته مع كثير من القبائل لم تكن خالصة، ذلك أنهم كانت تربطهم مصالح بقريش، أما اليوم فإن إعلان مثل هذه التحالفات سيكون مشروعاً لا غضاضة فيه، ولن يخشى أحد بعد اليوم من قريش، فالصلح يعطيهم أماناً إن هم أعلنوا الدخول في حلف محمد.

والبند الثاني الذي سيوقف حالة الحرب بين المسلمين وقريش سيتيح للإسلام الانتشار في كل مكان، فالرسالة ستنتشر في أصقاع الجزيرة إن أمن الناس غوائل الحروب والثارات والصدامات. ثم إن النبي إذ يحيّد قريشاً من الصراع فإنه سيُنهي آخر العقبات أمام سلم كامل وأمان اقتصادي واستراتيجي لدولة الإسلام؛ وسيتفرغ للعقبات التي لا تزال قائمة في خيبر وشمال الجزيرة وفي نجد وأعرابها. عندما طرح النبي الشرط الخاص بحق كل طرف في بناء تحالفاته، خشي وفد قريش أن يشمل ذلك أهل مكة، فماذا لو قرر بعض أهل مكة أن يلتحقوا بحلف النبي؟ وكيف لو وجد المسلمون ممن تحبسهم قريش طريقاً إلى المدينة فيلجؤون إليها؟ لذلك اشترط وفد قريش أنه من جاء من مكة إلى محمد هارباً فيجب أن يعيده المسلمون إلى قريش، وألا يمنحوه حماية ولا إقامة في المدينة، أما من جاء من طرف المسلمين إلى مكة فقريش غير مطالبة برده! هنا ثارت ثائرة الصحابة وارتفعت أصواتهم، وشعروا بخداع شديد، أليسوا على الحق وعدوهم على الباطل؟ فكيف يقومون بتسليم إخوانهم ممن يلجؤون إليهم لأعداء الله فيفتنونهم في دينهم؟

لكن النبي طلب منهم الهدوء، ووافق على شرط قريش. واستمرت المفاوضات إلى أن حُسمت كل التفاصيل، وبقي أن يُكتب الكتاب بين الطرفين ويشهدوا عليه.

عندها لم يحتمل عمر بن الخطاب، فثارت مشاعره، وحاول أن يمنع الاتفاق من أن يتم، فيأتي للنبيّ ويكرر على مسامعه: ألست نبي الله حقاً؟ ألسنا بالمسلمين؟ أليسوا بالمشركين؟ فيرد النبي: بلى، فيقول عمر: فكيف نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فيرد النبي: أنا عبد الله ورسوله ولن يضيعني. ويستمر عمر في أسئلته الحائرة، ويخاطب أبا بكر، فيردعه أبو بكر ويطلب منه أن يلتزم بقرار النبي. ولم يكن ذلك شعور عمر فحسب، بل هو شعور معظم المسلمين، لكن عمر كان يُظهره، بل قال لاحقاً وهو يروي أحداث الحديبية إنه ما دخل الشك في نفسه مذ أسلم إلا في ذلك اليوم!.

ابتلاء الصلح

وبينما هم يستعدُّون لكتابة الاتفاقية، اقتحم عليهم رجل من المسلمين كان محبوساً بمكة ففر هارباً إلى معسكر المسلمين، هذا الرجل هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو؛ نعم، هو ابن رئيس وفد قريش، جاء هارباً من السجن يجرُّ أغلاله ويحتمي بالمسلمين، لكنّ أباه يهجم عليه ويضربه على مرأى من المسلمين، ويخاطب النبي فيقول: إننا قد اتفقنا على أن تردوا من يأتيكم من مكة، فلنبدأ بهذا، ردوه إلينا! فيقول النبي إنّ الكتاب لم يُقضَ بعد، فيرد سهيل: لكن الاتفاق قد وقع، والله لا مكاتبة بيننا إذا لم تردوه، فيحاول النبي مع سهيل، لكنه يأبى، فلا يجد النبي إلا أن يرده، فيقول أبو جندل: يا معشر المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركين فيفتنونني في ديني؟ هنا ثار المسلمون، وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل، فتحتدُّ المشاعر، ويرفع عمر صوته مجدداً: ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ فلماذا نعطي الدنية في ديننا؟!

ثم يكلم النبي سهيل بن عمرو في شأن أبي جندل مرة أخرى، ويطلب منه أن يتركه، فيأبى سهيل، عندها يتدخّل مكرز بن حفص وحويطب، فيأتيان بحلٍّ معقول؛ إذ يجيران أبا جندل، ومن ثمّ لا يعود إلى سجن أبيه إن رجع إلى مكة، «ثم رَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ صَوْتَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنّ اللهَ جَاعِلٍ لَك وَلِمَنْ مَعَك فَرَجاً وَمَخْرَجاً! إنّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحاً، وَأَعْطَيْنَاهُمْ وَأَعْطَوْنَا عَلَى ذَلِكَ عَهْداً، وَإِنّا لَا نَغْدِرُ!».

لم يقتنع عمر بهذا الحل، فصار يمشي إلى جانب أبي جندل بينما كان سهيل بن عمرو يسوقه بعيداً، فيهمس عمر في أذنه: «اصبر يا أبا جندل فإنما

هم المشركون، وإن دم الواحد منهم دمُ كلب، وإنما هو رجل وأنت رجل ومعك سيف، إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله، إنما هو رجل برجل!»[١٢]، يحرّضه على قتل أبيه؛ لكن أبا جندل يمتنع، ويقول إنه ملتزم بأمر رسول الله.

فيرجع عمر ومعه آخرون فيقولون: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ تَكُنْ حَدّثْتَنَا أَنّك سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرّفُ مَعَ الْمُعَرّفِينَ؟ (أي تقف في عرفة) وَهَذْيُنَا لَمْ يَصِلْ إلى الْبَيْتِ وَلَا نَحْنُ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُلْت لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا؟ قَالَ عُمَرُ: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَمَا إنّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ، وَآخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ، وَأَحْلِقُ رَأْسِي ورؤوسكم بِبَطْنِ مَكّةَ، وَأُعَرّفُ مَعَ الْمُعَرّفِينَ!**»».

ومن المدهش في واقعة أبي جندل أن شقيقه عبد الله بن سهيل[١٣] كان حاضراً في الحديبية مع المسلمين، وهو من المسلمين الأوائل، هاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة فاحتجزه سهيل بن عمرو، وفي بدر خرج مع أبيه ثم انحاز إلى المسلمين ورجع معهم إلى المدينة، وها هو اليوم حاضر في الحديبية، ويذكر رواة السير أنه كان ممن وقعوا على الاتفاقية بعدما أبرمت، وفي ذلك إشارة بليغة لا تخطئها الأفهام فيها رد اعتبار إليه، وفيها رسالة لسهيل بن عمرو أنه ـ وإن كان قادراً على استعادة واحد من أبنائه ـ يجب أن يتعظ، لأنه حاول ذلك مسبقاً مع عبد الله، وها هو اليوم آمن بين المسلمين، وسيأتي اليوم الذي سيفعل فيه أبو جندل ما فعله أخوه عبد الله؛ الفرار من مكة.

ومن المفارقات أن سهيل بن عمرو سوف يطلب وساطة ابنه عبد الله يوم الفتح، بعد أقل من عامين، ليحصل على أمانٍ من النبي، وسيؤمنه النبي بالفعل.

لما هدأت زوبعة أبي جندل، جلسوا لصياغة نص الاتفاقية، فبدأ النبي

---

(١٢) سيرة ابن هشام.

(١٣) استشهد عبد الله في واقعة اليمامة في حروب الردة عام ١٢هـ، وتوفي سهيل وأبو جندل بالطاعون أثناء غزو الشام عام ١٨هـ.

يُملي، فقال لعلي بن أبي طالب: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فيأبى سُهيل ويقول نحن لا نعرف الرحمن الرحيم، اكتب ما نقول نحن، باسمك اللَّهُمَّ؛ فيوافق النبي، ويهم عليٌّ بالكتابة، فيمسك عمر وغيره بيد علي ليمنعوه، وتتعالى الاحتجاجات، ويحتدم الجدل، لكن النبي يومئ لعليّ أن يكتب باسمك اللَّهُمَّ. ثم يواصل النبي فيقول: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»، فيحتج سُهيل مرة أخرى ويقول: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فيثور اللغط مرة أخرى، فيقول النبي: إنني محمد بن عبد الله، فيكتبها علي كذلك. ثم يتواصل النص فيكون تمامه كالتالي: «باسْمِك اللَّهُمَّ، هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، اصْطَلَحَا عَلَى وَضْعِ الْحَرْبِ عَشْرَ سِنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النّاسُ وَيَكُفّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، عَلَى أَنّهُ لَا إسْلَالَ وَلَا إغْلَالَ (أي لا غش ولا خيانة)، وَأَنّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً (أن تكفوا عنا ونكف عنكم)، وَأَنّهُ مَنْ أَحَبّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ مُحَمّدٍ وَعَقْدِهِ فَعَلَ، وَأَنّهُ مَنْ أَحَبّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَعَقْدِهَا فَعَلَ، وَأَنّهُ مَنْ أَتَى مُحَمّداً مِنْهُمْ بِغَيْرِ إذْنِ وَلِيّهِ رَدّهُ إلَيْهِ، وَأَنّهُ مَنْ أَتَى قُرَيْشاً مِنْ أَصْحَابِ مُحَمّدٍ لَمْ تَرُدّهُ، وَأَنّ محمّداً يَرْجِعُ عَنّا عَامَهُ هَذَا بِأَصْحَابِهِ، وَيَدْخُلُ عَلَيْنَا فِي قَابِلٍ فِي أَصْحَابِهِ فَيُقِيمُ ثَلَاثاً، لَا يَدْخُلُ عَلَيْنَا بِسِلَاحٍ إلّا سِلَاحَ الْمُسَافِرِ، السّيُوفُ فِي الْقُرُبِ. شَهِدَ أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفّانَ، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن مَسْلَمَةَ، وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزّى، وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ»(١٤).

وبعد أن فرغوا من الكتاب احتفظ رسول الله بالأصل وأخذ سهيل نسخة، وعلى الفور يقرر من كان حاضراً من خزاعة الدخول في عهد النبي، وفي المقابل، يقرر من كان حاضراً من بني بكر، وهم أعداء بني خزاعة، الدخول في عهد قريش.

هذان الطرفان كانا على عداءٍ شديد، وبينهما ثاراتٌ لم تنتهِ، وها قد دخل كلٌّ منهما في حلف طرفٍ من الطرفين، لكن ذلك لن يكون نهاية الصراع

(١٤) لمن أراد قراءة تفاصيل الرواية كاملة: **السيرة النبوية** لابن هشام، والمغازي للواقدي.

بينهما، وقد علق حويطب بن عبد العزى على ذلك فور التحاق خزاعة بحلف النبي فقال لسهيل بن عمرو: «لقد بادَأَنا أخوالك بالعداوة»، مُعَيراً سهيل بن عمرو لأن أمه كانت خزاعية، فرد سهيل: «ما هم إلا كغيرهم، هؤلاء أقاربنا ولَحَمُتنا قد دخلوا مع محمد. قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم؟ قال حويطب: نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءَنا من بني بكر، قال سهيل: إياك أن تسمع منك هذا بنو بكر، فإنهم أهل شؤم، فيثبوا بخزاعة، فيغضب محمد لحلفائه، فينقض العهد بيننا وبينه. قال حويطب: حظوت (ساندت) والله أخوالك بكلِّ وجه، فقال سهيل: ترى أخوالي أعز عليَّ من بني بكر؟ ولكن، والله لا تفعل قريش شيئاً إلا فعلته، فإذا أعانت بني بكر على خزاعة فإنما أنا رجلٌ من قريش، وبنو بكر أقرب إليَّ في قِدَم النسب وإن كانت لهؤلاء لخؤولة، وبنو بكر مَن قد عرفت، لنا منهم مَواطن كلها ليست بحسنة، منها يوم عكاظ»[١٥].

الفتح المبين في الصلح

عندما فرغ الوفدان وانفضّ الجمع، خيّم على معسكر المسلمين غمٌّ شديد، ذلك أن حادثة أبي جندل كانت مؤلمة، كما أنهم كانوا يأملون في أداء العمرة بالفعل. وعندما أمر النبي أصحابه أن ينحروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم ليتحللوا من إحرامهم، لم يبادر أحدٌ منهم إلى ذلك، عندها دخل إلى خيمة زوجِه أم سلمة، فاشتكى إليها مما صنع الناس، فاقترحت عليه أن يخرج هو بنفسه، فينحر الهدي الخاص به، وأن يحلق شعره، فإذا رآه الناس فعلوا مثله؛ وهذا ما كان.

نادى منادي المسلمين بالرحيل، وسار الجمع راجعاً إلى المدينة، وبينما هم في طريق عودتهم نزل الوحي من السماء موافقاً لحكمة النبي في إمضاء الاتفاق مع قريش، نزلت سورة الفتح، وإذا بالنبي تنفرج أساريره، ويتلوها على المسلمين:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]، فيقول عمر: أوَفتحٌ هو يا رسول الله، فيرد النبي: ألم أقل لك يا عمر؟!

---

(١٥) مغازي الواقدي.

يطلق القرآن على صلح الحديبية ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فلا جدال ولا شك في أنه فتحٌ مبين، ولم يطلق القرآن وصف المبين على أي فتح سوى فتح الحديبية هذا، فهو فتحٌ من دون دم ولا قتال، وسيكون أثره أعم وأشمل من أي فتح عسكري.

لم يكن المسلمون قد اعتادوا مثل هذا النوع من الفتح، لقد فتح الله عليهم في معارك وغزوات، أما أن يكون الفتح في الصلح فهذا فتح من نوع جديد. عليهم أن يعدّلوا من منظورهم للأمور، فالنبي الذي يقود ليس قائداً عسكرياً فحسب، وليس استراتيجياً فحسب، ولا هو سياسي فحسب؛ إنما يزاول القيادة والاستراتيجيا والسياسة في سبيل الوفاء بالمهمة الموكلة إليه من السماء، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨ ـ ٩]. هي الرسالة ومقتضياتها إذاً والرسالة ذات منهج مختلف عمّا عهده الناس في إدارة العلاقات فيما بينهم وبين أعدائهم، فلا استئصال ولا انتقام ولا ثأر، وكل ما يساعد الرسالة على الانتشار فهو فتح، فإن كان من غير دم ولا قتال فهو فتح مبين!

وإذا كان بعض المسلمين، ومنهم عمر بن الخطاب، قد بدؤوا يشعرون بالندم على موقفهم المشكك بالصلح، فإن الله سبحانه قد عفا عن ذلك كلّه، وزادهم بأن رضي عنهم، فليفرحوا وليستبشروا: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]. ويلفت القرآن أنظارهم إلى المنافع التي تحققت من الصلح: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢٠ ـ ٢١]. فالحديبية إذاً فتح مبين، لأنها بداية عدد من الإنجازات والفتوح، أهمها مغانم كثيرة سيأخذها المسلمون عما قريب، وهو ما سيتحقق بخيبر، وفتح آخر لم يكن قد حان أوانه، وهو فتح مكة نفسها، ثم الانطلاق إلى ما وراء جزيرة العرب. وحتى لا يشعر أحد بأن الصلح كان عن ضعف من المسلمين، فإن الله سبحانه يؤكد في السورة أن المسلمين كانوا قادرين على غَلَبَة قريش لو وقع قتال: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢]، لكنّ إرادة الله شاءت ألا يكون فتح مكة قتالاً، بل فتحاً كريماً

يُعِزُّ الله فيه قريشاً، ويتوج إنجازات المسلمين بمشهد من العفو لا تزال الأمة تفاخر به ما بقي الزمان.

شورى الحديبية

يبقى أن نشير هنا إلى مسألة قد تثور في الخاطر، وهي متعلقة بمفهوم الشورى في الشأن العام، فالنبي عليه الصلاة والسلام اعتاد أن يشاور أصحابه في الشأن العام؛ الحرب والصلح، وأن يأخذ بنتيجة الشورى حتى إن خالفت رأيه، كما حدث في أحد؛ فهل تحققت هذه القاعدة في الحديبية؟

رواة السير يكررون موقف عمر بن الخطاب وبعض الصحابة الآخرين مثل سعد بن عبادة على أنه موقف رافض للاتفاقية كما رأينا، وكأن غالبية الصحابة كانوا مثل عمر؛ لكن الأمر يحتاج لبعض التفصيل.

أولاً: انعقد مجلس شورى المسلمين بالفعل في عُسفان عندما سمع المسلمون بمسير كتيبة خالد بن الوليد، وقد قدمنا كيف أن النبي استشار المسلمين في قتال الكتيبة أو مواصلة المسير من غير قتال، فكان الرأي الذي التقى عليه الغالبية هو مواصلة المسير نحو مكة، وألا يقع القتال إلا في حال بادرهم العدو بهجوم. وهذا القرار الذي اتفق عليه المسلمون توجيه استراتيجي سيحكم مسار الأحداث حتى نهايتها، فالشورى التي وقعت بعُسفان ليست خاصة بطريقة التعامل مع كتيبة خالد، بل هي اتفاق على طبيعة هذه الرحلة الفريدة إلى مكة، فقد فهم جمهور الصحابة من طبيعة المسير إلى الحديبية أن هذه الرحلة ليست غزوة بمعناها التقليدي المألوف، ولذلك أقروا للنبي بالتصرف دون اللجوء إلى العمل العسكري إلا دفاعاً عن النفس، ومن ثمّ فإذا كان العمل العسكري مستبعداً فالقائد مفوض في اختيار أنسب الطرق للتعامل مع العدو، واختار النبي التفاوض بعد أن ألجأ قريش إليه.

ثانياً: كانت غالبية المسلمين مع النبي في قراره المضيّ بالصلح، فالجمع الذي شهد الحديبية زاد على ألفٍ وأربعمئة من المسلمين، منهم كبار المهاجرين والأنصار، مثل أبي بكر وعلي وعثمان وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، وغيرهم. ولم يكن اعتراض عمر وعدد قليل من الصحابة على مبدأ التفاوض ولا على مشروعية الاتفاق، بل كان

اعتراضهم على جزئيات تعلقت بواقعة أبي جندل وبعودتهم هذا العام من دون أداء العمرة، وهذه وقائع ذات أثر معنوي بالغ على نفوس الصحابة، أدت إلى انفعال بعضهم والتعبير عن هذا الانفعال، لكننا لم نقف على نص يشير إلى أن الغالبية العظمى من الصحابة رفضت مبدأ الاتفاق، إلا ما كان من الإشارة إلى واقعة التحلل من الإحرام، وهذه تُفهم في سياقها المعنوي؛ جمع من المسلمين يقيم أياماً طويلة على مشارف مكة، بل في داخل أرض الحرم، وعلى مقربة من البيت العتيق، في حالة إحرام وشوق لدخول البيت وتعظيم شعائر الله فيه، ثم يأتي قرار العودة هذا العام وتأجيل العمرة إلى العام القادم، فيقع من نفوس المُسلمين موقعاً عظيماً، ويثير في قلوبهم حزناً عميقاً، فيتريثون لبرهة وجيزة، بدافع نفسي بحت، أو أملاً في إعادة النظر في هذا البند من الاتفاق، ثم يسارعون إلى التحلل من إحرامهم فور رؤيتهم للنبي يحلق رأسه، فيتأكد لهم أن القرار نهائي، فيسمعون ويطيعون.

ثالثاً: عموم المسلمين منحوا النبي تفويضاً عاماً في الحديبية من خلال بيعة الرضوان، صحيح أنها كانت بيعة حرب ولكنها كذلك بيعة عامة للنبي، فقد ورد أن النبي طلب منهم البيعة على ما في نفسه، ذلك أن أول من بايع كان أبا سنان الأسدي، فقال: «يا رسول الله ابسط يديك حتى أبايعك، فقال: على ماذا، قال: على ما في نفسك، قال: وما في نفسي، قال: الفتح أو الشهادة، فبايعه. وكان النّاس يجيئون فيقولون: نبايع على بيعة أبي سنان»[١٦]. فإذا كانت البيعة على ما في نفس رسول الله فهي بيعة تفويض عامة، ولو اختزلناها في الشهادة أو الفتح لكانت شاملة للصلح كذلك، فالفتح ليس بالضرورة عملاً عسكرياً، وهذا ما سيتعلّمه الصحابة بُعَيد الاتفاق، وسيتنزَّل القرآن واصفاً الحديبية بأنها فتحٌ مبين، وبذلك فبيعة الرضوان شاملة لكل فعل يراه النبي في التعامل مع قريش، حرباً أو صلحاً.

رابعاً: ثمّ إنّ النبي في حواراته وتصريحاته كان صريحاً منذ البداية في أنه سيقبل أي خطة تعظِّم قريش فيها الحرم، وأنه لم يأتِ لقتال، وهو الذي اقترح الهدنة، ورسائله إلى قريش بهذا الخصوص كانت واضحة، وهذا كله أمام المسلمين وعلى مسامعهم، ولم نسمع أن أحداً من الصحابة اعترض على هذه

(١٦) مغازي الواقدي.

الاستراتيجية؛ إلا أن الاعتراض لاحقاً لم يكن على المبدأ، بل على التفاصيل والشكليات، فغضب عمر على صلافة سهيل بن عمرو في تعامله مع أبي جندل وعلى البند الخاص بتأجيل العمرة للعام القادم، وهذه انفعالات عاطفية، وتداعيات آنية، ينبغي على القائد أن يحتويها، لكنها لا تؤثر في القرار الاستراتيجي. ويبدو لنا جلياً أن اعتراضات عمر وتساؤلاته لم تكن عصياناً للنبي ولا خروجاً على قيادته، والنص الذي أوردناه عن إيحاء عمر لأبي جندل بقتل سهيل يدل على ذلك، إذ يقول له أبو جندل: ولِمَ لا تقتله أنت؟ فيرد عمر: لأن النبي قد نهانا عن ذلك! فلا يزال عمر إذاً سامعاً مطيعاً للنبي حتى في تلك اللحظة العصيبة.

خامساً: كان عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من الشهود الذين وقّعوا على نص الاتفاق إضافة إلى أبي بكر وعثمان وغيرهم، وهذا دليل على أن الاتفاق في كليته كان قد أُقر من كبار الصحابة، وهو ما يرجح النتيجة التي وصلنا إليها من أن الخلاف كان على الحيثيات والجزئيات التي صاحبت عملية التفاوض، لا على الاتفاق ذاته، وهذا مفهوم في سياق المفاوضات بين عدوين يلتقيان لأول مرة خارج ساحات القتال؛ إذ تأتي لحظات تثور فيها المشاعر، ويتعطل الحوار، وينفض اللقاء، وعندما يتم احتواء الخلافات يعود المتفاوضون إلى طاولة الحوار ويواصلون الحديث، وما حدث في الحديبية لا يخرج عن هذا النمط المعتاد في كل حين.

من جهة أخرى تأمَّل في سعة صدر النبي عليه الصلاة والسلام وفي قدرة الصحابة على التعبير الأمين عن رأيهم من دون خوفٍ ولا وجل، هذا هو الجيل الذي حرره الإسلام من الارتهان للتقليد الأعمى، وزوده بالدافعية والثقة، وهذا الذي سيبني مجتمعاً صحيّاً متفاعلاً مخلصاً لرسالته. لقد كان فتح الحديبية حقاً بداية النهاية لقريش المشركة ونهاية البداية لدولة الإسلام. أما وقد أمن المسلمون جانب قريش بالصلح، فإن لديهم مهمة أخرى عاجلة: فتح خيبر.

الفصل السادس عشر

خيبر: آخر الحصون

مُحمَّدٌ يغزونا؟ هيهات! هيهات!

كانت خيبر أكثر حواضر الجزيرة غنًى، وأشدها تحصيناً، تقع في منطقة جبلية وعرة، صخورها بركانية، وهي واحة خصيبة فيها مياهٌ غزيرة وبساتينُ وارفة، يكثر فيها النخيل ويزرع فيها القمح والشعير، وتقع على الطريق التجاري العابر إلى الشام، وتعتبر القاعدة الحضرية لعددٍ من القبائل مثل غطفان وأسد وطيّئ، وهذه قبائل ذات قوة وشراسة، موغلة في البداوة، يعتمدون على خيبر في شؤنهم المعيشية، فيفدون إليها للتجارة وشراء احتياجاتهم، وفتحها سيكون له أثر مباشر على هذه القبائل، لأنها ستبقى بحاجةٍ إلى خيبر، حتى إن كانت تحت حكم المسلمين.

يعيش سكانها من اليهود في عدّة حصون، بعضها شديد المَنَعة لوقوعها في أعلى الجبال، وتنقسم إلى ثلاث قرى، فيها ما مجموعه أحد عشر حصناً منيعاً، وكانت بعض هذه الحصون مزودة بآبارٍ ومخازن طعام تكفي المتحصنين فيها زمناً طويلاً، وكان لبعضها أنفاقٌ وقنواتٌ تحت الأرض يخرجون منها سراً فلا يعرف بخروجهم أحد، لذلك حازت خيبر وصفاً كانت قريش وقبائل العرب تطلقه على خيبر: «قَرْيَةُ الْحِجَازِ رِيفاً وَمَنَعَةً وَرِجَالاً وَسِلَاحاً».

الأجواء التي نقلها لنا الواقدي في مغازيه تدل على أن سكان خيبر وكذا قريش وكثير من قبائل العرب كانت متشككة في قدرة المسلمين على فتح خيبر لما لها من المَنَعَة والقوة: «وكانت يهود خيبر لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ثم يقولون: مُحمَّدٌ يغزونا؟ هيهات! هيهات! وكان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهّز النبي ﷺ إلى خيبر: ما أمنع والله خيبر

منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصونٌ شامخاتٌ في ذرى الجبال، والماء فيها واتن (دائم غير منقطع)، إنّ بخيبر لألف دارع، ما كانت أسد وغطفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟ فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النبي ﷺ، فيقول أصحاب النبي ﷺ: قد وعدها الله نبيه أن يغنمه إياها»(١).

هذا ما يقوله يهود المدينة لتخذيل المسلمين، إلا أن يهود خيبر كانوا في خوف شديد، وهو ما نقرؤه في رواية عين لليهود من قبيلة أشجع، قُبض عليه وأُتي به إلى النبي، فقال الأعرابي: «الْقَوْمُ مَرْعُوبُونَ مِنْكُمْ خَائِفُونَ وَجِلُونَ لِمَا قَدْ صَنَعْتُمْ بِمَنْ كَانَ بِيَثْرِبَ مِن الْيَهُودِ، وَإِنّ يَهُودَ يَثْرِبَ بَعَثُوا ابْنَ عَمّ لِي وَجَدُوهُ بِالْمَدِينَةِ، قَدْ قَدِمَ بِسِلْعَةٍ يَبِيعُهَا، فَبَعَثُوهُ إِلَى كِنَانَةَ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ يُخْبِرُونَهُ بِقِلّتِكُمْ وَقِلّةِ خَيْلِكُمْ وَسِلَاحِكُمْ، وَيَقُولُونَ لَهُ: فَاصْدُقُوهُم الضّرْبَ يَنْصَرِفُوا عَنْكُمْ فَإِنّهُ لَمْ يَلْقَ قَوْماً يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ، وَقُرَيْشٌ وَالْعَرَبُ قَدْ سروْا بِمَسِيرِهِ إِلَيْكُمْ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَوَادّكُمْ وَكَثْرَةِ عَدَدِكُمْ وَسِلَاحِكُمْ وَجَوْدَةِ حُصُونِكُمْ، وَقَدْ تَتَابَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَيْرُهُمْ مِمّنْ يَهْوَى هَوَى مُحَمّدٍ، تَقُولُ قُرَيْشٌ: إنّ خَيْبَرَ تَظْهَرُ وَيَقُولُ آخَرُونَ يَظْهَرُ مُحَمّدٌ فَإِنْ ظَفَرَ مُحَمّدٌ فَهُوَ ذُلّ الدّهْرِ»(٢).

سار النبي إلى خيبر في جيش معظمه ممن كان قد شهد الحديبية، وكان مسيره يوم الخميس ١١ محرم من العام السابع للهجرة، الموافق لـ ٢١ نيسان/ أبريل عام ٦٢٨م، وذلك بعد أقل من شهرين على عودته من الحديبية(٣).

المسافة بين المدينة وخيبر ١٦٠ كيلومتراً، ويقطعها الجيش في خمسة أيام. كان يهود خيبر يعلمون أن النبي سيستهدفهم، فقد صاروا منذ وقت مبكر مركزاً رئيساً لتجمُّع القوى المعارضة للمسلمين، لا سيما بنو النضير وبعض من بني قينقاع، ودور بني النضير في بناء تحالف الأحزاب كان مهماً، كما أن خيبر هي حاضرة غطفان، وغطفان هي الأخرى كانت شريكاً رئيسياً في العدوان الثلاثي في الخندق.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عاد النبي من الحديبية في ٦ ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة، الموافق للفترة من ١٣ آذار/ مارس وحتى ١٠ نيسان/ أبريل.

كانت سرايا النبي قد حاولت قبل الحديبية عزلهم عن حلفائهم في فدك وتيماء ووادي القرى وعن دومة الجندل، ونعرف أن مجموعتين من المسلمين نفذتا عمليتي اغتيال لزعيمين من زعمائهما، وهو ما أفشل خطة سلام بن مشكم في بناء تحالف عسكري مع مراكز النفوذ اليهودي في فدك وتيماء ووادي القرى للانقضاض على المدينة كما أشار بذلك عليهم بعد غزوة الخندق، فمكثوا في حصونهم معللين النفس بشدة تحصينها ومنعتها، حتى وصلهم خبر مسير النبي إليهم بعد الحديبية. ومع أن ثقتهم بالأعراب كانت قد اهتزت، لا سيما بعدما انسحبت غطفان من الخندق، إلا أنهم رأوا أن يستنجدوا بعيينة بن حصن، ووعدوه حصاد عام من تمر خيبر، فأمدهم بأربعة آلاف. فاجتمع بخيبر ما تقدِّره المصادر بعشرة آلاف مقاتل، وهو عدد ضخم، وربما يكون مبالغاً فيه، والأرجح أن عدد مقاتلي اليهود لم يزد على ثلاثة آلاف، ومع ذلك فهو عدد كبير أيضاً؛ فمجموع المسلمين ممن شهدوا الحديبية قرابة ألف وخمسمئة فإذا أضفنا لخيبر الميزة الاستراتيجية المتمثلة بالحصون فتكون مهمة فتح خيبر صعبة بالفعل. غير أننا نلاحظ هنا ازدياداً مطرداً في عدد خيول المسلمين، إذ تقدرها المصادر بمئتين أو ثلاثمئة، وهذه قفزة نوعية؛ إذ كان المسلمون قد أنفقوا جزءاً من غنائم بني قريظة في ابتياع الجياد من نجد، وشجّع النبي أصحابه على تعلم الفروسية وسباق الخيل، ثم إنه فرض لكلِّ فرسٍ سهمين إضافيين من الغنائم، فللفارس سهم وللفرس سهمين، تشجيعاً لهم على امتلاك الخيول واستخدامها للقتال.

اعتمدت خطة المسلمين العسكرية على محاصرة الحصون الرئيسية جميعاً لمنع التواصل فيما بينها، ولكن التركيز يقع على حصنٍ واحد بعينه، حتى إذا فُتِح انتقل التركيز إلى حصن آخر. وفي الوقت نفسه أرسل النبي مجموعة فرسان باتجاه جيش غطفان، فأحدثوا إرباكاً وجلبة، وأوهموهم بأنّ المسلمين قد أغاروا على ديارهم في البادية، فرجع جيش غطفان إلى أهليهم فلم يجدوا شيئاً، فلما سمع اليهود بانسحاب جيش غطفان تراجعت روحهم المعنوية، وقال زعيمهم كنانة بن الحُقيق: «كُنّا مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ فِي بَاطِلٍ، إنّا سِرْنَا فِيهِمْ فَوَعَدُونَا النّصْرَ وَغَرّونَا، وَلَعَمْرِي لَوْلَا مَا وَعَدُونَا مِنْ نَصْرِهِمْ ما نابذنا محمّداً بالحرب»(٤).

---

(٤) المصدر السابق.

بدأ حصار المسلمين لمنطقة النطاة أولاً، وكان ذلك لارتفاع حصونها، ولأن سهام رماتها كانت تصيب المقاتلين، فحاصرها المسلمون أسبوعاً حتى فُتحت، ثم انتقل القتال إلى حصون أخرى، وكلما فتح حصن اشتدت عزيمة المسلمين وانهارت عزيمة اليهود. وكان المسلمون قد وجدوا في أحد هذه الحصون منجنيقاً ودبابتين، وهي أسلحة مهمة في استهداف الحصون؛ المنجنيق يُستخدم لإلقاء المقذوفات فوق الأسوار فتصيب داخل الحصن، أما الدبابة فهي عربة من خشب تغلفها الجلود، وينزل تحتها الجند فيحتمون بها من السهام والحجارة، وتُستخدم للاقتراب من الأسوار، مما يسمح للمقاتلين بنقب الأسوار أو حرق الأبواب. فلما تمكن المسلمون من هذه الأسلحة، صار سهلاً عليهم أن يهاجموا ما تبقى من الحصون.

بعض هذه الحصون لم تُفتح إلا بعد أن اكتشف المسلمون قنوات الماء التي تزودها فقطعوها. وكان لبعضها أنفاق استخدمت في التسلل. ونرى في هذه الغزوة أن القدرات الاستخبارية للمسلمين قد تطورت، فقد جُمعت معلومات مهمة عن تحركات العدو وأعداد مقاتليه وأماكن تخزين المؤن والأسلحة والمعدات، وذلك مؤشر على تطور بنية الجيش وتنوع أساليبه.

بعد أكثر من شهر من القتال والحصار وافق كنانة بن الحقيق على طلب الصلح، فتم الاتفاق على أن يستمروا في القيام على شؤون مزارعهم، لما لهم من خبرة في الزراعة، على أن تكون نصف ثمارها للمسلمين. وكان مما صادره المسلمون صحف وكتب، فجاء اليهود وذكروا أنها نسخ من التوراة، فوافق النبي على إعادتها لهم، من دون أن يمسها أي تلف.

عسكرياً كانت التجربة مهمة في الارتقاء بجيش المسلمين، إذ لم يقاتل المسلمون في معركة أشد تعقيداً وأطول مدة من خيبر. لقد أضافت خيبر للمسلمين خبرة جديدة في حصارٍ تطلّب صبراً وطول نفس، واستخدموا أسلحة لم يعهدوها من قبل، مثل المنجنيق والدبابة، كما تدرب المسلمون على اقتحام الحصون وتسلق القلاع، ووظفوا النشاط الاستخباري، وقاموا بمناورات تضليل للعدو، واستخدموا الدعاية المضادة والحرب النفسية.

أمّا على مستوى القبائل المحاذية لخيبر مثل غطفان وأسد وطيئ، فسوف تخضع من الآن وصاعداً للنبي، ولا أدل على ذلك من حوار دار بين عُيَينة بن حصن الفزاري سيد غطفان والحارث بن عوف من سادة غطفان أيضاً، وكان

عُيَينة قد ضيع حلفه مع اليهود وخان عهده مع النبي، ثم ندم على ذلك بعد أن وجد نفسه صفر اليدين: «فانصرف عُيَيَنة إلى أهله يفتل يديه فلما رجع إلى أهله جاءه الحارث بن عوف، قال: ألم أقل لك إنك توضِعُ في غير شيء؟ والله ليظهرنّ محمد على من بين المشرق والمغرب، اليهود كانوا يخبروننا هذا، أشهد لسمعت أبا رافع سلام بن أبي الحقيق يقول: إنا نحسد محمداً على النبوة حيث خرجت من بني هارون وهو نبي مرسل واليهود لا تطاوعني على هذا، ولنا منه ذبحان واحد بيثرب وآخر بخيبر. قال الحارث: قلت لسلام: يملك الأرض جميعاً؟ قال: نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحب أن تعلم اليهود بقولي فيه»[٥].

اقتصادياً مثلت الغزوة انتصاراً تاماً، فُتحت فيه الحصون عنوة، لكنها بقيت تحت إدارة ساكنيها، مقابل نصف ثمار مزارعها، فأصبحت خيبر المزوِّد الرئيس للمدينة، ترفدها بمددٍ دائم من التمر والقمح والسمن والشعير، ولذلك اعتبر فتح خيبر النقطة الفاصلة بين الفاقة والوفرة، إذ أدخلت غنائمها على المدينة سيولة مالية كبيرة، إذ تشير المصادر أن عائدات خيبر السنوية زادت على أربعين ألف وسق (والوسق نحو ١٦٢ كلغم)، أي ما يقارب في مجموعه خمسة آلاف طن من التمور والحنطة والشعير[٦].

بعدما فتحت خيبر، توجّهت أنظار المسلمين إلى المراكز الثلاثة التي تشكل النطاق الأمني لخيبر؛ وهي فدك وتيماء ووادي القرى، ومعظم سكانها من اليهود، فصالحهم النبي على أن يملكوا نصف الأرض ويكون نصفها الآخر للمسلمين. وبذلك انتهى النفوذ اليهودي المنظَّم في جزيرة العرب، ومعه النفوذ الاقتصادي، وانتقل رصيد ذلك كله إلى المدينة.

---

(٥) المصدر السابق.

(٦) محمد نصري الصايغ، **السيرة السياسية**، ط٢ (بيروت؛ لبنان: دار الفارابي، ٢٠١٩).

الفصل السابع عشر

إيلاف المدينة

«فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس، كلم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[1].

فتح خيبر دشَّن عهداً جديداً في المجالين الاستراتيجي والاقتصادي، وكل ذلك من دون خسائر فادحة في الأرواح؛ فقد قُتِل من المسلمين خمسة عشر رجلاً فحسب، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون. أما من حيث القيمة الاستراتيجية، فقد نقل فتح خيبر مكانة المسلمين إلى مستوى رفيع، لقد أدركت قبائل العرب ألا طاقة لهم بمحمدٍ وصحبه، وسوف يبادر كثير من العرب إلى الدخول في الإسلام من بعد خيبر، وسوف تتوالى وفود القبائل إلى المدينة راغبة في الحلف باسطة أيديها بالبيعة.

العهد الجديد إعلان عن اكتمال إيلاف المدينة، مستبدلاً إيلاف مكة؛ فالقوة الاقتصادية والأمنية للمدينة، إضافة إلى التحالفات التي أقامها النبي مع قبائل العرب، فتحت الباب أمام تجارة عابرة للحدود، تسير فيها القوافل آمنة تحت حماية القوة المركزية للمدينة، فلا يتعرَّض لها من قبائل العرب أحد، ولا يقف أمامها حائل.

في المقابل لم تستطع مكة استعادة إيلافها؛ صحيح أن اتفاقية الحديبية منحت مكة فرصة لاستعادة منزلتها التجارية، وبدأت القوافل القرشية تتحرك آمنة باتجاه اليمن والشام، إلا أن تعثُّر هذه التجارة طوال السنوات الثماني الماضية قد أضر ضرراً دائماً بمكانة مكة التجارية، فخسرت كثيراً من ثروتها ومن

---

(١) من حديث الزُّهري.

عملائها، وصار عسيراً عليها أن تنافس المركز الاقتصادي الناشئ في المدينة.

ومع ذلك واصل النبي النشاط العسكري والاستخباري لتثبيت الواقع الجديد وتوسيعه، فبعث عمر بن الخطاب في سرية إلى تُربة شرقي الطائف في شعبان سنة ٧ للهجرة، للتوثّق من أمر بعض بطون هوازن. وهوازن مع ثقيف حليفانِ لقريش ولا تزالان على عدائهما للنبي، وتقييم أحوالهما ضرورة لتقييم واقع مكة. ثم أرسل سرايا باتجاه نجد لتأديب بطون من بني مرة، وإلى ميفعة من نواحي غربي نجد كانوا يغيرون على المدينة.

وسنقترب الآن من مكة لنفهم ما يدور في جنباتها وفي نفوس أهليها، ونركز على ثلاثة أحداث مهمة تعكس الواقع الذي تعيشه في ظل الحديبية.

المقاومة المسلحة

الحادثة الأولى في المقاومة المسلحة تتعلّق بالاتفاقية، لا سيما البند الذي نص على أنه من جاء من قريش فاراً إلى محمد فسيقوم محمد بردّه إلى قريش، ومن جاء قريشاً من طرف محمد فقريش غير ملزمة برده، وهو البند الذي أثار لغطاً كبيراً في معسكر المسلمين أثناء المفاوضات في الحديبية، وهو ذات البند الذي استند إليه سهيل بن عمرو في استعادة ولده أبي جندل مقيداً بالسلاسل من بين المسلمين في حادثة أدمت قلوب المسلمين أسًى وحسرة.

فبعد عودة النبي إلى المدينة قدم إليها فاراً من قريش رجل يسمى أبا بُصير، وهو عتبة بن أسيد حليف بني زهرة، جاء إلى النبي فاراً من المشركين، بعدما أسلم وأوقعوا به الأذى، وما إن وصل إلى المدينة حتى جاءه مبعوثان من قريش بخطابٍ من الأخنس بن شريق، سيد بني زهرة، يطالب بتفعيل الاتفاق وتسليم أبي بصير للرجلين ليعودا به إلى مكة، ولم يكن أمام النبي من خيارٍ سوى الالتزام بالاتفاق. وكما كان وقع تسليم أبي جندل قاسياً على المسلمين، كان تسليم أبي بصير واقعة أليمة، لا سيما عندما قال أبو بصير للنبي: «يَا رَسُولَ اللهِ، تَرُدّنِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونَنِي فِي دِينِي؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَبَا بَصِيْرٍ، إِنّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا قَدْ عَلِمْت، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنّ اللهَ جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِن الْمُسْلِمِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً»**»[٢].

---

(٢) مغازي الواقدي.

إشارة النبي إلى أن الله جاعل لأبي بصير ولمثله من المستضعفين في مكة (فرجاً ومخرجاً) حمل رسالة بأن هذا الوضع يمكن أن يتغيَّر، وهي الإشارة التي التقطها أبو بصير بالفعل؛ ففي طريق العودة إلى مكة، استطاع أبو بصير أن يقتل أحد الحارسين وأن يلحق بالثاني الذي فر إلى المدينة محتمياً بالنبيّ، وصل أبو بصير إلى المدينة، ورآه النبي متوشحاً سيف القتيل، فبادر أبو بصير بالقول: «يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يُعبَث بي»، فقد أدرك أبو بصير أن النبي عندما قرر تسليمه لقريش إنما كان يفي بالتزاماته حيال اتفاق الحديبية، أما وأن التسليم قد وقع، وأن أبا بصير قد أفلت خارج حدود المدينة، فالنبي ليس ملزماً الآن بإعادة تسليمه، غير أنه لن يستطيع المكث في المدينة، إذ إن ذلك سيكون خرقاً للاتفاق أيضاً، فلا بد من أن يبحث عن مكان ثالث يهاجر إليه.

علّق النبي على كلام أبي بصير بأن قال: «ويل أمِّه مُسعِّر حربٍ لو كان معه رجال»، وهي إشارةٌ ذكية، التقطها أبو بصير، فقرر أن يهاجر إلى الساحل، إلى منطقة تسمى العيص، على طريق تجارة قريش، فأقام فيها، مؤسساً نواة مقاومة مسلحة، وعلم المسلمون في مكة بأمر أبي بصير وبإشارة النبي، فتوافد عليه الفارُّون من أسر قريش حتى وصلوا قرابة سبعين، من بينهم أبو جندل بن سهيل، وجعلوا مهمّتهم التضييق على قريش، فيعترضون قوافلها، ويغيرون على تجارتها، مما سبَّب لقريش مشكلة أمنية مُلِّحَة، وصار عسيراً على قوافلها أن تسير آمنة باتجاه الشام، عندها لم تجد قريش حلاً إلا أن تكتب إلى النبي متنازلةً عن بند التسليم الذي في اتفاقية الحديبية، وتنشده الله والرحم أن يؤوي من جاءه من المسلمين. وهكذا كتب النبي إلى أبي بصير أن يقدم عليه مع بقية المجموعة، فجاءه خطاب النبي وهو يحتضر، فتوفِّي ودفن هناك، إلا أن أبا جندل اصطحب المسلمين إلى المدينة، فأقاموا فيها آمنين مطمئنين، واعتبر بند التسليم منعدماً.

هذه الواقعة دلت على سعة حيلة المسلمين وعلى ضيق أفق قريش، فقد عالج النبي ما كان عبئاً نفسياً ثقيلاً على المسلمين من دون أن يخرق الاتفاق، وعجباً لرجال مثل أبي بصير وأبي جندل وأصحابهم كيف التقطوا الإشارة النبوية وبادروا إلى هذه الخطوة الذكية، فأضروا بقريش إلى أن تطلب هي من النبي إلغاء البند. نحن أمام جيل جديد واسع الحيلة، شديد المبادرة، يتحلى

بالشجاعة، في مقابل واقع هَرِم مترهّل، متمسك بمنهجٍ بالٍ قديم، قوامه التعصب والانغلاق.

الفتح الأخلاقي

في يوم الاثنين ٧ من ذي القعدة من العام السابع للهجرة الموافق ٦ شباط/فبراير ٦٢٨م، أي بعد عام من توقيع اتفاقية الحديبية، اصطحب النبي ألفاً وأربعمئة من أصحابه لأداء مناسك العمرة وفقاً لاتفاق الحديبية، فيما عُرِفَ بعمرة القضاء. ووفقاً للاتفاق فإن المسلمين سيدخلون مكة من دون سلاح، ولا يقيمون فيها سوى ثلاثة أيام.

سار النبي ﷺ في أصحابه من المدينة في هيئةٍ قوامها الهيبة والوقار والنظام، قاد مئة فرس قدمها أمامه وحمل معه السلاح والخُوَذُ والدروع، فقيل له: يا رسول الله، حملت السلاح وقد شرطوا علينا ألا ندخل عليهم إلا بسلاح المسافر، السيوف في القُرب[٣]، فقال النبي: «إنه لا نُدخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قريبة منّا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا. قيل: يا رسول الله، نخاف قريشاً على ذلك؟ فسكت الرسول وقدم البدن».

وأمر النبي محمد بن مسلمة أن يسبق الجيش ومعه الخيل والسلاح حتى أدرك مَرَّ الظهران، وهناك كانت طلائع قريش تنتظر، ويُعلن محمد بن مسلمة أن النبي سيصل مَرَّ الظهران في الغد، فتسرع طلائع قريش بالخبر إلى مكة، فتفزع قريش من أن يكون النبي قد قرَّر دخول مكة بالسلاح، «ففزعت قريش فقالوا: والله ما أَحدثنا حَدَثاً، ونحن على كتابنا ومُدَّتنا (الهدنة)، ففيمَ يغزونا محمد في أصحابه؟».

ولما وصل النبي أمر بالسلاح فقُدِّم إلى بطن يأْجَج على مقربة من أنصاب الحرم عند التنعيم قبالة موضع الحديبية، فبعثت قريش مكرز بن حفص، وكان ممن شهدوا صلح الحديبية، في نفرٍ من قريش حتى لقوه ببطن يأجَج، «فقالوا: يا محمد! والله ما عُرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف في القرب! فقال رسول الله ﷺ: لا ندخلها إلا كذلك»[٤]، فاطمأنت قريش.

---

(٣) هو غمد السيف الذي يوضع فيه.

(٤) مغازي الواقدي.

في هذه الأيام الثلاثة التي قضاها النبي في مكة، استطاع أن يوظّفها لخدمة مشروع الفتح القادم؛ فعند دخوله إلى مكة، خرج معظم سادة قريش إلى الجبال حتى لا يشهدوا دخوله، ومع اعتصامهم بالجبال، إلا أنهم كانوا يراقبون المسلمين، يلاحظون ويقيِّمون، ويعلم المسلمون ذلك، فيقدمون لأهل مكة مثالاً عظيماً في الانضباط السلوكيّ والخُلقيّ؛ ففي أثناء الطواف والسعي أمرهم النبي أن يظهروا الهمَّة والنشاط البدني، ليردوا على إشاعات كانت قريش قد أطلقتها من أن المسلمين قد ضعفوا بسبب الحُمَّى المنتشرة في المدينة، ثم إن انتظام المسلمين في صفوف للصلاة خلف النبي وانضباط حركاتهم، والخشوع الذي يؤدون فيه الصلاة، كان منظراً مهيباً، لم يعهد مثله المشركون من قبل؛ إذ يؤم البيتَ جموعٌ كثيرة من مختلف أرجاء الجزيرة للحج والعمرة كل عام، لكنّ طوافهم وسعيهم ليس سوى طقوس جاهلية، يعلو فيها الصفير، وتعمها الفوضى، ويطوف الناس من غير نظام، بعضهم عراة، في مشهد مهرجاني عابث، ليس على أحد فيه سمات الخشوع ولا التقوى، فشتان بين ذلك المشهد المعهود، وهذا المشهد الإيماني الخاشع المتبتل.

والجانب الآخر هو أمانة المسلمين والتزامهم بالعهود، فقريش تعرف أنها ضعيفة، وأن محمداً قوي، ومع هذا يدخل مكة في موعد ويغادرها في موعد، من دون خلل ولا تأخير، وتخلو لهم مكة أياماً ثلاثة، من دون أن يوقعوا أي اعتداء على أحد، أو أن يضروا بأي مرفق من مرافقها، إضافة إلى نظافتهم وحسن تنظيم معسكرهم. كل ذلك أوقع في نفوس سكان مكة أنهم أمام جيل فريد، وأن محمداً وصحبه جديرون بالاحترام، أوفياء بالعهود، عليهم سمات الرفق، فأي مبرر للاستمرار في عدائهم أو في الخوف منهم؟

في اليوم الثالث جاء سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى في وفدٍ من قريش، فقال سهيل: «قد انقضى أجلك فاخرج عنا، فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت طعاماً؟ فقالا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا، ننشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت»، فغضب سعد بن عبادة من غلظة سهيل وحويطب، «فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً»، فأراد النبي أن يحسم الخلاف، فقال لسعد بن عبادة: «يا سعد لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا»، وأمر مولاه رافع

أن يؤذن بالرحيل وقال: «لا يبيتنّ بها أحدٌ من المسلمين»[٥].

الفارق بين تسامح النبي، وهو القويّ القادر على هزيمة قريش، وغلظة سادة قريش، مثال على الحال التي بلغتها قريش؛ مزيج من السخط والخوف الممتزج بغياب الرؤية. لقد عرض النبي عليهم عرضاً كريماً، فقد قال لهم إنه ينوي أن يتزوج بميمونة بنت الحارث، وإنه يقترح عليهم أن يقيم يوماً إضافياً فيصنع وليمة العرس، ويدعو قريشاً إليها، فيشتركوا مع المسلمين في الطعام؛ لكن وفد قريش رد رداً يليق بالعنجهية الجاهلية، فقالوا لا حاجة لنا بطعامك فاخرج عنّا، فاحترم النبي الاتفاق وأذن مؤذنه بالرحيل قبل غروب الشمس.

لا شك أن سادة قريش كانوا قلقين من تبعات عمرة القضاء، إذ لا تزال البغضاء تعشش في قلوبهم، ولم يستطيعوا تقبُّل الواقع الجديد، لكن بقية سكان مكة من البسطاء والموالي والأحابيش، الذين اختلطوا في هذه الأيام بالمسلمين أو راقبوهم عن بعد، لا شك أنهم كانوا أكثر إنصافاً في حكمهم على هذه التجربة الفريدة، التي مكنت الطرفين من أن يتواصلوا في ساحة غير ساحة القتال.

لقد كانت عمرة القضاء مبادرة إعلامية نفسية، أدخلت في روع أهل مكة أن محمداً وصحبه أقوياء منظمون، ومع هذا فهم أصحاب خلق، ليِّنو الطبع. فإن كانت قريش قد عرفت شجاعتهم في الحرب، وشدَّة بأسهم في القتال، فها هي اليوم تتعرف إلى جانب آخر من شخصيتهم، جانب تكشفت ملامحه في السلم لا في جبهات القتال، فلا أجمل من أن يعرف خصمك أنك قوي شديد البأس فيخشاك، ثم يعرف أنك نبيل رفيع الخلق فيعجب بك.

لقد مثلت عمرة القضاء الفتح الأخلاقي لمكة، قبل الفتح الفعلي الذي لن يتأخر كثيراً.

أين المفرّ؟

في هذه المرحلة كانت قيادة قريش تعبر أزمة خانقة، فالقادة الثلاثة: صفوان وعكرمة وسهيل، يزدادون نَزَقاً وتوتراً، وأبو سفيان يزداد ابتعاداً، أما بقية الجيل الشاب من سادة قريش فهم في حيرة شديدة. هذه الأجواء انعكست

---

(٥) المصدر السابق.

بوضوح في قصة إسلام ثلاثةٍ من أبرز وجوه القيادة الشابة في قريش: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة؛ الأول زعيم العسكرية القرشية، والثاني زعيم الديبلوماسية القرشية، والثالث حاجب الكعبة، وثلاثتهم من أبناء سادة قريش الكبار، ولهم مكانة سامية حسباً ونسباً.

خالد بن الوليد هو صاحب نصر قريش في أُحد، كان أبو سفيان قد اقترح أن يسوِّروه(٦) ويضعوا على رأسه الأكاليل كما تفعل الروم بأبطالها، وهو ابن الوليد بن المغيرة، وحيد مكة، وسيِّدها المطاع. لكنّ خالداً وقع في حيرةٍ شديدة بعد الحديبية، وازدادت حيرته بعد عمرة القضاء؛ إذ دخل اليأس في قلبه من أن ينهزم المسلمون بعدما أصبحت شرعيتهم أمراً واقعاً بعد الحديبية، وها هو اليوم يرمقهم من شاهق الجبال يطوفون بالبيت آمنين مطمئنين في عمرة القضاء، ثم يتساءل عن السبب الحقيقي الذي ينبغي عليه أن يعاديهم، فخالد محاطٌ بالمسلمين من آل بيته؛ كان لخالد شقيقان قد أسلما من قبل، الوليد بن الوليد أسلم بعد بدر، وهشام بن الوليد، الشقيق الأصغر لخالد، أسلم في العام الرابع الهجري، وها هو النبي يتزوَّج ميمونة بنت الحارث، خالة خالد بن الوليد، بل ويدعو قريشاً لتشاركه وليمة العرس.

أثناء عمرة القضاء خرج خالد من مكة مع من خرج من سادة قريش، لكنّ الوليد بن الوليد، شقيق خالد، أرسل إليه رسالة كان لها أثرٌ كبير في أن يحسم أمره. ونترك خالداً يتحدث عن تجربته بنفسه، يقول: «فلما صالح قريشاً ـ أي النبي ـ بالحديبية ودافعته قريش بالرواح، قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين أذهب؟ إلى النجاشيّ؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون. فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية فأقيم في عجم(٧). فأقيم في داري بمن بقي. فأنا في ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضية (عمرة القضاء) فتغيَّبت ولم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضية فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتاباً فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك، ومثل الإسلام جَهِلَه أحد؟ وقد سألني رسول الله

(٦) أي يجعلوا له أساور خاصة في يده.

(٧) العجم خلاف العرب من الناس.

عنك وقال: أين خالد؟

فقلت: يأتي الله به.

فقال: «مثله جَهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقَدَّمناه على غيره»، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة.

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام، وسرني سؤال رسول الله عني»[٨].

أما عمرو بن العاص، وأبوه هو العاص بن وائل السهميّ، سيد بني سهم، فقد كان هو الآخر قد أصابه ما أصاب خالداً من القلق والفزع، فأبى أن يقيم في مكة منتظراً أن يدخلها رسول الله، فخرج مهاجراً إلى النجاشي في الحبشة، وكان على علاقةٍ قديمةٍ معه، وسمع من النجاشي كلاماً شجَّعه على الإسلام، فاتجه إلى المدينة، والتقى بخالد بن الوليد على الطريق، وقدما المدينة معاً، بصحبة قرشيٍّ ثالث هو عثمان بن طلحة، وهو الآخر ذو رمزية مهمة، فهو حاجب البيت الحرام، توارث آباؤه سدانة الكعبة حتى آلت إليه.

عندما علم النبي بمقدمهم قال لأصحابه: «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها»[٩]. وكان لإسلامهم أثرٌ عظيم على نفوس شباب مكة، فهم رموزٌ جليلة القدر، وهم أبرز من أسلم من قريش منذ الهجرة، وبإسلامهم تكون مكة قد دخلت في حالةٍ من التصالح مع فكرة أن يُسلم بعض قادتها. وعلى الرغم من أن القيادة الثلاثية المكونة من صفوان وعكرمة وسهيل لا تزال تكابر وتحرِّض وتتآمر، إلا أن عامة أهل مكة بدؤوا يتقبلون بشكل تدريجي فكرة انتقال البعض إلى الإسلام، فليس بعد خالد وعمرو وعثمان أي حاجز يمنع من شاء أن يدخل في الإسلام.

أسلم الثلاثة في شهر صفر من العام الثامن للهجرة، وقد صدقهم النبي وعده؛ ما هي إلا ثلاثة أشهر حتى وجد خالد نفسه قائداً لأكبر جيشٍ عرفه المسلمون حتى ذلك الوقت، جيش مؤتة؛ أما عمرو فقد أمَّره النبي على جيش سرية ذات السلاسل، فقاد خمسمئة من الصحابة من بينهم أبو بكر وعمر وأبو

---

(٨) مغازي الواقدي.

(٩) أي بأغلى وأنفس رجالها.

عبيدة، في بادرةٍ يعجب المرؤ فيها من قدرة النبي الفائقة على استيعاب الكفاءات وتوظيف المسلمين الجدد وفقاً لقدراتهم، حتى إن كانوا لم يتعلموا بعد من القرآن وشعائر الدين إلا القليل. لا شك أن هذه المَلَكة القيادية هي التي سهلت على الكثيرين اعتناق الإسلام، وجعلت من المسلمين قوة فتية منطلقة لا تقيدها حسابات الجاهلية وتصنيفاتها، ولا تؤخرها ادعاءات الأقدمية، فالكل مرحب به، وله مكانته المحفوظة على قدر عطائه وكفاءته.

لقد كان لتوظيف كلٍّ من خالد وعمرو في مواقع قيادية مرموقة أثر بالغ على نفوس أهل مكة؛ إذ اطمأن عامة الناس والقادة منهم أن مستقبلهم آمن إن هم أسلموا، فلا ينبغي أن يخشوا التهميش أو الإقصاء، وهي من المثبطات الكبرى للزعماء والقادة، يخافون أن يخسروا مكانتهم وقدرهم إن هم تحولوا من هذا المعسكر إلى ذلك.

أما عثمان بن طلحة، فعليه أن ينتظر قليلاً حتى يفتح النبي مكة، ويسلمه مفاتيح الكعبة، مقراً له ولنسله من بعده بأحقيتهم في السدانة: «خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[١٠].

الانقلاب الاستراتيجي

عام أو يزيد انقضى على الحديبية، وثماره لا تزال تؤتي أكلها، فالمسلمون اليوم أقوى عسكرياً وأغنى اقتصادياً من أي وقتٍ مضى، فتحوا خيبر، وأخضعوا معظم الجبهات الكبرى، لا سيما غطفان، وثبّتوا نفوذهم في الساحل، ودخل في حلفهم كثير من قبائل العرب، فأسلموا وبايعوا، وصارت المدينة قبلة الباحثين عن فرصٍ جديدة وتحالفاتٍ وثيقة وتجارة رابحة. وها هي قريش بالمقابل تشهد تصدعاً خطيراً في بنيتها القيادية، يهمش فيها أهل الرأي من الزعماء الكبار من أمثال أبي سفيان، ويقودها شباب مستعجلون، وتفقد القدرة على المبادرة، إلا من مغامرات حمقاء، كتلك التي سيرتكبونها عما قريب بنقض الصلح؛ فقيادة مكة فاقدة للعقل الاستراتيجي، تقبع في جاهليتها الموروثة، عاجزة عن الإمساك بزمام الأمور حتى في مكة ذاتها، يتسرب منها المسلمون المستضعفون إلى الساحل، فيضربونها في نقطة ضعفها، مستهدفين

---

(١٠) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

تجارتها، فتضطر إلى التوسل للنبي لوقف خطرهم، وقادةٌ شباب من صفوة قريش يفرون من النبي إليه، فيفتح لهم صدره، ويجعلهم من المقدمين بين أصحابه.

هذه الأجواء لخصها الواقدي تلخيصاً دقيقاً في وصفه لمرحلة ما بعد الحديبية فقال: «كَانَت الْحَرْبُ قَدْ حَجَزَتْ بَيْنَ النّاسِ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ، وَإِنّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَوْا، فَلَمّا كَانَت الْهُدْنَةُ وَضَعَت الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا وَآمَنَ النّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ تَكَلّمَ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئاً إِلّا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ، حَتّى دَخَلَ فِي تِلْكَ الْهُدْنَةِ صَنَادِيدُ الْمُشْرِكِينَ الّذِينَ يَقُومُونَ بِالشّرْكِ وَبِالْحَرْبِ - عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَأَشْبَاهٌ لَهُمْ، وَإِنّمَا كَانَت الْهُدْنَةُ حَتّى نَقَضُوا الْعَهْدَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ شَهْراً، دَخَلَ فِيهَا مِثْلُ مَا دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ وَأَكْثَرَ، وَفَشَا الْإِسْلَامُ فِي كُلّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَرَبِ».

وهو ما أشار إليه ابن إسحاق تعليقاً على الحديبية من حديث الزهري: «قال الزهري: فما فُتِحَ في الاسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس كلم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على ما قاله الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة رجل في قول جابر، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف».

إننا أمام انقلاب استراتيجي كبير، تحولت فيه موازين القوّة بشكل حاسم من مكة إلى المدينة، أو من إيلاف مكة إلى إيلاف المدينة، وبدا للجميع أن الجديد قد وُلد بالفعل، وأن القديم ينسحب ويذوي؛ الجديد تقوده قريش المسلمة، والقديم تحميه قريش المشركة، فما هي إلا مسألة وقت حتى يُتوَّج هذا التحول الكبير بإعلانٍ رسميّ بموت القديم، إعلان يحمل عنواناً سيختاره القرآن الكريم، وسيصبح اللحظة الفارقة بين عهدين وعالمين: نصر الله والفتح.

ولكن، وقبل الفتح، لا يزال أمام النبي مهمّة أخيرة؛ أن يلتفت إلى موازين

القوة الدولية، ويأخذها بالاعتبار، فالفتح في الجزيرة لن يكتمل إلا في ظروفٍ دولية تسمح بديمومة المشروع الإسلامي بعد الفتح، وهذا بالضبط ما جرى في الشهور السابقة على الفتح.

الفصل الثامن عشر

مخاطبة العالم الجديد

«أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»

الانقلاب الاستراتيجي الكبير في جزيرة العرب استغرق اثنين وعشرين شهراً، أي في الفترة الممتدة من الحديبية وحتى فتح مكة، من ذي القعدة عام ٦ للهجرة الموافق لشهر آذار/مارس عام ٦٢٨م، وحتى رمضان عام ٨ للهجرة الموافق لكانون الثاني/يناير من عام ٦٣٠م.

مثلت هذه الفترة انقلاباً استراتيجياً آخر على مستوى العالم وموازين قوته، نتيجة لتطورات الحرب البيزنطية الفارسية التي دخلت نهاية عقدها الثالث، فأرهقت القطبين الدوليين واستنزفت مواردهما، لكنّ الخاسر الأكبر في الحرب سيكون الفرس الساسانيين.

في الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر ٦٢٧م، أي في الفترة الواقعة بين الخندق والحديبية، استطاع الإمبراطور البيزنطي هرقل هزيمة الجيش الفارسي بالقرب من نينوى في العراق، وهي المعركة الحاسمة الأهم في مسار الحرب، دشنت انهياراً مدوياً للإمبراطورية الفارسية.

على أثر هزيمة نينوى واصل هرقل زحفه باتجاه المدائن عاصمة الفرس، فهرب كسرى الثاني، ودخل هرقل إيوانه، واستردّ الصليب المقدس الذي كان الفرس قد سلبوه من القدس عندما احتلوها عام ٦١٤م، وأصدر هرقل في ٦ كانون الثاني/يناير ٦٢٨م تحذيراً لكسرى بالاستسلام، وكان عاقبة كسرى أن انقلب عليه قادة جيشه فأطاحوا به وسجنوه، وعيَّنوا ابنه قُباد الثاني ملكاً على بلاد فارس في ٢٥ شباط/فبراير ٦٢٨م، أي والنبي يستعد للمسير إلى الحديبية. ولُقِّبَ قباد بشيرويه، وكان شاباً طائشاً دموياً، قتل كل أشقائه لكي لا ينافسه على العرش أحد، كما أمر بقتل أبيه في سجنه، ثم فتك بعددٍ من قادة الجيش،

فتفككت سلطة الدولة وهيبتها، وغرقت البلاد في حروبٍ أهلية وصراعات على السلطة مريرة. ولم يعش قباد طويلاً، إذ مات في أيلول/ سبتمبر عام ٦٢٨م بسبب الطاعون بعد ستة أشهر من توليه الحكم، وكان فعلياً هو آخر ملوك الفرس.

أما هرقل فكان قد عاد مظفراً إلى القسطنطينية، وأشرف على استعادة الجزيرة الفراتية والشام من أيدي الفرس، بعد اتفاق الاستسلام الذي وقعه مع القائد العسكري الفارسي في تموز/ يوليو ٦٢٨م، ودخل بعدها هرقل بنفسه مدينة القدس في ١٤ أيلول/ سبتمبر ٦٢٩م ليعيد الصليب المقدس إلى كنيسة القيامة. وتوافق ذلك مع مكاتبة النبي لعددٍ من الملوك من بينهم هرقل نفسه.

نعلم من مرويات السيرة أن النبي أرسل بعد الحديبية أربعة سفراء إلى أربعة ملوك: كسرى ملك فارس، وهرقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة.

وهذه الرسائل على قدرٍ عالٍ من الأهمية، إذ إنها تمثل بداية الاتصال الرسمي بين كيان المدينة السياسي والكيانات الدولية الرئيسة في ذلك الوقت، وحملت جميعها إعلاناً بالوجود السياسي للكيان الجديد، ومعه دعوة للإسلام واتباع النبي.

كما خاطب النبي في المرحلة نفسها عدداً من الزعماء الإقليميين ممن كان لهم نفوذٌ محدودٌ في أقاليم معينة كانت تخضع معظمها لنفوذ الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية.

فقد ذكرت كتب السيرة أن النبي أرسل سفراء إلى ملك البحرين، المنذر بن ساوى، والبحرين تاريخياً تعني منطقة الخليج العربي عموماً، وكانت تقع تحت النفوذ الفارسي؛ وكذلك أرسل إلى اليمن، وكانت هي الأخرى ملحقة بالإمبراطورية الفارسية؛ وأرسل سفيراً إلى الحارث بن شُمَّر الغساني الحاكم الإقليمي لمنطقة البلقاء تحت النفوذ البيزنطي؛ وفي مرحلةٍ لاحقة، أي بعد فتح مكة، أرسل إلى مَلِكَي عُمان جيفر وعبد، وكانت عُمان هي الأخرى ضمن نطاق النفوذ الفارسي.

هذه التحرُّكات الديبلوماسية إيذانٌ بأنّ الكيان السياسيّ المسلم الذي يتخذ من المدينة عاصمة له، قد بدأ يفكر بما وراء النطاق الأمني المعهود؛ أي

الحجاز ونجد وامتداداتهما. والتفكير خارج هذا النطاق دليل على أن النبي قدَّرَ بأن النطاق الأمني المعتاد أصبح آمناً إلى الحد الذي يسمح بالتوسع في فتح آفاق أبعد، وأن تثبيت إيلاف المدينة يقتضي الانطلاق إلى ما وراء النطاق المعهود، فضلاً عن أن النبي صاحب رسالة عالمية، ومَهَمة تبليغها لزعماء العالم ضرورة لفتح أبواب الإسلام إلى عموم رعايا هذه الدول.

المُلك المُمَزق

رسالة النبي إلى كسرى تستحق تركيزاً من نوع خاص، فهي رسالة وصلت في وقت انهيار الإمبراطورية وانزلاقها في حرب أهلية، وتدل على أن المَلِك الفارسي عندما وصله رسول النبي كان سيئ المزاج نزقاً، فقد مزَّق الرسالة، وغضب أن بدأها النبي بذكر اسمه قبل اسم الملك.

ولكن من هو ذلك الملك الذي وصله خطاب النبي؟

كتب السيرة تذكر أن الرسالة كانت لكسرى، والعرب كانت تطلق على كل ملك فارسي اسم كسرى، وتجمعها على أكاسرة، والصحيح تاريخياً أن كسرى هو اسم علَم وليس لقباً، وأن مَلِكَين اثنين كان اسمهما كسرى: كسرى الأول، الذي ولد النبي في نهاية عصره؛ وحفيده كسرى الثاني الذي تسلم الملك في عام ٦٠٢م وقُتِل بعد هزيمة نينوى على يد ولده قباد (شيرويه) في يوم ٢٨ شباط/فبراير ٦٢٨م، الموافق ١٦ شوال ٦ للهجرة. كما ينبغي الإشارة هنا إلى أن «قيصر» مصطلح كان يطلقه العرب على من ملك الشام والجزيرة الفراتية، وهو ما انتبه إليه ابن كثير عندما قال: «وكانت العرب تسمي قيصر لمن ملك الشام مع الجزيرة من الروم، وكسرى لمن ملك الفرس، والنجاشي لمن ملك الحبشة، والمقوقس لمن ملك الإسكندرية، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، وبطليموس لمن ملك الهند»(١).

وبالعودة إلى شخصية كسرى الذي وصله خطاب النبيّ، فإن الحديبية وفق روايات المؤرخين كانت في ذي القعدة عام ٦ للهجرة، هذا يعني أنها كانت في شهر آذار/مارس من عام ٦٢٨م، أي بعد مقتل كسرى بشهرٍ على الأقل. ووفقاً للمصادر التاريخية فإن النبي أرسل عبد الله بن حذافة السهميّ بكتابٍ إلى كسرى

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، مصدر سابق.

بعد الحديبية، وعليه يكون الكتاب قد وصل إلى قباد (شيرويه) وليس إلى كسرى أبرويز الذي كان قد قُتل.

مات شيرويه في ٦ أيلول/ سبتمبر ٦٢٨م وخلفه ابنه أردشير، وكان عمره ست سنوات، أي إن شيرويه مات بعد ستة أشهر من الحديبية، وقتله الطاعون، وكان آخر ملوك فارس الفعليين، وقد كان أخبر النبي عليه الصلاة والسلام مبعوثَي باذان بمقتله (لقد قتل ربي ربَّكما)، وفي رواية أن النبي أخبر بأنه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، ودعا عليه أن يُمزِّق الله ملكه لأنه مزق كتاب رسول الله. وكان شيرويه هذا بالفعل آخر ملك فعلي للفرس الساسانيين، ولا ملك بعده، ومزق الله ملكه بفعل الحروب والصراعات الداخلية الفارسية ثم الفتح الإسلامي لبلاد فارس.

انهيار الإمبراطورية الفارسية أحدث زلزالاً استراتيجياً هائلاً في النظام العالمي، فهي الإمبراطورية التي استمر حكمها أكثر من ألف ومئتي عام، وكانت في أوجها الأقوى عالمياً والأكثر اتساعاً، كما أن نفوذها على جزيرة العرب فاق بمراحل نفوذ الدولة البيزنطية، فانهيارها خلّف فراغاً استراتيجياً هائلاً، لن تملأه الدولة المنتصرة؛ فالبيزنطيون خرجوا من الحرب منهكين، أولوياتهم الاستراتيجية تفرض بسط قبضتهم على جوارهم القريب في الجزيرة الفراتية والشام ومصر وأرمينيا، أما التمدد شرقاً وجنوباً فليس وارداً في ظل الاقتصاد المنهك والجيش شديد الإعياء.

لذلك فانهيار الدولة الفارسية فتح آفاقاً واسعة لنشر الإسلام في البلاد التي كانت تقع تحت النفوذ الفارسي، لا سيما البحرين وعمان واليمن، وثلاثتها أسلمت طوعاً بعدما وصلتها رسائل النبي. وقد أقر النبي ملوك هذه الأقاليم على ولاياتهم بعدما أسلموا والتحقوا بالإيلاف الجديد، فقد أسلم المنذر بن ساوى ملك البحرين، وكان نصرانياً، وأسلم جيفر وعبد أبناء الجلندي بن المستكبر الأزدي ملكي عمان، وأسلم باذان الفارسي حاكم اليمن، وجميعهم استمروا في أداء واجبات الحكم في ظل الإسلام.

كما أنّ انهيار الدولة الفارسية شجّع القبائل العربية القاطنة في العراق على الدخول في حلف المدينة، كان معظمهم من نصارى العرب، وقد تدهورت علاقاتهم بالمدائن بعد معركة ذي قار عام ٦٠٩م، ووقع عليهم بطشٌ شديد، وخضعوا لاحتلالٍ مباشر من قِبل الفرس، وها هم اليوم قد انفكت عنهم قبضة

ذلك الاحتلال، وجاءت الدعوة الجديدة لتملأ هذا الفراغ، ولأوّل مرة تقدم لهم الدعوة الجديدة نموذج حكم نبت في أرض العرب وحمل رسالة عالمية، فتلقّفتها القبائل العربية، وتصالحت مع القوة الجديدة، فاعتنق البعض الإسلام بينما بقي آخرون على نصرانيتهم، وكلهم فرحون بالتخلص من الارتهان المُذِل للإمبراطوريتين، متطلعين لعهدٍ يبنون فيه واقعهم بأنفسهم من غير أذى ولا إكراه، وسيكونون سنداً عما قريب لجيوش المسلمين التي اندفعت لتُجهِز على الإمبراطورية العجوز وتضمها إلى أمة الإسلام.

مواجهة مع المنتصر

رسالة النبي إلى هرقل حملها دحية بن خليفة الكلبي(٢)، دفعها إلى حاكم بُصرى الشام، الذي أوصلها بدوره إلى هرقل في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وفقاً لرواة السير.

المصادر البيزنطية لا تشير إلى هذه الرسالة، أما المصادر الإسلامية فتحفل بكثير من التفاصيل حول كيفية استقبال هرقل للرسالة، وأنها أثارت استحسانه وإعجابه، وأوشك على اعتناق الاسلام لولا أن ثار بطارقته وأعوانه فارعوى وتراجع. والقصة الأشهر في هذا السياق تقول إن هرقل لما وصله كتاب النبي أراد أن يتحقق بنفسه من شخصية النبي، فطلب من عماله أن يأتوه بمن يزوده بمعلومات إضافية، ووافق ذلك وجود أبي سفيان في وفد تجاري من قريش في الشام، فاقتادوهم إلى هرقل في القدس، فسأله هرقل عن طبيعة الدين الجديد وعن النبي وعن علاقته بقومه. ولنقرأ الحوار كما روي على لسان أبي سفيان ثم نناقشه:

«فلما انتهينا إليه قال: أيكم أمسُّ به رحماً؟

فقلت: أنا.

قال: ادنوه مني.

قال: فأجلسني بين يديه، ثم أمر أصحابي فأجلسهم خلفي، وقال: إن كذب فردوا عليه.

(٢) من الأنصار، وحضر مع النبي غزوة أحد، وقد كان جميل الوجه، وبقي حتى خلافة معاوية بن أبي سفيان.

قال أبو سفيان: فلقد عرفت أني لو كذبت ما ردوا علي، ولكني كنت امرءاً سيداً أتكرَّم وأستحي من الكذب، وعرفت أن أدنى ما يكون في ذلك أن يرووه عني، ثم يتحدثونه عني بمكة، فلم أكذبه.

فقال: أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم؟

فزهَّدت له شأنه، وصغَّرت له أمره، فوالله ما التفت إلى ذلك مني وقال: أخبرني عمّا أسألك من أمره.

فقلت: سلني عما بدا لك؟

قال: كيف نسبه فيكم؟

فقلت: محضاً من أوسطنا نسباً.

قال: فأخبرني هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبَّه به؟

فقلت: لا.

قال: فأخبرني هل كان له مُلكٌ فأسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوه عليه؟

فقلت: لا.

قال: فأخبرني عن أتباعه من هم؟

فقلت: الأحداث، والضعفاء، والمساكين، فأما أشرافهم وذوو الأنساب منهم فلا.

قال: فأخبرني عمَّن صحبه؛ أيحبه ويكرمه، أم يقليه (يبغضه) ويفارقه؟

قلت: ما صحبه رجل ففارقه.

قال: فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه؟

فقلت: سجالٌ يُدال علينا، وندال عليه.

قال: فأخبرني هل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مُدَّة، ولا نأمن غدره فيها، فوالله ما التفت إليها منِّي.

قال: فأعاد عليَّ الحديث.

قال: زعمت أنه من أمحضكم نسباً، وكذلك يأخذ الله النبي لا يأخذه إلا من أوسط قومه.

وسألتك هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله فهو يتشبه به، فقلت: لا.

وسألتك هل كان له ملك فأسلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه، فقلت: لا.

وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الأحداث والمساكين والضعفاء، وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان.

وسألتك عمَّن يتبعه أيحبه ويكرمه، أم يقليه ويفارقه، فزعمت أنه قلّ من يصحبه فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه.

وسألتك كيف الحرب بينكم وبينه فزعمت أنها سجال، يدال عليكم وتداولون عليه، وكذلك يكون حرب الأنبياء ولهم تكون العاقبة.

وسألتك هل يغدر، فزعمت أنه لا يغدر. فلئن كنت صدقتني ليغلبنّ على ما تحت قدميَّ هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل عن قدميه.

ثم قال: الحق بشأنك.

قال: فقمت وأنا أضرب إحدى يديّ على الأخرى، وأقول: يا عباد الله لقد أمِرَ أمر ابن أبي كبشة، وأصبح ملوك بني الأصفر يخافونه في سلطانهم»(٣).

هذه القصة وغيرها من الروايات المتعلّقة بظروف استقبال هرقل لكتاب النبيّ فيها قدر عالٍ من التبسيط والاختزال؛ إذ تجعل من هرقل امبراطوراً باحثاً عن الحقيقة بتجرُّد، ولعمري فإن ذلك مما لا يتّصف به الملوك ولا الأباطرة، لا سيما هرقل، وهو الذي يعيش في ذات الفترة أجواء انتصارٍ ساحق، فيتخذ لقباً جديداً «ملك الملوك»، وهو لقب ملوك فارس، وعلى رأس أولويات هرقل في هذه المرحلة ترسيخ شرعيته كحامٍ للمسيحية في العالم، فيسير حافياً إلى القدس في موكبٍ طار ذكره في الآفاقً، لكي يعيد الصليب المقدّس إلى مكانه،

(٣) البداية والنهاية.

ولكي يستعيد وحدة العالم المسيحي الذي مزقته الصراعات المذهبية والخلافات العقدية، لا سيما المتعلّقة بطبيعة المسيح، والصراع الكبير بين كنائس الإمبراطورية حوله؛ وهرقل رجل دولة، يريد أن يخفف تأثير الصراع الديني المدمر على وحدة إمبراطوريته، فمن المستبعد أن يخطر بباله اعتناق دين جديد، بل إن مجرد التلميح إلى ذلك سيصنع له مشكلات هو في غنى عنها.

هذه الروايات تساهم في تقديرٍ خاطئ للموقف البيزنطي، وتختزله في شخص هرقل، علماً أن ما حدث فعلاً يثبت أنّ الدولة البيزنطية لم تتردد في حربها ضد المسلمين، وهذا الذي يهمنا في هذا المقام.

ثم من المرجّح وفقاً للمصادر البيزنطية أن زيارة هرقل للقدس كانت في ٢١ آذار/مارس من عام ٦٣٠م، أي بعد فتح مكة بثلاثة أشهر، فإذا ثبت ذلك فإنه سيثير تناقضاً مع نصٍّ ورد في الحوار يدل على أنه وقع قبل فتح مكة؛ فأبو سفيان يقول رداً على سؤال هرقل فيما إذا كان يغدر أم لا: «إنه لا يغدر، إلا أن بيننا وبينه مُدّة» أي هدنة، والمقصود هدنة الحديبية، فالحوار إن وقع سيكون خلال فترة الحديبية وقبل فتح مكة في كانون الثاني/يناير عام ٦٣٠م.

قصة لقاء أبي سفيان بهرقل تحتاج مزيداً من التدقيق والبحث، وبغضّ النظر عما إذا كانت قد وقعت أم لا فإن الثابت هو أن الدولة البيزنطية، حامية الديانة المسيحية، وارثة الدولة الرومانية، التي خرجت منتصرة من حربٍ عالميةٍ ضروس، لم تأبه بالدين الجديد في هذه المرحلة، ولن تُفِق من غفوتها إلا بعد أن تداهمها جيوش الفاتحين، فتحرر الشام ومصر والجزيرة الفراتية، وعندما تصحو القسطنطينية بعد أعوام قليلة على حقيقة اللاعب الجديد، سيكون الوقت متأخراً، وستجد نفسها ولقرون قادمة في صراعٍ مع الجيوش المسلمة.

الإمبراطوريات كيانات تتمركز حول السلطة والثروة، لا تحفل عادة بالصغار؛ توظفهم خوفاً ورَغَباً، ولكنها لا تعتبرهم مصدراً للحقيقة ولا للشرعية، ولذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون مكة، تلك القرية الصغيرة النائية، هي متنزَّل الوحي، بعيداً عن قبضة الأباطرة والملوك، ولو أن الوحي تنزل في القسطنطينية أو في المدائن لكانت موازين القوة، ومصالح الدولة، وسلطة الملأ، حائلاً دون انتصار الدعوة، أو لوظَّفته لحسابها، وجعلته بعضاً من دعايتها وأداة لسيطرتها.

لقد قدَّر الله سبحانه أن تنطلق الدعوة في لحظة تاريخية فارقة، تهتز فيها موازين العالم وتضطرب، فيجد الإسلام فراغاً استراتيجياً كبيراً، يسمح له بالتموقع أولاً في منطقةٍ بعيدة عن نفوذ اللاعبين الكبار، ثم التمدد حينما يتشقَّق الجدار الدولي، وتخف القبضة الدولية الخانقة.

هذه المعادلة ضرورية لفهم السرعة الهائلة التي انتشر بها الإسلام، فالتدافع الدولي وموازين القوة وتيارات الفعل الاستراتيجي والاقتصادي كلها عوامل مهمة في تفسير انبعاث الإسلام كقوة استراتيجية هائلة في فترة زمنية قصيرة.

مؤتة: أفق جديد

تعتبر غزوة مؤتة تدشيناً لأفق استراتيجي جديد، فلم يحارب المسلمون من قبل قوات إمبراطورية، ولم يفتحوا جبهة قط خارج النطاق الأمني في جزيرة العرب.

السبب المباشر لغزوة مؤتة كما ترويها كتب السيرة أن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير الأزدي إلى حاكم بُصرى، فاستوقفه شرحبيل الغساني وقتله، وقد كان شرحبيل هذا عاملاً على أرض البلقاء(٤) الواقعة في بلاد الشام.

عندما وصل خبر مقتل الحارث إلى النبي قرر ألا يسكت على هذه الإهانة؛ ذلك أن السفراء لا يُقتَلون، وهذا عُرفٌ عالميٌ قديم، والمدينة بكيانها الجديد، وبسفرائها إلى الملوك والأمراء انضمت إلى الواقع الدولي، وتتوقع أن يتم التعامل معها بالمثل، ولو تسامح النبي مع مثل هذه الإهانة لانكسرت هيبة المدينة، ولأغرى ذلك العرب، ومن بينهم قريش، على الاستهانة بالمسلمين، وربما شجعهم على نقض العهد ومزاولة العداء.

بالنسبة إلى عامل البيزنطيين على البلقاء شرحبيل بن عمرو الغساني فهذا العرف الديبلوماسي لا ينطبق على كيان المدينة، فهي في منظوره القاصر لا قيمة لها؛ ليست سوى بلدة لبعض قبائل العرب تعتاش على الزراعة والغزو، أمّا أن تجرؤ على مخاطبة الملوك والأمراء مباشرة فجريمة تستحق العقاب، فلا حصانة لسفيرها، ولا قيمة لوجودها في سياق استعلاء عملاء الامبراطورية البيزنطية وغرورهم، والعملاء يكونون أكثر غروراً وسفهاً من أسيادهم.

---

(٤) تقع الآن في الأردن.

هناك ملاحظة مهمة ينبغي الإشارة إليها، أن الغساسنة كانوا قد ضعفوا وتداعى مُلكهم، فالشام جميعها كانت حتى أسابيع قليلة تحت الحكم الفارسي؛ فمع أن انتصار هرقل على الفرس وقع في مطلع عام ٦٢٨م إلا أن الانسحاب التام للقوات الفارسية بدأ بعد أن وقَّع هرقل اتفاقية الانسحاب مع القائد الفارسي شَهْرباراز في ارابيسوس بالقرب من كابادوكيا[٥] في تموز/ يوليو ٦٢٩م[٦]، أي قبل شهرين من معركة مؤتة. ولما عاد البيزنطيون استعاد الغساسنة دوراً هامشياً ضئيلاً لا قيمة له في الخارطة الجديدة، وشرحبيل هذا كان نتاج تلك المرحلة الهزيلة، فهو ليس من زعماء الغساسنة الكبار، بل من صغار التابعين الذين جاؤوا في وقت متأخر ويبحثون عن تعزيز هيبتهم من خلال البطش والسَّفَه.

كانت الشام تعيش في الفترة من تموز/ يوليو وحتى نهاية عام ٦٢٩م مرحلة انتقال بين عهدين؛ الاحتلال الفارسي المنكسر، والاحتلال البيزنطي المتجدد، ورافق ذلك انسحاب للقوات الفارسية وإعادة انتشار للقوات البيزنطية.

على المستوى العسكري، كان الجيش البيزنطي مُرهَقاً، خاض ثلاثة عقود من القتال في معارك استنزفت طاقته. وتفيد المصادر البيزنطية إلى أن الجيش البيزنطي لم يكن كبير العدد، فقد اعتمد هرقل على قوات صغيرة عالية التدريب سريعة الحركة؛ إذ قاد ثلاثين ألف مقاتل فقط في معركة نينوى، وهذا هو الذي مكَّنَه من اختراق العمق الفارسي في ضربةٍ سريعة مفاجئة أربكت الجيش الفارسي الضخم بطيء الحركة.

يؤكد المؤرخون أن جيش الدولة البيزنطية في عام ٦٢٩م تراوح عدده بين ٩٨ ألفاً و١٣٠ ألفاً، يتوزعون على جبهاتٍ عديدة، منها شمال إفريقيا والأناضول وروما والبلقان وأرمينيا والجزيرة الفراتية والشام. وهناك من يجعل العدد أقل من ذلك؛ إذ بدأ هرقل بتسريح المقاتلين لعدم قدرة الدولة على تسديد مرتباتهم، ولعدم الحاجة إليهم في ظل انتهاء الحرب، وأن عدد الجنود البيزنطيين في الشام لم يتجاوز خمسة آلاف جندي نظامي، فاستعان الجيش

---

(٥) تقع في تركيا الحالية.

(٦) Walter E. Kaegi, *The Byzantine Empire in an Era of Change* (Cambridge University Press, 2000), p. 86.

البيزنطي بقبائل عربية لكي تساهم في حماية الثغور، لا سيما الصحراء[٧].

جيش استثنائي

عندما نتفحّص جيش مؤتة، نجده استثنائياً من جانبين: الأول من حيث الحجم، فقد بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، وهو الجيش الأكبر الذي يسيره المسلمون حتى الآن، صحيح أن المصادر التاريخية تقول بأن عدد مقاتلي الخندق من المسلمين كان قد وصل ثلاثة آلاف، ولكن ذلك كان في المدينة نفسها، وشمل معظم المقاتلين الرجال من المسلمين، أما جيش مؤتة فقد تمت تعبئته للقتال خارج المدينة؛ والثاني من حيث المقصد فالجهة التي يقصدها الجيش هي الأبعد حتى الآن، فالبلقاء تبعد أكثر من ألف ومئتي كيلومتر، وهذه مسافة هائلة، يستدعي قطعها أن تكون المناطق التي يعبرها الجيش آمنة نسبياً، خوفاً من الغدر والاستنزاف.

ثم إن الجيش سيستهدف أطراف الإمبراطورية البيزنطية، وهذه أيضاً خطوة جريئة تحتاج تحوطاً وحذراً كبيراً، لذلك عيَّن النبي في سابقة هي الأولى من نوعها ثلاثة قادة للجيش، فكان الأول زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة، فإن قُتل فيتفق الجيش على قائدٍ جديدٍ له.

الهدف من الغزوة كان استهداف شرحبيل بن عمرو الغساني قاتل سفير النبي، رداً للاعتبار، فهي حملة تأديبية، لم يكن هدفها مواجهة الروم، ولا إخضاع البلقاء أو الشام، بل هي رسالة موجهة لمن يعنيه الأمر من قبائل العرب وعملاء البيزنطيين من أن لا يستهينوا بالمسلمين ولا يتجرؤوا عليهم.

سار الجيش محفوفاً باهتمامٍ كبير من النبي وعموم المسلمين، ومتابعةٍ حثيثةٍ من قبائل العرب، فهذه غزوة لها ما بعدها، وستنعكس نتائجها على موازين القوة في جزيرة العرب.

نزل الجيش في مَعان، فوصلته أخبار أن الروم ومعهم قبائل العرب من لخم وجُذَيمة وقُضاعة قد حشدوا حشوداً هائلة لمواجهتهم، وتشير المصادر إلى أعدادٍ مبالغٍ فيها؛ مئة ألف من الروم ومئة ألف من العرب. وهذه الأرقام ليست صحيحة، فقد قدمنا أنّ الروم البيزنطيين لم يكن لديهم أكثر من خمسة آلاف

(٧) Walter E. Kaegi, p. 39.

مقاتل نظامي في الشام، وأنهم اعتمدوا على قبائل العرب لصدّ هجمات البدو، ومن ثمّ فإنّ الحديث عن مئة ألف من الروم ليس صحيحاً؛ أما عدد مقاتلي العرب فكان محدوداً كذلك، يزيد على عدد الروم، لكنه لا يصل إلى مئة ألف.

نعرف من المصادر البيزنطية أن الروم عندما استعادوا الشام لم يعتمدوا في البلقاء على الغساسنة كما كانوا يفعلون في السابق، بل اعتمدوا على قوة عسكرية بقيادة قائد اسمه ثيودور، وليس مؤكداً أنه هو ثيودور شقيق هرقل، قائد جيوش البيزنطيين ضد الفرس، وعلى الأرجح أنه شخص آخر، معه مقاتلون من قبائل عربية يقومون بمهمة حماية الحدود الجنوبية، وكانت هذه القوة تسمى باليونانية: «قوات حراسة الصحراء»(٨).

وينقل المؤرخ البيزنطي ثيوفانس(٩) أن ثيودور علم بجيش المسلمين من خلال جاسوسٍ من قريش، وأن مناوشات وقعت بين قوات ثيودور وقوات حراسة الصحراء من جهة والمسلمين من جهة أخرى أدت إلى مقتل ثلاثة من قادتهم وفرارهم بعد ذلك(١٠). ومن المستبعد تماماً أن يكون هرقل، الذي كان منشغلاً بإعادة احتلال الأراضي التي انسحب منها الفرس، قد شارك هو أو جيشه الرئيس في المعركة، ولذلك فالمرجح أن المواجهة التي وقعت في مؤتة كانت بالفعل مناوشات متفرقة استمرت ثلاثة أيام بين جيش المسلمين وقوات حراسة الصحراء من الروم والعرب؛ أما الحديث عن التحام قتالي بين جيشين، الأول فيه ثلاثة آلاف مقاتل والثاني فيه مئة ألف أو مئتين لمدة ثلاثة أيام، وأن تكون النتيجة مقتل ثلاثة عشر مسلماً، ففيها قدرٌ عالٍ من المبالغة. فإن قال قائل بأن النصر من عند الله، وأن الله ينصر الفئة القليلة على الكثيرة، فهذا صحيح، ولكن ضمن موازين القوة وسنن التدافع التي حددها القرآن، فالله سبحانه حدد هذا الميزان بواقع واحد مقابل عشرة في أعلى تقدير وواحد مقابل اثنين في أدنى تقدير:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

---

(٨) المصدر السابق.

(٩) ثيوفانس أو تيوفان، ولد في القسطنطينية عام ٧٦٠م وتوفي عام ٨١٧م، وهو أسقف بيزنطي له كتاب تاريخ سرد فيه الفترة من ٢٤٨ إلى ٨١٣م.

(١٠) المصدر السابق.

يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥ ـ ٦٦].

وعلى كل حال، وللخروج من لغط الأرقام، فمن المؤكد أن جيش الروم ومعه العرب كان أكبر بكثير من جيش المسلمين، فإن مرويات السيرة تشير إلى أن الصحابة لما وصلوا منطقة مَعَان تشاوروا يومين في أمر المضيّ لمواجهة العدو، وثار جدل حول المسير، حسمه تدخُّل عبد الله بن رواحة، وكان شاعراً مفوهاً، وذا عاطفة دينية جياشة، فقال: «وَاللهِ يَا قَوْمُ، إِنَّ الَّذِي تَكْرَهُونَ لَلَّذِي خَرَجْتُمْ لَهُ تَطْلُبُونَ؛ الشَّهَادَةَ، وَمَا نُقَاتِلُ الْعَدُوَّ بِعُدَّةٍ وَلا قُوَّةٍ وَلا كَثْرَةٍ، مَا نُقَاتِلُهُمْ إِلا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللهُ بِهِ، فَانْطَلِقُوا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا ظُهُورٌ، وَإِمَّا شَهَادَةٌ»(١١).

سار الجيش حتى وصل مؤتة، وكانت بلدةً صغيرةً مشهورة بصناعة السلاح وتقع على طريق التجارة العابر إلى الشام، وهناك التقى المسلمون بعدوهم، وجرت مناوشات بين الطرفين أدت إلى استشهاد القائد الأول زيد بن حارثة، وكان في الخامسة والخمسين من عمره، وهو قائد عسكري ذو خبرة، أمَّره النبي على عددٍ من البعثات العسكرية سابقاً؛ ثم استلم الراية جعفر بن أبي طالب، ابن عم النبي، فهاجم العدو وقتل، وكان جعفر قد وفد إلى النبي في خيبر من سفارته التي استغرقت سبعة عشر عاماً في الحبشة، أي قبل عام تقريباً من مؤتة، وكان عمره عندما استشهد أربعين عاماً؛ ثم تسلَّم الراية عبد الله بن رواحة، وهو أنصاريٌّ خزرجي، وكان من النقباء الذين عينهم النبي في بيعة العقبة.

بالنظر إلى سرعة مقتل القادة الثلاثة، يبدو واضحاً أن استراتيجيتهم أخذت نفس النسق، أن يتقدَّم القائد جيشه مهاجماً العدو، وفي ظروفٍ مثل هذه فاحتمال إصابته مؤكد، فهو يواجه جيشاً متفوقاً عدداً وعدة، فإذا أخذنا بالاعتبار أن عدد قتلى مؤتة من المسلمين هو ثلاثة عشر، فإن وجود ثلاثة من القادة على رأس القتلى مؤشر على أن القتال كان هجومياً، وهو ما سيتداركه القائد الجديد للجيش.

بعد مقتل عبد الله بن رواحة وقع اختلالٌ مؤقَّت في القيادة، حتى اتفق

(١١) مغازي الواقدي.

صحيح أن المهمة لم تتحقق على الوجه الأكمل، ولكنَّ نجاة جيش من دون خسائر كبيرة في مواجهةٍ مع جيشٍ ضخم ينتمي إلى إمبراطورية منتصرة ليس إنجازاً بسيطاً.

ومن نتائج مؤتة أن خالد بن الوليد أدخل استراتيجية جديدة على العسكرية الإسلامية تقوم على الكر والفر، قوامها المرونة والتحرك السريع والتمويه، وهي الاستراتيجية التي سوف يتّبعها المسلمون لاحقاً مع الفرس والروم بقيادة خالد نفسه الذي لم ينهزم بعدها في معركةٍ قط، استراتيجية استحق عليها بجدارة المسمى الأعلى في الجيش الإسلامي «سيف الله المسلول».

رسم المشهد الأخير

من السمات البارزة للقيادة النبوية أنه كان لا يسمح لأي مشهد عسكري أو سياسي أن يُختَتَم من قبل العدو، فقد رأينا كيف أنه قرر بعدما هُزِمَ المسلمون في أحد أن يسير بالجيش في اليوم التالي إلى حمراء الأسد، فتخاف منه قريش وتهرب مولية الأدبار، ويعود إلى المدينة وقد استنقذ سمعة المسلمين وهيبتهم؛ وها هو اليوم يقرر أن يبعث وعلى عجل بسرية قوامها ثلاثمئة مقاتل بقيادة عمرو بن العاص لتأديب القبائل العربية التي شاركت في مؤتة إلى جانب الروم، فسار إلى ماءٍ يقال له السلاسل قريباً من منازل قضاعة على مشارف الشام، ولما وجد عمرو أن موازين القوة لا تسمح له بالمواجهة، كتب بذلك للنبي طالباً منه المدد، فأمدَّه النبي بمئتين من المسلمين بقيادة أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعه كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر، فالتحقوا بسرية عمرو بن العاص، وانضموا إليها وقاتلوا جميعاً تحت إمرته وهو الذي كان قد أسلم مع رفيقه خالد بن الوليد قبل أربعة أشهر من إمارته على جيش فيه أبو بكر وعمر!

عُرفت هذه السرية بسرية ذات السلاسل، ونجحت في أن أدخلت الرعب في قلوب القبائل الموالية للروم، وعادت مظفَّرة إلى المدينة، تنشر في طريقها نبأ تأديب النبي لكلّ من تسول له نفسه التحالف مع عدو المسلمين، وتعدهم بالعقوبة إن هم فعلوا. وعلى العموم فإن المصادر البيزنطية تشير أن خلافاً قد نشب بين مقاتلي قوات حماية الصحراء من العرب وثيودور، القائد العسكري البيزنطي بعد مؤتة؛ إذ جاؤوه يطالبون بمرتبات تساوي ما تدفعه الإمبراطورية للمقاتلين النظاميين من الروم، فردهم بعنف وأهانهم قائلاً: «إنّ الإمبراطور يدفع

الغالبية على خالد بن الوليد، القائد القرشيّ العتيد، الذي لم يمضِ على إسلامه سوى ثلاثة أشهر؛ لم يسمِّه النبيُّ قائداً للجيش، لكن تعيينه كان بتفويضٍ من عموم المقاتلين، وهذا يدعو بالفعل إلى الإعجاب، فالوعي الشعبي للمسلمين لم يكن سطحياً، بل واكب الهدي النبوي في تسليم المهمة للأكثر كفاءة.

عندما تسلّم خالد الراية قدر تقديراً سليماً بأن الاستمرار في الهجوم على العدو لن يفضي إلا إلى مزيد من الضحايا، ولذلك قرر أن ينسحب، والانسحاب في مواجهة غير متكافئة خطير، فكان لا بد من استراتيجية انسحاب ذكي، فأوهم العدو أن مدداً قد وصل إلى المسلمين بأن أعاد تموقع الكتائب، فجعل الميمنة ميسرة، والميسرة ميمنة، وطلب من الجند إثارة غبار كثيف، يوهم فيه العدو بحراك عسكري كثيف، حتى لا يغامر العدو فيطارده، ثم انسحب تدريجياً قافلاً إلى المدينة.

كانت أخبار المعركة قد سبقت إلى المدينة، فخرج أهلها يستقبلون الجيش بالتقريع، فيحثون عليهم التراب ويقولون لهم يا فرّار! فررتم في سبيل الله! وقد وصلت الحال ببعض الصحابة ممن شهدوا مؤتة أن التزموا الإقامة في بيوتهم لا يخرجون للصلاة حتى لا يتعرضوا لتقريع المسلمين وسخطهم.

لكنّ النبي ﷺ، وهو القائد المبادر دوماً لاستعادة الروح المعنوية، أنهى الحالة النفسية المتردية هذه من خلال عدة إجراءات تراوحت بين وصف الجيش بأنهم «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله»[١٢]، ومنح خالد بن الوليد لقباً عسكرياً رفيعاً «سيف الله المسلول»، ثم سارع إلى تجهيز سرية ذات السلاسل لردّ الاعتبار.

يعلم النبي عليه الصلاة والسلام أن قرار خالد بالانسحاب كان حكيماً، وهو الخيار الوحيد في مثل هذه الحال. صحيح أن الفرار من الزحف خطيئة كبرى، ولكن ذلك عندما يكون بقرار فردي؛ يهرب فيه المقاتل من ميدان المعركة لينجو بنفسه، فيضع مصلحته الشخصية فوق مصلحة الجميع، فيُضعف الصف ويخون أصحابه؛ أما قرار خالد بالانسحاب، وهو قائد الجيش، فقد كان قراراً مدفوعاً بالحفاظ على أرواح المقاتلين جميعاً، ثم إن هذه المعركة تحديداً لم يكن هدفها هزيمة الروم أو حلفائهم، بل هي رسالة تأديب فحسب؛

---

(١٢) **البداية والنهاية**، مصدر سابق.

لجنوده وليس لديه المزيد ليرميه للكلاب»(١٣).

هذه العبارة أثارت غضب العرب، فبدؤوا يتمرَّدون على سلطة الروم، فانهارت قوة حماية الصحراء، مما مهَّد الطريق واسعاً لفتح الشام عما قريب، وساهم في أن التحقت كثيرٌ من هذه القبائل بجيش المسلمين.

هكذا رسم النبي المشهد الأخير في غزوة مؤتة، فذات السلاسل امتداد لمؤتة، مكملة لها، احتوت آثارها السلبية، وأعادت إلى المسلمين الثقة بجيشهم.

إلا أن قريشاً لم تلتقط الرسالة، فظنّ قادتها أن المسلمين بعد مؤتة قد ضعفوا، وأن قدرتهم على المواجهة قد تراجعت، وهو تقدير خاطئ بُنيت عليه سياسات حمقاء، سولت لهم مخالفة هدنة الحديبية، من خلال دعم عسكري مباشر لحلفائهم من بني بكر في غارةٍ غادرة ضد خزاعة، حليف النبي الرئيسي.

---

(١٣) David Powers, *Muhammad is Not the Father of Any of Your Men: The Making of the Last Prophet* (University of Pennsylvania, 2009, p. 84).

الفصل التاسع عشر

الفتح الأكبر(1)

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]

الهدف الرئيس الناظم للفعل السياسي والاستراتيجي للنبي ﷺ منذ هجرته إلى المدينة كان فتح مكة، إذ يعلم النبي أن فتح مكة هو النقطة التي ستحسم مسألة إسلام جزيرة العرب، لما لمكة من مكانة قدسية خاصة في نفوس العرب جميعاً، ثم إنها دار الحنيفية الإبراهيمية، وقبلة المسلمين في صلاتهم، فمن البَدَهي أن تكون قبلتهم الاستراتيجية.

لقد رأينا كيف أن استراتيجية النبي في التعامل مع قريش مرت في مرحلتين: **الأولى** من الهجرة وحتى الخندق، وكان هدفها ضرب إيلاف قريش وتجارتها؛ **والثانية** من الخندق وحتى الحديبية، وكان هدفها استهداف شرعية قريش في سدانة البيت.

المرحلة الأولى بدأت ببناء نواة صلبة للدعوة في المدينة ثم في توسيع النطاق الأمني للمدينة ليشمل الساحل، وإدخال قبائله الواقعة على طرق تجارة قريش في حلف المدينة، ثم استهداف القبائل الموالية لقريش الواقعة على طرق الصحراء. ولما بدأت قريش تشعر بخطر استهداف تجارتها حاولت أن تقاتل النبي في ثلاث مواجهات عسكرية بدأت ببدر وانتهت في الخندق، لكنها أخفقت إخفاقاً شديداً في اجتثاث الخطر الإسلامي؛ بل ازداد الحصار الاقتصادي ضراوة، وضعفت قريش ثم بدأت تخسر حلفاءها ممن قاتلوا معها في الخندق، ووقفت وحيدة منهكة فاقدة للمبادرة، تعصف بها الخلافات القيادية الداخلية. عندها انتقلت استراتيجية النبي من الحصار والمشاغلة إلى

---

(١) تحرّك النبي من المدينة يوم الاثنين ٦ رمضان من العام الثامن للهجرة، الموافق ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٦٢ : م، ودخل مكة يوم الاثنين ١٣ رمضان، الموافق ٤ كانون الأول/ ديسمبر.

المبادرة بالصلح، فكانت الحديبية خطوة مفاجئة، أعدّ لها النبي إعداداً باهراً، ووضع قريش في مأزق، فلا تدري ما تفعل، ثم قدم لها الحل: الهدنة، على أن تتوقف الحرب بين الطرفين عقداً من الزمن، وأن تستعيد قريش طرق تجارتها، ومعها الاعتراف التام بالشرعية السياسية للكيان المسلم، فمن أراد أن يدخل في حلف محمد وعهده فعل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش وحلفها فعل، عندها انضمّت خزاعة لحلف محمد، وانضمت بكر لحلف قريش.

خزاعة قبيلة أزدية، ذات تاريخ ضارب في العراقة؛ إذ كانت سادنة البيت في مكة قبل أن يخرجها قصي بن كلاب ويدشن عصر السيطرة القرشية على مكة.

واستمرت خزاعة بعد ذلك عقوداً تشعر بالمظلمة التاريخية، فلم تصفُ الأجواء بينها وبين قريش أبداً، فلم تكن معها في حالة حرب، ولكنها لم تكن في حالة وُدّ أيضاً، حتى إذا ما اختلف عبد المطلب، جد النبي، مع عمّه نوفل، واستنجد بأخواله الخزرجيين، رأت خزاعة في عبد المطلب زعيماً قرشياً مستقل الرأي والإرادة، فقررت التحالف معه، ثم انتقل هذا الحلف من بعد عبد المطلب إلى أبي طالب. وحافظ النبي على ذلك الحلف، واستمرت علاقاته بخزاعة طوال الفترة المدنية، ويزداد إعجابها بالنبي الذي يتحدى العنجهية القرشية، وتأمل أن ينتصر، فتساعده في أن تراسله وتبعث إليه بالأخبار، وتعينه بما تستطيع.

عندما أُبرِمَ صلح الحديبية، صار بإمكان خزاعة أن تُعلِن رسمياً انضمامها لحلف محمد، وأن تحظى بناءً على ذلك بحمايته، أما خصومها من بني بكر، وهم كنانيون، فقد انضموا لأبناء عمومتهم القرشيين، ودخلوا في حلفهم.

بعضُ قادة قريش، مثل صفوان وعكرمة، لم يكونوا سعداء بصلح الحديبية، فقد رأوا كيف أن النبي قد حصد ثمار الصلح طوال عامٍ ونصف بشكلٍ باهر، فقد فتح خيبر وغيرها من حواضر اليهود في الشمال، واستطاع أن يوسِّع تحالفاته في الجزيرة بشكلٍ غير مسبوق، وأن ينشر الإسلام بين العرب، ويؤسس إيلاف المدينة الذي ينافس إيلاف قريش، ويستبدل أسواقها وعلاقاتها التجارية بالعالم؛ فأي خير عاد على قريش من الحديبية؟ صحيح أنها استعادت طرق تجارتها، ولكنها لم تستعد مكانتها التجارية السابقة، ثم إنها تخسر كل يوم حليفاً، بينما يزداد حلفاء محمد، بل تخسر شبابها المميزين ممن يلتحقون

بالإسلام ويهاجرون إلى محمد من دون أن تكون لديها القدرة على وقف هجرتهم أو إيذائهم، إذ أن الاتفاقية لا تسمح لها بذلك بعدما أُلغِيَ بند تسليم المهاجرين؛ فما هي خطوتها التالية؟

قَدَّرَ صفوان وعكرمة أن المسلمين قد ضعفوا بعد مؤتة، وتعللوا بالأماني في أن تغير على المدينة قبائل الشمال القوية، مثل قُضاعة وجذام ولخم، فبدأت الأوهام تداعب مخيلاتهم. وفي هذه الحال بدؤوا يفكرون بالتخلص من الصلح، فكان أن ارتأوا جس نبض القوة الإسلامية، من خلال تصعيدٍ محدود بين بني بكر وخزاعة، فدعموا اعتداءً قاده بكريون على عدد من الخزاعيين عند ماء اسمه الوتير، وقتلوا منهم عشرين رجلاً، وشارك صفوان وعكرمة وبعض عبيدهم فعلياً في القتال ولكن متخفّين، وذلك بالطبع خرقٌ صريح لاتفاقية الحديبية. ويبدو أنهم قدَّروا أنهم سينظرون في عواقب هذا الحدث ومآلاته، فإن رأوا من محمد رد فعل أنكروا دعمهم للبكريين، وإن رأوا تهاوناً فسيفكرون بخطوةٍ أبعد.

علم النبي ﷺ بالاعتداء بعد أيام قليلة على وقوعه، فقد نقل الخبر له طرفان، الأول بُدَيل بن ورقاء الخزاعيّ الذي جاء المدينة بنفسه، والثاني وفدٌ من خزاعة بقيادة شاعرهم المعروف عمرو بن سالم، الذي أطلق بين يدي النبي نداء استغاثة، في قصيدةٍ مؤثرة، عقَّبَ النبي عليها بالقول: «نُصِرتَ يا عمرو بن سالم»(٢).

إلا أنّ النبي أوصى بُديل بن ورقاء وعمرو بن سالم ألا يُعلما أحداً بزيارتهم للمدينة، ذلك أنه كان ينوي أن يضع قادة قريش في حالة ضبابية، فلا يستطيعون تقدير الموقف بشكل دقيق، وقد قدر النبي أن قادة قريش من الشباب المستعجلين قد ارتكبوا هذه الحماقة من دون عِلم أبي سفيان، وأنهم سوف يلجؤون إليه لحل المشكلة عندما يدركون فداحة غلطتهم.

وبالفعل هذا ما وقع، فقد جاء عدد من قادة قريش بينهم الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة إلى صفوان وعكرمة وسهيل، فلاموهم على دعمهم لبني بكر ونقض الاتفاق مع محمد، وما زالوا يحدثونهم حتى نَدموا على فعلتهم، فجاؤوا أبا سفيان، يطلبون النصح في كيفية معالجة هذه الأزمة، وكان أبو

---

(٢) **سيرة ابن هشام**، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٥.

سفيان مغيَّباً عن هذا الأمر، وتم من دون علمه، لكنه الآنْ في موقعٍ لا يَستطيع أن يتخلى فيه عن محاولة حل المشكلة على الرغم من غضبه واستنكاره للواقعة، وهذا ما نفهمه من النص الذي أورده الواقدي على لسانه عندما جاءه وفد قريش يطلبون منه الحل: «هَذَا وَاللهِ أَمْرٌ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ أَغِبْ عَنْهُ، لَا حُمِلَ هَذَا إِلّا عَلَيّ، وَلَا وَاللهِ مَا شُووِرْت وَلَا هُوِيت حَيْثُ بَلَغَنِي! وَاللهِ لَيَغْزُونَا مُحَمّدٌ إِنْ صَدَقَنِي ظَنّي وَهُوَ صَادِقِي، وَمَا لِي بُدّ أَنْ آتِيَ مُحَمّداً فَأُكَلّمَهُ أَنْ يَزِيدَ فِي الْهُدْنَةِ وَيُجَدّدُ الْعَهْدَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَهُ هَذَا الْأَمْرُ»(٣).

أبو سفيان في المدينة

خرج أبو سفيان يَحُث السير إلى المدينة بعد يومين من الواقعة، ظاناً أنه يستبق الخبر إلى النبي، فيلتقي بُديلَ بن ورقاء قافلاً من زيارته للمدينة، فيسأله إن كان جاء محمداً، فينفي بُديل، لكنّ أبا سفيان بحصافته ودقة ملاحظته يعلم أن بديلاً قد جاء محمداً وأخبره بما وقع، فازداد غَمُّه. ويعلم أبو سفيان أن مكة لا تستطيع حماية نفسها من محمد، ولذلك فقد استمات أبو سفيان في حل المشكلة، فقرر ابتداءً ألا يتحدث عن الواقعة، بل أن يبادر النبي بطلب إصدار قرارٍ جديد بتعزيز اتفاق الحديبية وزيادة مدته، والحجة في ذلك أنه كان غائباً عن اتفاق الحديبية ويريد تعزيزه وتوثيقه، وبذلك يكون الاتفاق الجديد المُعدَّل بدايةً لمرحلة جديدة يتم التغاضي فيها عن المشكلة التي وقعت، لكن النبي كان أكثر حصافة منه، فلما جاءه أبو سفيان قال: «يَا مُحَمّدُ، إِنّي كُنْت غَائِباً فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَاشْدُد الْعَهْدَ وَزِدْنَا فِي الْمُدّةِ»، فيرد عليه النبي: «**هَلْ كَانَ قِبَلَكُمْ حَدَثٌ؟**»، أي هل قمتم بخرقٍ يقتضي توثيق الهدنة وتعزيزها، فرد أبو سفيان: مَعَاذَ اللهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَنَحْنُ عَلَى مُدّتِنَا وَصُلْحِنَا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، لَا نُغَيِرُ وَلَا نُبَدّلُ**»(٤). وهكذا فشلت استراتيجية أبي سفيان أن ينتزع اتفاقاً جديداً، وأدرك حينها أن النبي يعرف تماماً ما فعلته قريش من خرقها للاتفاق، ولم يتبقَّ أمام أبي سفيان إلا أن يستنجد بأصحاب النبي وآل بيته، فبدأ بابنته أم حبيبة، زوج النبي، لكنه لم يجد منها مساندة، بل لامته على عبادة الأصنام، فذهب

---

(٣) مغازي الواقدي، ج٢، ص٧٨٥.

(٤) المصدر السابق.

إلى أبي بكر وطلب منه التوسُّط مع النبي فأبى، ثم جاء عمر فوجده أشد عداوة له من أبي بكر، ثم تحدث مع ابن عمه عثمان بن عفان فأبى، ثم جاء سعد بن عبادة زعيم الأنصار فأبى، ثم ناشد فاطمة بنت محمد، وطلب منها أن تُجير بين الناس كما فعلت أختها زينب عندما أجارت العاص بن الربيع وقَبِل النبي جوارها، فردَّت فاطمة أن أمراً كهذا لا يجير فيه أحد على رسول الله، وقد بلغ من قلق أبي سفيان وغياب حيلته أن طلب منها أن يجير بين الناس أحد ابنيها، الحسن أو الحسين، فردت أنّهما صبيان. وهكذا مكث أبو سفيان أياماً يدور بين الناس طمعاً في أن يجد حلاً، وتأخر في المدينة حتى انتشرت إشاعة في مكة أن أبا سفيان قد صبأ، أي أنه قد أسلم، وهو ما لم يحدث، إلا أن إقامة أبي سفيان الطويلة في المدينة أطلعته عن قرب على مجتمع المدينة، وزادت قناعته بأن النبي منتصر لا محالة، وأبو سفيان رجل فَطِن، يعلم أن مجتمعاً بهذا النظام والانضباط والجاهزية قاذر على الإطاحة بقريش من غير جهد كبير، وعلى الأرجح فإن القناعة التي تشكلت في ذهن أبي سفيان أثناء زيارته هي التي دفعته لكي يدخل في الإسلام قبل يوم من فتح مكة، ثم يقوم بدورٍ مهم في تسليم مكة صلحاً من دون قتال كما سيأتي.

لم يستطع أبو سفيان أخذ تعهُّد من النبي بتجديد اتفاقية الحديبية، ولم يمكنه فعل شيء سوى الأخذ بنصيحة علي بن أبي طالب الذي أشار عليه أن يجير هو شخصياً بين الناس، بما أنه سيد كنانة، فوقف في المسجد ونادى بأعلى صوته أنه قد أجار بين الناس، ثم دخل على النبي فقال له ما أظن أن تَخْفِرَني، أي ترد جواري، فرد عليه النبي قائلاً: «أنت تقول ذلك يا أبا سفيان»، وهي عبارة محايدة ذكية، لا تُحمّل النبي اعترافاً بالجوار، ولكنها لا تنفيه، زيادة في ضبابية المشهد، وعدم توضيح نوايا النبي لأبي سفيان. بعدها ركب أبو سفيان راحلته وعاد إلى مكة.

عندما جاء أبو سفيان إلى مكة علم بإشاعة إسلامه من زوجه هند بنت عتبة، وفي اليوم التالي حلق رأسه عند الصنمين إساف ونائلة وذبح لهما، نفياً للإشاعة، ثم حدَّث قريشاً بما قد وقع، وأنه لم يتمكن من حل المشكلة، غير أنه قد أجار بين الناس، فسألوه إن كان محمداً قد أقرَّ جواره ذاك، فنفى، عندها هزئوا به وقالوا إن محمداً ما زاد على أن تلعّب بك تلعباً!.

النفير العام

فور عودة أبي سفيان طلب النبي ﷺ من أصحابه التجهز للسفر دون تحديد الجهة، وعزم على ألا ينتشر خبر استعداده للمسير ليحرم قريشاً من الاستعداد للقتال، فقام بعدد من الإجراءات التمويهية؛ إذ أخفى مقصد مسيره إلا عن بعض صحابته المقربين مثل أبي بكر، وطلب منه إخفاء الأمر هو أيضاً، ثم أمر عمر بن الخطاب أن يطوف بالأنقاب، وهي مداخل المدينة المحيطة بها من عدة جهات، ويقوم على حراستها جندٌ من المسلمين، فيطلب منهم عمر التشدد في مراقبة الخارجين من المدينة لا سيما القاصدين مكة أو نواحيها، خوفاً من أن ينقلوا الأخبار إلى قريش عن تجهز النبي ومسيره، فقال لهم عمر: «لَا تَدْعُوا أَحَداً يَمُرّ بِكُمْ تُنْكِرُونَهُ إلّا رَدَدْتُمُوهُ، إلّا مَنْ سَلَكَ إلَى مَكّةَ فَإِنّهُ يَتَحَفّظُ بِهِ وَيَسْأَلُ عَنْهُ، أَوْ نَاحِيَةِ مَكّةَ»[5]؛ بل ثارت تكهنات، على الأرجح مقصودة من أجل التمويه، بأن النبي يستعد للمسير إلى الشام أو إلى ثقيف أو إلى هوازن، وبعث النبي أبا قتادة على رأس مجموعة من ثمانية أشخاص إلى بطن إضَم، بين مكة واليمامة، ليظن الناس أنها هي التي سيقصدها النبي في مسيره. كل ذلك ليصرف الأنظار عن مقصده الحقيقي، وهو مكة، فالنبي يريد فتح مكة من دون قتال، فهو يعلم أن فتحاً عظيماً كهذا لن يكتمل إلا إن كان من دون عنف، فمكة بحرمها وكعبتها ورمزيتها بين العرب لا ينبغي أن تُفتح بمشهدٍ دمويّ، ويحاول أن يَصرف عن قريش ذل هزيمة عسكرية تُسفك فيها الدماء، وتُستَحلُّ الأموال، لحساب فتح كريم يبدأ عهداً جديداً من السلم؛ فتعمية الأخبار عن قريش أطول فترة ممكنة ضرورة لكي لا يكون لديهم متسع من الوقت للحشد، ففيهم قادة متهورون، ولا يُستَبعد أن تسوّل لهم أنفسهم التفكير في مغامرة حمقاء.

غير أن الإجراءات العلنية التي بدأت تظهر في المدينة، من النفير العام، ومن دعوات أُرسِلت للقبائل الحليفة بأنه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان في المدينة، كل ذلك رجَّح لدى كثير من المسلمين بأن قصد النبي هو مكة، إلا أن النبي أو أحداً من قادته الكبار لم يصرِّح علانية بالهدف، ولذلك بقيت الجهة المقصودة غير محسومة.

---

(٥) مغازي الواقدي، مصدر سابق.

حاطب في قفص الاتهام

مُجتمع الصحابة لم يكن ملائكياً، فقد كتب أحدهم، وهو حاطب بن أبي بلتعة، يُخبِر قادة قريش الثلاثة، صفوان وعكرمة وسهيلاً، بتجهُّز النبي للمسير إليهم؛ غير أن الأمر انفضح، وعُثِر على الرسالة قبل أن تذهب بعيداً عن المدينة. ثارت مشاعر عمر بن الخطاب ضدّ هذا العمل، الذي يُعتبر خيانة عظمى في عُرف الأمم جميعاً، وعادة يُعاقَب عليه بالإعدام، إلا أن الرسول أخذ بالاعتبار أن حاطباً كان من المهاجرين الأوائل، وأنه شهد بدراً والغزوات كلها، وقاتل بشجاعة في أُحد، وبايع تحت الشجرة في الحديبية، وكان سفيراً للرسول إلى المقوقس، وأنه لم يكن جاسوساً لقريش، بل هو مؤمن بالله ورسوله، أصابته لحظة ضعف، سببها أنه كان مولى في قريش، ليس من أوسطهم نسباً، وله أهلٌ في مكة، فقدَّر أن خدمته لقادة قريش ستجعل له يداً عندهم، فيحمي بها أهله، ثم إن الرسالة لم تصل، وقد أقر الرجل بذنبه.

من جهةٍ أخرى، لو أن النبي ﷺ وافق عمر في إعدام حاطب لكان قد أرسل رسالة إلى الجميع أن معسكر محمد الداخلي ليس متماسكاً، فها هو يقتل أصحابه، ومن مبادئ القيادة النبوية أنه لم يكن يسمح أن تظهر علامات ضعف أو تفكك في المعسكر المسلم، ولذلك كان قد عفى عمَّن ارتكب أبشع مما ارتكبه حاطب، لا سيما رأس المنافقين، عبد الله بن أبيّ ابن سلول، وكان تعليقه على ذلك في حينه: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه». وقد أثبتت هذه السياسة نجاحاً باهراً في بناء مجتمع صحي، لا تتناوشه المخاوف والثارات، بل يتدافع تدافعاً طبيعياً، وبدلاً من سلطة السيف على رقاب المخالفين، يجعل من المجتمع الحر قَيِّماً على استقامته الذاتية. وهذه طريق لا تمنع الخلل والانحراف، لكنها لا تسمح له أن يستمر، بل تُصلِحه وتقومه وتزيد مناعة المجتمع ضده، في أجواءٍ من السلم الأهلي والحوار المجتمعي، فيصح الصحيح وينزوي الخلل، وقد عُصِم الناس في دمائهم وأموالهم.

الحلفُ الكبير

المدقق في استراتيجية النبي في التجهز لفتح مكة يجد أنه قد قرر فتحها سلماً، وأن يكون الفتح جماعياً بين قبائل العرب، يشترك فيه أكبر عددٍ منهم، لذلك أرسل إلى كل من أسلم حتى الآن أن يوافوه بالمدينة. وفي نظرةٍ سريعة

لماذا هذا الجيش الكبير؟

إذا ألقينا نظرة على الجيش الذي تجمّع على مشارف المدينة استعداداً للزحف باتجاه مكة فسنرى أنه سيتشكل من عشرة آلاف مقاتل؛ سُليم ومزينة شاركت كل منهما بألف مقاتل، وجهينة بثمانمئة، وأسلم بأربعمئة، وأشجع بثلاثمئة، وغفار بثلاثمئة، وبنو ليث بمئتين وخمسين، وبنو بكر بمئتين. لكنّ العمود الفقري في جيش الفتح هم المهاجرون والأنصار؛ المهاجرون سبعمئة مقاتل ومعهم ثلاثمئة فرس، والأنصار أربعة آلاف ومعهم من الخيل خمسمئة فرس. وكان الأنصار والمهاجرون في جيش الفتح مميّزين عن الجميع بحسن النظام، وتمام العُدة، يلبسون الدروع، ويحملون الرايات، وفيهم كتيبة النبيّ الخضراء، مدججةً بالسلاح والعتاد، لا ينظر إليها أحد إلا أدخلت الهيبة في نفسه.

لم يجتمع للأنصار والمهاجرين في أية معركة سابقة هذا العدد وهذه العدة؛ فقد رأينا أن أقصى عدد بلغه جيش المسلمين حتى الآن كان ثلاثة آلاف في مؤتة. وهنا نثير سؤالاً مهماً: ألم يكن جيشٌ قوامه أربعة آلاف وسبعمئة من المهاجرين والأنصار قادراً على فتح مكة؟ لماذا استدعى النبي كل هذه الجموع؟

الواضح أن سبب تجمُّع جيش من عشرة آلاف مقاتل لم يكن لغايات الضرورة العسكرية البحتة، أي من أجل قتال قريش وهزيمتها، فلا تحتاج قريش إلى مثل هذا الجيش لكي تُهزَم، ولكن هناك اعتبارات أخرى استدعت هذا النفير العام الشامل لكل من قد أسلم حتى تلك الساعة؛ أهم هذه الاعتبارات أن النبي لا يريد دخول مكة عنوة، فمن الضروري أن يكون الجيش ضخماً مبهراً يأخذ بالعقول والألباب، ليرسل رسالة إلى قريش قوامها ألا بديل عن الاستسلام، وسنرى كيف أنّ هذه العبارة تحديداً «ما لا طاقة لأحدٍ به» سينطقها أبو سفيان أمام قريش في وصف جيش النبي تبريراً للاستسلام، فمن الضروري إذاً أن يكون الجمع مُبهِراً، وأن يكون التفكير في قتاله ضربٌ من الجنون، عندها ستستسلم قريش وسيتحقق الهدف؛ فتح مكة من دون إراقة دماء.

السبب الثاني لهذا التحالف الضخم أن النبي يعلم أهمية مكة لجميع العرب، ومن ثمَّ ينبغي أن يشارك أكبر عدد منهم في فتحها، فهي المدينة الوحيدة في جزيرة العرب التي يُعتَبر شأنها شأناً عاماً لدى جميع القبائل،

على القبائل التي استنفرت للمشاركة في الفتح نعرف كم توسع حلف المدينة بعد الحديبية، فقد ضم قبائل مُضَرية ذات أهمية بالغة في الحجاز ونجد، وستبرز منها خمس قبائل، سيعتبرها النبي على قدم المساواة مع الأنصار وقريش في الحلف، وقد سماها تحديداً فقال: «قريشٌ والأنصار وجُهَينَة ومَزيَنة وأسلم وغَفار وأَشجع مواليَّ، ليس لهم مولًى دون الله ورسوله»(٦)، والمقصود بقريش هنا هم المهاجرون من قريش، أو قريش المسلمة، وليست قريش الكافرة.

أما جهينة فكانت قد تحالفت مع النبي منذ العام الأول للهجرة، وكان دخولها في حلف النبي ضرورياً لعرقلة طرق التجارة القرشية العابرة للساحل، وقام بعض قادتها مثل كشد الجهني بدورٍ مهمٍّ في تزويد النبي بالأخبار، وكان من نتائج ذلك غزوة بدر؛ وكذلك مَزيَنة، فمضاربها قريبة من جهينة بين المدينة ومكة؛ أما غفار فهي من بني ضمرة الذين وادعوا النبي في العام الأول للهجرة، وكان قد فشا الإسلام فيهم بجهدٍ مقدّر من أبي ذر الغفاري؛ وكذلك قبيلة أسلم، وهي حجازية. فهذه أربع من القبائل الحجازية ذات العلاقة المبكرة بالمسلمين، أما قبيلة أشجع فهي من قبائل غطفان النجدية، ذات العداء الشديد مع المدينة، وكانت قد شاركت في غزوة الخندق ضد المسلمين، لكنها بدأت تميل إلى حلف المدينة بعد الحديبية، وبدأ الإسلام يفشو فيها تدريجياً.

غير أن تحالف الفتح لم يقتصر على هذه الخمس، بل انضم إليه آخرون؛ فكان مُدهشاً انضمام قبيلة سُلَيم للتحالف، ومشاركتها بألف مقاتل، وهي قبيلة عُرفت بعدائها الشديد للنبي والقرب من قريش، ولم ينسَ المسلمون كيف غدرت بنو سليم بالصحابة وقتلتهم عند بئر معونة، ثم إنها شاركت في الخندق؛ فدخول سُلَيم في التحالف مؤشر قوي على أن حلف النبي قد اشتد بالفعل، ورسالة لن تخطئ فهمها قريش بأن أقرب حلفائها منزلاً وحلفاً قد انفضوا عنها.

ومن المدهش أيضاً أن مئتين من بني بكر قد شاركوا في الجيش، وبنو بكر هم الذين هاجموا خزاعة وبسببهم انتقض العهد، لكن الإسلام كان قد تسرب إلى بعضهم، فجاؤوا إلى النبي وساروا معه إلى مكة.

---

(٦) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب: ذكر أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع، (١/ ٨٦٨)، حديث رقم ٣٥١٢.

ففتحها سلماً وبمشاركة العرب جميعاً سيكون إعلاناً عابراً للحدود بأنّ عهداً من التسامح قد ولد، وأنّ قبائل العرب كافة شريكة في الفتح، وفي إطلاق هذا العهد الجديد.

السبب الثالث تربوي تنظيمي، فالنبي في حشده لمعظم من أسلم حتى تلك اللحظة ضمن جيش واحد تحت قيادته إنما يصقل مفهوم الأمة الواحدة؛ إذ سيلتقي في الجيش المهاجر والأنصاري والجهني والغفاري والغطفاني والأشجعي جنباً إلى جنب في مهمةٍ واحدة وتحت قيادةٍ واحدة، وهو ما سيولد مفهوم الأمة العابرة للقبيلة، والجيش الواحد المنضبط، والفعل الجمعي المنظم، فلا تتصرف كل قبيلة على هواها، ولهذا فقد طلب منهم أن يفدوا إلى المدينة أولاً، ثم خرج بهم إلى الصلصل على بعد سبعة أميال من المدينة، وهنا أراح الناس وأرسل الزبير طليعة في مئتي فارس، ووزع الرايات والألوية؛ كل ذلك ترسيخاً لمعنى الجيش الواحد ذي القيادة المركزية، وهو ما لم تعهده القبائل في غزواتها.

السبب الرابع هو أن للجيش مهام قتالية مستقبلية، فلن تنتهي مهمته بفتح مكة، بل سيقاتل مباشرة بعد الفتح، لا سيما ضد قبيلتي هوازن وثقيف، وكانتا تستعدان للمواجهة بالفعل؛ إذ عندما انتشر خبر مسير النبي من المدينة، خشيت هوازن وثقيف من أنه يقصدهما، فبدأتا الاستعداد، وأرسلت هوازن العيون للتجسس على المسلمين، وبالفعل ألقى المسلمون القبض على عينٍ من عيونهم، فأخبرهم بتجمُّع هوازن ونفيرها للحرب. وننقل ما قاله الجاسوس هنا بتفاصيله لما فيه من إطلالة مهمة على واقع هوازن وقريش:

«قال: فَإِنّي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ مِنْ بَنِي نَصْرٍ، بَعَثَتْنِي هَوَازِنُ عَيْناً، وَقَالُوا: ائْتِ الْمَدِينَةَ حَتّى تَلْقَى مُحَمّداً فَتَسْتَخْبِرَ لَنَا مَا يُرِيدُ فِي أَمْرِ حُلَفَائِهِ، أَيَبْعَثُ إلَى قُرَيْشٍ بَعْثاً أَوْ يَغْزُوهُمْ بِنَفْسِهِ، وَلَا نَرَاهُ إلّا يَسْتَغْوِرهُمْ، فَإِنْ خَرَجَ سَائِراً أَوْ بَعَث بَعْثاً فَسِرْ مَعَهُ حَتّى تَنْتَهِيَ إلَى بَطْنِ سَرِفَ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُنَا أَوّلاً فَيَسْلُكُ فِي بَطْنِ سَرِفَ حَتّى يَخْرُجَ إلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ قُرَيْشاً فَسَيَلْزَمُ الطّرِيقَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَأَيْنَ هَوَازِنُ؟ قَالَ: تَرَكْتهمْ بِبَقْعَاءَ وَقَدْ جَمَعُوا الْجُمُوعَ، وَأَجْلَبُوا (حرضّوا) فِي الْعَرَبِ، وَبَعَثُوا إلَى ثَقِيفٍ فَأَجَابَتْهُمْ، فَتَرَكْت ثَقِيفاً عَلَى سَاقٍ قَدْ جَمَعُوا الْجُمُوعَ، وَبَعَثُوا إلَى الْجُرَشِ (منطقة) فِي عَمَلِ

الدّبَابَاتِ وَالْمَنْجَنِيقِ، وَهُمْ سَائِرُونَ إِلَى جَمْعِ هَوَازِنَ فَيَكُونُونَ جَمْعاً. قال رسول الله ﷺ: «**وَإِلَى مَنْ جَعَلُوا أَمْرَهُمْ؟**» قَالَ: إِلَى فَتَاهُمْ مَالِكِ بْنِ عَوْفٍ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَكُلّ هَوَازِنَ قَدْ أَجَابَ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ مَالِكٌ؟**» قَالَ: قَدْ أَبْطَأَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَهْلُ الْجِدّ وَالْجَلدِ. قَالَ: «**مَنْ؟**» قَالَ: كَعْبٌ وَكِلَابٌ. قَالَ: «**مَا فَعَلَتْ هِلَالٌ؟**» قَالَ: مَا أَقَلّ مِنْ ضَوَى (آوى) إِلَيْهِ مِنْهُمْ، وَقَدْ مَرَرْت بِقَوْمِك أَمْسِ بِمَكّةَ وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَرَأَيْتهمْ سَاخِطِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ، وَهُمْ خَائِفُونَ وجلون»[٧].

ومن ثمّ فإن تحالفاً من هوازن وثقيف يتشكل بالفعل، ويعلم النبي أنه سيقاتلهم بعدما يفرغ من مكة.

على أبواب مكة

قطع الجيش المسافة من المدينة إلى مكة في تسعة أيام، حتى وصل إلى مر الظهران على مشارف مكة في اليوم السادس عشر من رمضان، وكانت قريش في غَمٍّ وقلق، فبعد فشل مهمة أبي سفيان في تجديد الصلح كانت تترقب أن تحل بها عقوبة النبي، ولا شك أنها كانت تتابع أخبار الجيش الزاحف إليها، فالقول بأنها فوجئت بالجيش ليس دقيقاً، لقد كانت أخبار الجيش قد وصلت هوازن وثقيفاً، وانضمت إليه سُلَيمٌ المجاورة لقريش، فكيف لا تعرف به قريش؟

تروي كتب السيرة أن قريشاً ابتعثت أبا سفيان وقالوا له: «إنْ لَقِيت مُحَمّداً فَخُذْ لَنَا مِنْهُ جِوَاراً إلّا أَنْ تَرَى رِقّةً مِنْ أَصْحَابِهِ فَآذِنْهُ بِالْحَرْبِ»[٨]. وهذه العبارة تعكس الحالة النفسية لسادة قريش، فمن ناحية هم في خوفٍ شديد يدفعهم لطلب الأمان من النبي، ومن ناحية أخرى تُداعب أحلامهم فرصة أن يكون النبي ضعيفاً، وهي الفكرة التي خَطَرت لهم بعد مؤتة، لذلك طلبوا من أبي سفيان أن يقيِّم واقع المسلمين، فإن كانوا أقوياء صالحهم، وإن كانوا ضعافاً هدَّدهم بالحرب.

ولكن عن أي قريش نتحدث؟ من الواضح من السياق العام في تلك الفترة

(٧) مغازي الواقدي.
(٨) المصدر السابق.

أن عامة سكان مكة كانوا متصالحين مع فكرة الفتح، لقد رأينا كيف عايشوا المسلمين عن قرب في عمرة القضاء، وكيف أن الصلح فتح باباً لتبادل البضائع وسفر الأشخاص والتزاور، وصار مألوفاً لدى غالبية أهل مكة سماع أخبار المدينة على حقيقتها من دون تزوير الملأ ودعاية القادة.

وإذا تحدثنا عن السادة فإننا كذلك نلحظ فوارق كبيرة في المواقف؛ هناك الجناح المتشدد ممن سعوا لنقض الصلح، مثل صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص، ومعهم، ولكن بدرجةٍ أقل، سُهيل بن عمرو، فقد كان أعقلهم؛ أما بقية السادة من أمثال أبي سفيان والحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة وحَكيم بن حزام وجُبَير بن مُطعم وعتاب بن أسيد، فهم على النقيض من الفريق الأول. وكان النبي ﷺ مدركاً للتناقضات الداخلية في قيادة قريش، وروي أن النبي عندما قَرُبَ من مكة قال: «**أربعةٌ أربأ بهم عن الشرك؛ عتاب بن أُسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو**»[٩]. ولا شك أن تصريحاً مثل هذا على أبواب مكة له مغزى سياسي، يُعزز من طرف المعتدلين ويشجعهم على المضي قدماً في قبول الواقع الجديد.

القيادة المعتدلة في قريش، ومعها بُديل بن ورقاء، ولم يكن قرشياً، لكنه ذو حضور مؤثر في مكة، قد استنكروا فِعل المتشددين في إدارة ملف العلاقة مع المسلمين، لا سيما مساندة بني بكر على خزاعة ونقض الصلح، ورأى فريق المعتدلين ضرورة التحرك لأخذ زمام المبادرة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، من خلال تأمين اتفاق تسليم يأمن فيه أهل مكة على أنفسهم وأموالهم، ومن البَدَهي أن يُوفدوا من يخاطب النبي بهذا الأمر، وعندها تم اختيار أبي سفيان مرشحاً لقيادة وفد فيه بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام.

وفد الاستسلام

الجهد الأكبر في إبرام اتفاق دخول مكة صلحاً سيتصدره في كتب السيرة رجلان: العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب، ومعهما بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام.

---

(٩) **سير أعلام النبلاء**، مصدر سابق.

العباس بن عبد المطلب شخصية فريدة، تثير سيرته بعض الجدل؛ فهو عم النبي وسيد بني هاشم، وقف يوم العقبة يأخذ من الأنصار العهود على أن ينصروا النبي ويمنعوه بما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم، لكنه بقي بمكة، يقوم على أمر بني هاشم ويزاول وظيفة سقاية الحجيج، ويشترك في بدر مع جيش المشركين، فيطلب النبي من أصحابه ألا يقتلوه، فيتم أسره ثم يَفتدي نفسه بالمال، ويعود إلى مكة فيواصل إقامته فيها، حتى يأتي النبي ويلتحق به في الجُحفَةَ(١٠) قبل أيام من الفتح، وعند وصول المسلمين إلى مشارف مكة يضطلع بمهمة اصطحاب وفد أبي سفيان إلى النبي وإبرام اتفاق يدخل فيه جيوش المسلمين صلحاً إلى مكة.

السؤال الذي يثير جدلاً حول شخصية العباس متعلق بتوقيت إسلامه؛ فهناك من يذهب أنه أسلم سراً مع آل بيته وهو في مكة، وأنه اشترك في بدر مُكرهاً، وأنه كان في مهمة سرية، يزود النبي بالأخبار والمعلومات، ويرعى شؤون المسلمين الذين أخفوا إيمانهم بمكة؛ أي إنه كان بمنزلة المبعوث السري للنبي. وقد يكون في ذلك تضخيمٌ لدور العباس عززته دعاية الدولة العباسية لاحقاً، بينما يعتقد آخرون أنه لم يُسلم إلا في الجُحفَة قُبَيل الفتح. وهو جدلٌ طويل وله شواهد يقدمها الطرفان، ولن نخوض فيه هنا، فالذي يهمنّا أن العباس كان عم النبي وسيد بني هاشم، وكانت ميوله النفسية نحو النبي معروفة لقريش، وقد رأينا في قصة الحَجّاج بن علاط كيف أن العباس عندما سمع إشاعةَ أَسر النبي في خيبر أُسقط في يده، ووقع على الأرض لا يستطيع حراكاً، وعندما تيقن أن ذلك لم يكن صحيحاً وأن النبي قد فتح خيبر، أعلن السرور والفرح، وذلك كلّه على مرأى من سادة قريش. فموقفه الداعم للنبي لم يكن سراً، ولا نستطيع قطعاً أن نجزم ما إذا كان ذلك الموقف بسبب النسب والقربى أم بسبب الإسلام. وعلى العموم، فالقضية هنا ليست توقيت إسلام العباس، بل الدور الاستراتيجي الذي قام به في تأمين فتح مكة صلحاً، فقد كان سادة قريش لا يثقون فيه، وكانوا يتشددون في التعامل معه وإخفاء المعلومات عنه، إلا أن رجلاً واحداً من سادة قريش كان معروفاً بعلاقة وطيدة مع العباس، واعتُبِر نديماً له في الجاهلية: هو أبو سفيان بن حرب، زعيم قريش الذي انقلب عليه الثلاثي صفوان وعكرمة وسهيل، فعزلوه عن القيادة، فلم يظهر له دورٌ في إبرام

(١٠) على مسافة نحو ١٧٠ كم من مكة.

الحديبية، ولم يعرف بمؤامرة نقضها، لكنه كان مع ذلك رجلاً ذا رأي راجح، فلما خافت قريش عاقبة فعلتها فزعت إليه طلباً في تدخله لتمديد الصلح مع النبي، فقام بزيارة المدينة، يحاور ويناور، وأطال فيها المكث، حتى انتشرت إشاعةٌ أنه قد أسلم.

أبو سفيان تاجر يتسم بالدهاء والحنكة، فهل غاب عن باله أن النبي سيدخل مكة على إثر اعتداء ماء الوتير؟ وهل غاب عن باله أن مجتمع المدينة الذي رآه عن قرب قادر على هزيمة قريش؟ وهل جَهِل أبو سفيان، وهو الذي يجوب الجزيرة وتأتيه الأخبار، أن قبائل العرب قد دخلت حلف محمد، وأن قريشاً قد انعزلت عن حلفائها فما بقي معها أحد؟

إذا كان أبو سفيان قد تحقق مسبقاً من ذلك كله، فماذا سيكون موقفه من محمد النبي المنتصر أو محمد زوج ابنته وقريبه الذي يلتقي معه في الجد الرابع؟

من جانب آخر، نلحظ أن النبي ﷺ كان قد أبدى ليونة مع أبي سفيان بعد الإطاحة بزعامته على إثر هزيمته في الخندق، ونرصد عدة مؤشرات إيجابية؛ الأولى أنه تزوج ابنته أم حبيبة، ثم أوفد عمرو بن أمية الضمري، الصحابي نفسه الذي خطب أم حبيبة من النجاشي، أوفده بعد عودته من الحبشة إلى أبي سفيان، فأخبره عمرو عن الزواج وعن الوليمة والمهر الذي دفعه النجاشي، فأدخل ذلك في نفس أبي سفيان الفَخْر، فعقَّبَ واصفاً النبي بأنه «الفحل الذي لا يُقدَعُ أنفه» (أي لا يضرب أنفه).

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، رأى بعض المفسرين أن مناسبة نزول الآية هي زواج النبي من أم حبيبة، وما نتج عن ذلك من استمالة أبي سفيان للإسلام.

وقد ورد أن النبي قد أرسل إلى أبي سفيان بهدية بعد الحديبية، وأن الهدية كانت تمر عجوة، حملها عمرو بن أمية الضمري، وأن النبي طلب من أبي سفيان هدية من الأدَم، أي الجلد، فأهداه إليه أبو سفيان. وكان أبو سفيان تاجر زيتٍ وأدم، هذا إضافة إلى أن أبا سفيان عندما زار المدينة لم يلقَ عداوة أو سوء خُلُق من المسلمين؛ صحيح أنهم لم يستجيبوا لمناشداته في التشفع لدى

النبي، إلا أنه كان آمناً مطمئناً يتنقل بين كبار الصحابة كيفما شاء، لقد كانت سفارة أبي سفيان فرصة لاستمالته إلى حلف النبي وإقناعه بأن استسلام مكة لن يكون عاراً ولا اندثاراً لقريش. وقد رأينا أن حاطب بن أبي بلتعة عندما كتب ليُعلِمَ قريشاً بمسير النبي كتب لصفوان وعكرمة وسهيل، ولم يكتب لأبي سفيان أو غيره، وهو ما يُرَجِّح أن أبا سفيان عندما غادر المدينة كان متأكداً من أن الفتح على وشك أن يتم، وأنه لم يكن شديد المعارضة لذلك.

ثم إذا كان العباس، المبعوث غير الرسمي للنبي بمكة، نديماً لأبي سفيان، وهما أبناء عم؛ هذا زعيم بني هاشم وذلك زعيم بني أمية، وجميعهم من المطيبين من بني عبد مناف، ممن تم إقصاؤهم تماماً عن قيادة مكة لحساب الأحلاف، ألا يشي ذلك بأن العباس كان على تواصل مع أبي سفيان بشأن سفارته ونتائجها؟

وعليه نتساءل: هل كان خروج العباس قبل ثلاثة أيام من مكة للقاء النبي في الطريق مصادفة، أم أنه كان قد عَلِم بمسير النبي فأراد أن يُبرم اتفاقاً يحفظ لمكة مكانتها؟

تقول القصة التي رواها الواقدي أنه عندما وصل المسلمون إلى مَرّ الظهران، ركب العباس بغلة النبي الشهباء وطاف على أطراف المعسكر ليلاً عسى أن يجد من يُبلغ قريشاً أن النبي سيدخل مكة، فتُبادر إلى الصلح حتى لا يدخلها عنوة. وبالطبع لا يخفى على أحد أن مثل هذه المهمة لم تكن لتتمّ من دون علم النبي، إذ تأتي منسجمة مع استراتيجيته في ألا يدخل مكة عنوة، ثم إن العباس ركب بغلة النبي، فيعرف الجند والحرس أنه في مهمة رسمية. ثم يلتقي العباس بأبي سفيان ومعه زعيمان آخران، بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، تقول الرواية إنهم خرجوا يستطلعون الأمر، ووقفوا مندهشين أمام هول الحشد ونيرانه، ويعثر العباس عليهم مصادفة؛ إذ بينما يطوف أطراف المعسكر «وَإِذَا بِأَبِي سُفْيَانَ، فَقُلْت: أَبَا حَنْظَلَةَ! فَقَالَ: يَا لَبّيْكَ، أَبَا الْفَضْلِ ـ وعرف صوتي ـ مالك، فِدَاكَ أَبِي وَأُمّي؟ فَقُلْت: وَيْلَك، هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ. فَقَالَ: بِأَبِي وَأُمّي! مَا تَأْمُرُنِي، هَلْ مِنْ حِيلَةٍ؟

قُلْت: نَعَمْ، تَرْكَبُ عَجُزَ هَذِهِ الْبَغْلَةِ فَأَذْهَبُ بِك إلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِنّهُ وَاللهِ إنْ ظُفِرَ بِك دُونَ رَسُولِ اللهِ، لَتُقْتَلَن».

فيصحبه العباس ويمنحه جواره، حتى يأتي النبي، وعمر بن الخطاب يسابق العباس ليستأذن النبي في قتل أبي سفيان، لكن العباس يُنقذه، ويعرض النبي عليه الإسلام، فيتردد أبو سفيان، ويشهد ألا إله إلا الله ويحجم عن الشهادة للنبي بالرسالة، فيخوِّفه العباس بالقتل إن لم يفعل، فيسلم حينها، ويحاور النبي في محاولة أخيرة لثنيه عن فتح مكة، فيقول: «يَا مُحَمّدُ، جِئْت بِأَوْبَاشِ النّاسِ، مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ، إلَى عَشِيرَتِك وَأَصْلِك. فقال رسول الله ﷺ: أَنْتَ أَظْلَمُ وَأَفْجَرُ، غَدَرْتُمْ بِعَهْدِ الْحُدَيْبِيَةِ وَظَاهَرْتُمْ عَلَى بَنِي كَعْبٍ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ فِي حَرَمِ اللهِ وَأَمْنِهِ. فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَحَيّكُمْ يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ كُنْت جَعَلْت حِدّتَك وَمَكِيدَتَك بِهَوَازِنَ، فَهُمْ أَبْعَدُ رَحِماً وَأَشَدّ لَك عَدَاوَةً. فقال رسول الله ﷺ: «**إنّي لَأَرْجُو مِنْ رَبّي أَنْ يَجْمَعَ ذَلِك لِي كُلّهُ بِفَتْحِ مَكّةَ، وَإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ بِهَا، وَهَزِيمَةِ هَوَازِنَ، وَأَنْ يُغْنِمَنِي اللهُ أَمْوَالَهُمْ وَذَرَارِيّهُمْ، فَإِنّي رَاغِبٌ إلَى اللهِ تَعَالَى فِي ذَلِك**»»(١١).

يُعلِن أبو سفيان إسلامه أمام النبي بعد تردد، فيطلب العباس من النبي أن يجعل لأبي سفيان شيئاً من الاعتبار أمام أهل مكة، فقال النبي حينها: «**من دَخَل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**»(١٢).

ثم يستضيف العباس أبا سفيان ليلته تلك، وفي الصباح الباكر يصحبه إلى معبر الوادي الذي سيمر فيه جيش المسلمين في استعراضٍ عسكريٍّ مهيب، قُصِدَ منه ترسيخ قناعة أبي سفيان بأن الجيش لا يُقاوَم، فرأى قبائل العرب في ألويتها وراياتها، كلما مرت كتيبة استفسر أبو سفيان عنها فيجيبه العباس؛ هذه سُلَيم، وهذه مُزينة، وهذه أشجع، وهذه جهينة، وهذه غفار... وكلما حاذته كتيبة كبَّر الجند ثلاثاً، إمعاناً في التأثير النفسي على أبي سفيان، وعندما مرت كتيبة النبي الخضراء المجللة بالحديد فلا يُرى منها إلا الحَدَق(١٣)، فَزِع أبو سفيان، فعلق قائلاً للعباس: «مَا رَأَيْت مِثْلَ هَذِهِ الْكَتِيبَةِ قَطّ، وَلَا خَبّرَنِيهِ مُخَبّرٌ! سُبْحَانَ اللهِ، مَا لِأَحَد بِهَذِهِ طَاقَةٌ وَلَا يَدَانِ! ثُمّ قَالَ: لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابْنِ أَخِيك

---

(١١) مغازي الواقدي.

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) المقصود حدقات العين.

الْغَدَاةَ عَظِيماً! قَالَ (العباس) قُلْت: وَيْحَك يَا أَبَا سُفْيَانَ، لَيْسَ بِمُلْكِ وَلَكِنّهَا نُبُوّةٌ. قَالَ: نَعَم»[١٤].

هذه الرواية فيها خلط بين وقائع دقيقة وأخرى أضيفت بقصد المبالغة، ولا تصح، فقد صيغت على هذا النحو في زمن الدولة العباسية لكي تُعطي العباس منزلة ومكانة تجعله المتفضل على أبي سفيان[١٥]، فهو سبب إسلام أبي سفيان وحقن دمه، وينبغي أن نفهم ذلك في سياق الصراع بين العباسيين والأمويين؛ فالعباس رمز شرعية الدولة العباسية وإليه ينتسبون، وأبو سفيان سيد بني أمية. والرواية فيها أخطاء ومبالغات، تصور أبا سفيان ذليلاً خائفاً يلوذ بالعباس، وتجعله متردداً في قبول الإسلام أمام النبي حتى في ذلك الموقف، فيهدده العباس بأن البديل هو السيف؛ وهذا لا يصح، إذ لا إكراه في الدين، والنبي لم يُكره أحداً على الإسلام، بمن فيهم من هو أشد وأنكى من أبي سفيان، مثل صفوان بن أمية كما سنرى؛ وأبو سفيان رجل حصيف، فلماذا يقف موقفه ذلك فيقر بشهادة ألا إله إلا الله ثم يمتنع عن شهادة أن محمداً رسول الله؟

ثم إنه كان في المدينة قبل أقل من شهر، ومكث فيها مدة، وأجرى فيها مباحثات، ولم يُهنه أو يُغلظ له في القول أحد، فلماذا يجري الآن من خلفه عمر بن الخطاب شاهراً سيفه يريد أن يقتله لولا أن العباس وكز البغلة فسبق عمر وحصل من النبي على أمان لأبي سفيان؟ ثم هل كان عمر يتوقع أن يُجيز النبي قتل أبا سفيان لو سبق العباس بخطوات؟

كل ذلك يدخل من باب المبالغات والتوظيف السياسي للحدث التاريخي. السياق العام للواقعة، وفهمنا لمنهج النبي العام، وحكمته في التعامل مع أبي سفيان، يجعلنا نستبعد هذه التفاصيل. وفي الحقيقة لا فائدة منها جوهرياً، إلا إضافة أجواء درامية دعائية تصرفنا عن صُلب الموضوع، وعليه دعونا الآن نضع المعلومات الأساسية في سياقها العام.

---

(١٤) المصدر السابق.

(١٥) لمزيد من التفاصيل، انظر رأي حسين مؤنس في ظروف هذه الرواية، **تاريخ قريش**، مصدر سابق.

قيادة جديدة بمكة

السياق العام للأحداث التي سبقت مَرّ الظهران ثم تلك التي وقعت ليلة فتح مكة تدل على أن اتفاقاً على التسليم قد أُبرم بين النبي ﷺ ووفدٍ من مكة ضمّ ثلاثة أعضاء: أبو سفيان، وبُدَيل، وحَكيم.

الرواية السائدة في كتب السيرة ركّزت على دور العباس وأبي سفيان مقللة من دور بُديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، والأرجح أن الاتفاق مع النبي في مَر الظهران تم من قِبل الوفد الثلاثي مجتمعاً، لأسباب عديدة؛ منها أن أبا سفيان داهية مجرِّب، لن يُبرم استسلاماً بشكل منفرد، لا سيما بعدما كان قد اتُّهِم بأنه قد أسلم في أعقاب زيارته الطويلة للمدينة، فهو كأي زعيم في موقفه ذاك، سيرغب في أن يشترك معه في حمل هذا العبء آخرون، حماية لنفسه وتوزيعاً للمسؤولية، ولذلك فالأرجح أن خروج أبي سفيان وبديل وحكيم لم يكن مصادفة، بل خرجوا جميعاً بنيِّة مسبقة لتأمين إجراءات الفتح سلماً.

من ناحية أخرى، هؤلاء الثلاثة يمثلون تياراً شعبياً غالباً في مكة، وهم نتاج طبقة قيادية بدأت تشعر بتهديد القيادة المتشددة، فالوفد ممثل لأجواء بدأت تتطور من بعد الحديبية وعمرة القضاء ثم تعززت بعد نقض الصلح، وهذه الأجواء أثمرت قناعة لدى الكثيرين بأن التسليم خير من المواجهة، فتم إيفاد أبي سفيان وصاحبيه لهذا الغرض، وتم ترتيب زيارة الوفد بالتفاهم المسبق مع العباس، فخرج العباس قبلهم إلى النبي فالتقى به قبل وصوله إلى مكة واستأذنه، ثم اصطحب الوفد إلى النبي في مَرِّ الظهران حيث أُبرِم الاتفاق، ووقع الاستسلام.

ثم إن تشكيلة الوفد فيها وجاهة، ولكل من أعضائه دور مبرر، فأبو سفيان هو من قد عرفنا، أما بُديل بن ورقاء فكان من سادة خزاعة، وهي القبيلة الأقدم في حلفها مع النبي، وكان لبُديل دارٌ كبيرة في مكة، فهو حليف للنبي وعلى علاقة وثيقة بقريش، وكان له سابق دور في الوساطة بين المسلمين وقريش، إذ كان الرجل الأول الذي يلتقيه في الحديبية، وهو الذي نقل عَرض النبي لقريش بالهدنة، ثم إن بُديلاً، وكان شيخاً كبيراً ذا منزلة ومكانة وله ولدان قد أسلما مع النبي، وهو الذي جاء النبي في المدينة قبل أقل من شهر، ورفع إليه ما فعله صفوان وعكرمة من نقض للعهد، فلو أن رجلاً يمكن أن يقوم بدورٍ مع أبي سفيان لترتيب انتقال آمنٍ لمكة إلى الإسلام فمن أفضل من بُديل للقيام به؟

أما حَكيم بن حزام بن خويلد، فهو من سادات قريش من بني أسد، وهم من المطيِّبين، وكانت خديجة عمَّته، والزبير ابن عمه، مشهود له بالشهامة والنُّبْل، وهو ذو عقل راجح، وله سابق صداقة مع النبي، وله مواقف إيجابية من المسلمين في مكة، من بينها أنه ساهم في فك الحصار عن المسلمين الأوائل في شعب أبي طالب بإدخال الأطعمة سراً، وسعى في نقض صحيفة المقاطعة التي كانت قريش قد كتبتها، وبقي على وُدّه الشخصي مع النبي، كان يزوره ويتواصل معه، ولا شك أن وجوده في الوفد يضيف قيمة له، وقد رأينا أن النبي لما اقترب من مكة أشاد بحكيم بن حزام ضمن الأربعة الذين يربأ بهم عن الشرك.

أعضاء الوفد الثلاثي فيهم شيء مشترك، فهم من المناوئين لحلف الأحلاف، وهم أصحاب منزلة ومكانة تؤهلهم للتحرك باسم مكة، وهم على تواصل سابق مع المسلمين، فهم القيادة المعتدلة التي ستأخذ زمام الأمور من الثلاثي المتشدد (صفوان وعكرمة وسهيل)؛ فلو أنهم تركوا أمر قريش بيد المتشددين لوقعت كارثة كبرى في مكة، إذ لو دخلها النبي عنوة فإنها ستخسر كل شيء، وكان ذلك عُرفاً متبعاً في ذلك الزمن، الفاتح له الحق في تملك كل شيء لدى المغلوب، بما في ذلك سبي النساء والذراري، وقد رأوا كيف أن خيبر لما فُتحت عنوة قد خسرت أموالها ومزارعها؛ ومن ثمّ فإن قرار أبي سفيان وصاحبيه القدوم إلى النبي كان مبرراً وعن سابق تخطيط وليس ارتجالاً أو مصادفة، وهو تصحيح للوضع القيادي بمكة، وعزلٌ للقيادة المتشددة، وهو ما يلتقي مع سياسة النبي عليه الصلاة والسلام، ولذلك منح النبي ثلاثتهم مكانة مميزة، واعترف بزعامتهم، فجاء هذا الاعتراف من خلال إعلان رسمي صادر عن النبي نفسه: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار بُديل بن ورقاء فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن»(١٦). فالنبي لم يخص أبا سفيان وحده بتأمين داره، بل منح ذلك لعموم الوفد، علماً أن هذا الإعلان رمزي ومعنوي، وإلا فما حاجة الناس للاحتماء ببيوت هؤلاء الثلاثة، ما دام دخولهم لبيوتهم أو المسجد أو مجرد إلقاء السلاح يوفر لهم الحماية نفسها؟ لقد أراد النبي من خلال هذا الإعلان أن يمنح الثلاثة شرعية قيادية تمكنهم من إنفاذ الاتفاق، ويُعزِّز هذا الرأي أن النبي أصدر بالمقابل إعلاناً آخر بإراقة دماء اثنين

(١٦) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، مصدر سابق، الطبقة الرابعة ممن أسلم عند فتح مكة.

من الثلاثة المتشددين؛ صفوان وعكرمة، حتى وإن كانوا تحت أستار الكعبة، وذلك لدورهم في خيانة العهد وقتال خزاعة. ونلاحظ هنا أن سُهيل بن عمرو لم يُدرج ضمن قائمة المطلوبين، ذلك أنه لم يُقاتل خزاعة، وهو أعقل الثلاثة، وسيُصدر النبي عفواً عنه بعدما تشفَّع له ابنه عبد الله بن سهيل.

صحيح أن صفوان وعكرمة لن يُقتلا في النهاية، لأنهما سيهربان أياماً ثم يعودان إلى النبي فيصفح عنهما، إلا أنهما الآن، صبيحة دخول مكة، ضمن المطلوبين المطاردين من قبل السلطة الجديدة، بالمقابل يحظى أبو سفيان وبديل وحكيم باعتراف هذه السلطة واحترامها.

إنجاز المهمة

عندما رجع الوفد إلى مكة بادر بالإعلان عن بنود الاستسلام ومبرراته؛ جيش محمد قوي لا يمكن هزيمته، فلا جدوى من القتال، وهو سيدخل سلماً، وقد أمّن الناس على أنفسهم وأموالهم. إلا أننا نفهم من السياق أن المتشددين لا يزالون يحاولون تأليب الرأي العام، بمن فيهم زوجة أبي سفيان هند بنت عتبة المعروفة بمواقفها المتشددة من النبي، فقال أبو سفيان: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، وَيْحَكُمْ! إنّهُ قَدْ جَاءَ مَا لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ! هَذَا مُحَمّدٌ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ عَلَيْهِم الْحَدِيدُ، فَأَسْلِمُوا! قَالُوا: قَبّحَك اللهُ وَافِدَ قَوْمٍ!»، وكان أشد رد جاءه من زوجه هند بنت عتبة، تقول اقتلوا وافدكم هذا، قبحك الله وافد قوم، فيرد أبو سفيان: «ويلكم، لا تغُرَّنّكم هذه من أنفسكم، رأيت ما لم تروا، رأيت الرجال والكراعَ والسلاح، فلا لأحد بهذا طاقة! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»[١٧].

عامة أهل مكة قَبِلوا كلام أبي سفيان وصاحبيه، وتفرقوا إلى بيوتهم، ورفضوا تحريض الثلاثي المتشدد؛ ذلك أنهم عندما استَنفروا الناس للقتال لم يلتحق بهم سوى عشرات، فاصطدموا بجيش خالد بن الوليد الداخل من الجنوب.

الجيوش الأربعة التي دخلت مكة كانت لديها تعليمات من النبي بعدم القتال. وقادة الجيوش هم: الزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وأبو عبيدة

(١٧) مغازي الواقدي.

عامر بن الجراح، وسعد بن عبادة؛ ثلاثة من قريش والرابع سعد بن عبادة من زعماء الأنصار، وقد بدرت منه بادرة زهو عندما قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحل الكعبة»، فخاف المسلمون أن يسفك دماً، فأبلغوا الرسول، فقال: «كَذَب سعد، ولكن هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة»[١٨]، وفي رواية أخرى: «اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزَّ الله فيه قريشاً». فأخذ منه الراية، لكنه سلمها لابنه قيس، أي بقيت في بيت سعد.

الجيوش الأربعة دخلت من دون قتال بالفعل، إلا ما وقع مع جيش خالد، فقد حاول تفادي المجموعة التي استجابت لصفوان وعكرمة، لكنهم بادروا المسلمين بالقتال، فقاتلهم خالد وقتل منهم أربعة وعشرين رجلاً، وفر الباقون، وجعل أبو سفيان وحكيم بن حزام يصيحان: «يا معشر قريش، علامَ تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن»، فجعل الناس يقتحمون الدور ويغلقون عليهم ويطرحون السلاح في الطرق حتى يأخذها المسلمون[١٩].

ومن بعيد يرى النبي لمعان السيوف فيقول: «ما هذه البارقة؟ ألم أنهَ عن القتال؟ قيل: يا رسول الله خالد بن الوليد قوتل، ولو لم يُقاتَل ما قاتل، فقال الرسول ﷺ: قضاء الله خير»[٢٠]. ومن المدهش أن الكتيبة التي اشتبكت مع قريش كانت بقيادة خالد؛ وهو الرجل نفسه الذي قاد قبل سنتين طليعة قريش لاعتراض النبي في الحديبية!.

نصر من دون هزيمة

كل نصرٍ تقابله هزيمة، وكل عزٍّ يناظره ذل، وكل ثقة يتحلى بها المنتصرون يقابلها خوف يزعزع عزيمة المهزومين؛ إلا ما كان من فتح مكة.

في كل عصر، كان الفاتحون إذا ما دخلوا قرية أو مدينة أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وأعملوا فيها السيف، ونهبوا وسبُوا؛ أمّا دخول النبي إلى مكة فكان آمناً سلساً منظماً، وأهل مكة قد علموا أنه ليس عدواً باطِشاً ولا خصماً

---

(١٨) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب: أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح، (١/ ١٠٤٨)، رقم الحديث: ٤٢٨٠.

(١٩) مغازي الواقدي.

(٢٠) المصدر السابق.

غادراً، فأسلموا مدينتهم من غير خوفٍ ولا وجل، فهم يعلمون أنه سيأتيهم بعهدٍ جديد؛ الكلُّ فيه سواسية، كرامة الجميع فيه مكفولة، وباب المستقبل فيه مفتوح، حتى أمام أولئك الذين رفعوا السلاح في المشهد الأخير على أبواب مكة.

يدخل النبي ﷺ مكة على راحلته، وقد حنى رأسه تواضعاً لله سبحانه، وشكراً له أن قد صدق وعده وأتمّ نعمته. نزل النبي في خباءٍ له بمنطقة الحَجُون وقت الضحى، واغتسل فيه، ثم صلى ثماني ركعات، ولبس السلاح، والمغفر على رأسه، ثم دعا براحلته القصواء فركبها، وقد اصطف له الناس على جانبي الطريق، وأبو بكر إلى جانبه، حتى وصل إلى الكعبة، فلما جاءها استلم الركن بمحجنه، وكبر فكبر المسلمون وراءه تكبيراً ارتجت له مكة، وقادة المشركين فوق الجبال ينظرون، ثم يطوف بالبيت على راحلته وقد أخذ بزمامها محمد بن مسلمة، ويأمر بالأصنام حول الكعبة فتُهدَم، وكان عددها ثلاثمئة وستين صنماً مرصَّصة بالرصاص؛ ويُكمل النبي طوافه، ويشرب من زمزم، ويصلي عند المقام، ثم يأمر بهدم هُبَل، ويطلب مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، فيدخلها ويزيل كل ما بداخلها من تصاوير، وفيها صورة لعيسى ابن مريم وأمه، وصورة لإبراهيم يستقسم بالأزلام، فتزال الصور ويصلي ركعتين في الكعبة، ثم يُمسك بعضادتي بابها، ويطل على المجتمعين من أهل مكة أمامه، وكان مما قاله:

«الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ!

مَاذَا تَقُولُونَ وَمَاذَا تَظُنّونَ؟

قَالُوا: نَقُولُ خَيْراً وَنَظُنّ خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، وَقَدْ قَدَرْت!

فَقَالَ رسول الله ﷺ: فإني أَقُولُ كَما قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

أَلَا إنّ كُلّ رِباً فِي الْجَاهِلِيّةِ، أو دم، أَوْ مَالٍ، أَوْ مَأْثُرَةٍ، فَهُوَ تَحْتَ قَدَمي هَاتَيْنِ، إلّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجّ...

إنّ الله قَدْ أَذْهَبَ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَكَبّرَهَا بِآبَائِهَا، كُلّكُمْ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ.

أَلَا إِنّ اللهَ حَرّمَ مَكّةَ يَوْمَ خَلَقَ السّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ، لَمْ تَحِلّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلّ لِأَحَدٍ كَائِنٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلّ لِي إِلّا سَاعَةً مِن النّهَارِ ـ يُقَصّرُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ هَكَذَا ـ لَا يُنَفّرُ صَيْدُهَا وَلَا يُعْضَدُ(٢١) عِضَاهُهَا، وَلَا تَحِلّ لُقَطَتُهَا إِلّا لِمُنْشِدٍ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهَا(٢٢)، إِلّا الْإِذْخِرَ فَإِنّهُ حَلَالٌ . . .

وَالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، وَالْمُسْلِمُونَ إِخْوَةٌ، وَالْمُسْلِمُونَ يَدٌ وَاحِدَةٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَرُدّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَيَعْقِدُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَمُشِدّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ(٢٣)، وَمَيْسَرَتُهُمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ، وَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ. . .»(٢٤).

إلى آخر هذا الخطاب الذي تضمَّن بعض حدود الإسلام وإسقاطاً لبعض الممارسات الجاهلية.

عندما استمع أهل مكة لخطاب النبي، زال عنهم الغم، ونزلت عليهم السكينة، فهم من الآن آمنون في منازلهم، ولقد استمعوا إلى إعلانٍ عن عهدٍ جديد؛ لا ثأر فيه ولا انتقام ولا ربا ولا تفاخر بالأنساب ولا تسيّد من غير حقّ، ومكة لها حرمتها، والبيت له سدنته، فلا محاباة لأحد، حتى ولو كان عمّه العباس، سيد بني هاشم، بل لقد أعاد مفتاح الكعبة إلى بني عبد الدار، وأقر منظومة قضاء عادل، الناس أمامها سواسية، وانتصف للفقراء من الأغنياء، ورد المظالم إلى أهلها، وسدد الديّات، وأنهى ما كان سبباً للخصومة والتناحر؛ كل ذلك في بضع دقائق. خطابٌ قصير وإذا بمكة تولد من جديد، فتلقي عن كاهليها قروناً من الشرك والظلم والقطيعة، وتعيد الاتصال بتراثها الإبراهيمي، وتستعيد مكانتها قبلة للساعين من كل فج عميق.

الطُلَقاء

عُرِفَ الذين أسلموا يوم الفتح بالطلقاء، وحرص النبي أن يدخلهم في

---

(٢١) يُقطع.
(٢٢) لا يُقطع نباتها الرطب.
(٢٣) قويهم على ضعيفهم.
(٢٤) مغازي الواقدي.

جماعة المسلمين ويدمجهم في أمّة الإسلام. وقد يكون ذلك مفهوماً ومتوقعاً من النبي الكريم لعموم أهل مكة ولسادتها المعتدلين، لكن المدهش حقاً كيف تعامل النبي مع زعماء قريش المتشددين؛ فبعد أن أصدر أمراً بتصفيتهم قُبَيل الفتح، بادر إلى العفو عنهم وتأمينهم، بل استمالتهم والتودد إليهم.

فلنبدأ بسهيل بن عمرو ولنستمع إليه يروي قصة إسلامه:

«قَالَ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكَّةَ وَظَهَرَ، انْقَحَمْتُ بَيْتِي وَأَغْلَقْتُ عَلَيَّ بَابِي، وَأَرْسَلْتُ إِلَى ابْنِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سُهَيْلٍ أَنِ اطْلُبْ لِي جِوَاراً مِنْ مُحَمَّدٍ، فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ أُقْتَلَ، قَالَ: وَجَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ أَثَرِي عِنْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَسْوَأَ أَثَراً مِنِّي، وَإِنِّي لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ بِمَا لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ، وَكُنْتُ الَّذِي كَاتَبَهُ مَعَ حُضُورِي بَدْراً وَأُحُداً، وَكُلَّمَا تَحَرَّكَتْ قُرَيْشٌ كُنْتُ فِيهَا. فَذَهَبَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سُهَيْلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبِي تُؤْمِنُهُ؟ فَقَالَ: **«نَعَم، هُوَ آمِنٌ بِأَمَانِ اللهِ فَلْيَظْهَرْ»**، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمَنْ حَوْلَهُ: **«مَنْ لَقِيَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فَلا يَشُدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَلْيَخْرُجْ، فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيْلاً لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيْلٍ جَهِلَ الإِسْلامَ، وَلَقَدْ رَأَى مَا كَانَ يُوضَعُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِنَافِعٍ»**. فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَى أَبِيهِ، فَخَبَّرَهُ بِمَقَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ سُهَيْلٌ: كَانَ وَاللهِ بَرّاً صَغِيراً وَكَبِيراً. فَكَانَ سُهَيْلٌ يُقْبِلُ وَيُدْبِرُ، وَخَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ حَتَّى أَسْلَمَ بِالْجِعْرَانَةِ»(٢٥).

أما عكرمة بن أبي جهل فكان قد هرب إلى الساحل يريد أن يركب السفينة إلى اليمن، فجاءت زوجه أم حكيم إلى النبي وطلبت أماناً لزوجها فأمّنه، فسافرت إليه وأقنعته بالعودة، فلما دنا من مكة، قال النبي لأصحابه: **«يَأْتِيكُم عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِناً مُهَاجِراً، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنّ سَبَّ الْمَيّتِ يُؤْذِي الْحَيّ وَلَا يَبْلُغُ الْمَيّت»**. قَالَ: وَجَعَلَ عِكْرِمَةُ يَطْلُبُ امْرَأَتَهُ يُجَامِعُهَا، فَتَأْبَى عَلَيْهِ وَتَقُولُ: إنّك كَافِرٌ وَأَنَا مُسْلِمَةٌ، فَيَقُولُ: إنّ أَمْراً مَنَعَك مِنّي لَأَمْرٌ كَبِيرٌ. فَلَمّا رَأَى النبي ﷺ عِكْرِمَةَ وَثَبَ إلَيْهِ ـ وَمَا عَلَى النّبِيّ ﷺ رِدَاءٌ ـ فَرَحاً بِعِكْرِمَةَ، ثُمّ جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَزَوْجَتُهُ مُنْتَقِبَةٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمّدُ إنّ هَذِهِ أَخْبَرَتْنِي

(٢٥) المصدر السابق.

أنّك أَمّنْتنِي، فَقَالَ رسول الله ﷺ: صدقت، فَأَنْتَ آمِنٌ! فَقَالَ عِكْرِمَةُ: فَإِلَى مَا تَدْعُو يَا مُحَمّدُ؟ قَالَ: أَدْعُوك إِلَى أَنْ تَشْهَدَ أن لا إله إلا الله وأني رسول اللهِ، وَأَنْ تُقِيمَ الصّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزّكَاةَ - وَتَفْعَلَ، وَتَفْعَلَ، حَتّى عَدّ خِصَالَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهِ مَا دَعَوْت إِلّا إِلَى الْحَقّ وَأَمْرٍ حَسَنٍ جَمِيلٍ، قَدْ كُنْتَ وَاللهِ فِينَا قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ إِلَى مَا دَعَوْت إِلَيْهِ وَأَنْتَ أَصْدَقُنَا حَدِيثاً وَأَبَرّنَا بِرّاً. ثُمّ قَالَ عِكْرِمَةُ: فَإِنّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَسُرّ بِذَلِكَ رسول الله ﷺ. ثم قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عَلّمْنِي خَيْرَ شَيْءٍ أَقُولُهُ، قَالَ: تَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَأَنّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ عِكْرِمَةُ: ثُمّ مَاذَا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَقُولُ: أُشْهِدُ اللهَ وَأُشْهِدُ مَنْ حَضَرَ أَنّي مُسْلِمٌ مُهَاجِرٌ مُجَاهِدٌ**»، فَقَالَ عِكْرِمَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **لَا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئاً أُعْطِيهِ أَحَداً إِلّا أَعْطَيْتُكَهُ**».

فَقَالَ عِكْرِمَةُ: فَإِنّي أَسْأَلُك أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِي كُلّ عَدَاوَةٍ عَادَيْتُكَهَا، أَوْ مَسِيرٍ وَضَعْت فِيهِ، أَوْ مَقَامٍ لَقِيتُك فِيهِ، أَوْ كَلَامٍ قُلْته فِي وَجْهِك أَوْ وَأَنْتَ غَائِبٌ عَنْهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللّهُمّ اغْفِرْ لَهُ كُلّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُرِيدُ بِذَلِكَ الْمَسِيرِ إِطْفَاءَ نُورِك، فَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنّي مِنْ عِرْضٍ فِي وَجْهِي أَوْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهُ!**» فَقَالَ عِكْرِمَةُ: رَضِيت يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمّ قَالَ عِكْرِمَةُ: أَمَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أَدَعُ نَفَقَةً كُنْتُ أُنْفِقُهَا فِي صَدّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلّا أَنْفَقْت ضِعْفَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَا قِتَالاً كُنْت أُقَاتِلُ فِي صَدّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِلّا أَبْلَيْت ضِعْفَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(٢٦).

وثالث الثلاثة هو صفوان بن أمية، وكان أشدهم عداوة للنبي، وقد هرب إلى ميناء الشُّعَيبة، قريباً من جدة حالياً، فطلب له عُمَير بن وهب أماناً من النبي فقال لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر وخاف ألا تؤمنه، فأمّنه فداك أبي وأمي، فقال رسول الله ﷺ: قد أمنته. فخرج في أثره، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمّنك، فقال صفوان: لا والله لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا

---

(٢٦) مغازي الواقدي.

رسول الله جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته، فقال لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: خذ عمامتي. فرجع عمير إليه بها، وهو البُرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ معتجراً[٢٧] به برد حبرة[٢٨].

فخرج عُمير في طلبه الثانية حتى جاء بالبرد، فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس وأوصل الناس وأبر الناس وأحلم الناس مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك، أذكرك الله في نفسك. قال له: أخاف أن أُقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام فإذا رضيت وإلا سيَّرك شهرين فهو أوفى الناس وأبرهم وقد بعث إليك ببرده الذي دخل به معتجراً، تعرفه؟ قال نعم. فأخرجه، فقال: نعم هو هو. فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ورسول الله ﷺ يصلي بالمسلمين العصر في المسجد، فقال صفوان: كم تصلّون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات. قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلمّا سلم صاح صفوان: يا محمد إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رَضيتُ أمراً وإلا سيَّرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله حتى تبيِّن لي! قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر. فنزل صفوان».

أسلم عكرمة في الحال، لكن سهيلاً وصفوان بقيا على شركهما حتى وقتٍ لاحق، ولم يمنع ذلك النبي من أن يستشيرهما وأن يستعير من صفوان سلاحاً قبل غزوة حنين، فسأله صفوان يومها: طوعاً أم كرهاً؟ فقال النبي: «**بل عارية مؤداة**»؛ أي إنه سيعيدها إليه بعد استعارتها. وما أحسب أن النبي استعار السلاح من صفوان عن حاجة، بل تأليفاً لقلبه، وتعاملاً طبيعياً معه، حتى يشعر أنه مع المسلمين في خندقٍ واحد.

لم يُسلم صفوان إلا بعد حنين؛ إذ خرج مع النبي إلى هوازن، وبعد المعركة كان يسير إلى جانبه، فبينا رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، «جعل صفوان ينظر إلى شعب مُلئ نِعَماً وشاءً ورعاء، فأدام إليه النظر، ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: أبا وهب! يعجبك هذا الشعب؟ قال: نعم، قال:

(٢٧) طريقة لفّ العمامة، بأن يضعها على رأسه ويرد طرفها على وجهه من دون أن يعمل منها شيئاً تحت ذقنه.

(٢٨) نوع ثوبٍ كان يُصنع في اليمن.

هو لك وما فيه! فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله وأسلم مكانه»[٢٩].

كان يوم الفتح يوم العفو الجميل، عفو من دون مِنَّةٍ ولا عتاب، لم يتعامل معهم على أنهم منهزمون أذلاء، ولم يلزمهم أن يجثوا أمامه طلباً للعفو والمغفرة، بل تجاوز عن ذلك كله، فعفا عن رجالٍ ونساءٍ كانوا قد ارتكبوا أبشع الجرائم بحق المسلمين، وأمنهم جميعاً، وفتح لهم أبواب الإسلام ليدخلوه غير مكرهين ولا صاغرين.

لقد نجحت سياسة النبي في حفظ كرامة قريش، وبقيت مكة على عهدها مع الدين الجديد، ولما ارتد العرب بعد وفاة النبي ﷺ ثبتت قريش، ووقف سهيل بن عمرو فيها خطيباً فتكلم بمثل ما تكلم به أبو بكر في المدينة، فتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ثم قال: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس من طلوعها إلى غروبها، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم، إن موت النبي حق، والله موجود حيٌّ لا يموت، والإسلام باقٍ ما بقِيَت السماء والأرض. فثبت أهل مكة على إسلامهم، وانطلق سهيل مجاهداً في سبيل الله حتى استُشهد في اليرموك، واستشهد معه رفيقه عكرمة بن أبي جهل، بعد أن أخلص في جهاده هو الآخر.

ومن جميل صنعه عليه الصلاة والسلام أن عيَّنَ عتاب بن أسيد والياً على مكة، وكان عتاب شاباً من الطلقاء في العشرينيات من عمره، أسلم يوم الفتح، وهو من بني أمية، وابن عم أبي سفيان، عيَّنه عندما سار إلى حُنين، وبقي على ولايته لمكة في زمن أبي بكر وعمر، وعُرف بصلاحه وحزمه.

لقد كان لسياسة النبي في العفو عن خصومه آثار بعيدة المدى؛ إذ أسست تلك السياسة لانتشار الإسلام في الجزيرة والانطلاق خارجها، وحملت قريش قسطاً كبيراً من شرف الفتح شرقاً وغرباً، فانطلق أبناؤها وأحفادهم يفتحون البلدان، ويحملون رسالة العالمية للناس أجمعين.

---

(٢٩) مغازي الواقدي.

لقد كان منهج النبي في التعامل مع قريش واضحاً حتى في أيام الشدة والحصار والتضييق، إنه المنهج الذي عبَّر عنه لما كانت قريش تؤذيه وتطارد القلة الصغيرة من أصحابه: «**ربِّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»، وهو المنهج الذي عبَّر عنه في أشد ما لقي منهم بعد الطائف، مؤمِّلاً أن يُخرج الله من أصلابهم من يوحد الله!.

الفصل العشرون

الخير يسكن المستقبل

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٧ ـ ٨٨]

لا أجمل من أن يستظل المرء بسيرة النبي ﷺ، إنها لحظات تصلنا بأصلٍ راسخ من أصول تصورنا لذاتنا ولرسالتنا ولبنيتنا المعرفية.

إننا بحاجة ماسة للسيرة في واقعنا السياسي والاستراتيجي، وهو المجال الذي حاولنا التركيز عليه في كتابنا هذا، وهو المجال الذي نجد فيه اضطراباً في واقعنا المعاصر. وللأسف فإن مناهجنا المعاصرة في التعامل مع الشأن العام؛ سياسية واستراتيجية واقتصادية، وقعت في إشكالات كثيرة، وأثمرت واقعاً تضطرب فيه المفاهيم والمناهج، فمزقت نسيج وعينا المعرفي، وبنانا الاجتماعية، ومعاييرنا الأخلاقية، وضربت في الصميم قدرتنا على التفاعل مع الواقع أو تصور المستقبل.

كثيرٌ مِنّا يعيش أزمة سكن معرفي؛ نستوطن الماضي منهجياً فنراه جميلاً، ونعيش الواقع عملياً فنراه بغيضاً، ثم نطل على المستقبل فنجده مخيفاً، هذه المعادلة لا تنتج إلا أجيالاً من الحالمين أو الحائرين.

لقد حاولنا أن نركز في هذا الكتاب على الجوانب السياسية والاستراتيجية من السيرة النبوية، لا لكي نسكن في الماضي الجميل، ولا لكي نقدِّس الأفعال والمواقف، بل لكي نبني منهجية معرفية، ونسقاً متكاملاً، يعيننا على تأسيس وعي سياسي واستراتيجي جديد لواقعنا المعاصر.

ولبناء هذه المنهجية ينبغي أن نفهم روح الفعل السياسي النبوي ومقاصده، وأن ننظر في غاياته ومآلاته، فكل منهج سوي يحتاج مرجعية معرفية، وغاية عليا، ونسقاً منسجماً، وذلك كله هو ما حاولنا أن نلقي عليه الضوء في كتابنا هذا. ولكي نبدأ برسم ملامح المنهجية التي نقصدها، فإننا نبدأ بتحديد بعض

المعاني الفريدة التي قدمتها تصرفات النبي بالإمامة للوعي الإنساني في مجالات السلطة والثروة.

أولاً أن الغاية الناظمة لكل فعل النبي استراتيجياً وسياسياً هي تحرير الإنسان من قيود الشرك والجاهلية والاستبداد، فالتوحيد الذي قامت عليه أصول الرسالة هو انعتاق تام من كل ارتهان لغير الخالق العلي الكبير، وهذه الفكرة تحديداً هي التي صنعت ذلك المد الهائل من الوعي الإنساني، وفجَّرت طاقات الصحابة، ونقلتهم من جمود الجاهلية إلى حركية الإسلام، ولا أجمل في ذلك من أن آية الكرسي، وهي أعظم آية وصفت جلال المقام الإلهي، وإحاطته المطلقة بمقاليد الأمر، والملكوت الوجودي التام والعظمة المطلقة، تلتها آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]!

لقد اعتدنا عندما نسمع مَلِكاً أو حاكماً أو مدير شركة يرفع من مقامه الشخصي، ويعزِّز من صلاحياته الفردية، ويشيد بقدراته وإنجازاته، أن يُبادر إلى التسلط ومصادرة حقوق الآخرين، وإلزامهم بحكمه، وحملهم على اتباع أمره إكراهاً من غير اختيار.

أما العلي القدير، فقد منح الناس حرية الاعتقاد مباشرة بعد أجلِّ آيات الكتاب احتفاء بعظمته وقدرته.

ثانياً: إن المنهج النبوي قدَّم تعريفاً عالمياً فريداً لطريقة التعامل مع السلطة والثروة، فالسلطة كما تعرفها السياسة تنحو نحو تعظيم القوة، والتحكم بالثروة، والتسيّد التام؛ ذلك أن الإنسان المتسيّد يقوده طغيانه إلى حدود التأله، فيعتبر نفسه قائماً بذاته، غنَّياً عن غيره، وفي سعيه لحماية تسيّده يقلل من شأن الآخرين، ويلغي ذواتهم، ويجعلهم عبيداً خانعين، أو تابعين مؤيدين. المنهج النبوي كان على خلاف ذلك؛ إذ جعل السلطة للمجتمع كله، فالناس أمرهم شورى، وهي شورى تلزمه هو شخصياً حتى إن كان له رأي آخر، ثم إن الثروة بيد الناس، فلا يملك النبي أن يتصرف بأموال الناس من دون إذنهم، فالنظم الإسلامية مثل الزكاة ومحاربة الربا وتفتيت الإرث والاحتكار حالت دون تركيز الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية.

ثالثاً: التقدير الدقيق لموازين القوة والتفاعل معها كان العامل الأبرز في الفعل السياسي والاستراتيجي النبوي؛ إذ لم يتّبع النبي في منهجيته تدبيراً يقوم

على الهوى أو الأماني أو الانفعال، بل كان واقعياً في تقدير الموقف، وعملياً في وضع الخطط، يرى الأمور كما هي، وينفذ إلى جوهر المسائل.

لم يقاتل عدواً في أوج قوته، بل استنزفه وشاغله أولاً، حتى إذا ما كانت موازين القوة في مصلحة المسلمين بادر باستغلال الفرصة، فكل خطوة خطاها عسكرياً أو سياسياً كانت بِقَدَر ووفق ميزان وتوقيت دقيقين. تعامل مع الجبهات الأربع؛ الساحل والصحراء والشمال ومكة، بحكمة بالغة. فاجأ الخصم بمبادراته، وأوقعه في دوامة ردود الفعل. كان يتتبع التحالفات ويتلقى الأخبار وينظر في الوقائع، فيتشكل لديه إلمام بموازين القوة، ويُقدِّر التصرف المناسب حيالها، بمرونة عالية وتفاعل مع الموازين حصيف، وكان النبي قارئاً دقيقاً لموازين القوة العالمية والإقليمية، لم يَغزُ أطراف الشام إلا بعد اختلال موازين القوة الدولية وإضعاف قطبيها الرئيسين، ولم يكاتب أمراء عُمان والبحرين واليمن إلا عندما زال عنهم غطاء الهيمنة الفارسية.

رابعاً: قَدَّم النبي منهجاً جديداً في العلاقات السياسية والاستراتيجية قائماً على التدافع وليس الصراع، فالبشرية عرفت التنافس والتناحر منهجاً رئيساً للغلبة والتسلط، ولذلك كانت الحروب هي المحرك الفعلي للإمبراطوريات، وهي أدوات الهيمنة والثروة، ولا يزال الصراع في منظومتنا الدولية الحديثة مركزياً في النظريات السياسية والعلاقات الدولية، إلا أنّ النبي جاء بمفهوم التدافع بديلاً عن الصراع؛ والفرق بينهما أن التدافع هو صيرورة لا تؤدي إلى تدمير الخصم ولا اقتلاع وجوده، بل هي تفاعل وتضاغط وتوجيه إلى مكان يكون فيها الخصم شريكاً في الخير؛ فالصراع صفري، لا يكون الطرف فيه إلا منتصراً أو منهزماً، أما التدافع فإيجابي، الجميع فيه رابحون.

خامساً: علاقة المطلق بالنسبي من أكثر ما يؤرق الوعي الإسلامي السياسي المعاصر، ولقد قدّم لنا النبي ﷺ حلاً لهذه المشكلة، في أن جعل الرسالة ناظماً كلياً لحركته على مستوى الغايات والمقاصد، ثم تفاعل مع الزمن بخير ما فيه من أساليب وطرائق، فكان سعيه للمثال لا يعني استنكافه عن التعامل مع الواقع، ولا هجرانه لأساليب التأثير فيه، فوظف كل ما لديه من وسائل لخدمة الرسالة، وأخذ من البيئة المعاصرة حينها منطلقاً لفعله السياسي والاستراتيجي؛ احتمى بعمه أبي طالب وهو مشرك، وورث عن جده عبد المطلب حلفه مع خزاعة، وعن قريش منزلتها بين العرب، وانفتح على مَلِكٍ عادل في الحبشة،

وتواصل مع أخواله من بني النجار في يثرب، واحترم العُرف، وأقرّ النظم القبلية على ما كانت عليه، وأقرَّ مَلِكي عمان على مكانهما بعد إسلامهما، وفعل ذلك مع ملك البحرين وحاكم اليمن الفارسي.

سادساً: إشكالية أخرى تؤثر على وعينا الإسلامي المعاصر كانت واضحة في مجتمع النبي وصحابته، وهي إشكالية الإرادة الإلهية والمسؤولية الإنسانية في الشأن العام سياسياً واستراتيجياً؛ فالوحي مصدر الهداية، وهو الموجِّه الأسمى، والناظم للغاية، والمسدد للفعل، يتنزل على النبي بعد الوقائع فيسدد ويصوب، ويلفت أنظار المسلمين للعبرة، ويدلهم على مكامن الضعف، ويثبتهم على صعوبات الطريق.

أما المنهج النبوي فمسؤول مسؤولية تامة عن التفاعل مع الواقع، مسؤول عن فهمه وتقديره والتعامل معه وعن نتائجه، لذلك استخدم كل الأدوات اللازمة لإنجاز المهمات على أكمل وجه، فبنى التحالفات، ونظَّم الجيوش، وأسس شبكات استخبارية، ورصد ردود الفعل، وابتعث السفراء، ووظف القوة الناعمة من شعراء وخطباء، وبنى نظماً دستورية وقضائية وشورية؛ كل ذلك في سياقٍ متكامل من التخطيط والفعل الإنساني. وإذا كانت النتيجة غير مرضية، فإنه يأخذ العبرة، ويصلح الخلل، ويتجاوز تداعيات الكبوة، ثم يواصل المسير.

نحن أمام فعل إنساني عملي متكامل، مفهوم منطقياً ومبرر عملياً، تنظمه غاية عليا وهدف واحد.

سابعاً: ثم إن النبي أسس لعلاقةٍ فريدة بين الإنسان والمشروع، فجعل كل فرد شريكاً فيه، مالكاً له، معتقداً بأهمية دوره، مندفعاً بدافع إيماني ذاتي، لا أفضلية لأحدٍ على أحد بالنَّسب ولا بالثروة ولا بالسلطة. هذه العلاقة هي التي فجرت الإبداع والابتكار والمبادرة لدى عموم الصحابة، فترى المولى يتقدم بالفكرة فيعتنقها ذو النسب العريق، وترى حديث الإسلام يقود الصحابي القديم، وترى الشاب حديث السن يجهر برأيه فيصغي له أهل الخبرة، وكل ذلك في نموذج لا يشبهه نموذج آخر في ذلك الوقت؛ لا في بلاد العرب ولا في العالم.

العالمية الثانية

عاشت الأمة الإسلامية عقوداً من الأزمات المتلاحقة، بعضها استراتيجي،

وبعضها معرفي، واليوم نحصد ثماراً مريرة لهذه الأزمات، فنجد أنفسنا نكافح لمجرد البقاء في عالم هائج شديد التوتر، فيسود الإحباط من الواقع والتشاؤم من المستقبل عقول أجيال من شبابنا على وجه الخصوص.

الواقع الذي نحياه في عالم اليوم يستدعي نظراً عميقاً في الفعل السياسي والاستراتيجي، فالبنى السياسية اختلفت جوهرياً عما كانت عليه أيام النبي والخلافة الإسلامية، فمفهوم الدولة الحديثة مختلف تمام عن الدولة التي عرفها التراث الإسلامي، ثم إن العولمة بأبعادها الاقتصادية والعالمية السياسية والقانونية والتقنية قد صنعت مرجعيات للدولة الحديثة لا يمكن التنصل منها.

إشكالية التعامل مع الواقع والمستقبل تتجاوز السياسة إلى ما هو أعمق من ذلك، فالواقع المتجدد يفرض قيماً عملية متجددة، سيمارسها الإنسان من أجل المضيّ في الحياة اليومية، وسيرفضها البعض نظرياً من أجل الحفاظ على الهوية، عندها يقع المرء في ازدواجية ضارة، يصطدم فيها الواقع مع المثال، وتبدأ حالة الفصام هذه تثير قلقاً وتوتراً؛ أمثلة ذلك كثيرة نجدها كل يوم من حولنا، كأن نكون حداثيين في مكان عملنا وفي الشارع وفي المختبر وفي تعاملاتنا المالية والتربوية، بينما نحتفظ بالنظم المعرفية الموروثة ذات الشرعية التاريخية في منازلنا ومساجدنا ومعابدنا وبنانا الاجتماعية.

هذا الفصام خطير وضار، يتعارض مع الاستقامة المعرفية والنفسية، ويفشل في بناء شخصية متوازنة، ولذلك نرى المتخوفين من الجديد يحاولون التغلب عليه بطريقة من اثنتين: الأولى تنطلق من الشعور المستمر بالإثم والتشاؤم والتشدد ورفض الواقع وغياب التسامح، وهنا تبرز مقاومة الجديد ومحاولة إعادة بناء الواقع على صورة المثال الموروث حتى ولو بالعنف.

الطريقة الثانية تحاول مأسسة الفصام من خلال فصل الحياة العملية عن الحياة الروحية والاعتقادية بالكامل، فيعيش لبعض الوقت في معازل روحية، مستقلة عن الحياة العملية، فينشد الخلاص الذاتي والاستقرار النفسي كأن يتوجه نحو التصوف أو التأمل بينما تستمر حياته العملية والمادية على حالها.

لن تُحَل المشكلة بأيٍّ من الطريقتين؛ فلا محاولة إعادة إنتاج المثال التاريخي ستنجح، ولا محاولة مأسسة الفصام ستنجح. ويبقى الحل الأجود والأقوم هو أن تنسجم منظومة المرء المعرفية مع الواقع المتجدد، وأن يمتلك

رؤية قادرة على تقديم نموذج معرفي موحد، لا ازدواجية فيه ولا انفصام، وهذا يتطلب وعياً عميقاً بالواقع وفهماً متجدداً للمثال، ولا يقوى على ذلك إلا العقل المنعتق من أسر التقليد، المؤمن بأن المشكلة ليست في تغير الأزمان بل في كسل الأذهان.

لا داعي لكي نخاف من المستقبل إلا في حالةٍ واحدة: إذا رفضناه وأغلقنا أبوابنا أمامه، عندها سيداهمنا ونحن عاكفون على القديم نحاول إحياءه، ولن نستطيع له رداً. فالمتخوفون من التغيير يستمرون في تبني المفاهيم التراثية ظنّاً منهم أنها تحمل قدسية موروثة عن الزمن النقي الجميل، فالمشكلة في تفكيرهم لا بد من أن تكون في الزمان نفسه، عندها لا مناص من إلقاء اللوم على الزمن وأهله، وكراهية المستقبل، والتشاؤم مما سيحمله من انحلال.

إن أكثر ما سنحتاجه مستقبلاً ليس الذات الخائفة المتحصنة بالسكون والتقليد، بل الذات المتوازنة الواثقة التي توفر للإنسان استقراراً وطمأنينة، من دون أن ينجرف بعيداً عن المقاصد الأخلاقية والوجودية التي تمنح للحياة معنى ورسالة.

التجديد والهوية

الهوية ليست كياناً مصمتاً ونهائياً لما يعنيه الانتماء لحضارة أو ثقافة معينة، الهوية صيرورة تتفاعل دوماً مع الواقع ومستلزماته العملية، وتخضع إلى إعادة نظر وإعادة بناء مع الزمن، ولذلك المقولة التي تعتبر (العودة) إلى الهوية من مستلزمات النهضة هي مقولة خاطئة من حيث المبدأ، على اعتبار أن (العودة) هنا تعني تجريد الهوية من التفاعل التاريخي، ولا تكون بذلك هوية، بل تكون المادة الخام الأولية التي بُنيت عليها الهوية.

يجب أن ننظر إلى الهوية باعتبارها كائناً حيّاً، ينمو ويتطور وينضج، وليست مقولات تأسيسية ثابتة. وعلينا أن نفرّق بين المقولات الأولية المؤسِّسة والهوية، فالهوية نتاج تفاعل وتطبيق المقولات الأولية في الزمان والمكان.

التغيير لا يعني التنازل عن الهوية، إلا إن كانت هوية ساكنة؛ بل يكون التغيير للأحسن أو للأسوأ وفقاً لتعاملنا معه؛ ليس علينا أن نتأقلم معه أو نسلم به، بل علينا أن نفهمه ونتفاعل معه، فنعزز فيه قيم الخير ونكبح نوازع الشر.

كيف نستعد للمستقبل؟

هناك مستجدات يحملها المستقبل ينبغي أن نلتفت إليها ونحن نحاول بناء منهجية معرفية جديدة في التعامل مع السياسة والاستراتيجيا، أهمها أننا نتجه نحو عالمية اجتماعية وثقافية غير مسبوقة، ولذلك فنحن مطالبون بتطوير رؤانا وقيمنا لتكون عالمية هي الأخرى، فنتحالف مع كل صاحب خلق قويم أو قيمة مشتركة سامية، وبذلك نكون شركاء في بناء عالمية جديدة، لا تكون مركزيتها استحواذية قاهرة، كما هي حال الحضارة الغربية حالياً.

العقدان الماضيان حملا بداية تغير جوهري غير مسبوق في الوعي الإنساني، تجلى في أربعة تيارات تاريخية ستعيد تشكيل الوعي والتجربة الإنسانية بشكل يؤسس لعالمية جديدة، لها قواعدها ونظمها وفلسفتها وجدلياتها؛ هذه التيارات هي:

أولاً: تغير جوهري لعلاقة الإنسان بالمكان، فالإنترنت ووسائل الاتصال غيَّرت من مفهوم ارتباط الفرد بالمكان الذي هو فيه، فللمرء مكانٌ جغرافي (بلده، بيته، موقعه)، ومكان افتراضي عالمي (شخصيته الأثيرية)، وهذه الأخيرة صارت تزداد باضطراد، مما يعزز شعوراً متنامياً لدى الفرد بذاتٍ مفارقة تدريجياً للمكان الجغرافي، وسيقود هذا إلى ابتعادٍ متزايد عن المحضن الموروث المرتبط بالمكان الجغرافي (القومي والقبلي والاجتماعي والأسري)، لحساب محاضن أخرى فوق جغرافية، ستزداد أهميتها بشكل متسارع في تشكيل ذات الفرد ووعيه.

ثانياً: تغير جوهري لهيكلية علاقة الفرد بالسلطة، أيّ سلطة؛ اجتماعية كانت أم سياسية أم وظيفية. فقد عرف الإنسان الشكل الهرمي في ممارسة السلطة منذ فجر التاريخ، بدءاً بالأسرة ثم المجتمعات الزراعية الأولى، وصولاً إلى الثورة الصناعية الثالثة. شكل العلاقات الأسرية والقبلية والاجتماعية والسياسية وحتى الإدارية كلها اتَّبع النهج الهرمي ذاته؛ إذ تزداد السلطات كلما ارتفعت مكانة الفرد في الهرم وتقل مع انخفاض مرتبته فيه. هذه الهرمية صنعت تنافساً دائماً من أجل السلطة والنفوذ، وأسست لمكانة الفرد في المحيط، وألزمته بحدودٍ وتقاليد لا ينبغي تجاوزها وفقاً لمكانته في الهرم السلطوي.

أما مع عالم الشبكات والتواصل الأفقي فقد بدأت علاقة الفرد بالسلطة

الهرمية تتغير، فموقعه في الشبكة التفاعلية الممتدة فوق الجغرافيا يعطيه فرصة للخروج من صرامة الهرمية إلى رحابة الشبكية، ويفتح أمامه آفاقاً جديدة، لا تحددها رتبته الوظيفية أو انتماؤه القبلي أو مكانته الاجتماعية ولا حتى ثروته المالية، وهو ما سيعزز سيادة الفرد في مقابل سيادة المنظومة، وستجعله يمتلك أدوات للحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية أكثر من أي وقت مضى.

ثالثاً: ثورة معرفية تُغَيِّر من الوعي الإنساني كمّاً وكيفاً، ستصنعها عوامل عدة: وفرة غير مسبوقة للمعلومات وقدرات فائقة وسريعة على تحليلها، ترابط العلوم الطبيعية والإنسانية وتداخلها، الابتعاد التدريجي عن الوضعية المادية باتجاه مناهج معرفية تتقبل الاحتمالات بدل الحتميات، الذكاء الاصطناعي المتزايد بشكلٍ فلكي، ديمقراطية المعرفة وشيوعها بين عامة الناس، الجمع بين التخصصات المختلفة، المساهمات الشعبية في البحث العلمي؛ كل ذلك سيفتح أبواباً غير مسبوقة للتقدم الإنساني، وسيبني اهتمامات وأولويات ونظماً جديدة، وسيكون الإنسان ممتلكاً أكثر من أي وقت مضى لزمام حريته الفكرية والمعرفية.

رابعاً: التحام الذوات مع الأشياء، فمنتجات الثورة الصناعية الرابعة من تكنولوجيا النانو والتكنولوجيا البيولوجية والذكاء الاصطناعي وتخزين الذاكرة وخرائط الوعي وأبحاث الباراسيكولوجي وفك شفرات الجينات البشرية والحيوانية وحواسيب الكم وقدرتها على بناء وجود افتراضي، سوف تقلِّل الهوة بين ذوات الناس وعالم الأشياء وصولاً إلى اندماج وتزامنٍ دائمين، وهو ما سيفتح آفاقاً وتحديات غير مسبوقة في التجربة الإنسانية، وسيثير إشكالات وجدليات ستغير من علاقاتنا الإنسانية، وعلاقتنا مع الوجود من حولنا.

هذه التيارات غير معهودة في الوعي البشري، ومن ثم فإن آلية التعامل مع الواقع المتحرك من أجل فلسفته أو التأمل فيه والخروج بنظريات منه صارت صعبة جداً بسبب التسارع المتزايد.

ومن ثم فالمسافة بين الواقع والفكر أصبحت أوسع؛ لدينا الآن خنادق ما بين الفكر والواقع، لدينا فراغات، لذلك تجدنا في مجالسنا ومدارسنا وفي مناهجنا نناقش جدليات موروثة، بينما تجدنا في واقعنا وحياتنا وممارساتنا نتعاطى مع وقائع ومتطلبات ليست بالضرورة متسقة مع الجدليات أو الأفكار أو الآراء والتصورات. هذه المشكلة عالمية، ويحتاج العقل البشري أن يرمّم أو أن

يُفسِّر الواقع بطريقة أكثر سرعة، أو أن يتعالى عليه لكي يستطيع أن يتعاطى مع هذا الواقع، لكن المنظومة التقليدية الموروثة في التعاطي مع الفكر والواقع تحدّاها التسارع الزمني المخيف.

نحن الآن مقبلون على شيءٍ جديد، هذا (الجديد) لم تكتمل ملامحه بعد، وقد لا تكتمل تماماً، لأنه سائل ومتحرك. القديم نعرفه جيداً، قرأناه في كتب التاريخ، وعيناه وحفظنا شعره وأدبه ونثره وبحثنا مقولاته وتحدّياته وجدلياته منذ التاريخ المدون إلى يومنا هذا، أما الجديد فقد لا نحيط به وعياً وفهماً؛ لذلك ينبغي أن يكون تركيزنا على الغايات والقيم، وأن نغذِّي واقعنا بمنظومات أخلاقية قادرة على التعامل مع هذا الجديد السائل.

الهجرة نحو المستقبل

لكي نسعى لبناء وعي يقودنا نحو تغييرٍ آمن، ينبغي أن نأخذ على عاتقنا القيام بما يلزم لتهيئة أنفسنا من أجل التفكير السليم بالمستقبل:

أولاً: يجب علينا أن نعيد تأهيل علاقتنا بالتاريخ. الوعي بالتاريخ جميل ومفيد وضروري، لكنه خطير أيضاً إن لم نفهم دوره، أو إن اعتقدنا أنه بإمكاننا أن نسكن فيه في المستقبل. التاريخ ينتمي إلى عالم الماضي، لا يمكن استعادته، قيمُه الكبرى مفيدة، دروسه مهمة، لكن أن ينبني فهمنا للواقع والمستقبل بناء على الآليات التاريخية أو بناء على النماذج التي حدثت في الماضي، سواء كانت في فترة الخلافة الراشدة أو الأموية أو العباسية أو العثمانية أو أي لحظة من لحظات التاريخ، هذا إجحاف بحق التاريخ، وأيضاً إجحاف بحق المستقبل وتدمير للأجيال القادمة.

ثانياً: يجب علينا أن نحرر أنفسنا من عقلية الأحكام المطلقة؛ الأبيض والأسود، الإيمان والكفر، الفجور والفسوق، التقوى والصلاح، التي نُطلِقها على الناس بسخاء هذه الأيام. الواقع صعب، والمستقبل غير مفهوم، كلنا نحاول الفهم، فنُصيب أحياناً ونخطئ أحياناً، لا ندري أين الخيار الأفضل بالضبط، لا ندري أين الأبيض تماماً، ولا ندري إن كان الأسود فعلاً كما نراه بسوداويته أم أن فيه بعض الألوان التي تغيب عن النظر؛ ولذلك، يجب أن نمنح الحق والحرية في أن نختلف مع المجموع وأن يكون للمجموع الحرية في أن يختلف معنا. هذه المسألة مهمة، ففي هذه اللحظات الحائرة لا تدري من

أين يأتي الحل، فكل فكرة يمكن أن تقدم أطروحة جديدة للمستقبل، الكل مدعو لكي يفكر ويحاور ويناقش، حتى ولو كانت الفكرة سيئة، لأنها ستُنهِضُ فينا حُجَّة محفِّزَة على توليد أفكار أفضل، ولذلك لا ينبغي أن نقمع حتى الأفكار السيئة، لأنها ستولد أفكاراً حسنة وتحفّز عقولنا وخلايا أدمغتنا على التفكير.

ثالثاً: أننا نحتاج أن نتصالح مع الآخر الشريك لنا في القيم، فالفواصل بين الأمم والشعوب لم تعد كما كانت في السابق، فالعالم يتواصل بشكلٍ غير مسبوق، وتنكمش المسافات والأزمنة، والمستقبل ليس حكراً علينا، أو أنه ميدانٌ خاصٌ بنا نصممه ونخطط له وننفذه كما نشتهي؛ بل هو مستقبل إنساني واحد، يبنيه الناس جميعاً، ولدينا دور كبير في المشاركة في بنائه. قيم العدالة والحرية والتعدد لا تشغل بال المسلمين وحدهم بل هي همٌّ مشترك؛ نجد حلفاء لنا في كل مكان؛ لذلك، تعالوا نعيد بناء تحالفاتنا على أساس قيمي إنساني مشترك، وعندها نكون حقاً قد وفّينا برسالة نبينا إلى الإنسانية جمعاء، وتممنا مكارم الأخلاق، وناضلنا ضد الفاسد في الأرض.

رابعاً: ألا ترون أننا نحتاج أيضاً أن نتصالح مع مصادرنا وأصولنا ونصوصنا، لا سيما القرآن الكريم والسيرة النبوية، تصالحاً نعيدها فيه إلى مجال التفاعل المعاصر والوعي الحاضر، فتستعيد ديناميكيتها المتحركة، بدلاً من أن تكون أصولاً ساكنة ثابتة في التاريخ؟

اليوم تبحث الإنسانية عن مستقبلٍ جديد، ونحن لدينا مخزونٌ هائل من القيم والمناهج المعرفية في نصوصنا، لكننا حصرنا دراستها في إطار تخصصي ضيق، ووفق مناهج تقليدية، والعالم اليوم تغير، وفيه أدوات ووسائل ومناهج غنية، وعلينا أن نوظفها لفهم نصوصنا، وإلا فكيف نأمل أن تكون سُبل هداية للناس أجمعين؟ وكيف يسترشد الاقتصادي والسياسي وعالم الفلك والبيولوجيا والتربوي بالهدي القرآني وبالسيرة النبوية إن لم يكن النظر والتدبر فعلاً جماعياً متعدد الاختصاصات والمناهج وزوايا النظر؟

وأخيراً، فإن نافذة في موازين القوى الاستراتيجية قد فُتحت، وستتبعها تغيرات كبرى في المناهج والأفكار، وعندما يتشقق الجدار الدولي المصمت، يمكن للمهمشين والضعفاء أن يجدوا فرصاً جديدة للانطلاق، فإن أحسنّا الاستعداد لها واستثمارها بوعي وفكر جديد، يمكننا أن نعبر إلى المستقبل بأمن وسلام.

نسأل الله الرشاد والسداد، والحمد لله رب العالمين.

ملحق الخرائط

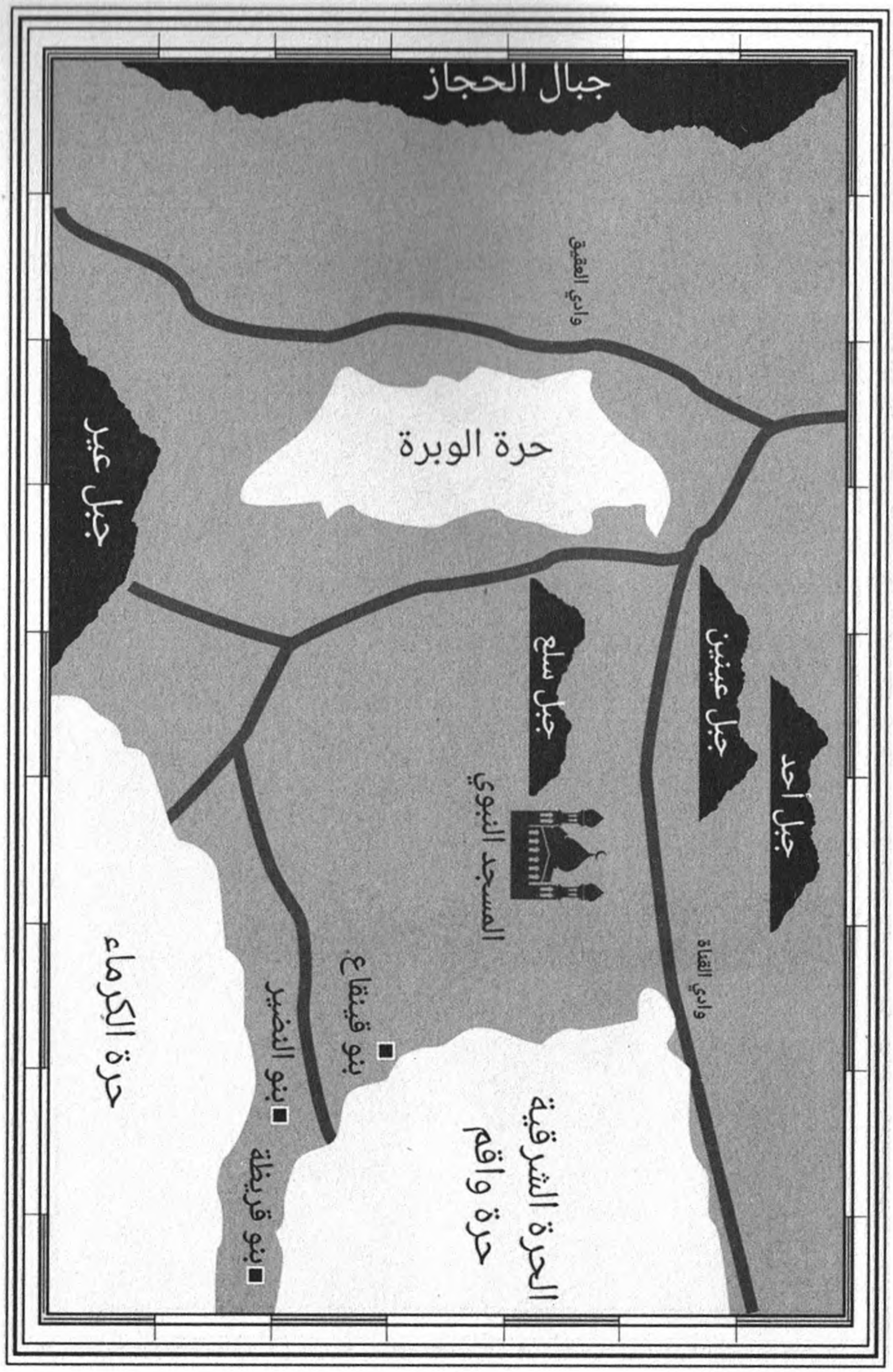

خريطة المدينة المنورة

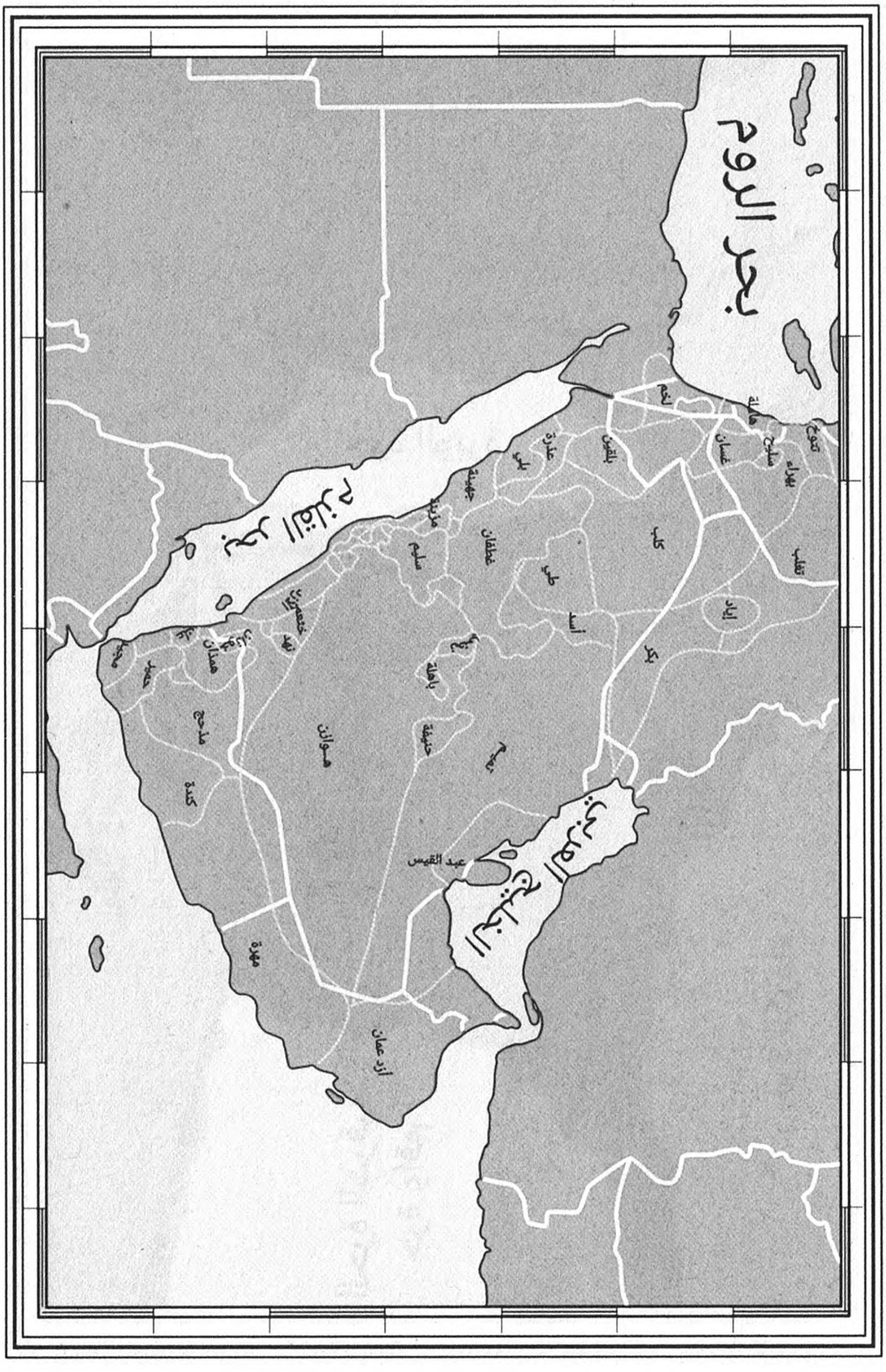

القبائل في شبه الجزيرة العربية

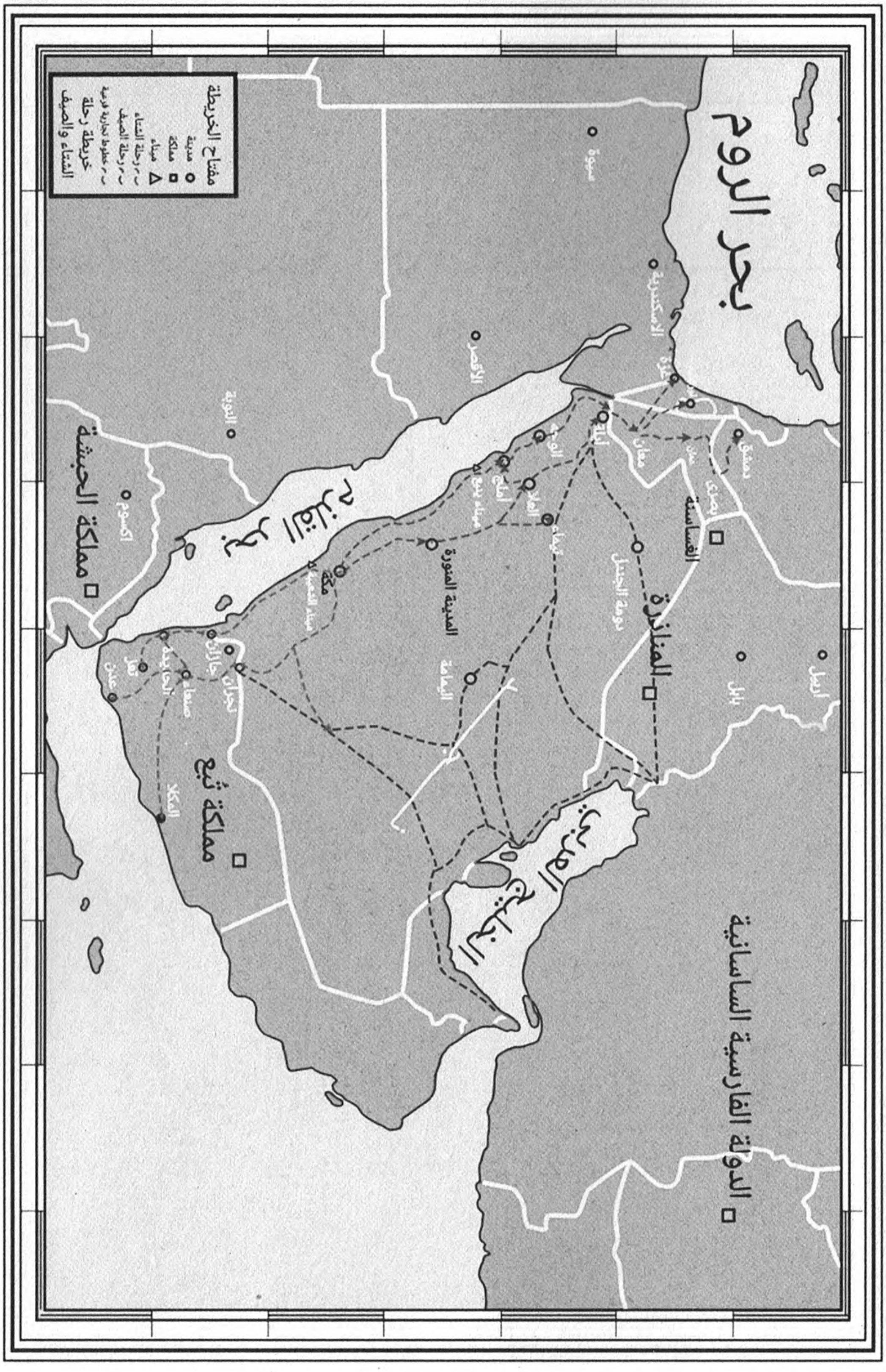

رحلة الشتاء والصيف

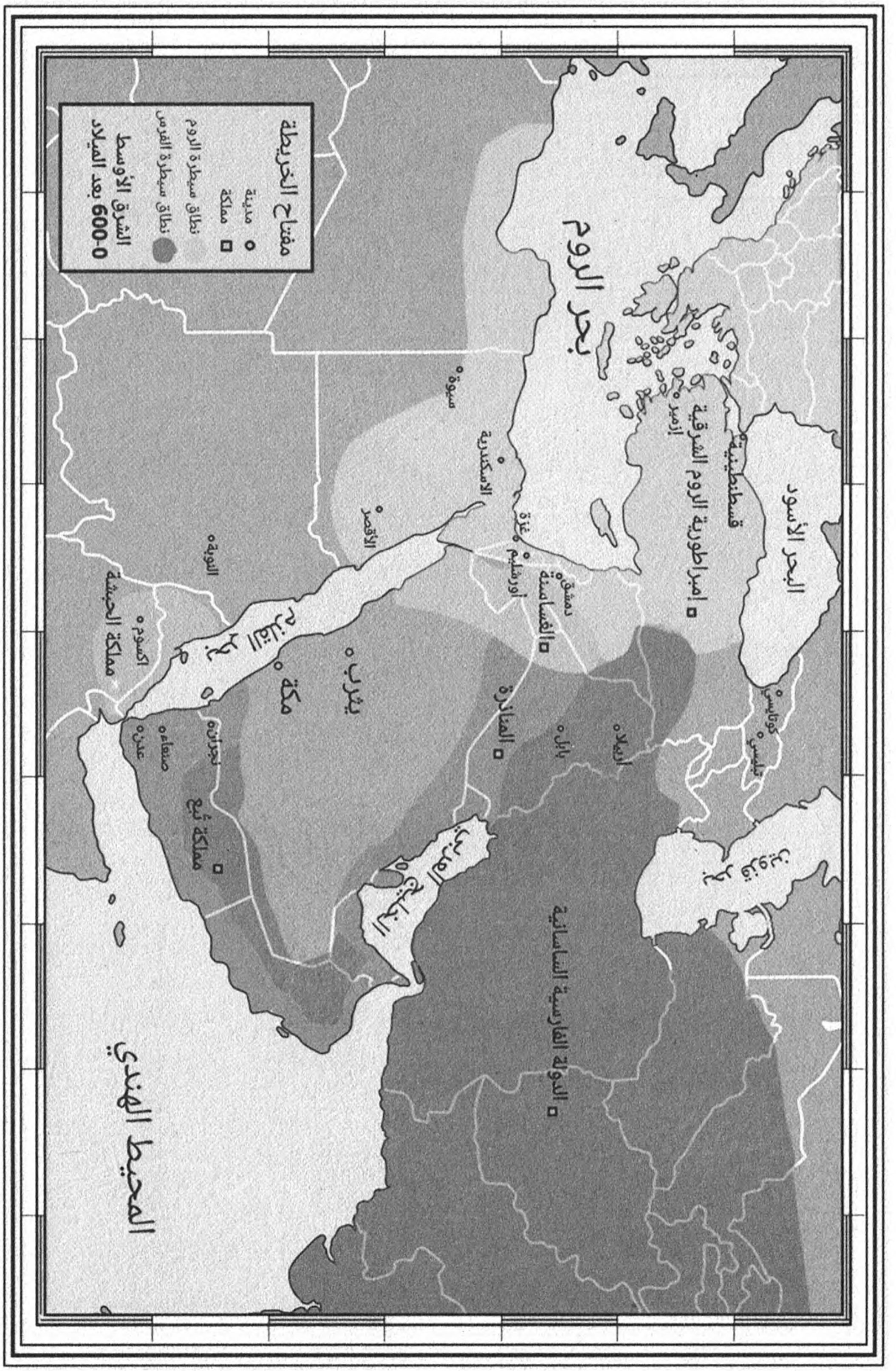

خريطة العالم

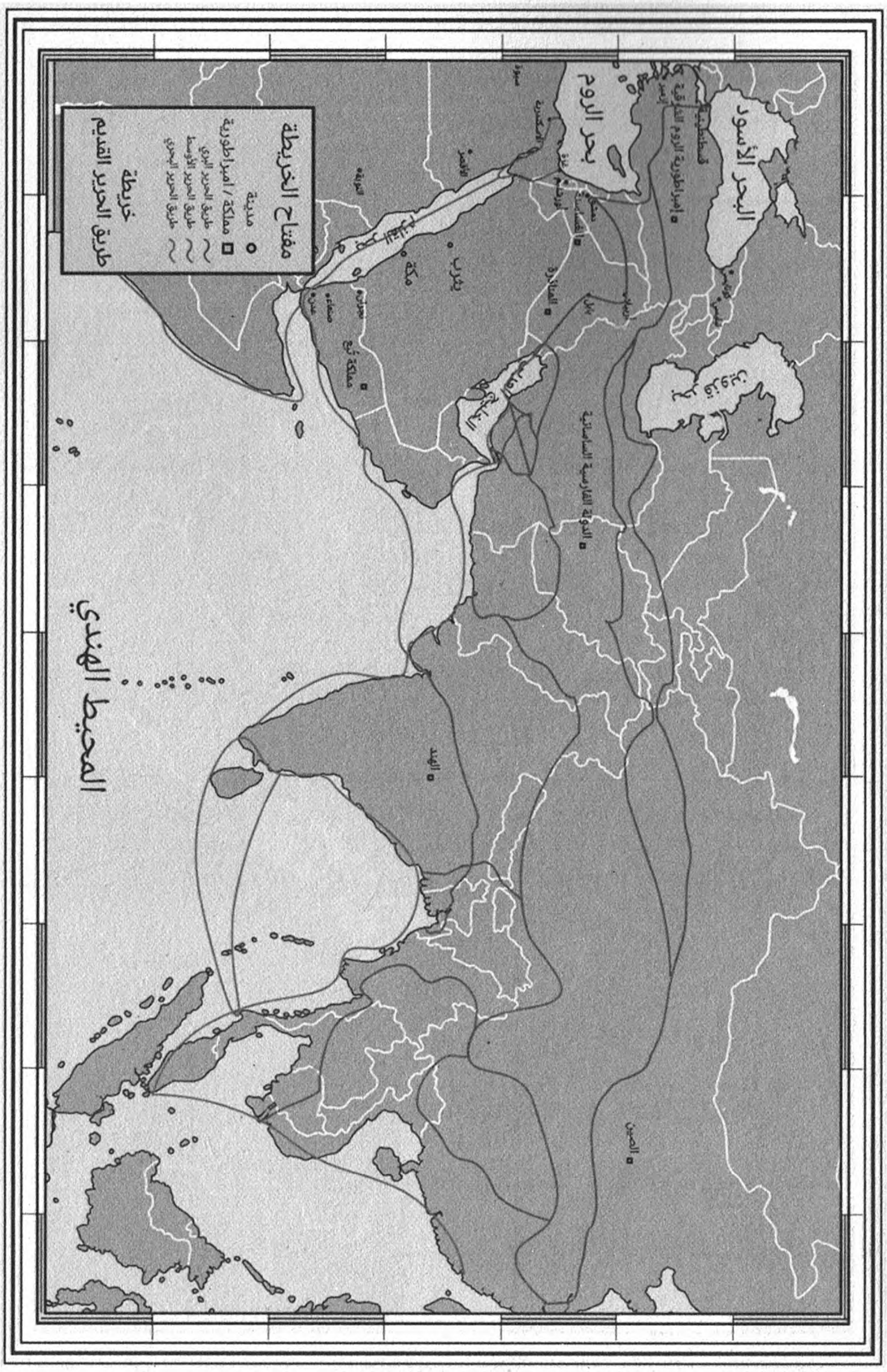
مفتاح الخريطة
مدينة
مملكة / امبراطورية
طريق الحرير البري
طريق الحرير الأوسط
طريق الحرير البحري
خريطة
طريق الحرير القديم
المحيط الهندي
بحر الروم
البحر الأسود
الدولة الفارسية الساسانية
الهند
الصين
مكة
يثرب

طريق الحرير

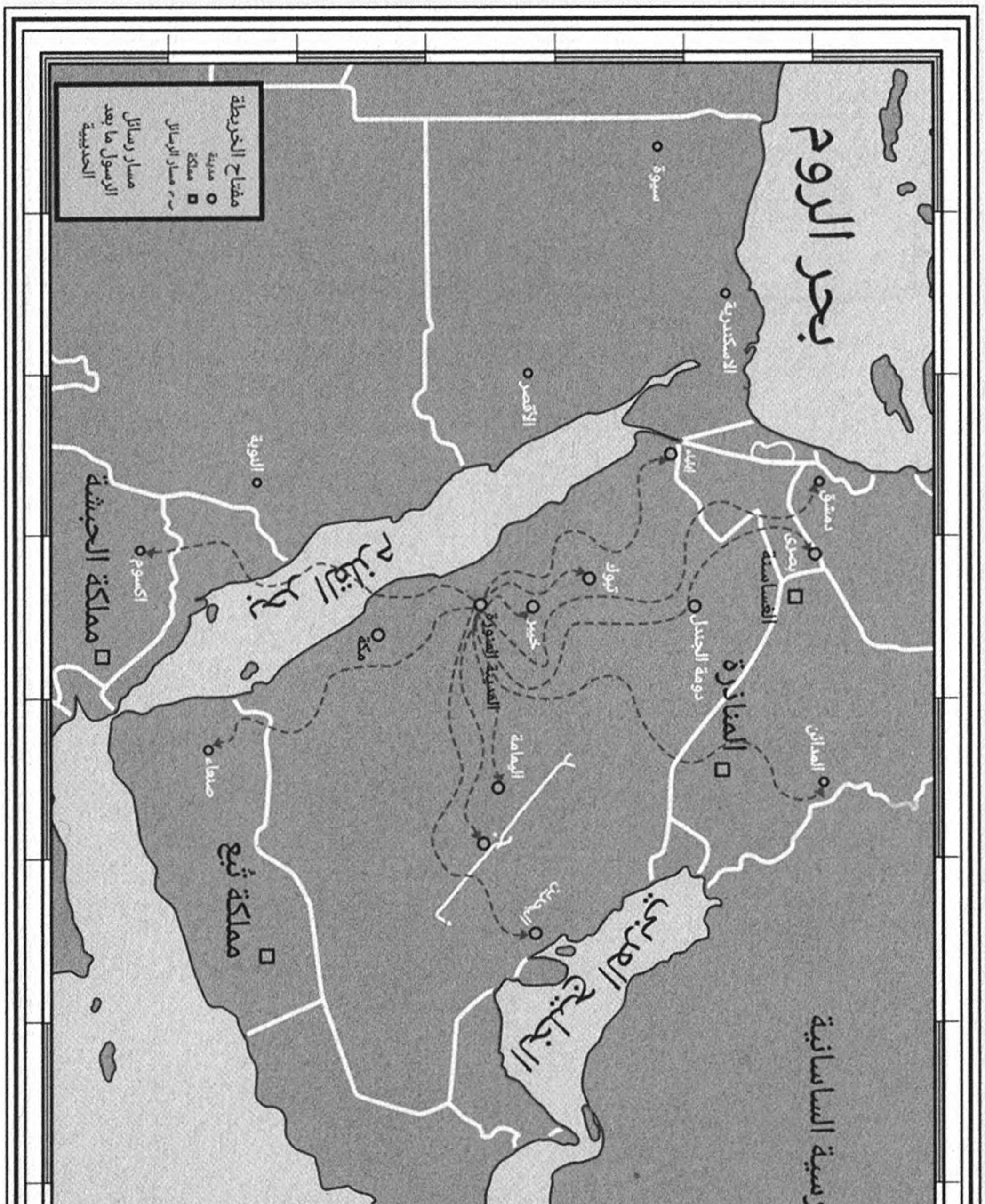
مفتاح الخريطة
مدينة
مملكة
مسار الرسائل
مسار رسائل الرسول ما بعد الحديبية
بحر الروم
الدولة الفارسية الساسانية
مملكة تُبّع
مملكة الحبشة
المناذرة
الغساسنة
الإسكندرية
الأقصر
سيوة
النوبة
دمشق
بصرى
تبوك
خيبر
المدينة المنورة
مكة
دومة الجندل
المدائن
اليمامة
صنعاء
أكسوم

رُسُل النبي

المراجع

١ ـ العربية

١ ـ ابن قيم الجوزية، **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى** (مكة؛ السعودية: دار عالم الفوائد، ط١، ٢٠٠٨).

٢ ـ أبو جعفر البغدادي، **المنمّق في أخبار قريش** (بيروت؛ لبنان: عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥).

٣ ـ البلاذري، **أنساب الأشراف** (بيروت؛ لبنان: دار الفكر، ط١، ١٩٩٦).

٤ ـ عبد الله الطيب، **مجلة دراسات إفريقية**، جامعة إفريقيا العالمية، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨.

٥ ـ ابن سيد الناس، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** (بيروت؛ لبنان: دار القلم، ط١، ١٩٩٣).

٦ ـ محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الطبري** (القاهرة؛ مصر: دار المعارف، ط٢، ١٩٦٨، سلسلة ذخائر العرب).

٧ ـ الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (القاهرة؛ مصر: دار الحديث، ط١، ٢٠٠٦).

٨ ـ عبد الرزاق الصنعاني، **المصنّف** (الهند: المجلس العلمي، ط٢، ١٩٨٣).

٩ ـ سامي المغلوث، **الأطلس التاريخي لسيرة الرسول** (الرياض؛ السعودية: دار العبيكان، ط٣، ٢٠٠٤).

١٠ ـ محمد بن عمر الواقدي، **كتاب المغازي** (بيروت؛ لبنان: دار الأعلمي، ط٣، ١٩٨٩).

١١ ـ عبد الملك بن هشام، **السيرة النبوية** (القاهرة؛ مصر: مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٥).

١٢ ـ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية** (دمشق؛ سوريا: دار الفكر، ١٩٨٦).

١٣ ـ أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، **الطبقات الكبرى** (لبنان؛ بيروت: المكتبة العلمية، ط١، ١٩٩٠م).

١٤ ـ محمد بن إسماعيل البخاري، **صحيح البخاري** (دمشق؛ بيروت: دار ابن كثير، ط١، ٢٠٠٢).

١٥ ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري، **صحيح مسلم** (بيروت؛ لبنان: دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٩٥٤).

١٦ ـ أبو بكر البيهقي، **كتاب دلائل النبوة** (بيروت؛ القاهرة: طبعة مشتركة بين دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ط١، ١٩٩٨).

١٧ ـ أحمد بن حنبل، **المُسند** (بيروت؛ لبنان: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١).

١٨ ـ محمد بيومي مهران، **دراسات في تاريخ العرب القديم** (إسكندرية؛ مصر: دار المعرفة الجامعية، ط٢).

١٩ ـ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت؛ لبنان: دار الساقي، ٢٠٠١).

٢٠ ـ حسين مؤنس، **تاريخ قريش دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر** (جدّة؛ السعودية: الدار السعودية، ط١، ١٩٨٨).

٢١ ـ جمال الدين بن منظور، **مختصر تاريخ دمشق** (دمشق؛ سوريا: دار الفكر، ط١، ١٩٨٤).

٢٢ ـ محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** (الجيزة؛ مصر: دار هجر، ط١، ٢٠٠١).

٢٣ ـ شهاب الدين إسماعيل بن عمر بن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت؛ لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٨).

٢٤ ـ شهاب الدين بن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (بيروت؛ لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤).

٢٥ ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (القاهرة؛ مصر: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٦٤).

٢٦ ـ أبو العباس اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي** (النجف؛ العراق: منشورات المكتبة الحيدرية، ط١، ١٩٦٤).

٢٧ ـ أبو منصور الثعالبي، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب** (بيروت؛ صيدا: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣).

٢٨ ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان** (بيروت؛ لبنان: دار صادر، ١٩٩٣).

٢٩ ـ عبد الصبور شاهين، **تاريخ القرآن** (القاهرة؛ مصر: دار النهضة، ط٣، ٢٠٠٧).

٣٠ ـ جعفر ميرغني، **أوراق المؤتمر الدولي للإسلام في إفريقيا** (جامعة أفريقيا العالمية، ٢٠٠٦).

٣١ ـ ابن زنجويه، حمد بن مخلد بن قتيبة الخرساني، **كتاب الأموال** (الرياض؛ السعودية: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٦).

٣٢ ـ محمد نصري الصايغ، **السيرة السياسية** (بيروت؛ لبنان: دار الفارابي، ط٢، ٢٠١٩).

٢ ـ الأجنبية

1- Walker, Joel Thomas. *The legend of Mar Qardagh: Narrative and Christian Heroism in Late Antique Iraq*. University of California Press, 2006.

2- Hourani, George. *Arabs Seafaring in the Indian Ocean*. Princeton University Press, 1951.

3- The Glory of Kings. Translated by Miguel F. Brooks. Eritrea; Asmara: The Reds Sea Press, 2002.

4- Beeston, A. F. L. *Two Bi'r Hima Inscriptions Re-Examined*. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London: Vol. 48, No. 1, 1985.

5- Procopius. *History of the Wars*. Translated by H. B. Dewing. Massachusetts; USA: Harvard University Press, 1914.

6- Walter, E. Kaegi. *The Byzantine Empire in an Era of Change*. Cambridge University Press, 2000.

7- David Powers. *Muhammad is Not the Father of Any of Your Men: The Making of the Last Prophet*. University of Pennsylvania, 2009.

8- Mehmet Apaydin. *Siyer Kronolojisi*. Turkey; Istanbul: Kuramar, 1st Edition, 2018.

اعتمد المنهج النبوي في الفعل الاستراتيجي نسقاً متصلاً في التدبير السياسي والاستراتيجي، قوامه التقدير الدقيق لموازين القوة؛ كان واقعياً في تقدير الموقف، وعملياً في وضع الخطط، يرى الأمور كما هي، وينفذ إلى جوهر المسائل.

لقد كان مسؤولاً مسؤولية تامة عن التفاعل مع الواقع، مسؤولاً عن فهمه وتقديره والتعامل معه ومع نتائجه، لذلك استخدم كل الأدوات اللازمة لإنجاز المهمات على أكمل وجه، فبنى التحالفات، ونظّم الجيوش، وأسس شبكات استخبارية، ورصد ردود الفعل، وابتعث السفراء، ووظّف القوة الناعمة من شعراء وخطباء، وبنى نُظماً دستورية وقضائية وشورية؛ كل ذلك في سياق متكامل من التخطيط والفعل الإنساني. وإذا كانت النتيجة غير مُرضية، فإنه يأخذ العبرة، ويصلح الخلل، ويتجاوز تداعيات الكبوة، ثم يواصل المسير.

نحن أمام فعل إنساني عملي متكامل، مفهوم منطقياً ومبرر عملياً، تنظمه غاية عليا هي تحرير الإنسان.

حاولنا في هذا الكتاب أن نرسم صورة متكاملة للعالم قُبَيل وفي أثناء عهد النبوة، ولم نقتصر في ذلك على المصادر الإسلامية، بل استعنّا بمصادر بيزنطية مصحوبة بمصادر حِميَرية وفارسية وحَبَشية، كلها تلقي الضوء من زوايا متعددة على الواقع الدولي والاقتصادي الذي تعامل معه النبي ﷺ.

لسنا هنا كي نسكن الماضي الجميل، ولا لنقدّس الأفعال والمواقف، بل كي نبني منهجية معرفية ونسقاً متكاملاً، يعيناننا على تأسيس وعي سياسي واستراتيجي لواقعنا المعاصر.

الثمن: ١٤ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN: 978-614-431-763-1
9786144317631

جسور للترجمة والنشر